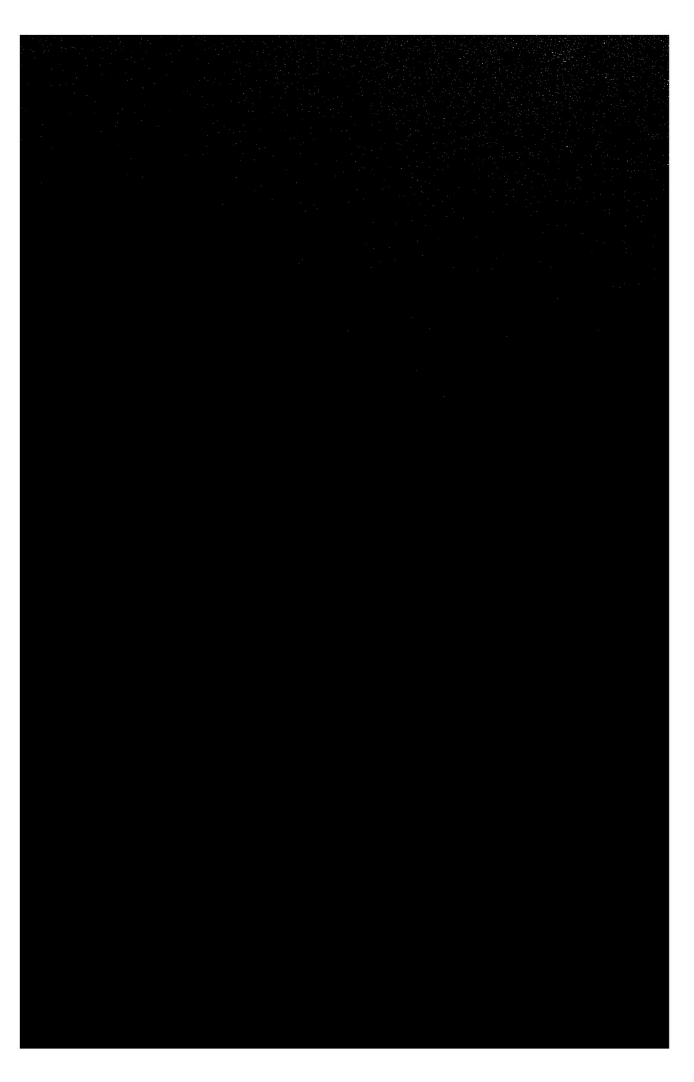


اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة





التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الحادى والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣

(أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(المساكِين) : جمع مسكين ، وهو الضعيف العاجز ، أى كانت لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ ، ويشمل المسكينَ بهذا المعنى من كان ضعفه راجعا إلى نفسه أو إلى بدنه . وهو مخالف للمراد منه فى باب الزكاة . وسيأتى بعض التفصيل لذلك فى التفسير .

(وَرَآءَهُم مَّلِكٌ) : وراء هنا بمعنى أمام . فهو من المواراة والتغطية ، وهى كما تكون فيما خلفك تكون أيضا فيما أمامك . ولا خلاف عند أهل اللغة فى استعماله فى المعنيين

(فَخَشِينَا) : الخشية الخوف الشديد . (يُرْهِقَهُمَا) يُغْشى والديه ويُغطِّيهمَا .

(طُغْيَانًا وَكُفْرًا) : مجاوزة لحدود الله وكفرًا به ، (زَكَاةً) :طهارة من الذنوب وفساد الأخلاق.

(رُحْمًا) : رحمة .

قال : رؤبة بن العجاج :

يامُنزِل الرُّحم على إدريسَا ومنزل اللعن على إبليسَا

(كَنزٌ لَّهُمَا) : مال مدفون لهما . (أن يَبلُغَا أَشُدَّهُمَا) : أن يصلا إلى كمال قوتهما العقلية والجسدية ، وفى الصحاح : الأَشُدُّ القوة . وبلوغ الأَشُدّ يكون مابين ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثين . وهو مفرد جاء على بناء الجمع ، مثل : (آنُك) ولانظير لهما ، وقيل هو جمع لا واحد له من لفظه . وقيل غير ذلك .

(تَسطع) : مضارع اسطاع بمعنى استطاع ، وهو أصله فخفف بحذف التاء .

التفسير

٧٩ - (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) :

أفادت الآيات السابقة أن سيدنا موسى عليه السلام قد نَفد صبره من رؤْية تلك الأَحداث التى حدثت من الخضر عليه السلام ولم يجد لها مبررا ظاهرا يقتضيها ، وأن الخضر اضْطُرَّ لإيذانه بمفارقته لنفاد صبره . وعدم تحمله مايراه حتى تنتهى رحلتهما إلى غاية أبعد مما وصلت إليه ، لكى يخبره فى نهايتها عن كثير من أسرار الغد التى يخفيها الله تعالى عن عباده ، ويختص بإعلامها بعض أصفيائه .

وجاءت هذه الآية ومابعدها لبيان ما انطوى وراء الأَحداث التى أجراها الخضر عليه السلام ، والمراد من المساكين هنا الذين لايقدرون على دفع الظلم عن أنفسهم ، لضعفهم فى النفس أو فى البدن وإن كانوا أغنياء ، قيل كانت لعشرة ، خمسة منهم زَمْنَى . وخمسة يعملون فى البحر .

وهذا المعنى للمساكين غير ماقاله الفقهاءُ بشأْنهم فى الصدقات والكفارات ، فإن منهم من فسر المسكين بأَنه هو الذى لا يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم ، كمن لايكسب أصلا أو يكسب دون النصف من كفايته ، والفقير عند هؤلاءِ أحسن حالا من المسكين فهو الذى يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم . كمن يكسب سبعة ولا يكفيه أقل من عشرة . ومنهم من فسره بالعكس . فالمسكين عنده أَحْسَنُ حالا من الفقير ، وسواءٌ أكان الفقير بمعنى الضعيف أم بمعنى المحتاج . فهو مأْخوذ من السكون . فكلاهما ساكنٌ ذِلَّةً أو ضعفا ، أو فقرا .

والمعنى : أما السفينة التى خَرَقْتُهَا قبل أن تصل إلى الميناء ، فقد كانت لضعفاء من الناس يعملون فى البحر أى يكسبون رزقهم بها عن طريقه ، ولايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ عن أنفسهم لضعفهم ، فأردت بخرقها أن أُحدث فيها عيبا يمنع الظالم من مصادرتها وأَخْذِهَا ، لوجود هذا العيب فيها ، ولم أُرِدْ أَنْ أُغرق أهلها كما توقعت ياموسى[1]. وقد حكى الله عن الخضر – عليه السلام – السبب فى خرقه إياها بقوله :

(وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصباً) :

والوراءُ : اسم لما يتوارى عن العين ، سواءٌ كان خلفك أو أمامك ، فهو من أسماءِ الأضداد والمراد به هنا المعنى الثانى ، وبه قرأ ابن عباس : «وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ » .

والمعنى : وكان أمامهم أعوانُ ملكٍ ظالم يأْخذون له كل سفينة صالحة من أصحابها غصبا وقهرا ، وذلك إمَّا على سبيل المصادرة والاستيلاء التام ، وإما على سبيل التسخير والاستغلال دون أجر ، ثم يردونها لذويها ، واستعمال الوراء بمعنى الأمام شائع فى اللغة ، ومنه قول الشاعر العربى : أليس ورائِى أن أَدب على العصا . . فيأْمن أعدائى ويَسْأَمَنِى أهلى

ولم تتعرض الآية الكريمة لما حدث للسفينة بعد نجاتها من الملك الظالم بسبب خرقها ، أَعَادَ الخرقُ إلى الالتئام بقدرة الله تعالى كرامة للخضر؟ أم أنه رَتَقَ هذا الخرق بنفسه؟أم أن فى أصحابها من أصلحها؟أم أصلحها سواهم بأجر من الخضر لأنه هو الذى خرقها ؟ كل ذلك تركت الآية الحديث عنه لفطنة القارىء ، فإنه يعتقد أن ذلك المصلح لايمكن أن يترك ما أفسده دون إصلاح بأى طريق ، ولكنها أبرزت الحكمة فى خرقه إياها ، ليعلم موسى أن خرقها ليس لغرض الإغراق أو الإفساد ، بل لما أبداه من إنْجَائِهَا من الظَّلَمَةِ .

---

(١) وأسند الإرادة إلى نفسه بقوله : « فأردت أن أعيبها » لأن عيبه لها إفساد فى الظاهر ، فكان من الأدب أن لاينسبه إلى الله ، فلهذا لم يقل فأراد ربك ومثله ماسيأتى فى قتل الغلام « فأردنا أن يبدلهما » أى فأردت بقتلى إياه أن يبدلهما الخ ، وكلاهما فى الحقيقة بأمر الله وإرادته لقوله تعالى : « ومافعلته عن أمرى » .

٨٠ـ (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

أى وأما الغلام الذى قَتَلْتُهُ أنا واعْتَرَضْتَ ياموسى على قتله دون ذنب ظاهر لك فهو غلام شرير بطبيعته ، وكان أبواه مُؤْمِنَيْنِ صَالِحَيْنِ ، فتوقعتُ أن يغمرهما بمجاوزته الحدود الإلهية ، وكفره بالله تعالى ، فلهذا قتلته .

وفسر بعض العلماء إرهاقه لهما بالطغيان والكفر ، بأن يحملهما حبه – لو بقى حيا – على متابعته ، وهذا التفسير مأثور عن ابن جبير .

ولكن الخوف من وقوع ذلك فى المستقبل لايبرر قتله للغلام ، فقد لايقع ، فلهذا فسر بعض شراح البخارى الخشية هنا بالعلم ، أى فعلمنا من الله تعالى أنه لو بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيجيبانه ، ويدخلان معه فى دينه لفرط حبهما له ، أو علمنا أنه لو بلغ لأرهقهما طغيانا عليهما وكفرا بنعمتهما ، بسبب عقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما من ذلك شر وبلاء .

ومن العلماء مَنْ قال : إن الغلام كان شابا بالغا وكان شريرا كافرا ، ولا يمنع بلوغه من إطلاق لفظ الغلام عليه ، فإنه يستعمل لغة فيمن ظهر شَارِبُهُ ، وفى الكهل ، وفى الشخص من حين يولد إلى أن يصير شابا – كما جاء فى القاموس – ويستدل أصحاب هذا الرأى بما جاء فى بعض الآثار من أنه كان يفسد ويقطع الطريق ، ويقسم لأبويه أنه مافعل ، فيقسمان بقسمه ويحميانه ممن يطلبه ، ولعل هذا الرأى يؤيده ظاهر الآية التالية :

٨١ـ (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) :

أى فأردنا بقتله أن يرزقهما الله بدله خيرا منه ، طُهْرًا فى الدين والأخلاق ، وأقرب رحمة منه بهما ، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهما أُبدلا جَارِيَةً وَلَدَتْ نَبِيًّا ، وقال الثعلبى : إنها أدركت يونس عليه السلام – فتزوجها نبى من الأنبياء ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة من الأمم . والله أعلم .

٨٢ـ (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) :

أى وأما الجدار الذى أقمتُه بدون أجر ، وكان وشيك الانقضاض ، فكان لغلامين مات أبوهما فأصبحا بعده يتيمين فى القرية التى طلبنا الطعام من أهلها ، فبخلوا به علينا ، وكان

تحت هذا الجدار كَنز لهما ، استحقاه عمن قبلهما ، كأَبيهما أو جَدٍّ لهما أو غير ذلك ، وكان أبوهما صالحًا ، فرأيت من المروءة أن أُقِيمَ الجدار على الكنز حذرًا من انهيار المائل وظهور المكنوز تحته ، فيستولى عليه من لا يستحقه من الناس ، ولم يمنعنى من البر باليتيمين بخل أهل هذه القرية علينا ، فإن للإحسان باليتامى أجرًا عظيمًا .

وكان هذا الكنز من ذهب وفضة ، كما أخرجه البخارى فى تاريخه ، والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبى الدرداء ، ولم تتعرض الآية الكريمة لبيان من هو الذى أخفى الكنز تحت الجدار ، فإن كان أباهما أَوْ جَدَّهُمَا فهو حق لهما فى شرعنا وشرع من قبلنا بلا خلاف ، وإن لم يعرف كَانِزُهُ فيحمل استحقاقهم له على أنه كان حلالًا فى شرعهم ، واحتجَّ لهذا بما أخرجه الطبرانى عن أبى الدرداء . فى هذه الآية قال : « أُحِلَّتْ لهمُ الْكُنُوزُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْغَنَائِمُ . وَأُحِلَّتْ لَنَا الْغَنَائِمُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْنَا الْكُنُوزُ » .

وقيل : إنَّ الكنز لم يكن ذهبا ولا فضة بل كان صُحُفَ عِلْمٍ ، فقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال : ما كان ذهبا ولا فضة ، ولكن كان صحف علم . وروى ذلك عن ابن جبير أيضا ، وقيل : إنه لوح من ذهب ، فقد أخرج ابن مردويه من حديث على - كرم الله وجهه - مرفوعا والبزار عن أبى ذر كذلك ، والخرائطى عن ابن عباس موقوفا ، أنه كان لوحًا من ذهب مكتوبا فيه « عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلَّا الله محمد رسول الله » والله أعلم بصحة ذلك .

ثم بين الخضر عليه السلام أنه كان يتلقى الأمر فيما يفعله من الله تعالى فقال :

(فَأَرَادَ[1] رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) :

(١) إسناد الإرادة هنا إلى الله لأنه إنعام محض ، فناسب إسناده إليه تعالى بخلاف ما مر فى السفينة والغلام فقد كان إفسادا فى الظاهر ، فلهذا أسنده الخضر إلى نفسه كما مر بيانه بالهامش ، وإن كان الكل بأمر الله .

أى فأراد مولاك ومربيك ياموسى أن يبلغ اليتيمان كمال قوتهما فى الرأى والبدن ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ، فأمرنى بإقامته ، ولولا أننى أقمته لانقض وبرز الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه والانتفاع به ، وليس الذى فعلته من الأمور التى شاهدتها يا موسى ناشئا عن اجتهادى ورأيى ، بل بوحى من ربك وربى ، ذلك الذى شرحته لك من أسرار تلك الأحداث هو مآل وعاقبة الأمور التى لم تستطع الصبر عليها ، حتى أبينها لك فى حينها .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(وَيَسْأَلُونَكَ) : السائلون قريش بتلقين اليهود ، أو اليهود أنفسهم .

(عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ) : صفة ملك صالح عَمَّ ملكهُ معظم أنحاء الأرض ، وسيأتى بيان السبب فى وصفه بذى القرنين .

(مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) : التمكين فيها بمعنى الإقدار عليها ، يقال : مَكَّنَهُ أى جعله قادرًا ، ومكن له أى جعل له قدرة . (سَبَبًا) : أى وسيلة وطريقة .

(فَأَتْبَعَ) : أى فاتَّبع فهُمَا بمعنى واحد هنا . (فى عَيْنٍ حَمِئَةٍ) : أى فى عين ذات حمأة ، وهى الطين الأسود – وذلك فى رأى العين – وسيأتى شرح ذلك باستفاضة .

التفسير

٨٣ – (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) :

ذكر الله قبل هذه القصة ما حدث بين موسى والخضر ، وعقبها بذكر قصة ذى القرنين ليكونا آية على نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن القصتين لا يعلمهما سوى أهل الكتاب ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لا سبيل له إلى علمهما إلا بقراءة كتبهم ، أو بتعلمها منهم ، ولا سبيل له إلى قراءتها ، لأنه أمى ، « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » . كما أنه لا سبيل له إلى تعلمها منهم ، لأنهم لا يوجدون بمكة ، ولم يكن له اتصال بهم ، ولهذا كانوا يَسْأَلُونَه عن تلك الغيبيات ، إما بتحريض قريش على سؤاله ، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم ، وأكثر الآثار تدل على أن السؤال حصل منهم قبل نزول هذه الآيات ، والتعبير بالمضارع (وَيَسْأَلُونَكَ) استحضار للصورة الماضية لغرابة سؤالهم إياه على سبيل الامتحان ، مع ما يشاهدونه عليه من الصدق والأمانة ، وما أيده الله به من الآيات البينات .

وذو القرنين ملك صالح مكن الله له فى المشارق والمغارب ، كما سيتضح من تفاصيل قصته إن شاء الله .

وقد اختلف فى شخصه ، فقيل هو الإسكندر المقدونى – وهو رأى معظم المفسرين ، قال النيسابورى : أَصَحُّ الأقوال فيه أنه هو الإسكندر بن فيلقوس الرومى الذى ملك الدنيا بأسرها ، إذ لو كان غيره لا نتشر خبره ولم يخف مكانه .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك الدنيا أو ما يقرب منها وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن سوى الإسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين

هو الإسكندر ، ثم قال وفيه إشكال ، فإنه كان تلميذاً لأرسططاليس الفيلسوف ،وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وهذا مما لا سبيل إليه ، وأجاب الرازى عن هذا الاعتراض بما خلاصته أنه ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حسن ، وترك منه مالم يحسن .

ويقول الآلوسى فى تأييد هذا الفهم : إن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له إجلالا وتعظيماً ، فقال لهم : لا يجوز السجود لغير الله – كما نقله الشهر ستانى – ويلاحظ أن الإسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى – عليه السلام– بثلثمائة سنة كما نقله الآلوسى عن بعض المؤرخين .

وهناك من قال : إنه رجل يمانى ملك الأرض كلها . فقد ذكر أبو الريحان المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : أن ذا القرنين هو أبو كرب ابن عمير بن امرىء القيس ابن أفريقش[١] وهو الذى افتخر به تُبّع اليمانى فى قوله :

قد كان ذو القرنين جـدى مسلماً[٢] ملكاً علا فى الأرض غير مقيد
بلغ المغـارب والمشـارق يبتغى أسباب ملك من حـكيم مرشد
فرأى مآب[٣] الشمس عند غروبها فى عين ذِى خُلَبٍ[٤] وثأطة[٥] حَرْمَدِ

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن ، واختار هذا القول (كاتب حلبى) وذكر أنه كان فى عصر إبراهيم عليه السلام ، وأنه اجتمع معه بمكة وتعانقا .

وهناك من يرى أن ذا القرنين هو غورش الفارسى ، ويسميه اليهود (كورش) ويسميه اليونانيون (سائرس) وإطلاق ذى القرنين عليه عند أصحاب هذا الرأى ناشئ من رؤيا رآها النبى دانيال فى منامه ، خلاصتها أن كبشاً كان واقفاً على شاطىء

---

(١) أفريقش جد أبى كرب ، استولى على المغرب ، وسميت أفريقيا باسمه ، ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى فى تفسيره .

(٢) يريد من كونه مسلما أنه مؤمن بربه مستسلم له . (٣) مآب الشمس رجوعها .

(٤) أى عين ماء ذى طين أسود . (٥) الثأطة : الحمأة وهى الطين الأسود وكذا الحرمد.

النهر له قرنان ، وهو ينطح بهما شرقاً وغرباً وجنوباً ، ولا قِبَلَ لحيوان بالوقوف أمامه ، وذكر سفر دانيال المذكور أن المَلَكَ ظهر له وشرح رؤْياه قائلا : إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد مملكتى (ميديا – وفارى) [1] وأن يحكمها ملك قوى لاتقدر دولة على مواجهته ، وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك (غورش) ملك الفرس المذكور ، فوحد (ميديا وفارى) وأنشأ منهما سلطنةً عظيمة ، وهاجم بابل واستولى عليها ، وجاء عنه فى سفر (أشعياء) ما خلاصته أن الله أخذ بيده اليمنى ليتم مرضاته وليجعل الأُمم فى حوزته ، وينزع القوة من سواعد الملوك ، ويفتح له الأَبواب تلو الأَبواب ، ويمنحه الخزائن المدفونة [2] . وتسميته ذا القرنين على أنه الإسكندر المقدونى أو أبو كرب اليمنى ، لأَنه بلغ ناصيتى مشرق الشمس ومغربها ، مأْخوذ من قَرْنِ الشمس بمعنى ناحيتها وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما – ذكره الثعلبى وغيره – والضفائر قرون الرأْس عند العرب ، والوجه الأَول فى علة التسمية أَولى بالقبول ، فإن وَصْفَ ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة ، لأَن إرسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعاً .

وبعد أن حكينا أظهر الأَقوال فى شخصيته نقول : إن شخصيته ليست من العقائد ، وإنما ذكرت قصته للوعظ والإرشاد فليكن هو الإسكندر المقدونى أو رجلا حميريًّا من اليمن ، أَو ملكاً فارسياً فالقرآن لم يأْتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين أو الفارسيين فإن القرآن أعظم من ذلك كله ، ولكنهم لما سأَلوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، أَجابهم بما يجمع بين إجمال المطلوب لهم ، والدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم والعبرة ، حيث أَخبرهم بما لا يعلمه سوى أَهل الكتاب ، وبين أن الملك الصالح العالم يؤيده الله تعالى ويُمَكِّنُ له فى أَرضه .

---

(١) انظر الإصحاح الثامن من سفر دانيال .

(٢) أشعيا إصحاح – ٤٥ – وقد جاء فى هذا الإصحاح أنه يعيد أسارى وسبايابنى إسرائيل إلى فلسطين ، وكان غورش (كورش) معرفا عند اليهود بذى القرنين ، تبعا لرؤيا النبى دانيال المذكورة ، ولأنه كان له فى عصره تمثال من الحجر بقدر القامة ، وعلى رأسه قرنان مصداقا لهذه الرؤيا ، وكانوا يعرفون هذا عن كتبهم وأجدادهم ، وقد عثر على هذا التمثال فى إيران فى القرن التاسع عشر ، فلعل اليهود حين سألوا الرسول عن ذى القرنين ، كانوا يقصدون (كورش) المذكور ، لأنه هو الذى جاء ذكره بهذا العنوان فى كتبهم .

والمعنى الإجمالى : ويسألك السائلون من قريش بتحريض اليهود ، أو اليهود أنفسهم يسألونك عن صاحب القرنين الذى جاب الأرض كلها ، قل أيها الرسول مجيبا لهم : سأقرأ عليكم من قصته نبأ مذكورا ، أقرؤه على سبيل التلاوة من وحى الله تعالى الذى أوحاه إلىّ جلا وعلا .

٨٤ ، ٨٥ - (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا) :

أجمل الله قصته فى الآية الكريمة الأولى ، تمهيدًا لتفصيلها فى الآيات المقبلة ، ومعنى الآية : إنا جعلنا له مُكنَةً وقدرة على التصرف فى الأرض ، وأعطيناه من أجل كل شىء أراده فيها سبَباً ووسيلة توصله إليها ، فلا يعوقه عن مراده عائق ،ومن هذه الأسباب سعة العلم وحسن التدبير ، والحكمة فى التصرف ، وتدريب الجنود ، واختيار القواد ، والعتاد الحربى ، فأراد التوجه إلى ناحية مغرب الشمس (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) : أتبع واتَّبع بمعنى واحد أى اتبع طريقاً وأسلوباً من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية .

وقد أشارت الآية الكريمة « فَأَتْبَعَ سَبَبًا » إلى أن معالى الأمور لا تنال إلا باستعمال الأسباب الموصلة إليها ، وأن المجد لا يناله القاعدون الخاملون .

٨٦ - (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)[1] :

أى اتبع الطريق والسبب الموصل إلى مقصده ، حتى إذا بلغ فى فتوحاته منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، ووقف عند حافة المحيط ، وجد الشمس - كما أدركها ببصره - تغرب فى عين ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود .

وقرئ « فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ » وبها قرأ معاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولا منافاة بين القراءتين ، فإنه لما بلغ حافة اليابسة ، وقف ينظر إلى الشمس عند غروبها ، فرآها فى نظره كأنما تغرب فى عين متقدة نارية ، بسبب قرص الشمس الشديد الحمرة . الذى يبدو كأنه وقدة من النار جعلت مكان اختفائها فى نظره ، كأنما هو عين حامية - وكما يتصورها الناظر تغرب فى عين حامية ،يتصورها تغرب فى عين ذات طين أسود ، فإنها لما غابت تحت الماء ، أصبح مكان اختفائها فيه مظلماً باهتاً بعد أن كان متقداً .

(١) صفة مأخوذة من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها - أى طينها الأسود .

ولما كان كلا الأمرين ضرباً من الخيال ، ناشئاً عن خداع النظر ، فلهذا قال تعالى :
« وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أو « فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ » على القراءتين ، أى هذا الذى رآه أمر ناشئ فى وجدانه وخياله ، وليس من الحقائق الواقعة ، فما أجمل تعبير القرآن بقوله « وجدها » وما أحراه بالإجلال والاعتبار .

وكما يراها الناظر عند غروبها تغرب فى عين ماء حمئة أو حامية إذا كان على شاطىء المحيط فإنه يراها تشرق خارجة من اليابسة ، وتغرب داخلة فيها إذا كان واقفاً على متسع فسيح من أرضها ، والحقيقة أن الشمس لا تغرب فى الماء ولا فى اليابسة عند الغروب ، ولا تشرق منهما عند الشروق فالشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، ولا تختفى عن مدارها ، والأرض تدور تحت أشعتها فتعمُّ الشمسُ نصفهَا بضوئها ، لأنها على شكل كرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها والليل فى القسم الآخر .

وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها ، فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخرَ تَكَشَّفَ للشمس ، فَحَلَّ فيه النهارُ مَحَل الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض هو البروز الكروى للأرض ، فهو الذى يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مبسوطة وغير دائرة لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارًا دائماً ، وأما ماورد فى القرآن من أن الأرض مبسوطة فمحمول على ما هو فى رأى العين ، كما فى قوله تعالى فى سورة نوح : « وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا » .

(وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) :

أى ووجد ذوالقرنين فى طرف الأرض من ناحية المغرب ، وجد قوما عند العين التى تخيلها وتخيل أن الشمس تغرب فيها ، وكان هؤلاء القوم مشركين ، كما هو شأن الناس عند غياب المرسلين عنهم ، قال الله له على سبيل التخيير : ياذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ هؤلاء القوم بالقتل إن أبوا الإيمان وأصروا على الشرك ، وإما أن تتخذ فيهم أمرًا ذا حسن ، بالمصابرة والمطاولة لعلهم يؤمنون ويَرْشُدُون ، وكان تخيير الله لذى القرنين على النحو السابق إما على لسان نبى كان موجودًا فى هذا الزمان ، وإما على سبيل الإلهام .

٨٧ - (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا) :

أى قال هذا الرجل الحكيم بعد أن خيره الله فى شأن الكفار من أهل المغرب على النحو الذى بيناه فى شرح الآية السابقة - قال - : هؤلاء الناس سوف يكونون بعد دعوتهم إلى الحق قسمين : ظالمين ببقائهم على الكفر وإصرارهم عليه ، ومؤمنين تائبين من كفرهم ، فأما من ظلم نفسه ببقائه على الكفر والعصيان ، فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله بالبعث فيرده إلى حسابه وجزائه فيعذبه على كفره وعصيانه عذابا منكرا فظيعا .

ثم بيّن مآل المؤمنين التائبين كما حكاه الله عنه بقوله :

٨٨ - (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَى وَسَنقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) :

أى وأما من آمن بالله وعمل صالحا موافقا لما شرعه الله على لسان نبى ذلك العصر ، فله المثوبة الحسنى فى الدارين ، جزاءً له على إيمانه وصالح عمله ، وسنقول له مما نأمر به موافقًا لشرع الله - سنقول له - قولا ذا يسر وسهولة فى مختلف التكاليف ، فإن الله لا يكلف نفسًا إلَّا وسعها .

٨٩ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اتَّبَعَ طريقًا مُوَصِّلا إلى المشرق ، ليرجع فيه بعد غزوه المغرب .

٩٠ - (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا) :

حتى إذا بلغ ذو القرنين الإقليم الذى تطلع الشمس عليه أولا فى ناحية المشرق على حافة المحيط ، وجدها تطلع على قوم بدائيين فطريين لم يرتقوا صناعيًّا ، حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابًا تسترهم وتحجبهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تُؤْويهم من حرارتها ، وقد يكون ذلك فى المنطقة التى يمكث فيها النهار أيامًا متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل أيامًا متتاليةً كذلك فى فصل آخر ، وأنه وصل إليها وقتا كان الزمن نهارًا دون ليل ، والشمس طالعة فوقهم دائمًا ، وليس لهم وقتئذ ليل يسترهم منها ، وأن ذلك هو معنى قوله سبحانه : « لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » وقد أجمل الله كمال استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة ، وَعَظَّمَ أمره وفَخَّمه بقوله :

٩١ ـ (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) :

أى كان الأمر فى الواقع مثل هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علمًا بما عنده من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربًا ومشرقًا .

٩٢ ـ (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اقتفى طريقًا ثالثًا يصل منه إلى حيث يوجد يأجوج ومأجوج وجيرانهم الذين يتعرضون لفسادهم .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(بَيْنَ السَّدَّيْنِ) : بين الجبلين ، والسد الجبل والحاجز ، والمراد هنا الأول كما تقدم . (من دُونِهِمَا) : أى قريبًا منهما ، والأصل فى استعمال لفظ. (دُونَ) أن يكون بمعنى تحت وبمعنى فوق ، وبمعنى أمام وبمعنى خلف ، أى أنه يستعمل فى الشىء ومقابله ، كما يستعمل بمعنى غير ، انظر القاموس . (لَا يَكَادُونَ) : لا يقربون. (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) : اسمان لقبيلتين وقد منع صرفهما. (أى تنوينهما) للعلَمية والعجمة . (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) : ما هنا بمعنى الذى و (مَكَّنى) أصله مكننى بنونين ، فأُدغمت الأُولى فى الثانية أى ما جعلنى الله فيه مَكينًا وعليه قادرًا خيرٌ من خَرْجِكُم ، (رَدْمًا) : أى حاجزًا حصينًا وسدًّا منيعًا بعضه فوق بعض من قولهم سحاب مُرَدَّم. أى متكاثف بعضه فوق بعض . (زُبَرَ الْحَدِيدِ) : قطع الحديد ، جمع زبرة وهى القطعة . (الصَّدَفَيْنِ) : جانبى الجبلين ، ومفرده الصدف وهو الجبل ، ونقل فى الكشف أنه لا يقال للمنفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة ، كالزوج وأمثاله. (قِطْرًا) : القطر هو النحاس المذاب وهو قول الأكثرين ، وقيل الرصاص أو الحديد المذاب . (أَن يَظْهَرُوهُ) : أن يعلوه ويرتقوا فوقه . (نَقْبًا) : النقب الثقب والخرق .

(دَكَّآءَ) : أى أرضًا مستوية. (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ) : أى جعلناهم يضطربون ويختلطون.

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور آلَةٌ تشبه القرن ينفخ فيها ،وتسمى البوق أيضًا ، وسيأتى فى التفسير بيان آراء العلماء فى ذلك بمشيئة الله .

التفسير

٩٣ - (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) :

لما أتم ذو القرنين رحلته إلى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقا ثالثا ليخضع لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد ، حتى إذا وصل فى سيره إلى منطقة تقع بين جبلين معيَّنين ، وجد قريباً منهما قوما لايقربون من أن يفهموا مايقال لهم منه أو من أتباعه لقلة فطنتهم ، فإنهم لو كانوا أذكياء لفهموا بعض ما يقال لهم بالقرائن .

ولعلهم كانوا يتفاهمون معهم بالإشارة ليعلموا ما يراد منهم أو ما يجابون به على أسئلتهم وسنتحدث عن مكان السدَّين وعن يأْجوج ومأْجوج حديثا مستفيضا بعد الفراغ من شرح الآيات الكريمة التى أجملت الحديث عنهما .

٩٤ ـ (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إنَّ يأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفسِدُونَ فِى الأَرْضِ فَهَل نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) :

أى قال القوم الذين هم دون السّدين ، يشكون حالهم لذى القرنين ، لما عَلموه من قوة سلطانه وعظيم همته ، بما سمعوه من أخبار رحلته ـ قالوا لذى القرنين ـ يا صاحب القرنين الذى دان له المشرق والمغرب ، إن قبيلتى يأْجوج ومأْجوج المقيمتين خلف السّدين ، مفسدون فى الأَرض التى نحن فيها ، كما أنهم مفسدون فى غيرها ، ونحن لا نقدر على دفعهم عن بلادنا ، فهل نجعل لك عطاءً ومالا على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء المفسدين حاجزا بين هذين الجبلين يمنعهم من العودة إلى أرضنا والْعَيْثِ فيها فسادا ، وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجًا » بأَلف بعد الراء وكلاهما بمعنى واحد كالنول والنوال ، وقال ابن الأَعرابى : الخرج على الرؤوس والخراج على الأَرض ، ولهذا يقال : أَدِّ خَرْجَ رَأْسِكَ وَأَدِّ خَرَاجَ أَرْضِكَ ، وقيل : الْخَرْجُ ما تبرعت به والخراج مالزمك .

٩٥ ـ (قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْماً) :

قال ذو القرنين ردا على ما عرضوه من العطاءِ فى مقابل إقامته السد بينهم وبين يأْجوج ـ قال لهم ـ ما مكنى فيه ربى وجعلنى فيه مكينا من الملك والمال والعلم وسائر الأَسباب خير مِمَّا تريدون بذله لى ، فلا حاجة بى إلى أموالكم ، فأَعينونى على بناء السد الذى تريدونه بما أقوى به على تحقيقه . من العمال وآلات البناء والوقود وقطع الحديد والنحاس ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى إقامته حتى يساوى الجبلين ،ويكون شديد القوة بحيث لا يقدرون على صعوده ولا على اختراقه ، فإن فعلتم أجعل بينكم وبينهم ردمًا أى حاجزا حصينا وحجابا متينا .

واعلم أن الردم فى اللغة أقوى من مطلق السد ، مأخوذ من قولهم سحاب مُرَدَّمٌ ، أى متكاثف بعضه فوق بعض ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عن الردم : (هو كأشدّ الحجاب) وعلى هذا يكون قد وعدهم بتحقيق مرادهم فوق ما يتخيلون وهذا هو ما يليق بملك عظيم مثله ، ثم فصل لهم بعض مطلوبه من القوة التى يعينونه بها فقال :

٩٦ - (آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا) :

أى أعطونى قطع الحديد ، فأتوه بها ، فجعل يضع بعضها على بعض بطريقة تقتضى التماسك والارتفاع بالبناء ، حتى إذا ساوى ذو القرنين ما بين جانبى الجبلين بما بناه من السد قال لعماله : انفخوا بالكيران فى الوقود الموضوع بين قطع الحديد بعد إشعال النار فيه ، ليصبح الحديد مثل النار ، فيلتصق بعضه ببعض ، ففعل العمال ما أمرهم به .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ آتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) :

هذه العبارة مترتبة على كلام مقدر مفهوم من المقام ، فكأنه قيل : ففعل العمال ماأمرهم به ذو القرنين من النفخ فى الوقود المشتعل بين قطع الحديد ،حتى إذا جعل السد يشبه النار فى شكله وفى حرارته قال لعماله الذين يقومون بإذابة القطر وهوالنحاس أوالرصاص أو الحديد - قال لهم - أحضروا القطر الذى صهرتموه وأذبتموه لأُفرغه على السد ، فأحضروه له فأفرغه عليه فسدّت به الثغرات التى كانت بين قطع الحديد بعد أن تم احتراق الوقود الذى بينهما ، والتصق بعضها ببعض أشد التصاق .

٩٧ - (فَمَا اسْطَاعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُۥ نَقْبًا) :

أى فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه ،فما استطاعوا أن يعلوا ظهره ويرتقوا فوقه لشدة ارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا له خرقا لصلابته وغلظه ،قيل : كان ارتفاعه مائتى متر ، وكان غلظه خمسين ذراعا ، والله أعلم بصحة ذلك .

وفى هذه الآية تساؤلات نذكرها ونجيب عليها فيما يلى ، ونسأل الله التوفيق :

س ١ : لماذا قال ذو القرنين لأهل ما بين السدّين : « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » مع أنه امتنع عن أخذ المال منهم ، وقال : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » ؟ .

والجواب : أن امتناعه عن أخذ المال لا يمنع من طلب عمال البناء والأدوات وقطع الحديد ليتقوى بذلك على تحقيق مرادهم على أن يدفع الأجر للعمال وثمن الحديد من ماله ،على أن السد لما كان لمصلحتهم ، فإن تبرعهم بالقوى العاملة ، لا يعتبر عطاء أو أجرًا على بنائه كما أن زبر الحديد قد تكون من منجم قريب من السد ، فإحضارهم إياها ، لا ينافى رفضه أجراً منهم . .

س ٢ : كيف يطلب من عماله أن ينفخوا على السور بعد أن بناه بقطع الحديد ، مع أن هذا النفخ لايصهر الحديد دون أن يكون بين قطعه وقود مشتعل . ؟ . .

والجواب : أن هذا النوع هو من الاختصار القرآنى المتروك فهمه لفطنة القارئ ، وهو من الصور البلاغية للقرآن الكريم ، ولا شك أنه أمرهم بوضع الوقود وإشعاله قبل أمرهم بالنفخ فيه ، وأن الأمر بالنفخ قرينةٌ على ذلك .

س ٣ : لماذا أسند ذو القرنين العمل فى السد لنفسه بقوله : « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » كما حكى الله عنه أنه ساوى بين الصدفين وجعله نارا ، مع أن كل ذلك تم بمباشرة مهندسيه وعماله . . ؟

والجواب : أنه لما كان ذلك يتم بأمره وإرشاده أسنده إلى نفسه على سبيل المجاز .

س ٤ : كيف يستطيع العمال أن ينفخوا فى السور قريباً منه دون أن يحترقوا بناره ، وكيف يفرغون عليه النحاس المذاب مع حرارته الشديدة وناره المتقدة ، وارتفاعه العظيم وثخانته البالغة خمسين ذراعا على ما قيل ؟

والجواب :أنه لابد أن يكون ذو القرنين قد وصل إلى حل لهذه المشكلات ، بحيث يمكنه تحقيق بنائه على النحو الذى تحدث به القرآن العظيم عنه ، دون إضرار بأحد العاملين فيه ، وكما أن العلم فى عصرنا حل مشكلات كثيرة ، فالعلم والحضارة والحكمة عند هؤلاء القدماء بلغت الذروة ، فلابد أنهم استعملوا آلات وطرقا علمية لم يصل بعد أحد إلى معرفتها ولاتكاد العقول تصدقها ، مالم تعرف ما كان عليه هؤلاء العظماء ، من العلم والحكمة والإبداع ، وما معجزة بناء الأهرام عنا ببعيدة عن العيون والأبصار ، وكم لله فى خلقه من آيات وعظات .

٩٨ - (قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا) :

بعد أن فرغ ذو القرنين من بناء السد وإحكامه بحيث يمنع يأْجوج ومأْجوج من الخروج من ورائه ليفسدوا فى الأَرض ،قال مشيرا إلى السد : هذا أثر رحمة عظيمة من ربى بعباده ، حيث أقدرنى على بنائه وإحكامه وحمى به الناس من غزوات أُولئك المفسدين المخربين ،وما أنا إلا منفذ لمشيئة ربى ورحمته بعباده ، ولو لا ذلك لما استطعت بناءه ، فإذا جاءَ موعد ربى بخروج يأْجوج ومأْجوج من محبسهم جعل هذا السد أرضا دكاء أى مستوية، وكان وعد ربى بخروجهم حقا ثابتا لا خلف فيه ، وكذا كل مواعيده جل وعلا ، وقد يقول قائل : من أين علم ذو القرنين أن هذا السّد سَيُدَكُّ وينهار ، وأن الله وعد بذلك ، وأنهم بعد دكه سيخرجون مع أنه ليس بنبى ؟

والجواب : أنه ربما علم ذلك من نبى كان فى وقته ، أو يكون ذلك عن اجتهاد ،أو قراءة فى كتاب نبى سبقه ، وفى ذلك يقول الآلوسى : وفى كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم فى آخر الزمان ، من آخر الجربياء فى أُمم كثيرة لا يحصيهم إلَّا الله تعالى ، وإفسادهم فى الأَرض ، وقصدهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم فى بريَّته بأَنواع من العذاب ، قال الآلوسى : وحزقيال عليه السلام قبل الإسكندر ، فإذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون وقف عليه ، فأَفاده علمًا بما ذكر . والله تعالى أعلم : انتهى كلام الآلوسى .

وبعد أن انتهى الحديث عن فتوحات ذى القرنين وإصلاحاته آن الأوان لذكر نبذة عن يأْجوج ومأْجوج ، وعن مكانهم ومكان السد ، وهل هو باق حتى الآن ، أم أن الله دكه دكًّا ، وخرجت يأْجوج ومأْجوج من ورائه ليفسدوا فى الأَرض ، وإليك البيان فيما يلى :

ياجوج وماجوج

هما قبيلتان من البشر ، وقد أُحيطت قصتهم ببعض الخرافات ، لا نرى موضعًا لذكرها فى تفسيرنا هذا ، ويقول الناسبون : إنهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام ولعل منشأَ قولهم هذا ما جاءَ فى صدر الإصحاح العاشر من سفر التكوين من أن نوحًا عليه السلام ولد له ثلاثة أولاد ، سام وحام ويافث ، وأنه ولد ليافث جوقر ومأْجوج ومادای . . . الخ .

وفى هذا المعنى وردِ حديث مرفوع جاء فيه (ولد لنوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم وولد لحام القبط والبربر والسودان ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة) وضعفه علماءُ الحديث ، والله أعلم ، وهما اسمان أعجميان ، أو عربيان مأخوذان من أجَّ الظليم إذا أسرع ، أو من أجيج النار ، وهو ضوءُها وشررها ، وهذا المأخذ يشير إلى شرهم وفسادهم ، وأنهم مثل النار ولا جيرة لهم ، كما أن المأخذ الأول يشير إلى سرعتهم فى شن الغارات على جيرانهم ، والعودة بغنائمهم إلى حيث يعيشون وراء الجبلين اللذين أقيم السد بينهما ، وهذان الجبلان كما يقول بعض الباحثين : (بين سمرقند والهند) وعلى هذا يكون المراد من يأجوج ومأجوج المغول والتتار .

وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً إلى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت فى هضبات آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين من خطوط العرض الشمالية ، وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثًا وعشرين درجة [١].

وهذه الأمم عرفت فى التاريخ بإغارتها على الأمم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز إفسادهم إلى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى إلى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التى بعث فيها الأنبياءُ ، وكانوا يحذرون منهم أقوامهم ، وسنتحدث عن جرائمهم فى عهد الإسلام بمشيئة الله .

اسم السد ومكانه

واسم السدّ الذى بناه ذو القرنين بين الجبلين المذكورين (سد باب الحديد) وراء جيحون فى عمالة بلخ ، بقرب مدينة ترمذ .

وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى ، وإليه يشير قوله تعالى : « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » .

---

(١) راجع ج ٩ من تفسير الجواهر ص ١٩٩ وقد نقله مؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى عن فاكهة الخلفاء ، وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ورسائل إخوان الصفا .

وقد اجتاز هذا السد تيمورلنك بجيشه ، ومر به (شاه روح) وكان فى خدمته الألمانى (سيلدبرجز) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك قشتالة.(١)

آراء اخرى فى مواطنهم

ويرى بعض المؤرخين أنهم يسكنون قريبا من خط عرض (٩٠) تسعين من جهة الشمال ، وأنه هو المراد بآخر الجربياء فى كتاب النبى حزقيال ، وأن جبليهم هما جبلا (أرمينية وأذربيجان) وأن سَدَّ ذى القرنين هو سد (باب الأبواب) المشهور ، وهذا يستلزم أن يكون يأْجوج ومأْجوج من الخزر والترك ، وأن الذى بنى السد هو ملك الفرس غورش الذى تقدم ذكره ، لأنه هو الذى بنى سد (باب الأبواب) ـ وهذا يخالف ما عليه أكثر المورخين من أن الذى بنى سد يأْجوج ومأْجوج هو الإسكندر المقدونى ، وقد بناه فى آسيا الوسطى شمال الصين ، واسمه « باب الحديد » .

أما سد (باب الأبواب) فقد بناه ملك الفرس بناحية أرمينية ، لأغراض تتعلق بأمن وسلامة أهل هذه المنطقة ممن كانوا يغيرون عليها من الهنغوليين ، فهم الذين حملوا شعب الخزر على الهجرة إلى شرق أوروبا ، بسبب كثرة غاراتهم عليهم ، وهناك اندمجوا فيهم ، والهنغوليون غير يأْجوج ومأْجوج ، الذين كانوا يسكنون بآسيا الوسطى شمال الصين وعلى أى حال فالسدّ الذى تحدث عنه القرآن وبناه ذوالقرنين حقيقة واقعة سواءٌ كان (سد باب الحديد) شمال الصين أم كان (سد باب الأبواب) بناحية أرمينية ، وكلاهما مصدق لما جاء به القرآن الكريم ، سواءٌ بناه الإسكندر شمال الصين ، أم بناه الملك الفارسى بناحية أرمينية ، وإطلاق صفة ذى القرنين على هذا أو ذاك ، تقدم بيانه فى تفسير قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا »

---

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا إن سد يأجوج ومأجوج تخرب مصداقا لوعده تعالى : « فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ » الآية ، وقد خرجوا من محبسهم فى غزوات تخريبية ، ومنها ما حدث فى أوائل القرن السابع الهجرى بقيادة ملكهم (جنكيزخان) حيث أغاروا على بلاد المسلمين فأطاحوا بمملكة (قطب الدين السلجوقى) ملك التركستان والفرس ، وأخضعوا بلاد الهند ، وهلك الطاغية (جنكيزخان) بعد رجوعه من الهند ، وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة ببغداد فى عهد الخليفة (المستعصم بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته بذيل حصان وأباحوا المدينة تسعة أيام سالت فيها الدماءُ أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى نهر دجلة ، ثم أذن الله بالنصر عليهم فى عهد الملك (سيف الدين قطز) بعد أن وصلوا فى غزواتهم المدمرة إلى الشام ، حيث جرد لهم جيشا عظيما من مصر والشام ، وحاربهم فى معركة فاصلة بعين جالوت ، وهزمهم شر هزيمة ، وأجلاهم ولم تقم لهم بعدها قائمة .

وفى شأنهم هذا روى البخارى بسنده عن زينب بنت جحش رضى الله عنها (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإِصْبَعَيْهِ الإبهام والتى تليها قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم إذا كثر الخبث) .

وتعبيره صلى الله عليه وسلم عن الفتحة بالسد وتصويره إياها بتحليقه بإِصْبَعَيْه الإبهام والتى تليها ، كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا ـ والله تعالى أعلم . .

التفسير

٩٩ ـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ :

بعد أن حكى القرآن الكريم عن ذى القرنين أن هذا السد رحمة من ربه ، ذكر فى هذه الآية ما فعله الله تعالى بيأجوج ومأجوج بعد إقامة السد ؛ وظاهر النظم الكريم أن الضمير فى قوله تعالى : « بعضهم » عائد إلى يأجوج ومأجوج ، وعليه اقتصر الفخر الرازى ، واختاره صاحب البحر . والتَّرْكُ هنا بمعنى الجَعْل ، وهو من الأضداد .

والمعنى على هذا : وبعد تمام السد جعلنا يأجوج ومأجوج يموجُ بعضهم فى بعض ، أى يضطربون اضطراب موج البحر لما مُنِعُوا من الخروج والفساد فى الأَرض بسبب السد ، ولا يزالون مائجين مضطربين ، حتى ينجز الله وعده الحق ، فَيَنْدَكُّ السد ويسوى بالأَرض ، وحينئذ يخرجون مزدحمين فى البلاد ويهلكون الحرث والنسل .

وقيل : إن الضمير عائد إلى الخلائق من الإنس والجن . وعلى هذا الرأى يكون معنى الآية ما يلى :

وجعلنا بعض الخلائق يضطربون اضطراب أَمواج البحر ، يختلط إنسهم بجنهم من شدة الفزع والهول عند قيام الساعة ، روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال الآلوسى : ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأُولى .

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأَمر الله تعالى ، كما ثبت فى السنة وهو بوق عظيم جـــدا ، جاء فى الآثار من وصفه ما يدهش العقول ، ولكنا نؤمن به ، ونكل حقيقته إلى من أَحاط بكل شىء علماً ، وقد صَحَّ عن أَبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبِينَهُ وأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ فَيَنْفُخ »[1] ، وهو ينفخ فيه نفختين : الأُولى نفخة الصعق والأُخرى نفخة البعث والقيام من القبور ، وهما المذكورتان فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ »[2] .

والمراد هنا النفخة الأُخرى بدليل ما بعدها ، والضمير فى قوله تعالى : « فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » للخلائق كلها ومنهم يأْجوج ومأْجوج ـ أى عقب النفخة الأُخرى فى الصور ، والقيام من القبور ، نجمع الخلائق كلها جمعاً عظيماً هائلا : أَولهم وآخرهم ، إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم بعدما تفرقت أَوصالهم ، وتمزقت أَجسادهم ـ نجمعهم فى صعيد

---

(١) وذهب أبو عبيدة إلى أن الصور جمع صورة ، وأيده بقراءة الحسن (الصور) بفتح الواو ، وعلى هذا يكون النفخ فى الصور كناية عن إحياء الخلائق ، لجمعهم وحسابهم وجزائهم .

(٢) الزمر ـ الآية : ٦٨

واحد للحساب والجزاء ، كما قال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ والآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »[1] ، وقال سبحانه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا »[2] .

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ) : أظهرناها . (أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ) : أعينهم عليها غشاء يمنعها من البصر (عَن ذِكْرِى) : عن الآيات التى تذكرهم بى .

التفسير

١٠٠ ـ (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا) :

هذا إخبار منه تبارك وتعالى ، عما يفعله بالكفار يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء .

والمعنى : وأبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين إظهارًا جلياً حيث يرونها ، ويسمعون لها تغيُّظًا وزفيرًا ، ويبصرون ما أعد لهم فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم ، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم ، وليعلموا أنهم مواقعوها لايجدون عنها مصرفاً .

١٠١ ـ (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى . . .) الآية .

وهذا بيان منه سبحانه لبعض أوصاف الكافرين الذين استحقوا بسببها هذا العذاب والنكال ، أى هؤلاء الكافرون بى كانت أعينهم ـ وهم فى الدنيا ـ فى غشاوة محيطة بها ، فتغافلوا وتعاموا عن النظر فى آياتى المُنْبَثَّةِ فى الأنفس والآفاق ، المؤدية إلى توحيدى وتمجيدى وذكرى وطاعتى ، ويجوز أن يراد ذكره تعالى الذى أنزله على رسله ودعا إليه عباده .. وقوله

---

(١) الواقعة ، الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ — (٢) الكهف ، من الآية : ٤٧

تعالى : « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » . نفى لسمعهم آياته على أتم وجه وأبلغه ، والمراد أنهم مع تغافلهم وتعاميهم عن التدبر فى آياته تعالى ، كفاقدى السمع أصالة ، فهو تصوير لإعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم . بعد تعاميهم عن آياته المؤدية إلى ذكره وما ينبغى لجلال وجهه - والتعبير عن إعراضهم عن الذكر بأنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً ، يؤذن بأن ذلك كان دأبهم الذى اعتادوه واستمروا عليه وقد أفادت الآية أنهم سدوا على أنفسهم منافذ العلم من السمع والبصر .

(أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(أَفَحَسِبَ) : الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، والحسبان بمعنى الظن . والفاء عاطفة على مقدر مناسب سيأتى فى التفسير . (أَوْلِيَآءَ) : أى معبودين أو أنصارًا .

(أَعْتَدْنَا) : أى أعددنا وهيأنا . (نُزُلًا) : أى شيئاً يقدم لهم ، كالذى يقدم للنزيل أو الضيف . وقيل النزل : موضع النزول ، ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى .

(ضَلَّ سَعْيُهُمْ) : أى ضاع عملهم وبطل عند الله عز وجل .

التفسير

١٠٢ - (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ .....) الآية .

لما بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ضلال الكافرين وتغافلهم عن التدبر فى آياته الهادية إلى ذكره وطاعته - أنكر عليهم فى هذه الآية اتخاذهم بعض عباده آلهة يعبدونهم من دونه ، أو أنصارًا ينصرونهم ويخلصونهم من عذابه .

والمعنى : أجهل هؤلاء الذين كفروا بى فظنوا أن اتخاذهم بعض عبادى آلهة أو أنصارًا ينجيهم من عذابى ! كلا ، إنهم بظنهم هذا لنى ضلال مبين ، ولو كان أولياؤهم من الملائكة أو العباد المقربين ، ثم أكَّد سبحانه هذا الإنكار على الكافرين به فقال :

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) : أى إنا هيأنا لهؤلاء جهنم جزاءً على عبادتهم لغيرنا واتخاذهم أولياء . وفى هذا ما فيه من التهكم بهم والتخطئة فى حسبانهم ذلك ، مع الإيماء إلى أن لهم من وراء جهنم ألواناً أخرى من العذاب[1] ، وليست جهنم إلا مقدمة له . وأما إذا كان النُّزل بمعنى المنزل أو المثوى ، فالمراد بيان انعكاس مقصودهم من النجاة إلى الهلاك .

١٠٣ - (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) :

قيل إن المراد بهؤلاء الأخسرين : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنها عامة فى كل من عبد الله على غير شريعته التى شرعها لعباده ، يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول ، ولكنه مخطئ وعمله مردود عليه .

أى قل أيها الرسول للمشركين خاصة وللكافرين عامة : هل أخبركم بأشد الناس خسرانا لأعمالهم وحرماناً من ثوابها ؟ ! ثم فسرهم بقوله :

١٠٤ - (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) :

أى أن الأخسرين أعمالا من سائر الملل والنحل هم الذين أتعبوا أنفسهم فى أعمال يبغون بها ثواباً وفضلا ، فنالوا بها هلاكاً وخسرا ، كالذى اشترى سلعة يرجو بها ربحاً عظيماً ، فخاب

---

(١) فإن لفظ « النزل » يعبر به عما يقدم للضيف أول ماينزل من غير كلفة ، ويكون عادة مقدمة لما يقدم له بعد بعناية ، وقد عبر به هنا عما يقدم للكافرين أول نزولهم للعقاب وهو جهنم ، فما ظنك بما يكون بعدها ؟

رجاؤه وخسر بها خسراناً مبيناً . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كفرُوٓا أعْمَالُهُمْ كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٓ إذا جَآءَهُ لمْ يَجِدْهُ شَيْئاً »[١] وقوله تعالى : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[٢] .ثم بين سبحانه ما ترتب على كفر أُولئك الأَخسرين أعمالا من الجزاءِ السيء على ما صنعوا فقال :

١٠٥ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . .) الآية .

أى أُولئك الضالون الخاسرون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون ، هم الذين جحدوا آيات ربهم ودلائله الداعية إلى توحيده وتمجيده ، وضموا إلى جحودهم آيات ربهم إنكارهم البعث فى اليوم الآخر وما يتبعه من الجزاء على الأَعمال ، فمن ثَمّ حبطت أَعمالهم وبطلت وإذًا : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً) : بل نزدرى بهم ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم مقدارًا ، لأَنه لامقدار لأَحد إلا بالعمل الصالح ، وأُولئك مجردون من صالح الأَعمال ، وقد روى الشيخان عن أَبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِى الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَا يَزِن عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَة ، وَقَالَ : اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ : « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً » أَو المعنى لا نضع لأَجل وزن أَعمالهم ميزاناً لأَنها قد حبطت وصارت هباءً منثورًا . وقوله تعالى :

١٠٦ - (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوٓا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُوًا) :

بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم ، إِثْرَ بيان أَعمالهم الْمُحْبَطَةِ بذلك الكفر ، أَى ذلك جزاؤُهم الذى جزيناهم به بسبب كفرهم بى ، واتخاذهم رسلى وآياتى التى أَيَّدْتُهُمْ بها - هزؤًا وسخرية ! فلم يكتفوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل ،بل ارتكبوا عظيمة أُخرى مثلها ، وهى الاستهزاءُ بالمعجزات الباهرة التى أَيدت بها رسلى عليهم السلام وبالصحف المنزلة عليهم .

---

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(الْفِرْدَوْسِ) : أعلى درجات الجنة وأوسطها وأفضلها . وأصله فى اللغة : البستان الجامع لكل مافى البساتين . (حِوَلًا) : أى تحولا وانتقالا .

التفسير

١٠٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه ما أعده من العذاب للذين كفروا بآيات ربهم واستهزءوا برسله - ذكر جزاء الذين آمنوا به وبلقائه وعملوا الصالحات ، قال الآلوسى تبعاً لأبى السعود : هذا بيان - بطريق الوعد - لمـآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة ، إثر بيان مآل الكفرة بطريق الوعيد ، أى : إن الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه ، وعملوا الأعمال الصالحات ، كانت لهم فيما سبق من حُكْمِهِ تعالى ووعده جنات الفردوس أعلى الجنات منزلة وأرفعها درجة ، أخرج البخارى ومسلم وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سَأَلْتُمُ الله تعَالى فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ : فإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفوْقهُ عَرْشُ الرَّحْمَن ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) . وفى التعبير بقوله : « كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » . إيماءٌ إلى أن أثر الرحمة ، يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية ، بخلاف مامر من جَعْل جهنم للكافرين نُزُلًا ، فإنه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم . انظر تفسير أبى السعود . .

١٠٨ - (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) :

أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا . قال ابن كثير : وفي قوله : « لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » تنبيه على رغبتهم فيها وحبِّهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يَمَلُّهُ فأخبرأنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى . لا يختارون عن مقامهم ذلك تحولا ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلا . أ هـ .

(قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(مِدَادًا) : المداد في الأَصل : اسم لكل ما يُمَدُّ به الشيءُ ، واختص في العرف بما تُمَد به الدواة من الحبر . (يَرْجُو) : يأْمل أو يخاف .

(لِكَلِمَاتِ رَبِّى) : أى لكلماته الإبداعية والتشريعية والخبرية ، في اللوح المحفوظ وفى القرآن الكريم ، وفى شئون الكون حاضره ومستقبله ودنياه وأُخراه .

التفسير

١٠٩ - (قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى) ... الآيـة .

سبب النزول :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن حُيَىَّ بن أخطب قال : فى كتابكم : « وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقرءُون : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ومراده الاعتراض بوقوع التناقض فى القرآن الكريم ، بناءً على أن الحكمة هى العلم فكيف يكون العلم فى القرآن شيئاً قليلا فى آية ، وخيرًا كثيرًا فى آية أخرى ، وقد غفل هؤلاء اليهود ، عن أن الشىء الواحد قد يكون قليلا فى حالة ، وكثيرًا فى حالة أخرى فالآية جواب عن اعتراضهم بالإشارة إلى أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فيجوز أن يكون الشىءُ كثيرا فى نفسه ، وهو قليل بالنسبة إلى شىءٍ آخر ، ولا شك أن التوراة ليست كل كلام الله تعالى ، بل هى بعض قليل منه ، ويكفى فى كتابتها مداد قليل ، أما كلامه تعالى الشامل للتوراة وغيرها من شئون الكون فكثير لا يكفى فى كتابته مداد البحر .

ومعنى الآية : قل لهم أيها الرسول : لو كان ماءُ البحر مدادًا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى فى التشريع والتكوين وغيرهما ، لنَفِدَ هذا المداد وفَنِىَ قبل أن تنفد كلمات ربى وتفنى ، ولو جئنا بمثل هذا الماء العظيم مددًا وعونًا ، لأن جميع ما فى الوجود على التعاقب والاجتماع ـ مُتَنَاهٍ ، وعلم الله وكلماته لاتتناهى ، والمتناهى لايفى ألبتة بغير المتناهى .

والمراد أن كلمات الله تعالى لايعتريها فناءٌ ولا نقص ، وعلمه لاغاية له ولانهاية ، فما علم العباد جميعًا بجانب علمه تبارك وتعالى إلَّا كقطرة من ماءِ البحور كلها . وفى معنى الآية الكريمة قولُه تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١) .ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بنحو ما بدأها به من البشارة والنذارة فقال :

١١٠ ـ (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . .) الآية .

أى قل أيها الرسول للمشركين وللناس جميعًا : إنما أنا بشر مثلكم من بنى آدم ، لا أدعى الإحاطة بكلماته جل وعلا ، ولا أعلم إلَّا ما علمنى ربى ، وقد أُوحى إلى أنما إلهكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا هو إله واحد لاشريك له .

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) : أى فمن كان يأمل تكريم ربه إياه بالثواب وحسن الجزاء عند لقائه ، فليعمل عملًا صالحًا موافقًا

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٧

لشريعة الله ، ولا يُرِدْ بعبادة ربه إلّا وجه ربه وحده لا شريك له ، وهذان هما الركنان اللذان لا بد منهما لكل عمل متقبل ، أن يكون خالصًا لله سبحانه ، وأن يكون صوابًا وفق شريعة رسوله صلى الله عليه وسلم أو المعنى : فمن كان يخاف سوء لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا خالصًا لوجه ربه ولا يخلط به غيره .

روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعى غَيْرِى . تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1] .وروى الشيخان عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَمَّعَ ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِى يُرَائِى اللهُ بِهِ »[2] .

وروى مسلم عن أبي هريرة أيضًا[3] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رجل استُشهد فَأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدْتُ ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قِيلَ ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلَّمت وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء . فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل وَسَّعَ الله عليهْ وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لله ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هُوَ جَوادٌ فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه ثم أُلقى فى النار » .

والله المستعان على الإخلاص فى النيات والأقوال والأعمال ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) هذا كناية عن إحباط ثوابه وحرمانه من أجره ، لما اقترفه من ترك الإخلاص فيه والحديث يعم الشرك الجلى وكذا الشرك الخفى المعبر عنه بالرياء .

(٢) أى من سمع الناس بعمله ، أو راءاهم به ليحمدوه ويثنوا عليه ، أظهر الله سريرته لهم وملأ أسماعهم من سوء الحديث عنه فى الدنيا والآخرة ، فلم يظفر بما أظهره إلا بإبداء ما انطوى عليه من خبث السريرة .

(٣) فى كتاب الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

تمهيد :

هذه السورة التاسعَة عَشْرَةَ فى ترتيب المصحف .

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأَعاجيب . كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام . ولذلك ذكرت بعدها ، وهى مكية إلَّا آية السجدة (٥٨) . وآية الورود على النار (٧١) . وعدد آياتها ثمان وتسعون وقد حوت طائفة كريمة من قصص الرسل وأنباءِ الغيب .

افتتحها الله تعالى بقصة زكريا عليه السلام إذ دعا ربه أَن يَهَبَ له وليًّا يرثه فى الدعوة إليه والحفاظ على شريعته . فاستجاب له ربه وبشره بغلام سماه يحيى ولم يجعل له من قبل سميًّا وآتاه الحكم صبيا . ولما تعجب زكريا من خلق الولد من أُم عاقر وأَب بلغ من الكبر عتيًّا – أَوحى إليه ربه أَن هذا الخَلْقَ « هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » ثم ذكر تعالى قصة مريم عليها السلام . . . وهى أَعجَب من قصة زكريا ! ! وفيها أَن جبريل عليه السلام تمثل لها بشرًا سويًّا . ففزعت واستعاذت بالرحمن منه . فطمأَنها بأَنه رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًّا . فلما تعجبت من أَن يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تَكُ بَغِيًّا – « قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » .

وكذلك كان عيسى عليه السلام آية من آيات ربه الكبرى : فى حمله وولادته . وقوله فى المهد : « إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ .. » ثم قال تعالى : « ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه إلى الصراط السوىّ ، بأرق ما تكون الدعوة من الرفق والحنان ، فيقول : « يَآ أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَآ أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَآ أَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » . فيقابل أبوه هذا الرفق والحنان ، بأشق ما يكون من العنف والقسوة والجحود والعصيان ، فيقول : « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَآ إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » . وهنالك يجد إبراهيم عليه السلام بُدًّا من أن يعتزل أباه وقومه وما يعبدون من دون الله . قال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » .

ثم ذكر تعالى كليمه موسى عليه السلام ومناجاته إياه فى الطور ، وهبة الله له أخاه هرون نبيًّا . ثم أثنى سبحانه على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وَأَمْرِهِ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة « وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . وعلى إدريس عليه السلام بأنه : « رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا » . ثم أثنى تبارك وتعالى على المصطفَيْنَ الأخيار من عباده فقال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » .

وذم الذين خَلَفُوهم مِنْ بعدهم ، فلم يهتدوا بهديهم ، بل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ جزاءهم « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » . ومما ذكره الله تعالى فى هذه السورة الكريمة ، أنه يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين . . وأن جميع الخلق يَرِدُون جهنم : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » وبعد ذلك يستنكر سبحانه أشد الاستنكار ، ما زعمه الزاعمون من اتخاذه ولدًا ، إذ يقول : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا » ثم يَعِد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيجعل بينهم محبة وَوُدًّا ثم يختم سبحانه السورة الكريمة ببيان

تيسيره القرآن للنبى صلى الله عليه وسلم وقومه ، بإنزاله بلسانه ولسانهم ، حيث أنزله « بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ » . ليسهل عليه تبليغهم كتاب ربهم . ويبشر به المتقين بحسن المثوبة . وينذر به المجادلين المعاندين بشديد العقوبة . إذ يقول : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا » .

وأخيرا يضرب الله المثل بأمثالهم الذين أهلكهم فى القرون الماضية فلم يُبْقِ منهم أحدا . فيقول – وقوله الحق – : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ذلك . ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنه كثر فيها ذكر الرحمة والرحمن ، لما تجلى فيها من رحمة الله على عباده وهم فى أشد الحاجة إليها ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

(كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَادَى رَبَّهُ) : أى دعا ربه عز وجل . (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى) : ضعف عظمى ورق لكبر سنى . (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : وتغلغل الشيب فى رأسى وَفَشَا فيه . (الْمَوَالِىَ) : المَوْلَى : هو القريب الذى يلى أمر الرجل من عصبته ، كالأخ والعم وابن العم . (عَاقِرًا) : عقيمًا لا تلد . (وَلِيًّا) : ابنًا من صلبى يلى الأمر بعدى . (رَضِيًّا) : مرضيًّا عندك قولًا وفعلًا .

التفسير

١ - (كٓهيعٓصٓ) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعًا وعشرين سورة بأسماء بعض الحروف الهجائية ، وسورة مريم واحدة منها . وقد قال كثير من المفسرين : إن معانى هذه الحروف من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو أعلم بمراده منها . وقال بعضهم : هى أسماءٌ للسور التى افتتحت بها ، وقال بعضهم : هى رمز للتحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ، مكون من جنس ما يَنْظِمُ العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا جميعًا عن الإتيان بسورة من مثله - وهم أئمة

الفصاحة والبلاغة - وجب التسليم بأنه من عند الله عز وجل ، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يأتي بسورة منه [١] .

٢ - (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) :

أى هذا الذى نقصه عليك - أيها الرسول - هو ذكر رحمة ربك لعبده ورسوله زكريا ، وهذا إجمال يأتى تفصيله قريباً . وزكريا عليه السلام نبى ورسول من أنبياء بنى إسرائيل ، من ولد سليمان بن داود عليهما السلام . روى الحافظ ابن كثير وغيره أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده فى النجارة ، وهكذا كان الأنبياء يأكلون من عملهم . وقوله تعالى :

٣ - (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا) : مرتبط بقوله سبحانه : « ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » .

أى أن رحمة ربك أحاطت بعبده زكريا ، حين دعا ربه دعاءً مستوراً عن الناس ، ولم يسمعه أحد منهم وإنما أخفى دعاءه عليه السلام ، وأسر به وهو يتضرع إلى ربه ، لأن الإسرار بالدعاء أدل على الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة .

قال ابن كثير عن بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه ، فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب ، فقال الله له : لبيك لبيك .

٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . .) الآية .

هذا تفصيل وتفسير لكيفية ندائه ربه عليه السلام .

أى : إنى ضعف عظمى ورق لكبر سنى . والمراد : ضعفتُ وخارت قواى . وإنما أسند الضعف إلى العظم ، لأن العظام عماد البدن ودِعَامُ الجسد ، فإذا أصابها الضعف والرخاوة تداعى ماوراءها وتساقطت قوته !

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) : أى فشا الشيب وتغلغل فى رأسى ، وسرى فيه كما تسرى النار فى الحطب . (وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا) : أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى

---

(١) راجع ما كتبناه عن هذه الفواتح : أول سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس .

فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتُكَ استجبتَ لى ، توسل عليه السلام إلى ربه فى استجابة دعائه بما سلف من الاستجابة له عند كل دعوة دعاها – إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة به من كبر سنه وضعف قوته ، فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهرًا طويلا لايكاد يخيبه أبدًا ، ولا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ، وفى هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه . . ويذكر المفسرون هنا ما يروى أن حاتماً الطائى – أو معن ابن زائدة – أتاه سائل فسأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه وقت كذا ، فقال : مَرْحَباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته . . وأين كَرَمُ الكرماء أجمعين ، من كَرَم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم . .

٥ – (وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَآئِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا . .) الآية .

هذا عطف على قوله : « إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . . » مندرج فيما يستدعى رحمة ربه واستجابة دعائه ، أى وإنى خشيت أقاربى الذين يلون الأمر من بعد موتى ، ألا يحسنوا الخلافة ، فيسيئوا إلى الناس ، ولا يقوموا مقامى فى الدعوة إليك والحفاظ على شريعتك وإنما خافهم لأنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل ، وكانت امرأته عاقرًا لا تحمل ولا تلد ، من شبابها إلى شيبها ، وهذا مما يزيد أقاربه تلهفا على خلافته وإن لم يحسنوها .

قدم عليه السلام فى ندائه لربه وضراعته إليه ، ضعف قوته وكبر سنه وشيخوخته ، وخوفه من مواليه مع عقم امرأته – قدم هذا بين يدى سؤاله ربه هبة طيبة من ذريته[1] وذلك قوله : (فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) :

أى أعطنى من فيض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، ابنا من صلبى يلى الأمر من بعدى يقوم مقامى ويحسن خلافتى ، وإنى وإن كنت متقدماً فى السن ، وكانت امرأتى عاقرًا – ولا تزال – فإنك قادر على تحقيق مطلبى من غير الأسباب العادية ، وأنك إذا أردت ، قلت للشىء : كن ، فيكون . ثم وصف عليه السلام وليه الذى استوهبه من ربه فقال :

---

(١) اقتباس من قوله تعالى فى سورة آل عمران : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » الآية ٣٨ .

٦ – (يرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ . .) الآية .

أى يكون وارثاً لى فى العلم والنبوة ، ليسوس بنى إسرائيل بمقتضى الشريعة والعدل ، فقد تعدى حدود الله كثير منهم ، وطغوا وبغوا وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله : « وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » توكيد لهذا الميراث النبوى الذى طلبه لوليه ، فإن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وكانت النبوة فى بيت يعقوب وآله – وآل الرجل هم خاصته الذين يئول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين لمراد زكريا عليه السلام بهذا التوكيد أن يكون ابنه نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء،ولم يرد عليه السلام وراثته فى المال ، لأن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا آلهم ديناراً ولا درهماً ، فقد كانوا د الناس فى الدنيا ، وإنما وَرَّثُوا العلم والنبوة . على أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يأكل من كسب يده – كما قدمنا عن الحافظ ابن كثير وغيره . قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » فى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : « نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورثُ »[1]. وعلى هذا فتعين حمل قوله : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » على ميراث النبوة . انتهى ما قال الحافظ بن كثير ملخصاً .

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) :

أى واجعله يارب مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

---

(١) فى مشكاة المصابيح للتبريزى – فى أحاديث هجرته ووفاته صلى الله عليه وسلم : عن أبى بكر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » متفق عليه .

(يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾)

المفردات :

(سَمِيًّا) : أى شريكاً فى اسمه أو شبيهاً له .

(أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام ؟ أو من أين ؟ .

(عَاقِرًا) : عقيماً لا تلد .

(عِتِيًّا) : العتى – بكسر العين وضمها وفتحها – غاية الكبر والشيخوخة ، يقال : عتا الشيخ أى كبر وولَّى . (أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام أو من أين ؟

(سَوِيًّا) : سوى الخلق ، سليم الجوارح ما به شائبة نَقص تعيبه .

(الْمِحْرَابِ) : المسجد أو المصلى .

(فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ) : الإيحاءُ هنا بمعنى الإشارة وهى محتملة لأن تكون بيده أو برأسه أو بالكتابة أو نحو ذلك .

(سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : نزهوا ربكم دائما ، أو صلُّوا له طرفَى النهار .

التفسير

٧ - ﴿يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ . . .﴾ الآية .

هنا كلام مطوى يشير إليه السياق على عادة القرآن الكريم .

والمعنى : استجاب الله تعالى دعاء عبده زكريا وقال له على لسان الملائكة : « يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ . . . » كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « فَنَادَتْهُ الْمَلَآئِكَةُ وهُو قَآئِمٌ يُصَلِّ فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ . . . »[1] . وقوله تعالى :

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ : أَىْ لم نجعل له شريكا فى هذا الاسم ، فلم يُسَمَّ أَحد قبله يحيى ، وفى هذا مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام . وعن مجاهد أن « سميا » معناهُ شبيها ، أخذه من قوله تعالى : « فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هل تَعْلَمُ لَهُ سمِيًّا »[2] . أى شبيها أى لم نجعل له شبيها ، حيث إنه لم يعص ولم يهُمَّ بمعصية ، فقد أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مامِنْ أَحدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلاَّ وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ إِلاَّ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمْ يَهُمَّ بَخطِيئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا » . قال الآلوسى : والأخبار فى ذلك متضافرة . اهـ .

ويؤيد ذلك قوله تعالى فى شأنه : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[3] .

٨ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ :

أى قال زكريا عليه السلام : يارب كيف يكون لى غلام وكانت امرأتى - ولا تزال - عاقرا لاتحمل ولا تلد ، وقد بلغت سن اليأس من الولد ؟ « وهذا تعجب بحسب العادة » ، لا استبعاد منه لقدرة الله - وحاشاه - فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سنه كانت إذ ذاك مائة وعشرين سنة ، وكانت سن امرأته ثمانياً وتسعين ؛ ولا يولد لمثلهما عادة ؛ ولكن لله تعالى خرق العادة ، وما المعجزات التى أيد الله بها رسله إلا خرق لها . . .

(١) من الآية : ٣٩

(٢) سورة مريم ، من الآية : ٦٥

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٩

٩ - (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . .) الآية .

أى قال الله تعالى على لسان الملك مجيبا زكريا عما تعجب منه : الأمر كما بُشِّرْتَ به ، وإيجاد الولد منك ومن زوجك هذه لامِنْ غيرها سهل يسير على .

ثم ذكر له ماهو أعجب منه فقال : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » :

أى وقد خلقتك من قبل خلق يحيى الذى بشرتك به ، ولم تكن شيئاً مذكورا ، حيث خلقتك من تراب فى ضمن خلق أبيك آدم ، أو وأنت نطفة لم تكن شيئاً مذكورا بجانب ما أنت عليه الآن ، فمن قدر على خلقك مما يشبه العدم ، فهو قادر على تحقيق ما بشرك به .

١٠ - (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً . . .) الآية .

أى قال زكريا عليه السلام : يارب اجعل لى علامة ودليلا على حمل امرأتى ، أو على وجود ما وعدتنى به ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى ، كما قال إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »[1] .

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) :

أى قال الله تعالى : علامتك على تحقيق ما وعدتك أن يحبس لسانك عن كلام الناس وأنت سوى الخلق سليم الجوارح ، ليس بك شائبة خرس ولا بكم . فكان عليه السلام يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم الناس إلا إشارة ورمزا . والمراد ثلاث ليال بأيامها ، وفقاً لآية آل عمران : « قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ »[2] .

١١ - (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

روى أن قومه كانوا من وراء المسجد ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيرا لونه ، فأنكروه وقالوا : مالك ؟ فأشار إليهم بيده إشارة خفيفة سريعة : أن نَزِّهُوا ربكم دائماً أو صَلُّوا له طرفى النهار .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٠

(٢) الآية : ٤١

(يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾)

دات :

(الْكِتَابَ) : المراد به التوراة . (الْحُكْمَ) : الحكمة ، أو الفهم والفقه فى الدين . . بل النبوة . (وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا) : أى رحمة عظيمة فى قلب يحيى من عندنا وشفقة منه الناس ومحبة لهم صادرة منا .

(وَزَكَاةً) : أى طهارة بريئة من الذنوب والآثام . أو بركة عظيمة .

(وَكَانَ تَقِيًّا) : وكان فى أعلى درجات التقوى لله عز وجل .

(وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا) : ولم يكن متكبرا متعالياً على الناس .

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) : السلام هنا : الأمان من الله تعالى فى الأيام الثلاثة ، أو التحية منه سبحانه.

التفسير

١٢- (يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ . . .) الآية .

هنا كلام مطوى حذف مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . أى : ولد الغلام المبشَّر ا. وبلغ سنًّا يؤمر مثله فيها ، فقلنا له على لسان المَلَك : يا يحيى خذ التوراة بجد وعزم تطهرها واعمل بما فيها . (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) : أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين قبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حَدَثٌ . قال الآلوسى : ج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى ذلك : أعطى

الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين ، وفى رواية أُخرى عن ابن عباس أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال الغلمانُ ليحيى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب ، فقال أَلِلَّعِبِ خلقنا ؟ اذهبوا نصلى ، فهو قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . قال الآلوسى : والظاهر أن الحكم على هذا بمعنى الحكمة ، وقيل هى : بمعنى العقل . . وقيل النبوة ،وعليه كثير ، قالوا أوتيها وهو ابن سبع سنين . . . .ولم ينبأْ أكثر الأَنبياء عليهم السلام قبل الأَربعين . انتهى كلام الآلوسى مختصرا .

١٣ ـ (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) :

أَى وآتيناه رحمة عظيمة فى قلبه ، وشفقة على الناس ومحبة لهم ، وآتيناه كذلك بركة عظيمة من عندنا ، فجعلناه مباركا نفَّاعاً ، معلما للخير وداعيا إليه ، وكان عظيم التقوى لله عز وجل ، وتقدم أَنه ما هم بمعصية ، فضلا عن اكتسابها .

١٤ ـ (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) :

أَى وكان يحيى عليه السلام كثير البر والإِحسان بوالديه ، إذ هما أَقرب الناس إليه ، وحقهما فى الطاعة يلى حق الله عز وجل ، ولم يكن متكبرا على عباد الله متعالياً عليهم بل كان لين الجانب متواضعاً كريما مطيعاً لربه قدوة فى المكارم ، وهذه الصفات التى وصف الله بها يحيى عليه السلام ، هى صفات المؤمنين الكاملين ، الذين بلَّغهم الله تبارك وتعالى أَعلى درجات الصلاح والتقوى . فسبحانه وتعالى أَعطى وأَثنى .

وبعد أَن أثنى الله على يحيى بهذه الصفات الكريمة ، أَتبعها السلامَ عليه فقال عز من قائل :

١٥ ـ (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) :

أَى : وأَمانٌ منا على يحيى يوم ولدَ ـ من أَن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ؛ ويوم يموت ـ من وحشة فراق الدنيا وهول القبر ؛ ويوم يبعث حيا ـ من أَهوال يوم القيامة .

وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » إشارة إلى أن البعث جسمانى وروحانى معا . لا روحانى فقط كما يزعم بعض الفلاسفة . أو للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء[١] .

وقيل إن المراد بالسلام هنا التحية المتعارفة . قال ابن عطية : إن هذا هو الأظهر ، والتشريف بها لكونها من الله تعالى فى المواطن التى يكون فيها العبد فى غاية الضعف والحاجة والفقر إلى الله عز وجل .

ذلك . ومما يعد من اللطائف النبوية ما رواه الطبرى وابن كثير عن الحسن قال : إن يحي وعيسى عليهما السلام الْتَقَيَا ـ وهما ابنا الخالة ـ فقال يحي لعيسى : استغفر لى أنت خير منى . فقال له عيسى : بل أنت خير منى . سلمت على نفسى وسلم الله عليك . . .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(انتَبَذَتْ) : اعتزلت وانفردت . (رُوحَنَا) : جبريل عليه السلام ، سماه تعالى روحاً ، لأن الدين يحيا بالوحى الذى ينزل به . (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : فتصور لها إنساناً مُسْتَوِىَ الخلق كامل البنية . (أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ) : أتحصن بالرحمن منك وألتجئ إليه.

(١) فقد اشتهر أنه هو وأبوه زكريا عليهما السلام ممن قتلهم اليهود . قاتلهم الله . وقد ذكر قتلهم للأنبياء فى كثير من آى الذكر الحكيم ... بل زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » سورة النساء الآية ١٥٧

(زَكِيًّا) : طاهرا من الذنوب والآثام . من الزكاة بمعنى الطهارة ، أو ناميا على الخير والبركة ، من الزكاة بمعنى النمو .

التفسير

١٦ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا) :

لما ذكر الله تبارك وتعالى قصة زكريا عليه السلام . وأنه تعالى وهب له فى حال كبره وعقم زوجته غلاماً زكيا مباركا - عطف على قصته قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام لِمَا بين القصتين من مناسبة عظيمة ومشابهة قوية - وقد قرن تعالى بين القصتين فى هذه السورة ، وفى سورة آل عمران وفى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمخاطب هو سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم . والمراد بالكتاب القرآن الكريم ، كما هو الظاهر وقال العلامة أبو السعود : المراد بالكتاب السورة الكريمة ، لا القرآن كُلّه ، إذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها . ا ه .

والمآل واحد . فإن ذكرها فى هذه السورة يعتبر ذكْراً لها فى القرآن .

والمعنى : واذكر -أيها الرسول - فى القرآن قصة مريم حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم ، وأتت مكانا شرقىَّ بيت المقدس[1] ، لكى تتفرغ فيه لعبادة ربها ، وكانت مستترة من أهلها ومن الناس بساتر يحجبها ، أو اتخذت مكانا شرقى دارها بعيدا عن أهلها لئلا يشغلها أحد منهم عن عبادة ربها وذلك قوله تعالى :

١٧ - (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً) الآية .

أى فاتخذت بينها وبينهم ساترا يحجبها عنهم ، روى أنه كان موضعها فى المسجد فبينما هى فى خلوتها أتاها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان تام الخِلْقَة . كامل البنية جميل الصورة ، وذلك قوله تعالى :

(فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : وإنما جاءها عليه السلام فى صورة إنسان كامل . لتستأْنس بكلامه . وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلمات ربها . إذ لو بدا

---

(١) أو أنه كان من المسجد الأقصى بناحيته الشرقية .

على حقيقته الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ، ومن عادة الملَك إذا تصور بصورة إنسان أن يكون جميل الصورة ، كما كان جبريل عليه السلام يأْتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية رضى الله عنه ، وكان من أجمل الناس . وقد يكون من الحكمة فى مجيئه على الصورة الجميلة ابتلاؤها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالا غاية وراءه . . . .

١٨ - (قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) :

أَى لما تبدى لها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان ، وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب - لَمَّا حدث ذلك - خافته ، وظنت أنه يريد بها سوءًا ، فاستعاذت بالله - وهو أَرحم الراحمين - أَن يحفظها برحمته منه . ولعل هذا هو السر فى استعاذتها باسمه الرحمن دون غيره من أَسماءِ الله الحسنى . وقولها « إن كُنتَ تَقِيًّا » أَى إن كنت تتقى الله تعالى وتخشى الاستعاذة به ، فلا تمسَّنى بسوءٍ - فإِنى عائذة به ولاجئة إليه .

١٩ - (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) :

أَى قال جبريل عليه السلام مجيبا إياها ، ومزيلا خوفها : إنمَا أَنا رسول ربك الذى استعذتِ به منى ، فقد بعثنى إليك لأَكون سببا فى هبته لك غلاما طاهراً مباركا بالنفخ فى جيب درعك[1] .

ومن اللطائف ما ذكره الآلوسى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أَنها لما قالت : « إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا » تبسم جبريل عليه السلام وقال : « إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » .

(١) جيب الدرع : طوق القميص .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

(وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) : المراد ؛ ولم أتزوج .

(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) : أى ولم أكن زانية تبغى الرجل أو يبغيها الرجال للفاحشة .

(وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا) : أى وكان حمل مريم أمراً سبق به القضاءُ أزلا فلابد منه .

التفسير

٢٠ ـ (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) :

أى قالت مريم لجبريل ـ عليهما السلام ـ وهى دهشة متعجبة : كيف يكون لى غلام ولست متزوجة ولا زانية ، ولا يكون الغلام إلا من إحداهما ؟ ..

٢١ ـ (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . .) الآية .

أى قال جبريل لمريم مجيبا إياها ومزيلا دهشتها وتعجبها : الأمر كما قال ربك : إن خلق هذا الغلام منك بلا نكاح ولا سفاح سهل يسير على . وقوله تعالى :

(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ) : معطوف على مقدر مناسب مفهوم من السياق ، والاختصار من الصور البلاغية فى القرآن ، وتقدير الكلام : لنبين للناس كمال قدرتنا ، ولنجعل خلق هذا الغلام من غير أب علامة عظيمة على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذى نوَّع فى خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وأنثى ، وخلق أمهم حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم

سلطانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، وقوله سبحانه .

(وَرَحْمَةً مِّنَّا) : أى ولنجعل هذا الغلام رحمة منا عظيمة، لمن يؤمنون به ويهتدون بهديه ، ويسترشدون بإرشاده ، وفى ضمنه .. إيمانهم برسول من بعده اسمه أحمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله جل شأنه : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) :

أى وكان خلق هذا الغلام بلا أب أمراً قضيناه وقدرناه أزلا ، فهو مقضى كائن لامحالة ، كقوله جل سلطانه : « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا »[1] .

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦))

المفردات :

(فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) : أى فاعتزلت به مكانا بعيداً عن أهلها .

(فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ) : فألجأها ألم الولادة وشدة أوجاعها . (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) : الجذع هو الساق ليس عليها سعف ولا أغصان . (وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) :النِّسْىُ ؛ الشىءُ التافه الذى شأنه أن ينسى لحقارته كالحبل والخِرَقِ البالية ،والْمَنْسِىُّ المتروك المهمل لتفاهته ، وهو تأكيد لما قبله .

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٨

(السَّرِيُّ) : الجدول الذى يسرى فيه الماءُ ، أو السيد العظيم الخصال .

(رُطَبًا جَنِيًّا) : أى صالحا للاجتناء والقطع بعد أن صار طريا ،وقال أبو عمرو بن العلاء « رُطَبًا جَنِيًّا » لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه .

التفسير

٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) :

أى فاطمأنت مريم عليها السلام إلى قول جبريل ، فدنا منها فنفخ فيها ، فحملت بالغلام الذى بشرها به عقب النفخ فيها ، فلما قرب وضعها قصدت مكانا بعيداً عن أهلها ، فراراً من تعييرهم لها ، وقد روى أنه قرية على بضعة أميال من بيت المقدس يقال لها بيت لحم . حكى ذلك ابن وهب .

٢٣ - (فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ . . .) الآية .

أى فألجأها الطلق وشدة الولادة وأوجاعها ، بسبب تحرك الجنين نحو الخروج - ألجأها ذلك - إلى جذع النخلة وهو ساقها ، لتستند إليه وتتعلق به ليكون عونا لها على قوة الاحتمال ، والتستتر به عن أعين الناس ، وكان جذعا لنخلة يابسة على أكمة فى الصحراء لا سعف له ولا غصن عليه . فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها عليها السلام لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة ، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف . ا هـ ولو كانت ذات سعف أخضر وفيها حياة لقال : فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى النَّخْلَةِ .

ولعل الله أرشدها إليه ليريها آية من آياته ، كإثماره بدون سعف ومن غير لقاح وفى وقت لم يعهد فيه وجود ذلك الثمر ، تسكينا لروعها ، وتطمينا لنفسها بمثل هذه الخوارق ، ولكنها عندما أحست أنها ستتهم فى الإتيان بهذا المولود بعد أن كانت عندهم عابدة ناسكة ، وأنها سوف تصبح فيما يظنون عاصية فاجرة ، تمنت الموت كما حكى الله عنها ذلك بقوله :

(قَالَتْ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا) : ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود بغير بَعْلٍ ، فهى مدفوعة إلى هذا القول مما شعرت به من ألم النفس استحياءً من الناس ، وخوفا من لائمتهم وحذرا من وقوعهم فى المعصية بما يتكلمون فى عفتها ، فقد توقعت فتنة شديدة بين أهلها وذويها ، وقذفا عنيفا يمس شرف أصلها ، وطهارة أبيها وأمها ،

فأثار ذلك أحزانها وجعلها بعد تمنى الموت تتمنى أن تُنسى فلا تذكر أبدا حيث قالت :

(وَكُنتُ نِسْيًا مَّنسِيًّا) : أى وكنت شيئا تافها ، يطرح فلا يتألم لفقده لتفاهته وعدم الاهتمام به ، والمنسى الذى لا يخطر ببال أحد من الناس ، فذكره بعد . « نِسْيًا » لتأكيد إهمال هذا الشىء ، وكأنها تريد كما قال أبو زيد : لم أكن شيئا قط ، أو كما قال قتادة : شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا . .

٢٤ - (فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَا . .) الآية .

المنادِى إما جبريل ، وإما عيسى عليهما السَّلام ، فعلى الأول يكون المعنى : فناداها جبريل من مكان أسفل منها فى بقعة تنخفض عن البقعة التى كانت عليها ، حين فاجأها المخاض ، وقد ذهب إلى أن النداءَ كان من جبريل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وأما على أن المنادِى عيسى فقد أنطقه الله حين الولادة . وروى ذلك عن مجاهد ووهب وابن جبير ونقله الطبرسى عن الحسن .

وقرىء (منْ تَحْتِهَا) بفتح الميم وكسرها . وعلى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون المنادِى جبريل أو عيسى عليهما السلام كما تقدم .

(أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) : هذا تفسير للنداء السابق ؛ أى أن المنادِى هتف بها عن قرب منها ، ينهاها عن الحزن خوفاً من مقالة الناس بشأن ولادتها من غير زوج قائلا فى ندائه : لا تحزنى قد جعل ربك تحتك غلاماً شريفاً سيكون له شأن عظيم .

ثم أتبع سبحانه الحديث عن شرف وليدها حديثاً آخر عن طعامها فى نِفَاسِها تذكيراً بآلائه ، ورضاه عنها ، وتخفيفاً لكربها . . .

٢٥ - (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ . .) الآية .

أمرها بهز جذع النخلة لترى آية أُخرى من آيات الله فى إحياء مواتِ الجذع ، أى حرِّكيه تحريكاً متوالياً بطريق الجذب إلى جهتك .

(تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) : تكفل الله بإطعامها بمالا يتعبها ولا يشقيها ، بل بما هو فى متناول يدها ، حيث أمرها بهز جذع النخلة إلى جهتها هزًا متعاقباً ، تُسَاقط أى تُسْقِطْ

عليها النخلة تمرًا نضيجا قد طَرِىَ وأصبح صالحاً للاجتناء؛ والرُّطب ـ كما قيل ـ من أطيب الأطعمة للنُّفَساء . فقد ثبت طبياً أنه يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية بصورة مركزة سهلة الهضم ، محققة الفائدة ، ولو علم الله طعاماً يفضله لأطعمه مريم عليها السلام . وعلى الرطب وغيره من أنواع التمر يعتمد كثير من القبائل العربية وغيرها إلى أيامنا هذه ، وتجد فى تلك الأنواع كل ما تحتاجه مقومات الحياة .

٢٦ ـ (فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا . .) الآية .

امتنّ سبحانه على مريم عليها السلام بما تضمنته الآيتان السابقتان من إخراج الرطب لها فى غير وقته خرقاً للعادة ، لتسليتها عن حزنها ، ولتنزيه ساحتها عما تختلج به صدور المتقيدين بالأحكام العادية ، وقد جاءت هذه الآية تفريعاً على ما ذكر ، لتأمرها بالأكل من الرطب والشرب من الماء حولها ، وبأن تطيب نفساً إيذاناً بحسن العاقبة .

والمعنى : فكلى من الرطب الجنى ، واشربى من الماء النقى ـ وقيل من عصير الرطب ـ وطيبى نفسا بعيسى وأذهبى عنك ما أحزنك ، بشأن مولده دون أب . وما يترتب عليه من سوء القالة ، فسوف نبرئك مما يشينك ، ونجعل لولدك شأنًا عظيماً .

هذا : ومما قيل فى معنى « وَقَرِّى عَيْناً » اجعلى عينك تسكن للراحة والنوم ، قال أبو عمرو : أقر الله عينها أى أنامها وأذهب سهرها . وقال الشيبانى « وَقَرِّى عَيْنًا » أى نامى . وكل ذلك متقارب المعانى . وقدم الأمر بالأكل فى الآية ، ليجاور ما يشاكله وهو الرطب . والأمر يحتمل الوجوب والندب . وذلك حسب حالها التى هى عليها ، وقيل هو للإباحة .

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا) : كائنا من كان يريد أن يستنطقك ويتحدث معك ، فيسألك عن وليدك (فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً) : أى قولى هذه الجملة وعبرى عن معناها بلغتك تعبيرًا لفظياً ، وبه قال الجمهور ، وقال جماعة : القول هنا بالإشارة لا بالكلام ، وكان صومهم إمساكاً عن الطعام والكلام كما تأمرهم به شريعتهم . قال

ابن زيد والسدى : كانت سنّة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام مطلقاً، وقيل الصوم هنا بمعنى الصمت ، ولذا قالت عقبه : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » فكان صيامهم الصمت ، وقد نذرته ، وليس هذا فى شرعنا وإن كان قربة فى شرع من قبلنا ، فإن نذره أحد لا يلزمه الوفاءُ به لما فيه من المشقة ،وقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة نذرت ألا تتكلم ، فقال لها : إن الإسلام هدم هذا فتكلمى ، وكذلك فعل ابن مسعود[1] .وقد تمسكت مريم بصمتها الذى نذرته حيث حكى الله عنها قولها :

(فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا) : أى إنى أمتنع اليوم امتناعاً قاطعاً عن تكليم أحد من البشر فرارًا من مجادلة السفهاء الذين ينكرون وجود ولد بدون أب ، ويلحّون فى الجدل وإثارة الشكوك حولى ، وهى بهذه الطريقة المثلى تقطع ألسنة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بالثرثرة والاختلاق والإعراض عن سماع الحجة ، وقالت : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » لأن صيامها لايمنعها من مناجاة ربها أو التحدث مع الملائكة إن حدثوها ، وقيل إن قوله : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا . . . » الآية من كلام عيسى : لما قال لها لاتحزنى ، قالت له : كيف لا أحزن وأنت معى ، لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شىء عذرى عند الناس ؟ قال لها : أنا أكفيك الكلام ، «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ »الآية . قال ذلك عبد الرحمن بن زيد ووهب[2] .

---

(١) فقد كان يأمر من نذر الامتناع عن الكلام أن يتكلم، عملا بحديث أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « بينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولايقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

(٢) تفسير الطبرى .

(فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : الفرى الأمر المختلق المصنوع . وقال الأخفش : فَرِيًّا : أى عجيباً .

(امْرَأَ سَوْءٍ) : السوء بالفتح والضم ، اسم لكل ما ينزل بالإنسان من كل شىء يسوءه ، وقيل المضموم : الضرر والمفتوح الفساد (بَغِيًّا) : فاجرة . يقال بَغَتِ المرأة تبغى بِغاءً بالكسر فَجَرت فهىَ بَغِىّ. (فى الْمَهْدِ) : المهد هنا هو الموضع يهيأُ للصبى وَيُوَطَّأُ فى رضاعه كالمِهاد. (بَرًّا بِوَالِدَتِى) : مطيعاً غير عَاقّ . (جَبَّارًا) : أى عاتيا يمتلئُ قلبه بالشدة . (شَقِيًّا) : بعيدًا عن الخير .

التفسير

٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ . .) الآية .

لما اطمأنت مريم لما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله سيدفع عنها ، سلمت أمرها لله ، واستسلمت لقضائه ، واستمسكت باصطحاب ولدها ، فأتت به قومها تحمله من المكان

القصى الذى انتبذت به ، فلما رأوها ومعها الصبى ، حزنوا حزناً شديداً ، وأعظموا أمرها ، واستنكروه بقوة ، وعلت أصواتهم محزونين .

(قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : أى شيئاً مختلقاً مُفْتَرًى ، وفى البحر أن الفَرِىَّ يستعمل فى العظيم من الأمر شرًا أو خيرًا ، قولا أو فعلا ، ويراد به هنا كونه أمرًا خطيرًا ، جديرًا بكل إنكار . . .

٢٨ - (يَآ أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ . .) الآية .

الآية استئناف قصد به تجديد تعييرهم لها ، وسخريتهم منها ، وتأكيد توبيخهم إياها لِمَا ضيعته من أمجاد أهلها ، وليس المراد هارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام لما بينهما من سنين طويلة ، وإنما هو رجل صالح فى بنى إسرائيل وكان هذا الاسم يشيع فيهم لأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم ، فكأنهم قالوا لها : يا أخت هذا الرجل فى الصلاح والتقوى فى أول أمرك ، كيف انتهيت إلى فعل هذه الخطيئة ؟ ! وقيل : هو رجل فاسد شبهت به شتمًا لها ، وقيل المراد به هارون أخو موسى عليهما السلام ، أخرج ذلك ابن أبى حاتم عن السدى وعلى بن أبى طلحة ، ووصفت بأخوتها له ، لأنها كانت من نسله ، كما يقال يا أخا العرب لمن كان منهم ، والتوجيه الأول أصح ، ففى مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قَدِمْتُ نجران سألونى فقالوا : « إنكم تقرءُون يَاأُخْتَ هَارُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قَدِمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصلحائهم » .

ومعنى هاتين الآيتين ، كيف تأتين هذا الأمر العظيم ، وقد عُرِفتِ بالصلاح والتقوى كما عُرِفَ بها هارون ، وأبوك لم يكن امرأ سوءٍ يتصف بِشَرٍّ أو فساد ، وما كانت أمك منحرفة فاجرة ، بل أنت فى ماضيك البعيد والقريب من بيئة لا ينبغى أن تُنْبِتَ إلا الطيبين الطيبات ، وفى ذلك إشارة إلى أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش من ارتكابه ممن سواهم وتنبيه على أن الفروع غالباً ما تكون زاكية إذا زكت الأُصول ، وتكون خبيثة إذا لم تكن أُصولها كذلك .

٢٩ – (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . .) الآية .

أى فأشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه وسلوه عما تريدون ، تنفيذًا لما أُمرت به ، وحينما فهموا إشارتها .

(قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) : أى قالُوا منكرين ما فهموه منها حين أشارت إلى عيسى ، متعجبين لهذا الأمر ، حيث إنه لم يعهد فيما سلف أن صبيا يكلمه عاقل ، وهو فى فراشه المهد له وفى سن رضاعه ، فكيف تكلم هذا ؟ قال السدى لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لَسُخْرِيَتُها بنا حين تأْمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها . .

٣٠ – (قَالَ إِنِّى عَبْدُ الله آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ...) الآية .

هذا كلام مستأْنف ، كأَنه قيل : فماذا كان بعد إشارتها إليه أن يكلمهم بعد أن وقع منهم ما وقع من إنكار وتعجب ، فكان الجواب : قال عيسى إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى ، وبربوبية الله لعيسى ثم ذكر فضل الله عليه حيث يقول : « آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا » أى حكم أزلا بإيتائى الإنجيل ، وإن لم يكن منزلا إذ ذاك ، وحكم كذلك بإيتائى النبوة بمعنى أَعَدَّنِى لها ، وجعلنى ذا قدرة على تحمل أعبائها .

وفى كل ما قاله تنبيه على براءة أمه ، لدلالته على اصطفائه ، والله سبحانه أجل من أن يصطفى المطعون فى نسبه وذلك من المسلمات عندهم ، ففيه من إجلال أمه بالتلميح ما ليس فى التصريح .

٣١ – (وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ . .) الآية .

أى وجعلنى ذا بركات ومنافع فى الدين ، فأى مكان وُجدت فيه فأنا مبارك ممتثل أمر ربى . وعن سفيان : جعلنى مُعَلِّم الخير ، آمرًا بالمعروف ، وناهيًا عن المنكر . (وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) : وأمرنى بأَدائهما مدة بقائى حيًّا فى هذه الدنيا أمرًا مؤكدًا ، فلا أتوانى عنهما منذ يبدأ تكليفى بهما ، حتى ينتهى أجلى ، وقد اقتصر على الصلاة والزكاة من بين ما سوف يشرعه الله فى دينه لأَهميتهما ، ويجوز أن يراد بالزكاة تطهير النفس من الرذائل وقد أوصانى بذلك . . .

٣٢ـ (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي . . .) الآية .

أى وجعلنى بارًّا بها امتثالًا لأمره بهذا البر ، فهى السبب فى وجودى فى هذه الدنيا بعد مشيئة الله تبارك وتعالى .

قال ابن عباس : لما قال : وبرًّا بوالدتى ولم يقل وبرًّا بوالدى ، علم أن هذا الصغير شىءٌ من جهة الله تعالى . ا هـ

وفى ذلك تأكيد لطهارة أمه ، وقرىء وبِرًّا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة كأنه نفس البر .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) : أى ولم يجعلنى فى علمه الأزلى مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتى ، فأكون بذلك شقيًّا عاصيًا لربى عاقًّا لوالدتى ، وقال بعض السلف لاتجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلَّا وجدته جبارًا شقيًّا .

٣٣ـ (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ . .) الآية

أى وحصنى الله بالسلامة والأمن فى الدنيا حين ولدت ، وفى القبر حين أموت ، وفى الآخرة يوم أبعث حيًّا ، فقد سَلِمَ عليه السلام فى أحواله كلها ، من غضب الله تعالى وعقابه ، وفى قوله عليه السلام تعريض بما يصيب مُتَّهِمِى مريم وأعدائها من اليهود ، من فزع واضطراب وما ينزل بهم من سوء العذاب . ونظيره « وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ »[1] . يعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، حيث كان المقام مقام معارضة وعناد فهو منه إلى نحو هذا من التعريض .

---

(١) سورة طه ، من الآية : رقم ٤٧

(ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(يَمْتَرُونَ) : يختلفون ويتخاصمون .

(سُبْحَانَهُ) : تنزيهاً له جل وعلا عن النقائص .

(إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا) : أراده وحكم به .

التفسير

٣٤ ـ (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . .) الآية .

ذلك الذى قصصنا عليك من أمره هو عيسى بن مريم ، فليس أمره كما اعتقده اليهود أو النصارى. نقول ذلك (قَوْلَ الحَقِّ) : أى القول الثابت الذى لا ريب فيه . وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف أى هو قول الحق ، يعنى ذلك أن الكلام السابق هو قول الحق فى عيسى (الذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ) : أى يختلفون ويتنازعون فى شأنه ، فيقول اليهود إنه ساحر ويتهمون أمه بما هى بريئة منه ، ويقول النصارى إنه إلٰه أو ثالث ثلاثة . وقد كذبهم الله بما سبق من الآيات وبقوله :

٣٥ ـ (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ . . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه أنه خلق عيسى عبدًا نبيا ، نزه ذاته المقدسة عن اتخاذ الولد بتكذيب فرية المفترين ودحض بهتانهم فقال تعالى : « ما كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » .

أى ما ينبغى وما يستقيم فى منطق عاقل أن يصف الله باتخاذ أى ولد لأنه سبحانه ليس من صفته اتخاذ الولد حيث إنه منزه عن الاحتياج إليه ولا إلى أحد من مخلوقاته ، « إن كُلُّ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » .

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : أى إذا أراد إيجاد أمر من الأمور تعلقت به إرادته أوجده بلا توقف بقوله كن فيكون ، فمن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، وهو من أمارات الاحتياج والنقص ، ومع دلالة الآية على تنزيهه تعالى صراحة ، فهى تشير ضمنا إلى تكذيب النصارى وتبكيتهم على قبح عقيدتهم . «ومِنْ »فى قوله «مِن ولَد.»لإفادة التأكيد وقوله : « كُن فَيَكُونُ » على ماذهب إليه كثير من أهل السنة ، تمثيل إيجاد ما تتعلق به الإرادة بلا توقف ـ تمثيله ـ بالطاعة الفورية من المأمور لآمره ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث شىء أتى بالكاف والنون ، فنى الكلام استعارة تمثيلية ، ويرى آخرون أن الأمر فى « كُنْ » محمول على حقيقته وأنه سبحانه أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكوّنها بكلمة « كُنْ » أزلا ومن ذلك عيسى عليه السلام خلق بكلمة كن فكان . . .

٣٦ ـ (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . .) الآية .

الظاهر أن هذا من تمام كلام عيسى عليه السلام وهو فى مهده ، يخبر به قومه بأن هذا الدين القيم هو دين الله الذى هو ربه وربهم ـ ويأمرهم بعبادته تعالى وبألا يشركوا به شيئاً . لأنه وحده المستحق للعبادة ، والسبيل إليه لا اعوجاج فيه ولا التواء كما يقول تعالى : (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :أى هذا الذى حدثتكم به عن الله من التوحيد طريق قويم ، من سلكه رشد وسعد ومن أعرض عنه ضل وشقى .

وروى أن عيسى بعد تبرئته لأمه بما تقدم ، عاد إلى حالة الأطفال فلم يتكلم إلا فى الوقت المناسب للكلام ولم يصل ولم يصم وهو ابن يوم أو شهر ، ولو دام نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته من وقت الولادة لكان هذا مما يُروَى ولا يكتم ، وإنما اقتصر حديثه على وقت اتهام أمه لتبرئتها ودفع الحد عنها [1] .

---

(١) انظر القرطبى ج١١ ص١٠٣ طبع دار الكتب المسألة الثالثة بعد قوله : (ولم يجعلنى جباراً شقيا) .

(فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٍ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ) : الأَحزاب جمع ،مفرده الحزب وهو الطائفة وجماعة الناس ، والمراد بالأَحزاب هنا من اختلفوا فى شأْن عيسى عليه السلام من طوائف أَهل الكتاب .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) : الويل الهلاك ، أَو هو تفجيع من هول ما ينزل أَو هو كلمة عذاب .

(فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : فى ضلال ظاهر لا يخفى على أَحد .

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) : أَى تم الفصل بين أَهل الجنة وأَهل النار .

التفسير

٣٧ـ (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبة على ما قبلها تنبيها على سوء صنيع أَهل الكتاب حيث جعلوا ما يوجب الاتفاق فى شأْن عيسى عليه السلام ، بعد أَن تكلم فى المهد مبيّنا أَنه عبد الله ورسوله ، وكلمته أَلقاها إِلى مريم ، وروح منه ـ جعلوا ذلك منشأً للاختلاف فيه فطعن اليهود فى نسبه ، وغلت فيه النصارى ، فقالت طائفة منهم هو ابن الله ، وقالت أُخرى هو ثالث

ثلاثة ، وقالت طائفة ثالثة هو الله ، وفى تهديد هؤلاء جميعا ووعيدهم يقول تعالى :

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) : أى فالهول المفزع والعذاب الأليم لهؤلاء الكافرين بعيسى عليه السلام يوم يقع الحساب والجزاءُ العظيم ، حين يتضح لهم أنه عبد الله ورسوله ، وأُمه طاهرة نظيفة العرض ، وأن الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وأن مصيرهم السعير وبئس المصير ، وإنما أخر عقوبتهم إلى يوم الحساب ، لأنه لا يعَجِّل بعقوبة من عصاه ، لعله يثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويرجع عن غيّه « وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ »(١) .

٣٨ - (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يأْتُونَنَا . . .) الآية .

أى حين يأْتوننا يوم القيامة للحساب والجزاء ، تكون أبصارهم حادة وأسماعهم قويّة فلا يكون أحد أسمع منهم ولا أبصر ، بعد أن كانوا فى دنياهم عُمياً وصُمّا ، فحالهم جدير بأَن يتعجب منه ، وقيل هو تهديد وتخويف مما سيسمعون وينظرون يوم الموقف العظيم ، مما تنخلع له قلوبهم وتسود برؤْيته وجوههم جزاءَ ما اقترفوا من صدّ وإعراض .

(لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : أى لكن الذين ظلموا أنفسهم فى الدنيا فى ضلال واضح بين ، حيث أَغْفلوا الاسماع والنظر ، فاعتقدوا كون عيسى إلها معبودا مع أنه بشر مثلهم حملته أُمه كما حملتهم أُمهاتهم ، وأَكل وشرب واحتاج ، ولكنهم فى الآخرة يزولُ ضلالهم حين يسمعون الحق ويبصرون آياته ، فيعترفون بأَنهم ظلموا أنفسهم ظلما بينا باعتقادهم الفاسد فى بنوة عيسى لله أَو أُلوهيته ، وهيهات أَن ينفعهم ذلك الاعتراف بعد فوات الأَوان . . .

٣٩ - (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أَى وأَنذر الظَّالمين أَيها النبيّ وخوِّفهم من يوم القيامة الذى يتحسّرون فيه على ما فرطوا فى دنياهم ، وذلك حين يقضى الله فى أمرهم بسوء المصير وخالد العذاب - أنذرهم فى دنياهم

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢

وخوفهم من ذلك وهم غارقون فى غفلة عن سوء مصيرهم فى هذا اليوم وحالهم أنهم لايؤمنون . فلعلهم بهذا الإنذار يفيقون من غفلتهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويؤمنون بربهم وبمحمد نبيهم ، فينجون من عذاب يوم الحسرة ، إن عذابه لأليم مقيم .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دَخل أهلُ الجنة الجنة وأهلُ النارِ النار ، يجاءُ بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون ويقولون نعم . هذا الموت . قال : فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون ويقولون نعم هذا الموت . قال : فيؤمر به فيذبح . قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة » وأشار بيده ، وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الأعمش به ، ولفظهما قريب من ذلك .

ومجىء الموت فى هذه الصورة الحسية التى أبرزت فناءه بعد أن كان يميت الناس ، تبشيرٌ لأهل الجنة ببقائهم الدائم فى نعيمهم ، وتحزينٌ لأهل النار وتيئيسٌ لهم من مفارقة ماهم فيه من شقاء .

وقال أبو حيان : الضمير لجميع الناس – والمعنى : خوِّفهم قاطبة يوم يتحسرون ، فالظالمون يتحسَّرون على ما فرطوا فى جنب الله ، والمحسنون يتحسَّرون على قلَّة إحسانهم وتوهم تقصيرهم فى طاعتهم . .

٤٠ – (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . .) الآية .

يخبر الله تعالى أنه المالك المتصرف ، وأن الخلائق كلها تهلك وتفنى ، ولا يبقى غيره سبحانه ، فيكون ميراث الأرض ومن عليها له وحده وهو خير الوارثين .

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : أى يردون إلينا يوم القيامة للجزاء والحساب لا إلى غيرنا استقلالاً عنَّا أو اشتراكاً معنا . .

(وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : القرآن . (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً) : ملازماً للصدق .

(صِرَاطاً سَوِيًّا) : أى طريقا معتدلا لاعوج فيه ، والمراد الدين القيم الخالى عن الشرك .

(كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) : أى عاصيا . إذ العصى والعاصى بمعنى واحد . يقال عصاه فهو عاصى وعصى .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) : أى نصيرا وقريناً تصاحبه فى النار .

(وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا)[1] : أى دهرًا طويلا .

(إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) : بمعنى أحاطنى بكثير من رعايته وإكرامه ، يقال حفى به كرضى ، حَفاوةً بفتح الحاء . وحِفاية بكسرها فهو حاف وحفى بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح . . . .

التفسير

٤١ ـ (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ . .) الآية .

العطف فى الآية الكريمة على « اذكر » فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ » أو على « أنذرهم » فى قوله سبحانه : « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ » أى اتل أيها النبى على قومك نبأً إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم ، وبلغهم قصته . فقد عرفوا أنهم من ولده وينتمون إليه ، ويدعون أنهم على ملته ، فعساهم يقلعون عما هم فيه من القبائح التى من أشنعها عبادة الأصنام .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا) : أى جامعاً بين ملازمة الصدق فى كل شئونه ما يأتى منها وما يدع ، وبين النبوة ، فهما وصفان متأصلان فيه وفق إعداد الله له ، وقال الكشاف : الصدِّيق من أمثلة المبالغة . والمراد أنه غلب كل من عداه فى فرط صدقه ، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله وكل ما وصل إليه عن الله تعالى ، فكان نبياً فى نفسه بخلقه وسيرته ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق وقد صدق فى قوله وعمله ، وصدّق الأنبياء والمرسلين قبله . كما يقول تعالى « بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »[2] . ومن صدقه الله بآياته ومعجزاته حرى أن يكون كذلك . انتهى باختصار .

---

(١) من الملاوة ـ مثلثة الميم ـ وهى مدة العيش ..

(٢) سورة الصافات ، الآية : ٣٧

وجملة « إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا » استئناف مسوقٌ لبيان الحكمة فى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام فى الكتاب والتنويه بشأنه ، فكأنه قيل : واذكر فى القرآن إبراهيم لأنه كان صدّيقاً نبياً ، فهو جدير بأن يذكر فيه تنويها بشأنه . .

٤٢ ـ (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَآأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ . .) الآية .

سلك إبراهيم عليه السلام فى دعوة أبيه إلى ترك عبادة الأصنام أقوم منهاج للنصح والإرشاد ،حيث التزم معه الأدب الحسن ،والتواضع الجم ،والحجة الواضحة ، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، فيعرض عن الاستماع إليه باديء ذى بدء ، وينْكُبَ عن كل طريق قويم يدعوه إلى سلوكه . فقد تقدم إليه فناداه بقوله : « يَا أَبتِ » ليحرّك فيه بهذا النداء الحانى عاطفة الأبوة ، فيستمع إلى استفهامه وهو ينكر عليه عبادة مالا يستحق أن يعبده ، حيث قال : « لِمَ تَعْبُدُ مَالا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ » أى لم تعبد مالا يسمع ثناءك عليه عند عبادتك إياه ، وما تلتمسه منه من جلب نفع أو دفع ضرّ ، ولا يبصر خضوعك له وخشوعك فى حضرته وما تقدمه إليه من صلات وقرابين ، أو لا يسمع ولايبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات ، فيدخل فى ذلك ما ذكر سابقا دخولا أوليا .

(وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا) : أى لا يقدر على أن يجلب لك نفعا أو يدفع عنك ضرا ، فهو بهذا التساؤل يطلب من أبيه الجواب عن علة عبادة هذا الذى يستخف به كل عاقل من عالم أو جاهل ويأبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هى الغايةُ البالغة من الإكبار والتعظيم ، وهى لا تحق إلا لمن له الاستغناءُ التام ، والإنعام العامة والخلْق والتكوين ، والإحياءُ والإماتة ، وفى هـذا تنبيه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لغرضَ صحيح وإدراك قويم ، فكيف يتخذ غير الله معبودًا وإن علا شأنه ،إذ أنه مثله فى الحاجة والانقياد . فما ظنك بجماد مصنوع ليس له أوصاف الأحياء ، وليس فيه غناءٌ ، إنه إفك وضلال بعيد . .

وبعد أن بين له فى رفق وحكمة ضلاله الكبير بعبادة الأصنام ، دعاه إلى الحق المبين والعلم الإلهى الذى آتاه الله إياه ، ملتزما معه أسلوب الاستمالة والاستعطاف فقال :

٤٣ - (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى . .) الآية .

لم يصف أباه بالجهل المفرط ، وإن كان قد بلغ فيه الغاية ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق الذى منحه الله إياه فهو نبىٌّ مرسل ، بل جعل نفسه معه فى صورة رفيق يصاحبه ويخلص له ، حتى يستميله إلى ما يدعوه إليه ، فيسير إلى جانبه فى طريق الهدى والرشاد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) : أى فاتبعنى إلى ما أدعوك إليه ، أرشدك إلى دين قويم يوصلك إلى أسنى المطالب ويبعدك عن الضلال المؤدى إلى أفدح المعاطب . .

والظاهر أن هذه المحاورة كانت بعد أن نُبِّىءَ ، بدليل قوله : « جَآءَنِى من الْعلم مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى جاءنى العلم بما يجب فى حقه تعالى وما يمتنع وما يجوز ، على أتمّ وجهٍ وأكمله . وقيل العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها ، وقيل بما يعم ذلك . وهو الأنسب . . . . وقد واصل إبراهيم نصحه لأبيه فقال :

٤٤ - (يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . .) الآية .

وهنا ثبطه عما كان عليه . بتصوير صنيعه بصورة يستنكرها كل عاقل . وذلك .

ما حكاه الله سبحانه بقوله : « لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ » أى لا تطع الشيطان فى عبادتك هذه الأصنام التى عكفت عليها ، فإنه هو الداعى إلى ذلك يغريك به ، ويدفعك إليه . ومن أطاعه فى معصية الله فقد عبده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا) : تعليل للنهى عن عبادة الشيطان وتأكيد له ببيان أنه لا يَعْرِف للرحمن حقا ، فلهذا كان له عصيًا ، أى كثير العصيان حين لم يمتثل أمر ربه بالسجود لآدم ، ثم حرضه على معصية ربه بالأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، حتى تسبب فى إخراجه من الجنة ، وكل من هو عاصٍ حقيق بأن ينتقم الله منه .

والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته ، لأنه أكثر قبحا ، أو لأنه مترتب على معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكير أبيه بذلك داع إلى الاحتراز عن طاعته وموالاته ، والتعبير بلفظ الرحمن مشير إلى الإنعام والرحمة منه تعالى والشناعة البالغة من الشيطان لعصيانه للرحمن سبحانه ، إذ أن رحمته تستوجب طاعته جل وعلا . . .

٤٥ ـ (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ . .) الآية.

لا يزال الحديث متصلا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه ، فإنه فى هذه الآية يحذره عاقبة عبادته للشيطان من العذاب الفظيع ، وهو فى تحذيره إياه يبرز له ما يشير إلى مزيد من المجاملة له والاعتناء به . حيث بين أنه مدفوع لذلك النصح بدافع الخوف عليه مما يُبْتلى به ،مع مراعاة الأدب معه حيثلم يصرح له بأن العذاب لا صق به ، والعقاب واقع عليه بل قال : إنى أخشى أن يمسك عذاب من الرحمن .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ ولياً) :أى قرينا له ومصاحبا إياه فى العذاب الأليم ،واللعن الدائم . ومواجهتُهُ بولاية الشيطانالتى يترتب عليها مَسُّالعذاب الشديد مع أن المقام معهمقام إظهار الشفقة عليه . لأن القسوة أحيانا تكون من الرحمة والشفقة كما قال الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

٤٦ ـ (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ . .) الآية .

تمادى أبو ابراهيم فى عناده وإصراره على كفره فقال : «أراغِبٌ أنتَ عَنْ آلِهَتِى يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ » حيث توجه إلى إبراهيم عليه السلام باستفهام يستنكر به رغبته عن آلهته وانصرافه عنها . معضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها فى تقديره مما لاينبغى أن يصدر عن العاقل ؛ فكيف بمن يعمل مع ذلك جاهدا على ترغيب غيره عنها ! ثمقال لهمحذرا ومتوعدا :

(لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) : أى لئن لم تترك ما أنت عليه من النهىعن عبادتها ، والدعوة إلى ما دعوتنى إليه من التوحيد . لأرجمنّك بالحجارة ، على ما روى عن الحسن . وقيل باللسان والمراد لأشتمنّك وروى ذلك عن ابن عباس . . .

(وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا) : أى وابتعد عنى بهجر جوارى دهراً طويلا . حتى لا يقع بك ما حذرتك منه . وقال على بن طلحة وغيره عن ابن عباس : « وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » ـ قال : سالما سويا قبل أن تصيبك منى عقوبة ، واختاره ابن جرير الطبرى : انظر ابن كثير . .

٤٧ ـ (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى . . .) الآية .

لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بما يسىءُ إليه ردعا له ، بل أجابه بما عوّده إياه من احتمال له ، وتلطف به ، ومقابلة للسَّيِّئة بالحسنة ، فقال له : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » أى أمان واطمئنان

فلا أجيبك بمكروه ، ولا أشافهك بما يؤذيك . فهو سلام توديع ومفارقة أو تقريب وملاطفة ، ولذا وعد أباه فى الآية بالاستغفار . ومن قال إن سلامه على أبيه كان تحية مفارق ، فهذا على رأى من يجوز تحية الكافر بدءًا أو إجابةً . قيل لابن عيينة هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال نعم ، قال الله تعالى : « لَايَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ[1] » الآية . « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » بمعنى أنى سأطلب منه متضرعا إليه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ، ويهديك إلى الصراط المستقيم فيكون استغفاره له مرادا منه طلب الهداية له ، والاستغفار للكافر بهذا المعنى جائز قبل موته على الكفر أو تحقق أنه لن يؤمن وكان هذا الاستغفار لأبيه على هذا النحو ناشئا عن موعدة وعدها آزر إبراهيم عليه السلام بأن يؤمن بما جاءه به فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدوّ لله تبرّأ منه كما قال تعالى : « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[2] .وقد استغفر له مدة طويلة قبل انقطاع رجائه فى إيمانه ،كما تشير إلى ذلك هذه الآية وغيرها من الآيات التى تشتمل على قصته كقوله تعالى : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »[3] .

(إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) : أى بليغا فى البر بى والإكرام لى ، فلهذا أرجو أن يجيبنى إذا دعوته . .

٤٨ ــ (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله حفاظا على دينى ، حيث لم ينفعكم ما قدمته لكم من نصح وإرشاد (وَأَدْعُو رَبِّى) : وأتجه إليه وحده بعبادتى ، كما يفهم من اجتناب غيره من المعبودات ، والمراد من الدعاء العبادة . وجوز أن يراد به الدعاء مطلقا ، فتدخل فيه العبادة لما فيها من الدعاء ، ولا يبعد أن يريد بدعائه ربه أن يطلب منه الولد ، كما فى قوله تعالى : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا) : خائبا ضائع السعى عديم الأثر ، وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم ولفظ عسى يستعمل للترجّى ، ولكنها هنا تفيد القطع بعدم

---

(١) سورة الممتحنة ، من الآية : ٨ (٢) سورة التوبة ، من الآية : ١١٤

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٤١

شقائه بدعائه ربه ، لأنَّ من يدعو الله لا يكون شقيا ، ولأن إبراهيم عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون شقيا بدعاء ربه ، ويحمل التعبير بها على التواضع وحسن الأدب ، والتنبيه على أن الإثابة والإجابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير . أفاد هذا روح المعانى...

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى فلما ترك ديار أبيه وقومه مهاجرًا إلى الشام ، أبْدَ لَهُ الله من هو خير منهم ، كما قال سبحانه : (وهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) : عن ابن عباس وغيره : آنسنا وحشته بولد ا هـ .

ونص هنا على أن الموهوب له بعد الهجرة هو إسحاق وابنه يعقوب ، لأنهما هما اللذان ولدا بالشام التى اعتزلهم إليها ، وكانا من ذرية «سارة» وهذا لا يمنع من أنه وهب له قبل ذلك إسماعيل ، فهو ابنه البكر من جاريته «هاجر» ، ويدل لذلك قوله تعالى : « أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يعْقُوبَ الْموْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحَقَ »[1] . كما يدل له التبشير بإسحق عقب قصة الذبيح مكافأة له على شروعه فى ذبحه بعد أن أُمِرَ به فى منامه ، قال تعالى فى سورة الصافات : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[2] .

ولعل ترتب هبة إسحق ويعقوب فحسب على اعتزاله لقومه لإبراز كمال النعمة التى أعطاها الله إياه ، لما خصهما به من أولاد وحفدة أولى شأن خطير وذوى عدد وفير ، وهما شجرتا الأنبياء الكثيرين ، من عرف منهم ومن لم يعرف (وكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا) : أى وكل واحد من إسحق ويعقوب وهبه الله النبوة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، فأقر الله عينه بنبوة ابنه وحفيده قبل وفاته ، بعد أن حقق له بشارة ملائكته بميلاد إسحق ومن وراء إسحق يعقوب فى حياته مع كبر سنه وعقم زوجته .

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا) : والمقصود بالرحمة التى وهب لهم كل خير دينىّ ودنيوىّ أوتوه . وقال الحسن : الرحمة النبوة . وذكرت بعد جعلهم أنبياء للإيذان بأن النبوة

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٣٣

(٢) سورة الصافات ، الآية : ١١٢

من الرحمة التى يختص بها من يشاء. وقال الكلبى : الرحمة المال والولد، والرأى الأول أشمل وأعم .

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) : أى أثنينا عليهم ثناء حسنًا ، وجعلنا جميع الأمم والملل تطريهم مهما تباعدت الأعصار ، وتعاقبت الأزمنة . وإضافة لسان إلى صدق ووصفه بقوله : « عليًّا » للدلالة على أنهم حقيقون بالثناء عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على أحد ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : المراد به هنا القرآن كما تقدم .

(مُخْلَصًا) : مختارًا ، أى أخلصه الله واختاره .

(رَسُولًا نَّبِيًّا) : رفيع القدر من النَّبْوَة بمعنى العلو والرفعة أو من النبإ وهو الخبر .

(وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) : مناجيًا من المناجاة وهى المسارَّة بالكلام .

التفسير

٥١ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا . . .) الآية .

لما أمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يذكر لقومه قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن تعظيمًا لشأنه وبيانًا لجهاده فى توحيد ربه ، عطف عليها أمره إياه بذكر نبإ الكليم عليه السلام بيانًا لقدره وثناء عليه .

والمعنى : واذكر أيها الرسول فى القرآن موسى تعظيمًا لشأنه فإنه كان مُخْلصًا من كل ما يشينه ، وقرئ بكسر اللام بمعنى أنه أخلص لله عبادته - حتى كانت منزهة عن الشرك والرياء .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا): مرسلًا إلى الخلق لتبليغ رسالة ربه وأحكام دينه ، كما كان رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه ، حيث اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، وجعله نبيًّا لقومه ، يخبرهم برسالته وما اشتملت عليه من التوحيد والشرائع .

وقد جمع له بين الوصفين : الرسالة والنبوة ، وهو تشريف له عظيم .

٥٢ - (وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا . . .) :

أى كان النداءُ مقبلًا من جانب الطور الأيمن لموسى عليه السلام ، والطور الذى حصل النداءُ من جانبه ، جبل فى سيناءَ التابعة للقطر المصرى ، ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن والبركة ، فيكون وصفًا لجانب ، أى من جانبه الميمون المبارك ، وكان موسى عائدًا من مدين إلى مصر ومعه زوجته بنت شعيب ، ومن تلك الجهة التى على يمينه أو الميمونة ظهر له كلام الله تعالى الذى ناداه به ، وقربه بسببه تقريب تكريم وتشريف ، حيث اختاره لمناجاته ومسارّته . مثّل حاله عليه السلام ، بحال من قرّبه الملك لمناجاته ، ورفع الوسائط بينه وبينه ثقة به وإعلاءً لقدره ، فالتقريب معنوى لا حسّى ، تعالى الله عن الحلول بمكان وعن الجسدية والقرب المكانى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا . . .) :

المعنى : من أجل رأفتنا بموسى عليه السلام ، ورعايتنا لشأنه ، وهبنا له مساعدة أخيه هارون ومؤازرته ، استجابة لدعوته التى طلبها بقوله : « وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى هَٰرُونَ أَخِى »[2] .ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هٰرون أن يكون نبيًّا . ذكره ابن كثير .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١

(٢) سورة طه ، الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٤ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ . . .) الآية .

الذى ذهب إليه الجمهور ، أنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو الحق ، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، بذكر موسى عليهم السلام ، لإبراز كمال العناية بأمره ثناء عليه بأشرف الخلال التى أشار إليها قوله سبحانه : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) .

وهذه الجملة تعليل لإيجاب الأمر بذكره فى الكتاب ، ووصف عليه السلام بأنه كان صادق الوعد لكمال شهرته به ببلوغه درجة من الوفاء لم تعهد من غيره ، ولا أدلّ على ذلك من أنه وَعَدَ بالصبر على الذبح بقوله : « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[1]، فوفَّى وصدق ،وقيل لم يَعِدْ ربه موعدًا إلَّا أنجزه وإنما خصه الله بالوعد الصادق ، وإن كان ذلك موجودًا فى غيره من الأنبياء تشريفًا له وإشارة إلى أنه بلغ فيه الغاية العظمى .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) : أى كان رسولًا إلى قبيلة جرهم على شريعة أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فإن أولاد إبراهيم جميعًا كانوا على شريعته . وكان « نَبِيًّا » يخبرهم بتلك الشريعة مع تبشير الطائعين وإنذار المفرطين ، والجمع لإسماعيل بين وصفى الرسالة والنبوة إشارة إلى عظيم مكانته عند الله ، وقد دلت الآية على أنه لا يشترط فى الرسول أن يكون صاحب رسالة خاصة وشريعة مستقلة ، فقد بعث إسماعيل بشريعة أبيه إبراهيم إلى جرهم ، ولعل ذلك بسبب معاصرته لأبيه إبراهيم ، وأن إبراهيم لم يكن رسولًا مباشرا لجُرْهم والله أعلم .

(١) سورة الصافات ، الآية : ١٠٢

٥٥ - (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ . . .) الآية .

هذا أيضًا من الثناء الجميل على إسماعيل عليه الصلاة والسلام لأنه كان يأمر عشيرته وذوى قرباه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والمثابرة وبذل الجهد اشتغالًا منه بالأهم ، وهو أن يبدأ بتكميلهم بعد تكميل نفسه ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِين »[1] وقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »[2] ولا شك أن الأنبياء وأهليهم قدوة لأممهم ، فلهذا كان معنيًا بتكميل نفسه وأسرته ، والمراد بالصلاة والزكاة معناهما المعروف ،فالصلاة إشارة إلى العبادة اليومية والزكاة إشارة إلى العبادة المالية . وقيل : المراد بالزكاة مطلق الصدقة ، وقيل تزكية النفس وتطهيرها .

(وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) : لاتصافه بأكمل النعوت وأشرفها ، حيث استقامت أقواله وأفعاله ، فكان عند ربه موضع الرضا والتكريم .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(وَاجْتَبَيْنَا) : واصطفينا. (خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : خر الشيء سقط وهو من باب ضرب والمراد بخرورهم سجدا :وضع جباههم على الأرض. وسجَّدا ، جمع ساجد ؛ وبُكيًّا ؛ جمع باك .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ (٢) سورة التحريم ، الآية : ٦

التفسير

٥٦ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ . . .) الآية .

إدريس عليه السلام اسمه أعجمى وليس مشتقا من الدرس لأن الاشتقاق من غير العربى لم يقل به أحد ، وهو أول من نظر فى النجوم والحساب وجعل الله ذلك من معجزاته كما فى البحر ، كما قيل إنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، فكان أول مرسل من بنى آدم .

ولكن هذه التفاصيل لم ترد فى السنة النبوية ، والله أعلم بصحتها ، وحسبنا فى أمره قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً) : أى ملازما للصدق فى كل أمر من أموره متصفاً بالنبوة تتويجا لصدقه الكامل .

٥٧ - (ورَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) : هو النبوة والزلفى عند الله تعالى لأنه كان صوّاما قوّاما ، يعبد الله ويكثر عبادته ، وقيل المكان العلى الجنة كما روى عن الحسن ، ولا شئ أعلى من الجنة ، . وقد صح فى حديث المعراج أنه صلى الله عليه وسلم رآه فى السماء الرابعة وأنه رحب به ودعا له بخير ، وعلى هذا يكون المراد من المكان العلى السماء الرابعة ، وقيل الذكر الجميل فى الدنيا وعلو المرتبة .

٥٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ . .) الآية .

إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى السورة الكريمة ، والإتيان بإشارة البعيد (أولئك) للتنبيه إلى علو مراتبهم . وبعد منازلهم فى الفضل والشرف بما أنعم عليهم سبحانه من عظيم النعم الدينية والدنيوية .

(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وممَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) : أى وممن هديناهم إلى الحق ، وشرّفناهم بالنبوة والكرامة .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به ممن حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم ، إسحق ويعقوب وإسماعيل والذى من ذرية إسرائيل[1] ، موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم .

قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه كما قيل كان جَدَّ نوح عليه السلام ، وقال القرطبى هذا خطأ .

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَـٰتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : أى إذا سمعوا كلام الله المشتمل على حججه وبراهينه أسرعوا ساجدين لربهم خضوعاً وخشوعاً واستكانة - تلهج ألسنتهم بشكره وحمده على ما وهبهم من نعم سابغة . وآلاء عظيمة ، تذرف أعينهم دموع المهابة منه . فلا ترى أحدا منهم إلا باكيا شعورا منه بالعجز عن تقدير حقه عليه كما ينبغى له ، مهما قدم من عمل وبذل من جهد ، تلك صفوة مختارة تعلقت نفوسهم بجلاله وامتلأت قلوبهم بهيبته والإذعان له . « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . . .

(۞ * فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(خَلْفٌ) : الخلْف ، بسكون اللام : الولد الطالح الشرير ، والْخَلَف ؛ بفتح اللام وسكونها الولد الصالح أو من يأتى بعد مطلقًا ، أو البدل . (غَيًّا) : الغى ؛ الضلال والهلاك أو السوء .

---

(١) إسرائيل:هو يعقوب .

٥٩ ـ (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ . . .) الآية .

أى فجاء من بعد هؤلاء الأنبياء وهم المثل العليا فى التقوى والصلاح والمحافظة على أداء الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان حافلة بالخشوع والخضوع ـ جاء من بعدهم طائفة مفطورة على الشر مستمسكة به بعيدة عن التقوى والصلاح ، متهاونة فى أداء الصلاة فى أوقاتها أو تاركة لها أو لبعض أركانها ، أو مغيّرة لصورتها المشروعة ، واتبعوا فى دينهم وسلوكهم شهواتهم . (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) : فسوف يجدون فى الآخرة ، ضلالًا عن طريق الجنة ، وعذابًا سيئًا فى جهنم « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ثم فتح باب الأمل للتائبين فقال سبحانه :

٦٠ ـ (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

أى أن الذين خلفوا الأنبياء بما يناقض عقائدهم وأعمالهم سيلقون جزاء انحرافهم غيًّا أى ضلالًا وسوء عاقبة ، لكن من رجع إلى الله وتاب عن غوايته وأناب إلى ربه وآمن به إيمانًا صادقًا وعمل عملًا صالحًا فأولئك التائبون المؤمنون الصالحون يدخلهم الله الجنة ولا يعاقبهم بما أسرفوا على أنفسهم فإن الإيمان الصادق يَجُبُّ ما قبله من السيئات ، والتوبة تمحو الحوْبة ، ورحمة ربى وسعت كل شىء ، قال تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ »[1] .

---

(١) سورة الزمر ، الآيتين : ٥٣ ، ٥٤

(جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة وثبات واستقرار .

(بِالْغَيْبِ) : الغيب ما غاب عن المشاعر .

(مأْتِيًّا) : يأتيه من وعد به لا محالة ، وقيل : (مأْتِيًّا) مفعول بمعنى فاعل أى آتيا .

(لَغْوًا) : اللغو العبث أو الضلال أو ما لا فائدة فيه من القول والعمل .

(بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : البكرة أول النهار إلى طلوع الشمس ، والعشى من الزوال إلى غروب الشمس ، والمراد : أن رزقهم دائم ، لأنه لابكرة ولاعشى فى الجنة .

التفسير

٦١ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) :

انتقلت الآيات إلى وصف الجنة التى وعد الله بها التائبين ، وقدجاء فى وصفها هنا أنها جنات عدن ، أى جنات إقامة واستقرار وثبات ، والله لا يخلف وعده ، فإن وعده آت لا محالة ، « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » [1] .

---

(١) النساء ، الآية : ٨٧

٦٢ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

ومن صفات هذه الجنات أنها خالية من العبث والفحش والضلال وما لا فائدة فيه فلا يسمعون فيها ما يعكر عليهم صفاءهم وإنما يسمعون فيها التحية وأحاديث السلام ، ويتمتعون فيها بالرزق الطيب المتاح لهم دائما ، جزاء لما قدموا من توبة وإيمان وأعمال صالحات فى دنياهم .

٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) :

هذا شروع فى تعظيم الجنة وبيان من يستحقونها ، والمعنى أن هذه الجنة أعدها الله لمن كان تقيًّا يخشى الله ويبادر بالتوبة إذا أذنب ويستمسك بالإيمان والعمل الصالح ، والتعبير عن استحقاق الجنة بميراثها للإيذان بكمال استحقاقها ، بما يشبه الميراث فى القوة والثبوت .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(نَتَنَزَّلُ) : نهبط . (مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) : ما نستقبله من الشئون المختلفة .

(وَمَا خَلْفَنَا) : ما تركناه خلفنا منها . (نَسِيًّا) : كثير النسيان . (سَمِيًّا) : شبيهًا ومثيلًا .

التفسير

٦٤ - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) :

هذا القول إما أن يكون من الأتقياء الذين ورثوا الجنة : فيكون المعنى أنهم ما يتنزلون إلى وراثة الجنة إلَّا بفضل الله الذى له ما بين أيديهم من شئون الآخرة ، وما تركوه وراءهم من أمور الدنيا وما بين ذلك من شئون البرزخ ، فهو المهيمن عليهم فى الدنيا والآخرة ، وإما أن يكون من كلام جبريل عليه السلام بأمر ربه ، يحكيه عنه القرآن الكريم ، فقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وجماعة عن ابن عباس فى سببه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »). والمعنى على هذا ـ وما ننزل إليك أو إلى شأن من شئون الملكوت برغبتنا ، وإنما ننزل بأمر ربك تنفيذًا لمشيئته ، فإن زمام جميع الأمور بيد الله وحده فهو المالك لما بين أيدينا من أمر المستقبل وهو المسيطر على ما خلفنا من شئون الماضى وما هو كائن بين الماضى والمستقبل من الحاضر ، وهو الذى يصرفنا بما يشاءُ كيف شاءَ بما تقتضيه حكمته الإلٰهية ، وهو سبحانه منزَّه عن السهو والنسيان فلن يغفل عنك فإنه ربك المنعم المتفضل الذى منَّ عليك برسالته .

٦٥ ـ (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) :

أى أنه سبحانه رب الكائنات جميعها من سموات وأرضين وما بينهما من القوى والعوالم الكونية ، فهو سبحانه الخالق المدبر فكيف ينساك أو ينسى سواك « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » [1] .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) : وبما أنه هو الخالق المدبر المسيطر على الزمان والمكان ، فتوجه أنت وأمتك إليه وحده بالعبادة واصبر على ما تقتضيه العبادة من جهود وتكاليف كما قال سبحانه : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » [2] .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) : أى أنك يا محمد لا تعلم له سبحانه مشاركًا فى اسم الربوبية للسموات والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه لا شريك له فى ذلك مطلقًا ، ومن كان كذلك وجب إفراده بالعبادة والصبر عليها .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ (٢) سورة طه ، الآية : ١٣٢

(وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(شِيعَةٍ) : جماعة متقاربة مشتركة فى الميول .

(عِتِيًّا) : طغيانًا وعصيانًا .

(صِلِيًّا) : احتراقًا .

التفسير

٦٦ - (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) :

القائل هنا أُبىٌّ بن خلف وقيل الوليد بن المغيرة ، وسواءٌ صح هذا أو ذاك سببًا لنزول الآية ، فهى عامة فى كل منكر للبعث والنشور ، أو شاك فى أن يعود حيًّا بعد أن تبلى عظامه فيقول هذا منكرًا أو متعجبًا - فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٧ - (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) :

كرر ذكر الإنسان فى التذكير بالبعث ، لأنه يتميز بالعقل وكان عليه أن يتذكر أن الله سبحانه خلقه من العدم وأنه برز إلى الحياة بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، كما قال سبحانه

لعبده ورسوله زكريا : «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » [١] . فالذى خلق الإنسان ولم يكن شيئا يذكر قادرعلى إعادته بعد الموت وقد أصبح شيئا « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » [٢].

والمعروف لدى الإنسان أن الإعادة أهون من البدء كما قال سبحانه : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » [٣] .

واعلم أن البدء والإعادة سواءٌ عند الله فى اليسر والسهولة ، فإنه سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، ولكن الله يخاطب عباده بما اعتادوا من أن الإعادة أهون عليهم من البدء ، فكيف يستبعدون البعث على الله ، وهو إعادة بعد بداية .

٦٨ــ (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) :

أقسم الله سبحانه بربوبيته مؤكدًا بعثهم بعد الموت وحشرهم إلى موقف الحساب وكل منهم مقرون بشيطانه الذى صرفه عن عبادة الله ، وجذبه إلى اتباع أهوائه وشهواته فينال كل منهما جزاءه العادل .

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) : ثم لنحضرنهم بعد الحشر والحساب إلى جهنم ليشهدوا مصيرهم المحتوم وليرى المؤمنون عاقبة الكفار وجزاءهم الرهيب وهم باركون على ركبهم ، كما قال تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » [٤].

٦٩ــ (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا) :

ثم لنخرجن للعذاب أشدهم عتوًّا وطغيانًا وتمرداً على الرحمن الرحيم ، المنعم على الجميع بالخير والفضل العظيم ، ويستمر نزع أعتاهم فأعتاهم ، إلى أن يحاط بهم ، فإذا اجتمعوا

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٩

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٤) سورة الجاثية ، الآية : ٢٨

طرحناهم فى النار على الترتيب ، فنقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم ، قال ابن مسعود فى تفسير الآية : يحبس الأول على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا : ا هـ

وذلك قوله تعالى :

٧٠ـ (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) :

ثم لنحن نعلم أكمل العلم ، ونعرف أوسع المعرفة من هو أشد استحقاقًا للاحتراق بنار جهنم منهم ، ولقد سجلنا عليهم جميع أعمالهم فى كتاب : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا »[1] لتكون حجة عليهم .

(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(وَارِدُهَا) : داخلها أو مار عليها .

(حَتْمًا مَّقْضِيًّا) : قضاء نافذًا مبرمًا .

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(مَقَامًا) : المراد بالمقام الإقامة أو موضعها

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٩

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) : الندى موضع اجتماع القوم ومكان حديثهم ، فإن تفرقوا فليس بندى قاله الجوهرى : وهم يريدون بكونهم أحسن نديًّا ، أنهم فى الآخرة فى أحسن مكان حيث يجتمعون فى الآخرة فى نَدِيِّهِمْ على فرض البعث والنشور .

التفسير

٧١ - (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) .

روى الحاكم وأحمد وابن ماجه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم بردا وسلاما حتى أن للنار ضجيجاً من بردِهِمْ) « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فيهَا جِثِيًّا » . وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فيما رواه الشيخان : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحِلَّةَ القَسَم) والمراد تقليل زمان المس ، والمقصود من القسم ما يفيده قوله سبحانه : « وإن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا... » الآية. فهو فى حكم القسم فى التأكيد ، وقد أفادت الآية أن كل إنسان يرد على النار فينجو المؤمن منها ، ويبقى الكفار فيعرف المؤمن منة الله عليه بنجاته من هذا المصير الرهيب .

٧٢ - (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) :

ثم نكتب النجاة للمتقين وندع الظالمين جاثمين فى نار جهنم .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الجميع يمرون على الصراط فيجوزه المؤمنون ويتساقط الظالمون فى جهنم ، معتمدين على ما رواه مسلم فى صحيحه : ثم يضرب الجسر على جهنم وهو دحضٌ[1] مَزَلَّة[2] ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ... فيمر المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناج مُسلَّم ، ومخْدُوش مُرْسلٌ ، ومكدوس فى نار جهنم[3] .

---

(١) الدحض: الزلق .

(٢) والمزلة: موضع الزل وهو السقوط .

(٣) أى ملقى فى جهنم مجتمع فيها مع من سبقه .

ويذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن المؤمن يرد على النار فى الدنيا ، بأن تصيبه الحمى لأنها من فيح جهنم ، كما ورد فى الحديث الشريف، روى أحمد والحاكم وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضاً بالحمّى فقال له : « أَبْشِرْ فإِنَّ الله تعالى يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكون حظه من النار يوم القيامة » وروى البزار عنه صلى الله عليه وسلم : « الحُمَّى حَظُّ أُمَّتِى مِنْ جَهَنَّم » .

٧٣ـ (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) :

أى أن من أسباب بقاء الظالمين فى جَهَنَّم جثيا ، أنهم اغترُّوا بالدنيا وفضلوا أنفسهم على المؤمنين بما نالوه من حظوظها، وانصرفوا عن سماع آيات الله الواضحة البينة القوية المعجزة قائلين : ما بالُنا إنْ كنا على باطِل ـ أكثرُ أموالا وأعزُّ نَفَرًا «وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[1] . قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى. . . »[2] .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾)

---

(١) وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين ، وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق فى دينه .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٣٥ – ٣٧ .

المفـردات :

(مِن قَرْنٍ) : القرن ؛ مائة سنة وقد يطلق على أهله .

(أَثَاثًا) : الأثاث ؛ المتاع الذى تؤثث به المساكن للانتفاع أو الزينة .

(وَرِئْيًا) : الرئى : المنظر الحسن والمظهر الجميل .

(فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) : فليمهله وليطل عمره ، وليزد فى رزقه ، استدراجًا له من الله سبحانه إلى حين .

(مَرَدًّا) : عاقبة .

التفسـير

٧٤ـ (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) :

أى وكثير من أهل القرون السابقة أهلكناهم ، وكانوا أحسن أثاثًا ومنظرًا من أهل مكة ، فليست بسطة الرزق وعلو المنزلة ووفرة القوة فى الدنيا بالدليل على رضا الله والفوز بمحبته ، فقد تكون هذه النعم استدراجًا من الله لهؤلاء المكذبين الضالين قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »[1] . فكونهم أحسن متاعًا ومنزلة وأجمل مظهرًا ، ليس بدليل على أنهم أفضل من المسلمين مكانًا عند الله فَرُبَّ جماعة ضعيفة القوة قليلة الرزق أقرب إلى الله وأفضل عنده منزلة من سواها من الجماعات الفتية القوية ، روى مسلم وأحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث مدْفوعٌ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

٧٥ـ (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا) :

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٨٢ ، ١٨٣

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق بما هم عليه من قوة ومال ، وأنكم على الباطل بما أنتم عليه من ضعف وفقر ، من كان منكم فى الضلالة ، فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، فسيعلمون حين يروْن العذاب أو الساعة من هو شر مكانًا عند الله وأضعف جندًا مِنْ سواه ، أهم هؤلاء المؤمنون الضعفاءُ الفقراءُ أم أُولئك المشركون الأقوياءُ الأغنياءُ ؟ .

٧٦ - (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . . .) الآية .

لما أخبر الله سبحانه أنه سيمد للظالمين فى ضلالهم استدراجًا لهم حتى يبغتهم بالعذاب أو بقيام الساعة ، أخبر فى مقابل هذا أنه يزيد المهتدين فى هدايتهم ويوفقهم ويعينهم على أداء الأعمال الصالحة الباقية ، فهى أفضل من بسطة الرزق وسعة الجاه والقوة والبأس الذى استدرج الله به الضالين ، ليزدادوا إثمًا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم . «حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ»(١)

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا) : وإذا كان المال والجاه والقوة فتنة لهؤلاء الضَّالِّين ، فَإِنَّ الأعمال الطيبة أفضل عند الله منزلة وأكرم مكانًا وأعظم أجرًا ، وأبقى أثرًا ، فهى الباقيات الصالحات ، وقد فسَّرها ابن عباس بالصلوات الخمس ، وقيل الباقيات الصالحات : الإكثار من ذكر الله والثناء عليه بما ألهمنا إيَّاه ، روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (... أَلَا إنَّ سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ ولَا إِلٰه إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبر هُنَّ الْباقِياتُ الصَّالِحات) وبالجملة فالإكثار من الأعمال الصالحات وترطيب اللسان بذكر الله أفضل عند الله وأدعى إلى قربهِ وأكرم لديه ممـا ينغمس فيه الضَّالون من ترف ونعيم وأحسن عاقبة عنده .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٤٤

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) : أشاهد أمور الآخرة الغائبة عنه .

(عَهْدًا) : ميثاقًا .

التفسير

٧٧ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) :

ذكر الشيخان أن هذه الآية وما بعدها نزلت فى العاص بن وائل ، روى مسلم فى صحيحه بسنده عن خباب بن الأَرَتِّ الصحابى الجليل قال : كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه ، فقال لى لن أقضيك حتى تكفر بمحمد ، قال : فقلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإنى لمبعوث بعد الموت ؟ فإذا مت ثم بُعثتُ جئتَنى ولى ثَمَّ مالٌ ولى ولد فأُعطيك . فأنزل الله : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » . إلى قوله : « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » .

فالعاص يتهكم بعقيدة البعث والنشور ويرجئ سداد دينه إلى هذا الموعد .

والاستفهام فى الآية للتعجيب والإنكار على العاص الذى يؤكد أنه سيكون صاحب مال وولد فى الآخرة وفى الدنيا .

٧٨ - (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) :

أى هل انكشف الغيب أمامه فاطلع على حالته فى الآخرة ، أم أخذ على الله موثقًا أن يغمره بفضله فى الآخرة كما غمره فى الدنيا .

٧٩ - (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) :

هذا رد على العاص بأسلوب الردع والتكذيب له فإنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ على الله عهدًا ، والمعنى أننا سنسجل عليه هذا الضلال فى سيئاته لنحاسبه عليه حسابًا عسيرًا أو نزيده عذابًا فوق عذاب .

٨٠ - (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) :

أى أنه سيموت ويغادر الدنيا ونرث أمواله وأولاده ، ولن ينال فى الآخرة إلا العذاب الأليم فإنه سيبعث يوم القيامة فردًا مجردًا من الأموال والأولاد « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] .

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(ضِدًّا) : أعداء متعاونين عليهم فى خصومتهم وتكذيبهم .

التفسير

٨١ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) :

اصطنع هؤلاء الكفار لهم آلهة غير الله ظانين أن هذه الأصنام ستكون مصدر عزة وقوة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

٨٢ - (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) :

كلا : كلمة زجر وردع لهم عما توهموه من كونها عزا لهم ، وقد أتبعه ببيان أن هذه المعبودات مصدر عداءٍ وتكذيب لهم فيما ادعوه من ألوهيتهم ، وسبب عذاب ونقمة عليهم ، كما قال تعالى : « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »[1] .
ويجوز أن يكون الضمير المرفوع فى قوله تعالى : « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » عائدا على المشركين ، أى أن المشركين بعد البعث سيدركون أنهم كانوا على ضلال فيكفرون بعبادة آلهتهم حيث لايجديهم ذلك نفعاً .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : تدفعهم دفعا . (وَفْدًا) : جماعة .

(وِرْدًا) : قوما عطاشًا واردين على جهنم ، كالبهائم تساق إلى موارد الماء .

التفسير

٨٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) :

ألم تعلم يامحمد أنا سخرنا الشياطين على الكفار تدفعهم إلى الكفر دفعا شديدا ابتلاء منا لهم ، فلم يقاوموا هؤلاء الشياطين بل استجابوا لإغرائهم وتحريضهم وانساقوا معهم

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٦

فى الضلال انسياقا ، وشبيه بهذا قوله تعالى : « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »[١]

٨٤ - (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) :

أى فلا تتعجل عليهم وقوع العذاب جزاء عتوهم وجبروتهم فإننا نعدّ لهم أعمالهم ونحسبها عليهم قبل موتهم لنعذبهم بها يوم القيامة قال تعالى : « وَمَا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[٢] .

٨٥ - (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا) :

أى أنه تعالى سيجازى الكافرين على كفرهم حينما يحشر الأتقياء إلى أرحم الراحمين لينعموا بثواب تقواهم ، قال ابن عباس وفدا يعنى ركبانا منعمين غير مجهدين .

٨٦ - (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً) :

وفى هذا اليوم الرهيب نسوق الكفار إلى جهنم حيث يذوقون ألوان العذاب والنكال جزاء كفرهم وطغيانهم فيردون عطاشا مسوقين لا إلى الماء ليشربوا منه ويطفئوا عطشهم ، بل إلى جهنم لتكون مثوى لهم .

٨٧ - (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً) :

لايستحقون الشفاعة فلا يشفع لهم أحد ، ولهذا سوف يقولون ماحكاه الله عنهم بقوله : « فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »[٣] . لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، فإنه يستحق الشفاعة ، فيؤذن له بشفاعة الشافعين ، وفسر ابن عباس العهد بقوله : العهد شهادة ألا إله إلا الله ، والتبرؤ من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله تعالى . وفسره ابن كثير بقوله : شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦

(٢) سورة هود ، الآية : ١٠٤

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٠٠، ١٠١

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

(إِدًّا) : الإد ؛ المنكر العظم .

(يَتَفَطَّرْنَ) : يتصدَّعن .

(وَلَداً) : الولد كل ما يولد ، ذكرًا كان أو أنثى ، واحدا أو اثنين أو جماعة .

(أَحْصَاهُمْ) : علم عددهم .

التفسير

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً) :

زعموا أن الله اتخذ ولدا ، فقال المشركون إن الملائكة بنات الله ، وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨٩ -(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) : أى لقد جئتم بقولكم هذا شيئاً منكرا باطلا عظيم الفرية على الله - سبحانه - .

٩٠ – (تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) :

أى توشك السموات – على تماسكها – أن تتصدع من افترائه على الله ، وأن تنشق الأرض ، وأن تتحطم الجبال وتسقط أجزاؤها ، فإن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه ، وكيف يكون لله ولد ، وهو بغير حاجة إليه ليعينه أو ليرثه كما هو شأن البشر ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، فهو حى لا يموت ، قادر لا يعجزه شىء .

٩١ – (أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) :

أى تكاد السموات والأرض أن يحدث لها ما ذكر بسبب ادعائهم ولدًا للرحمن ، فإنها فرية على الله لا تتقبلها بل تكذبها بما فيها من الإبداع ، فإنه شاهد بوحدانيته وتمام قدرته وعدم حاجته إلى اتخاذ ولد يعينه « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

٩٢ – (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) :

ولا يليق بكمال الله وعظمته أن يكون له ولد ، فإن الوالد يتخذ الولد ليكون عونا له فى شيخوخته وضعفه أو ليكون امتدادًا لحياته حين تنتهى حياته والله سبحانه غنى عن هذا كله « مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[1]

٩٣ – (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) :

أى ليس فى السموات والأرض إلا عبيدًا لله سبحانه ، وسيأتون بوصف العبودية يوم القيامة مهما كان شأنهم ، وسيحاسبهم على ما قدموه من خير وشر ، فكيف يزعم الزاعمون أن له ولدا « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

٩٤ – (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) :

لقد حصرهم وأحاط بهم علما ، وعدهم عدًا ، وأحصى عليهم أعمالهم وأفكارهم وأنفاسهم ، فلا حاجة به إلى ولد يعينه .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٥

٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) :

وكل منهم سيموت ويبلى ثم يبعثه الله ويحشره إليه منفردا وحيدا ، دون معين أو نصير سواءٌ منهم من كان عابدا أو معبودا ، أو من زعموه لله ولدا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(وُدًّا) : محبة .

(لُدًّا) : اللد ؛ جمع الألد وهو الخصم الشديد الخصومة الْمُلِحُّ فى عداوته المجادل بالباطل أو الظالم أو الفاجر

(رِكْزًا) : الركز ؛ الصوت الخفى .

التفسير

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه أحوال الطغاة العتاة ومصيرهم الأليم ذكر فى مقابلهم هنا المؤمنين وما أعده لهم من الحب وآثاره فى الدنيا والآخرة . والمعنى أن المؤمنين الذين يحملهم إيمانهم على أداء الأعمال الصالحة سيجعل لهم الرحمن الرحيم مودة فى قلوب الناس وعند الملائكة ،

ومن أجلِّ نعم الله على عبده أن يمنحه حبه وحب عباده فى السموات والأرض . روى الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم: « إذا أَحبَّ الله عَبداً نادَى جِبْرِيلَ إنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحبُّه جِبْرِيل ، فينادى جبريل فى أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللهَ يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فى الأَرض » . ويجوز أن يكون المقصود من حب الله المؤمن الذى يعمل الصالحات أن يكافئه على هذا بما يستحقه من الثواب .

٩٧ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) :

والمعنى : يا محمد إنا أنزلنا عليك كتابنا بلغتك العربية وجعلناه ميسَّرا للسامعين والقارئين لتبشر به المتقين بما ينالون من ثواب جزيل على إيمانهم ، ولتنذر به قوما يعادونك أشد العداء ، ويجادلونك بالباطل - لتنذرهم بعقاب أليم على هذه الخصومة والمجادلة فى الحق بالباطل . « وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

٩٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) :

أى وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية قبل أهل مكة ، لما كذبوا رسلهم .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) :

أى فهل تدرك بإحساسك منهم أحداً أو تسمع لهم صوتا ، فبعد أن كانت هذه الأمم تملأ الأرض ، وتتعالى على أنبيائهم وتعاديهم وتجادلهم بالباطل ، أصبحت قراهم خامدة خاوية على عروشها ، بعد أن دمرها الله على أهلها ، عقابا لهم على كفرهم ومخاصمتهم لأنبيائهم ؛ فليحذر أهل مكة هذا المصير وليعتبروا به وصدق الله إذ يقول : «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ »[1] .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٥

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٨٢ ٥٠ – ١٩٨٢ – ٤٠٠٠ ،٢٥



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثانى والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣

سورة طه

تمهيد :

هذه السورة هى العشرون فى ترتيب المصحف ، وسميت سورة طه باسم فاتحتها ، وتسمى أيضاً سورة الكليم ، لأن معظم آياتها فى قصة الكليم موسى عليه السلام ، وهى مكية ، إلا الآيتين (١٣٠ ، ١٣١) من قوله تعالى : « فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ » إلى قوله سبحانه : « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » فإنهما مدنيتان ، وعدة آياتها خمس وثلاثون ومائة .

ومن وجوه مناسبتها لسابقتها . . أنهما مكيتان ، ومبدوءتان بأسماء الحروف المتقطعة ، وأن أول هذه متصل بآخر تلك فى المعنى ، فقد ذكر فى تلك إنزال القرآن الكريم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبشيراً للمتقين وإنذاراً للمعاندين ، وفى هذه أكَّد ذلك المعنى . ومما تضمنته هذه السورة ما يلى :

١ - بيان أن إنزال القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم ، ما هو إلا للتذكرة والعظة وسعادة البشر فى الدنيا والآخرة .

٢ - تكليم الله لموسى عليه السلام بالوادى المقدس طوًى ، واختياره لرسالته التى أساسها « إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » وبهذه الرسالة أرسل الله رسله جميعاً إلى أممهم .

٣ - أمر الله تعالى لموسى عليه السلام أن يلقى عصاه « فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » وأن يخرج يده من جيبه ، فتخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى ليرى موسى بعض آيات الله الكبرى .

٤ - أمره لكليمه بعد ذلك أن يذهب إلى فرعون رسولا مؤيَّداً بهاتين الآيتين . . .

٥ - سؤال موسى ربه عزَّ وجل أن يشرح له صدره ، وييسِّر له أمره ويحل عقدة لسانه ، ليفْقَهُوا قوله ، وأن يجعل له أخاه هارون وزيراً يشاركه فى الرسالة ويعينه على أعبائها ، فقال الله مجيباً إياه فى كل ماسأل : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى » يذكره تعالى بنصره له منذ ولادته ، حيث نجاه من القتل والغرق ، وربّاه مكرّماً مع أمه فى بيت عدوه ! وقد كان يقتل من يولد فى بنى إسرائيل من الذكور . . ثم كيف نجّاه من قوم فرعون الذين ائتمروا به ليقتُلوه ، لما قتل أحدهم خطأً ، ثم ذهب إلى مدين ، وصاهر الشيخ الكبير ، ولبث فيها

أكثر من عشر سنين ، ثم سار بأهله إلى مصر محفوفاً بعناية الله وحفظه ، حتى أمره الله وهو فى سيناء أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون ليبلّغاه معاً رسالة الله تعالى ، فلما بلّغ موسى أخاه ما أمرهما الله به من تبليغ فرعون دعوته سبحانه « قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى . قَالَ لَاتَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى » . .

٦ـ وفى هذه السورة بيان مادار بين موسى وفرعون من المقاولة ، ثم ما دار بين موسى والسحرة ، وخيفته عليه السلام حين ألقوا حبالهم وعصيّهم فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فثبته الله تعالى وأوحى إليه أن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هى حية عظيمة مخيفة تبتلع كل ماألقاه السحرة ، وهنا لك آمن السحرة جميعاً برب هرون وموسى ، ولم يبالوا بوعيد الطاغية وتهديده إذ قالوا له : « فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحياةَ الدُّنْيَا » .

٧ـ وفيها انفلاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل ، وغرق فرعون لمّا تبعهم .

٨ـ وفيها فتنة السامرى ، وإضلاله بنى إسرائيل ، باتخاذه عجلاً جسدًا له خوار ، حين كان موسى عليه السلام يناجى ربه فى الطور ، ولما رجع أفزعه ما رأى من إضلال السامرىّ لقومه ، حتى عبدوا العجل الذى صنعه ، فأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ، فاعتذر أخوه عليه السلام بمخالفة بنى إسرائيل تحذيره إياهم ، ونصحه لهم ، واستمرارهم فى ضلالهم ، حتى رجع موسى عليه السلام ، وهنا أغلظ موسى قوله للسّامرىّ ، وتوعّده بأن يعيش فى الدنيا طريدًا ، وفى الآخرة معذباً ، ثم حرّق العجل ونسفه فى اليمّ نسفاً ، ليريهم ضلالتهم فى عبادته ، وجهلهم بالمعبود الحق وما ينبغى له من عظائم الصفات . قائلاً لهم :
« إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » .

٩ـ وفى السورة التذكير بالذكر الحكيم الذى آتاه الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم .. وفيه الخير كل الخير لمن أقبل عليه وعمل به ، وأما من أعرض عنه « فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيامَةِ وِزْرًا » .

١٠ـ وعقّبه بالتذكير بأهوال يوم القيامة : « يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا .. » الآيَات .

١١ – وفى السورة يصف سبحانه القرآن الكريم بأنه أنزله قرآناً عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد ، وينهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العجلة بقراءته من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وهو يتلقاه من أمين الوحى جبريل عليه السلام .

١٢ – ثم يذكر سبحانه قصة آدم عليه السلام بتفصيل غير قليل ، من أمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس وإبائه وتحذيره هو وزوجته من أن يُخْدَعَا به ، إذ قال سبحانه فى خطابه : « يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ » . ولكن الشيطان وسوس لهما وخَدعهما حتى نسيا العهد والنهى عن الأكل من الشجرة ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما . وانتهى أمرهما بإخراجهما من الجنة ، بعد أن منَّ الله عليهما بالعفو والتوبة .

١٣ – وفى السورة التذكير بأن من اتبع هدى الله فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى .

١٤ – وفيها التذكير كذلك بإهلاكه القرون الماضية ، ومشيهم فى مساكنهم ، وما فى ذلك من عبر وعظات لأولى البصائر والنهى .

١٥ – وفيها يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون من تكذيب واستهزاء ، فسيلقون جزاءهم ، ولولا كلمة سبقت منه تعالى بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لعجله لهم .

١٦ – وفى خواتيم السورة يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بتسبيحه وتنزيهه ، وبأن يأمر أهله بالصلاة . . وأن يصطبر عليها ، لأنها أساس الخير كله . . « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾)

المفردات :

(طه) : اسمان لحرفى الطاء والهاء . . ، هما فاتحة السورة ، ويأتى الكلام عليهما فى التفسير ، (لِتَشْقَىٰٓ) : لتتعب تعباً شديداً فوق طاقتك . (تَذْكِرَةً) : تذكيراً وعظة . . ، (الْعُلَى) : جمع العليا ، تأنيث الأعلى ، مقابل الدنيا تأنيث الأدنى . (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) : العرش فى اللغة : سرير الملك ويُكنى به عن السلطان والعز ، (اسْتَوَىٰ) استولى . . ويأتى فى التفسير معنى استوائه تعالى على العرش . . (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) الثَّرى . . التراب النَّدِىُّ - يقال ثَرِيَتِ الأَرض - كَنَدِيَتْ وزنا ومعنى - فهى ثَرِيَّةٌ . كَنَدِيَّة ؛ إذا نَدِيَتْ ولانت بعد الجدوبة واليُبْس - والذى تحت الثرى طباق الأرض المختلفة إلى نهايتها .

التفسير

١ - (طه) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة ببعض أسماء الحروف الهجائية ، وسورة طه . . واحدة منها . . وقد قال كثير من أئمة التفسير إنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلم المراد منها إلا هو ، وقال بعضهم إنها اسم للسورة . وقيل إنها لتنبيه السامعين ،

إلى ما يأتى بعدها من الآيات والعِبَر ، وقيل غير ذلك . وأرجح الآراء فى تأويلها أنها ترمز إلى التحدى ، بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المكون من كلمات وجمل ، ذوات حروف مما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة ، . . فمحمدٌ مثلهم . . وذلك دليل على أن القرآن من عند الله تعالى ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم فيه إلا مجرد تبليغه عن ربه . لا يزيد فيه حرفا . ولا ينقص منه حرفًا . ولا يزال إعجازه قائمًا ، والتحدى به باقيًا . ولا يزال حفظه بحفظ منزِّله خالدًا أبدًا ، كما تكفل به جل وعلا – إذ يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

٢ – (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) :

سـبب النزول :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من المشركين تعبًا مرهقًا . ويأسف أسفًا شديدًا بسبب إعراضهم عن القرآن الكريم . وعدم إيمانهم به . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية تسلية له . . وتخفيفًا عليه . . والمعنى – ما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول – ليكون سببًا فى شقائك وعنائك ، وفرط أسفك على كفر هؤلاءِ المشركين . كقوله عز وجل : « فلعلك باخِعٌ نفسك على آثَارِهِمْ إن لَّمْ يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »[2] . والشقاءُ شائعٌ فى معنى التعب والعناء ، ومنه قولهم ، سيد القوم أشقاهم ، وقولهم : أَشْقَى مِنْ رائِضِ مُهْرٍ .

وهذا الوجه فى سبب نزول الآية هو المختار ، لمناسبته للسياق ، وقوله تعالى :

٣ – (إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى) .

أى ما أنزلنا القرآن عليك إلا تذكيرًا لمن شأنه أن يخشى الله ويخافه ، لأن الذين يخشون ربهم هم المنتفعون بالقرآن ومواعظه ، وأما غيرهم فكالعدم ، ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلَّغ وذكَّر وحذَّر وأنذر ، فليس مسئولًا بعـد ذلك عن كفرهم ، فقد قال تعالى : « فَذَكِّرْ إنما أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[3] . وقال عز من قائل : « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »[4] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦
(٣) سورة الغاشية ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة الكهف ، من الآية : ٢٩

ولما ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن تذكرةً لمن يخشى . . أكد ذلك المعنى وقرره بقوله :

٤ ـ (تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَاتِ الْعُلَى) :

ووجه التوكيد أنه سبحانه نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، مرة بضمير المتكلم فى قوله : « ما أَنزَلْنَا عَلَيكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » . ومرة بضمير الغيبة فى قوله : « تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ . . » وإنما نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، تعظيماً لشأن المنزِّل ـ جل جلاله ـ وتفخيماً لشأن القرآن الذى أنزله ، وقطعاً لريبة المرتابين فى كونه منزلًا من عند الله .

والاقتصار هنا على خلق السموات والأرض ؛ لأنه سيُصَرِّح بخلق مافيهما وما بينهما وما تحت الثرى فى الآية السادسة . وتقديم خلق الأرض هنا ، لأن الأرض أقرب إلى الحسِّ ، والإنعام بها على الناس أظهر ، ووصف السموات بالعلَى ـ جمع للعليا ـ لتوكيد الفخامة ، مع مافيه من رعاية الفواصل . ثم وصف عظمته تعالى وعظمة ملكه فقال سبحانه :

٥ ـ (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) :

وعرش الرحمن جل جلاله أعظم مخلوقاته ، ولا يحيط بوصف عظمته إلا ربه ، ومن العرش تَتَنَزَّل أوامر الله فى شئون الكون كله ، دون أن يكون الله فيه ، لا ستحالة ذلك عقلا .

واستواؤه تعالى على العرش من قبيل المتشابهات التى يجب الإيمان بها وتفويض علم المراد منها إلى الله جل وعلا ، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن مشابهة الحوادث وهذا مذهب جمهور أهل السنة ، وفى ذلك يقول الإمام مالك : الاستواءُ معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود كفر ، والسؤال عنه بدعة .

ومن العلماءِ من فسر الاستواءَ على العرش بأنه كناية عن انتهاءِ تدبير الكون إلى الله سبحانه وتعالى ، بعد إتمام خلقه إياه ، دون أن يشركه فى هذا التدبير شريك ، كما لم يشركه من قبل فى إبداعه شريك .

وإنما أُضيف لله تعالى الاستواءُ على العرش وحده مع أنه سبحانه مستوٍ على الكون كله ، لأن العرش أعظم مخلوقاته ، فإذا استوى عليه وهو أعظمها فقد استوى على كل ماسواه ،

وأما تفسير الاستواء على العرش بالاستقرار فيه كما تقول المشبِّهة ، فهو باطل وكفر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » [١] . ثم بين سبحانه سعة سلطانه وشمول قدرته لجميع الكائنات فقال :

٦ - (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) :

أى له وحده عز وجل دون غيره ، جميع مافى السَّمٰوات وَمَافِى الأَرضِ ، سواء كان ذلك جزءًا منهما أو حالاً فيهما ، وله ما بينهما من كل كائن فى الجوّ كالسحاب والهواء ومالا يعلمه سواه جل وعلا ، وله ماوراء التراب من طباق الأَرض ومعادنها ومياهها الجوفية ، إلى غير ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى ، له كل ذلك خَلْقًا وملكاً وتَصرُّفًا ، وذكر ماتحت الثرى مع دخوله تحت قوله (ومافى الأَرض) لزيادة التقرير .

٧ - (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) :

والخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد أُمته ، أَو لكل مخاطب ، والمراد بالقول عمومه ، فيشمل الذكر والدعاء وغيرهما ، وقيل المراد به ذكر الله تعالى ودعاؤُه خاصة ؛

وجواب الشرط مقدر ، أى وإن تجهر بالقول فاعلم أَن الله غنى عن جهرك ؛ فإنه يعلم السر وأخفى ،

وفيه إرشاد العباد إلى أَن الجهر بالنسبة إلى الله تعالى لاداعى إليه ؛ لأَنه يعلم السر وأَخفى ؛ ما لم يكن للعبد فيه غرض شرعى كما سيأْتى .

والسرُّ ما تُحَدِّث به غيرك فى خفاء ، والأَخفى منه ماتُحدِّث به نفسك ولا تَتَفوَّه به أَصلاً . والمعنى : وإن ترفع صوتك أَيها الإِنسان بذكر الله تعالى أَو بدعائه أَو بغيرهما فإنه تعالى يعلمه ، لأَنه يعلم السر الذى تسرُّه ، ويعلم ما هو أَخفى منه مما تضمره وما توسوس به نفسك . وعلى أَن المراد بالقول ذكر الله تعالى ودعاؤُه خاصة ، فالمعنى : وإن تجهر بذكر الله تعالى ، وبدعائه كقوله جل ذكره « واذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » [٢] . وإنما ينهى عن الجهر بذكره تعالى ، مالم تدع إليه حاجة ، كالتعليم والإرشاد وتثبيت الذكر فى النفس ، ومنع الوسوسة فيجوز فى حدود الرفق والاعتدال ، قال الآلوسى : فقد صح ما يزيد على عشرين حديثاً فى أنه صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما كان يجهر بالذكر ،

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١١

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥

وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وهو محمول على اقتضاء حاجة التعليم ونحوه رفعَ الصوت ، ومن الأغراض الشرعية رفع الصوت فى تكبيرات العيد ، فرحا به وابتهاجا وتمجيدًا لله ، واعتذارًا بصدق الله لوعده ونصر عبده ، وهزمه لأعدائه المشركين ، انظر الآلوسى[1] .

٨ - (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ) :

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان أنه سبحانه وإن كانت ذاته المقدسة واحدة ، فأسماؤه وصفاته متعددة ، فقد كان المشركون يقولون : مابال محمد يدعونا إلى إله واحد وهويدعو إلٰهين ، الله والرحمن ، فقال الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ »[2] وقال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا »[3] وقد جاء الاسم بمعنى الصفة ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ »[4] أى صفوهم .

والمعنى : ذلك الذى سبقت نعوته العظيمة ، وصفاته الجليلة ، هو الله الذى لا إله إلا هو له الصفات العليا فى الحسن والكمال ، وإن كانت ذاته جل وعلا واحدة .

---

(١) فقد توسع فى الكلام على هذه الآية .

(٢) الإسراء ، من الآية : ١١٠

(٣) الأعراف ، من الآية : ١٨٠

(٤) الرعد ، من الآية : ٣٣

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) : الاستفهام للتقرير ، ويأتى بيانه فى التفسير ، وحديث موسى : خَبَرُهُ وَقِصَّتُه ، ويطلق الحديث على كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى اليقظة أو المنام . (آنَسْتُ نَارًا) : أى أبصرت نارًا إبصارًا بيِّنا لا شبهة فيه .

(بِقَبَسٍ) : أى بشعلة مقتبسة على رأس عُودٍ أو نحوه .

(إِنَّكَ بِالوَادِ المقدَّسِ طُوًى) : المقدس : المطهر ، أو المبارك ، طُوًى : اسم الوادى وهو الجانب الغربىُّ من الطور .

التفسير

٩ ، ١٠ - (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا . .) الآية . . .

هذا استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد ، الذى انتهى إليه مساق الحديث ، والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم ، للإيذان بأن حديث موسى وقصته جديرة بأن تنتقل مع الأجيال ، ولبُّ هذه القصَّة أمر التوحيد ، حيث قال الله لموسى : « إِنَّنِىٓ أَنَا اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ».

ويه ختم عليه السلام مقالهُ إذ قال : « إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » .

والاستفهام هنا للتقرير ، وفيه معنى التنبيه والتشويق ، كما تقول لصاحبك : هل بلغك الخبر الفلانىّ ؟ فيتنبه ويشتاق لسماع الخبر ، فإذا سمعه تقرر فى نفسه ، لأنه أتاه على شوق .

ويقرب من هذا المعنى ما قيل : إن حرف الاستفهام هنا بمعنى قد ، أى قد جاءك خبر موسى وقصته ، حين رأى نارا فى ابتداء الوحى إليه ، وتكليم ربه إياه ، وذلك بعد ما قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصدًا مصر بعدما طالت غيبته عنها ، فضلَّ الطريق المسلوك فى ليلة شاتيةٍ باردة مظلمة ، وجعل يقدح بزنْدٍ معه ؛ ليورى نارًا فلم يُخرِجْ شررا .

فبينما هو كذلك ، إذ ظهرت له نارٌ من جانب الجبل عن يمينه ، فاستبشر وبَشَّر أهله بما رأى ، وذلك قوله تعالى :

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّىٓ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ آتِيكم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) :

أمر أهله أن يقيموا مكانهم ، راجيًا أن يجيئهم بشعلة يقتبسها من النار التى رآها ليوقدوا منها ويستدفئوا ، أو أن يجد حول النار هاديًا يرشده إلى الطريق ، وقد تاه عنه فى ظلام الليل ، والخطاب بصيغة الجمع للزوجة والولد[١] . أو الخطاب للزوجة وحدها ، والجمع للتفخيم ، كما فى قول الشاعر يخاطب امرأة واحدة .

وإن شئتُ حرمت النساءَ سواكمو[٢] .

وكانت النار فى شجرة عنَّابٍ خضراءَ يانعة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنه .

١١ ـ (فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى) :

أى فلما بلغ مكان النار التى أبصرها ناداه ربه قائلًا : يا موسى .

---

(١) الاثنان جمع لغوى، حيث جمع أحدهما بالآخر وضم إليه ، وقد نقل عنه صلى الله عليه وسلم : الاثنان فا فوقهما جمع .
(٢) أشبعت ضمة الميم فتولدت عنها واو لضرورة الشعر .

١٢ – (إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى إنِّى أنا الله ربك الذى أُكلمك ، أى من غير واسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام كما قلنا فى تفسير قوله تعالى : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »[١] .

وتكرير ضمير المتكلم لتأْكيد الدلالة وتحقيق المراد وإماطة الشبهة ، وفى سورة النمل : « يَا مُوسَىٰٓ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[٢] .

وفى سورة القصص : « فَلَمَّآ أَتاهَا نُودِىَ مِن شاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[٣] .

ولا تعارض بين الآيات الكريمة ، فقد ناداه ربه بها كلها ، إلَّا أنه سبحانه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداءُ الكريم ، أى أنه سبحانه خاطب موسى بما يفيد هذه المعانى والصفات التى اشتملت عليها هذه النصوص المتفرقة ، فلما تكررت القصة فى سور متعددة أَعطى كل سورة جانبًا منها ، لمنع التكرار فى العبارة والله أعلم .

وأمر سبحانه كليمه بخلع نعليه ليباشر بقدميه الأَرض المقدسة ، فتصيبه بركة تكليم الله إياه فى الوادى المقدس ، ولأَن الحفاءَ أَوصل فى التواضع وحسن الأَدب ، ولذلك كان السلف الصالح يطوفون حفاةً .

وقوله تعالى : (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) : بيان لحكمة الخلع المأْمور به مع الإشارة إلى شرف البقعة وقدسها ، وقد نفذ الكليم أَمر ربه فخلعهما .

١٣ – (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) :

أَى وأَنا الله الذى أصطفيتك من الناس ، أَو من قومك للنبوة والرسالة ، فاستمع لما أُوحيه إليك ، وتقبله وتأَهب للعمل بما يقتضيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى »[٤] . ثم بين الله ما أوحاه إليه فى هذه المكالمة القدسية فقال سبحانه :

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ١٦٤
(٢) سورة النمل ، الآية : ٩
(٣) سورة القصص ، الآية : ٣٠
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٤

١٤ - (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا . . .) الآية .

أى إننى أنا الإله الواحد المعبود بالحق لا شريك لى ، والفاءُ فى قوله تعالى : (فَاعْبُدْنِي) لترتيب المأمور به على ما قبلها ، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به عز وجلَّ ، والمراد بالعبادة غاية التذلُّل والانقياد له فى كل ما يكلف به وخصت الصلاة بالذكر ، وأفردت بالأمر فى قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) مع اندراجها فى الأمر بالعبادة ، لمزيد فضلها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشُغْل القلب واللسان بذكره ، وقد سمَّاها الله إيمانًا فى قوله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »[1].
واختلف العلماءُ فى كفر تاركها كسلًا ، وأما تاركها جحدًا فلا خلاف فى كفره .

وقوله تعالى : (لِذِكْرِي) : أى لتذكرنى ، فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلَّا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو لتذكرنى فيها ، لاشتمالها على الأذكار ، أو لِذِكْرِي خاصة ، فلا تَشُبْهُ بذكر غيرى ، أو المراد بالذكر هنا ، التذكُّر ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد . عن أنس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلِّها إذا ذكرها » فإن الله تعالى قال : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) . وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : « مَنْ نَامَ عَنْ صلاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

١٥ - (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا . . .) الآية .

أى إن الساعة قادمة لا محالة ، لتحاسب كل نفس بما عملت : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[2].

(أَكَادُ أُخْفِيهَا) : أُريد إخفاءها بعدم تحديد وقتها ، ولولا ما فى الإخبار بمجيئها من اللطف وقطع الأعذار ، لما أخبرت بإتيانها ، ومع أنه تعالى أخفى وقتها فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أماراتها ، تذكيرًا للناس بها ليحذروها .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٤٣
(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

١٦ - (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) :

أى فلا يصرفنك يا موسى عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها بالعمل الصالح لا يصرفنَّك عن ذلك الكافرون الذين لا يصدقون بها ، ويتبعون هواهم بتكذيبها ، فتهلك معهم إن اتَّبعت هواهم ، وهذا النهى وإن كان ظاهرًا لموسى فالمراد به أُمته كما قال كثير من المفسرين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يصرفه عن الساعة والعمل لها صارف بموجب عصمته .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) : الاستفهام للتقرير ، ويأْتى توضيحه فى التفسير .

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) : أَعتمد عليها .

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى) : وأَضرب بها ورق الشجر ليسقط على غنمى فتأْكله والهشُّ كالهزِّ بمعنى التحريك .

(مَآرِبُ) : منافع ومصالح جمع مأْربة مثلثة الراء .

(سِيرَتَهَا الْأُولَى) : هيئتها الأُولى التى كانت عليها .

التفسير

١٧ - (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . .) :

الاستفهام هنا للتقرير ، كما تقدم آنفًا فى قوله تعالى : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على أنها عصًا عادية ، حتى إذا قلبها الله تعالى حية تسعى ، علم أنها معجزة عظيمة أعدها الله لموسى ، فازداد يقينًا وطمأْنينة وثباتًا وأنسًا .

١٨ - (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . . .) الآية .

أجاب موسى ربه فقال : هى عصاى . وبهذا تم الجواب ولكنه عليه السلام أحب المزيد من مكالمة ربه ، استئناسًا به ، وفرحًا بمناجاته ، فاغتنم الفرصة لذلك فى مقام البسط ، وذكر من منافعها أنه يعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع .

(وَأَهُشُّ بِهَا) : أى أضرب بها ورق الشجر فيسقط على غنمى فتأكله ، ثم إنه عليه السلام أجمل بقية منافع عصاه فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) : أى حاجات ومصالح أخر ، وذلك مثل ما قيل : إنه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس ، والكنانة والمخلاة والثوب ونحوها ، وإذا كان فى البريّة ركَزها وألقى عليها الكساء واستظل به ، وإذا قصر الرشاء عن الاستقاء وصله بها ، وإذا تعرضت غنمه للسباع قاتل بها ، هذا بعض ما قيل فى تلك المآرب ، والله أعلم بها .

قال ابن كثير : وقد تكلف بعضهم ليذكر شيئًا من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل : كانت تضىء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانًا ، فما كان يفر منها ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذا قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام ، وقول الآخر : إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة ! !

١٩ - (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . .) :

أمره تعالى بإلقاء العصا على الأرض ليريه من شأنها ما لم يخطر له على بال ، وليكون إلقاؤها قبل لقاء السحرة تمهيدًا لما يظهره الله تعالى على يد موسى وأخيه من المعجزات ، مع الطمأنينة ورباطة الجأش .

٢٠ - (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . .) :

فلما ألقاها موسى فوجىء بأنها حية عظيمة تمشى مسرعة على بطنها ، والحية اسم عام

يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، وقد انقلبت حين ألقاها موسى عليه السلام ثعبانا عظيمًا ، كما يفصح عنه قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »[١] .

وجاء تشبيهها بالجان من حيث الجلادة وسرعة الحركة فى قوله تعالى فى سورة النمل : « فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » .

ولا منافاة بينهما ، فإن الجان ضرب قوىٌّ من الحيات .

٢١ ـ (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . .) الآية .

لما انقلبت العصا ، بقدرة الله تعالى ثعبانًا يمشى مسرعًا مضطربًا ، خاف عليه السلام ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف ، فثبته ربه وقال له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » ثم زاده طمأنينة فقال له : (سَنُعِيدُهَا) : أى نرجعها إلى حالها الأولى ، التى كانت عليها .

وفى الآية عِدَة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليـــه السلام هى إعادة العصا إلى هيئتها الأولى ، وإيذان بأنها مسخرة له ، لئلا تعتريه شائبة زلزلة عند مجابهة السحرة .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾)

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٣٢

المفردات :

(إِلَىٰ جَنَاحِكَ) : أى إلى جنبك ، وأصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهو المراد هنا . (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) : أى من غير قبح ولا عيب ، وهو هنا كناية عن البرص .

(إِنَّهُ طَغَىٰ) : أى تجاوز الحد فى عتوه وجبروته . (اشْرَحْ لِى صَدْرِى) : وسِّع لى صدرى .

(وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى) : أى سهل لى ما أمرتنى به . (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى) : أى فك حبسة من لسانى .

(وَزِيرًا) : معاونًا من الوِزْر بمعنى الحمل الثقيل ، أو ملجأً أعتصم برأيه من الوَزَرِ ، وأصله الجبل يتحصن به ، ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقا .

(أَزْرِى) : أى قُوَّتى ، يقال آزره . . أى قواه وأعانه ، أو ظهرى .

التفسير

٢٢ - (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ آيَةً أُخْرَىٰ) :

بعد أن ذكر الله العصا آية موسى الأُولى وبرهانه على نبوته ، قفَّى عليها بذكر الآية الثانية وهى خروج يده بيضاء من غير سوء من تحت إبطه .

والمعنى : وأدخلْ يدك فى طوق قميصك ، واجعلها إلى جنبك تحت إبطك ، ثم أخرجها تخرج بيضاء من غير قبح ولا عيب ، نجعلها لك آية أخرى على نبوتك . وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، فإذا وضع يده تحت إبطه خرجت بيضاء مخالفة للونه الأَسمر ، وكانت فى بياضها تشعُّ نورًا مضيئًا كما روى عن ابن عباس .

٢٣ - (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ) :

أى افعل ما أمرناك به من إلقاءِ العصا ، وضم اليد إلى الجناح ، لنجعلك مبصرا بعض آياتنا العظمى التى لا عهد لك ولا لغيرك بمثلها ، والتى هى شاهدة على عظيم سُلْطَانِنَا ، وكامل قدرتنا ، وأنك مرسل منا .

٢٤ـ (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

انتقل النسق القرآنى بهذه الآية الكريمة من المقدمات السابقة ، إلى المقصود منها .

والمعنى : اذهب إلى ملك مصر وادعه إلى الاستقامة على طريق الحق والعدل ، فإنه جاوز الحد فى التجبر والطغيان ، حيث ادَّعى الأُلوهية ، وبغى على الرعية .

وحينما كلف الله موسى بهذا الأمر الخطير ، تضرع إلى الله عزَّ وجلَّ مستعينًا به كما حكاه الله بقوله :

٢٥ ، ٢٦ ـ (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي) :

قال موسى متضرعا إلى الله : رب وسع لى صدرى ، فلا يضيق بكبرياء فرعونَ وجبروته ، ومشقة دعوته ودعوة قومه الذين يعبدونه ، واجعله فى سعته مقبلًا على هذا الأَمر الجلل ، مستريحًا لأَدائه ، وسهل لى أمرى الذى كلفتنى به بقوة العزيمة ، والصبر والاحتمال ، وتوفيق إلى أَحسن الأَداء ، ومعرفة شئون الحق وأحوال الخلق ، لأَصل بدعوتك إلى قلوبهم .

٢٧ ـ (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) :

واجعل لسانى حين تبليغ الرسالة إلى فرعون طليقًا غير معقَّد ولا حبيس ، حتى ينطلق فى تبليغه ما تأْمرنى به ، وتكون عباراتى واضحة لكى يفهموا قولى ، ويتأَثروا بحسن أدائى .

وهذه العقدة التى فى لسانه لم نجد فى السنة النبوية بيانًا أو سببًا لها ، وقد تكلم فيها المفسرون ، فنقل ابن كثير عن ابن عباس أنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأَل ربه أن يعينه بأَخيه هٰرون ، ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح عنه لسانه ، ولم يرد فى هذا الخبر بيان سبب هذه العقدة .

وذكر الآلوسى : أنه كان فى لسانه رُتَّةٌ[1] من جمرة أَدخلها فمه وهو صغير ، وذكر كذلك قصة طويلة مشهورة على ألسنة الناس ، وقيل غيرذلك ، والله أعلم بصحة ما ذكروه ، ويبدو لنا من سكوت السنة النبوية عن بيان هذه العقدة وأسبابها ، أنها عقدة يخشى أن تحدث له عند لقائه فرعون لتبليغه أنه ليس بإلٰه ، وأن لا إلٰه إلَّا الله رب السمٰوات والأَرض ، فى

(١) الرتة : العجمة فى اللسان .

حين أنه قتل منهم قتيلًا ، وأنهم كانوا يأْتمرون به ليقتلوه ، فلهذا سأَل ربه أَن يشرح له صدره وييسر له أمره ، ويطلق لسانه فلا يتلعثم ولا ينعقد عن تبليغ أمر ربه ، وأَن يشد أزره بأَخيه هٰرون ليصدقه ويعاونه . ولا يقتضى وصفه له بأَنه أفصح منه لسانًا ، أن يكون لدى موسى رتة ولثغة فى لسانه كما قيل ، فربما كان مقصوده من ذلك أنه لا توجد لدى هٰرون أسباب يخشى أن تحبس لسانه ، كالأَسباب التى لديه ، على أنه لو فرضت زيادة هٰرون عليه فى الفصاحة ، فإن ذلك لا يقتضى وجود عيب فى لسانه ، فهو فصيح وأخوه هٰرون أفصح منه ، والله تعالى أعلم .

٢٩ ، ٣٠ - (وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى . هَٰرُونَ أَخِى) :

أى واجعل لى موازرًا ومعينًا من أهلى أقرب الناس إلَىَّ ، وهو هٰرون أخى ، ليحمل معى أعباءَ الرسالة ، من الوِزْر بكسر الواو وسكون الزاى ، بمعنى الحمل ، ويجوز أن يكون المعنى : واجعل لى هٰرون أخى ملجأً ألجأُ إليه وأعتصم به عند الشدائد ، والمكاره ، من الوَزَر بفتح الواو والزاى ، بمعنى الملجأَ .

٣١ ، ٣٢ - (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى) :

يطلق الأَزر فى اللغة على القوة وعلى الظهْر ، فعلى الأَول يكون المعنى : أَحكم يارب بأَخى هٰرون قوتى ، وأشركه يا مولاى فى تبليغ رسالتى ، وعلى الثانى يكون المعنى : اشدد به ظهرى وأشركه فيما ذكر من أمرى .

والمقصود من هذا الدعاءِ ، أن يجعلهما الله تعالى متعاونين فى تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه ، وإلى بنى إسرائيل ، أخرج ابن أَبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى : (وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى) : -نُبِّىءَ هٰرون ساعتئذٍ- حين نُبِّىءَ موسى عليه السلام .

أى أنه نُبِىءَ هٰرونُ بدعوة أخيه موسى فى وقت مكالمة الله الذى امتد حتى بشره ربه بإجابة دعائه كله كما سيأْتى ، فلهذا قال ابن عباس - نُبِىءَ هٰرون حين نُبِّىءَ موسى ، أى أنه نبئَ فى وقت المكالمة الذى كان موسى فيه قد نبىءَ ، ثم ختم موسى عليه السـلام دعاءه بما حكاه الله بقوله :

٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ - (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً) :

أى اجعل هٰرون أخى وزيرا لى ، ونبيا ورسولا معى ، لكى ننزهك كثيرا يارب عما لايليق بك من الصفات ، كالشريك والنَّظير ، والوالد والولد ، ونرد مايزعمه فرعون من ألوهيته ، وغير ذلك مما تتنزَّه عنه ساحة أُلوهيَّتك ، ياإله العالمين ولكى نذكرك ونثنى عليك بما أنت أهله ذكراًوثناءً كثيرا ،إنك كنتيارباًولاتزال بصيرا بنا ، فى سائر أحوالنا ، عليما خبيراً بنياتنا وأُمورنا منذ خلقتنا ، ومن ذلك إيماننا بك وحدك وعبادتك دون سواك بين قوم مشركين ، فلعلَّ ذلك يجعلنا أهلاً لاستجابة دعائى ياإلهى .

قال مجاهد : لايكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ، ومضطجعاً .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾)

المفردات :

(سُؤْلَكَ) : أى سؤالك ؛ والمقصود منه مطلوبه الذى سأل ربَّه .

(مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) : أنعمنا عليك فى وقت آخر بغير هذه النعمة وسيأتى بعض تفصيلها : (أَوْحَيْنَآ إِلَىٓ أُمِّكَ) : ألهمناها كما فى قوله تعالى : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» . (ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) : ولتربى تربية حسنة بعنايتى وعلمى . تقول : صنعت الفرس وأصنعته : أحسنت رعايته والقيام بشئونه .

(يَكْفُلُهُ) : يرعاه ويعنى بتربيته . (فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) : فأنقذناك من الكرب بسبب قتلك القبطى من شيعة فرعون . (مَدْيَنَ) : بلدة شعيب صهر موسى .

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى) : جئت على موعد مقدَّرٍ لإرسالك إلى فرعون .

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) : اخترتك لرسالتى . من الاصطناع بمعنى الاستخلاص . أوخلقتك لها . من الصنعة .

التفسير

٣٦ - (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى) :

أى قال الله لموسى بعد أن دعاه . قد حققنا لك ماسألت . وأجبناك لما التمست . فسنشرح لك صدرك ، ونيسّر لك أمرك . ونطلق لك لسانك . فلاتتهيب المواقف فيحتبس عن قول الحق . وسنؤزرك بنبوة أخيك هٰرون ورسالته ، فأقبل على ماكلفناك به فى حفظنا ورعايتنا وكفالتنا . ثم زاده الله اطمئنانا على رعايته له فى مهمته فقال :

٣٧ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) :

أى وبالله لقد أنعمنا عليك من غير دعاءٍ منك . أنعمنا عليك مرة أُخرى فى وقت سابق لم تكن فيه نبيًّا ولارسولا ، فكيف لاننعم عليك بما طلبته منا وقد اتخذناك نبيًّا ورسولاً ، ولقد بدأ الله هذا الامتنان بالقسم اعتناءً به . وبالمقصود منه . ثم عقَّب الله هذا الامتنان المجمل بتفصيله فقال :

٣٨ - (إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٓ أُمِّكَ مَايُوحَى . .) :

الإيحاءُ هنا . . . بمعنى الإلهام . كما فى قوله تعالى : «وأوحى ربك إلى النحل» أى ألهمها - أما الإيحاءُ عن طريق الملك . . فخاص بالأنبياء . . ولانبوة للنساء . فضلا عن

النحل ــ وهل كان هذا الإلهام فى اليقظة أم كان فى المنام ؟ والذى يظهر لنا أنه فى اليقظة ، لأن الذى يكون فى النوم يعبر عنه فى عرف القرآن بالرؤيا ، كما فى قوله تعالى ــ : «إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقد كان هذا الإلهام قويا مقنعاً ، فلهذا لم تَتَرَدَّد فى تنفيذه ،ولهذا شبهه الله بما يوحى للأنبياء ، فى قوة الاقتناع به ، والطمأنينة له .

والمعنى على هذا ــ ولقد ألهمنا أُمك فى شأنك تدبيراً اقتنعت به تماماً . لأنه كان مؤكداً فى نفسها تأكيد مايوحى إلى الأنبياء ، فإن الأرواح قد تصل من الصفاء والشفافية إلى مايجعلها تتحقق من صدق إلهامها كأنها تشاهده على الحقيقة ،ومن ذلك أن سارية كان قائدا فى إحدى المعارك النائية ، فأحسّ عمر بن الخطاب بأنه فى مأزق حرج ، فناداه وهو على منبره بالمدينة ــ ياسارية الجبل ، فسمعه سارية فلجأ برُمَاته إلى الجبل ،فانتصر على عدوه ، ولما رجع من المعركة حدث الناس بذلك وفى مثل هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ مِنْ أُمَّتِى مُحَدَّثِينَ » .

٣٩ ــ (أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ . .) الآية .

هذه الآية مفسّرة لما أوحاه الله إلى أمِّ موسى ، وكان قد ولد فى السنة التى كان فرعون يقتل فيها مواليد بنى إسرائيل من الذكور ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة مخاطبا بنى إسرائيل : «يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[1] . . »

وقيل فى سبب ذلك : إن فرعون خاف أن يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل ، يولد فى هذا العام كما رآه فى منامه ، فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم فيه ــ « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُوراً » ولهذا لم يُقْدِر فرعونَ تدبيرُه فى دفع ماقدره الله عليه ، إذ لايُغْنِى حَذَرٌ مِنْ قَدرٍ .

والمعنى : إذ أوحينا إلى أُمك ياموسى أن ضعيه فى ص[illegible] محكم [illegible] لايدخله ماءٌ ، فاطرحيه فى البحر ــ وهو النِّيل ــ يلقيه البحر بساحل فرعون .

ولما كان إلقاءُ البحر للتابوت بالساحل أمرا واجب الوقوع ، لتعلق إرادة الله به ، جُعل البحر فى النص الكريم كأنه مأمور بذلك[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٩

(٢) على سبيل الاستعارة بالكناية .

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ): المراد بهذا العدو فرعون ، وقد نفذت أم موسى ما أُلهمت به فاتخذت تابوتا محكما . ووضعت فيه موسى وألقته فى النيل ، وكان يذهب منه فرع إلى بستان فرعون - كما قيل - فرأى آل فرعون التابوت فالتقطوه وفتحوه فوجدوا فيه صبيا أَصْبَحَ الوجه ، فأحبه عدوُّ الله حبًّا شديداً بحيث لايتمالك أن يصبر عنه ، وذلك قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى) :

والمعنى :

أى وأنزلت عليك محبة منى ، إذ أحببتك وجعلت من يرونك يحبُّونك ، فأحبك فرعون وأنزلك منه منزلة الولد ، وأحبك أهله وحاشيته ، وفعلتُ ذلك لكى تربَّى وتنشأ لديه ، وفى منزله فى رعايتى وحفظى ، تلحظك عين عنايتى ، قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : «وأَلْقَيْتُ علَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » أحبه الله وحببه إلى خلقه ، وقال فى تفسير قوله سبحانه «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » : يريد أن تدبير أمرك بعينى : أى بعلمى ومشيئتى ، حيث جُعِلْتَ فى التابوت ، وحيث أُلقى التابوت فى البحر ، وحيث التقطتك جوارى امرأة فرعون ، فذهبن بالتابوت إليها مغلقاً ، فلما فتحته رأت صبياً لم يُر مثله قطُّ ، وألقى عليها محبته ، فدخلت به على فرعون ، وقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً » انتهى باختصار وتصرف[1] .

وقال ابن عطية : جُعِلَتْ عليه مَسْحَةُ جمال لايكاد يصبر عنه من رآه ، وقال النحاس فى تفسير «ولتصنع على عينى » ولكى يفعل بك الصنيعة - أى الإحسان - بحيث تربَّى بالحُنُوِّ والشفقة ، وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشىء بعينه ، إذا اعتنى به - يريد أن فى الكلام استعارة بالكناية - فليس لله عين كعيوننا ، فهو منزه عن مشابهة الحوادث ، ولكنها عين العناية والرعاية الصمدانية .

٤٠ - (إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ . .) الآية .

لما قذفت أم موسى وليدها فى اليمِّ ، صار فؤادها فارغا من الصبر لفراقه ، فقالت لأُخته : قُصِّيه وتعرفى خبره ، وكانت امرأة فرعون قد طلبت له المراضع ، فكلما عرض على مرضع

---

(١) انظره مطولا فى القرطبى .

أبى أن يرتضع منها ، حيث حرم الله عليه المراضع ، وكانت أُخته تمشى بجوار النيل ترقب مصيره ، فبصرت به عن بعد وهم لايشعرون بأنها ترقبه ، فلما علمت مصيره ورأتهم يطلبون له المراضع ، استأذنت من أجله فأذنوا لها . فأخذته ووضعته فى حجرها ، وناولته ثديها فمصه وفرح به ، كما روى عن ابن عباس ، فعرضوا عليها أن تقيم عندهم ، فقالت إنه ليس لى لبن ، ولكن هل أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون ، قالوا ومن هى ؟ قالت : أُمى ، فقالوا : ألها لبن ؟ قالت : نعم . من أخى هرون ـ وكان قد ولد قبل موسى ـ ولم يكن قد بدأ القتل فى مواليد بنى إسرائيل الذكور فوافقوا على إرضاعها إياه ، فعادت فأخبرتها ، فلما جاءته تقبل ثديها وارتضع منها ، تلك خلاصة ماروى عن ابن عباس فى قصة عودته إلى أُمه .

والمعنى : واذكر ياموسى حين كانت أُختك تمشى على الساحل لتعرف مصيرك ، فعرفت أنك انتهيت إلى دار فرعون ، وأنهم بحاجة إلى مرضع ، فقالت لهم : هل أدلكم على مرضع تتكفل برضاعه ؟ فوافقوا .

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَاتَحْزَنَ) :

أى فرددناك إليها لترضعك ، وأنت مكرم فى بيت فرعون لكى تستقر عينها ، فلاتكون زائغة أو متحركة تنظر هنا وهناك ، باحثة عن مصيرك ، أو مشفقة من شدة الحيرة على فَقْدك .

ويجوز أن تكون قرة عينها كناية عن فرحها ، يقولون : قَرَّت العين إذا بَرَدَتْ عند السرور ، وللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة ساخنة[1]

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) :

لايزال الكلام مفصلا فى بيان نعم الله على موسى قبل أن يشرفه بالنبوة والرسالة ، والنفس التى قتلها موسى نفس قبطىٍّ كان يقتتل مع رجل من بنى إسرائيل ، فاستعانه الإسرائيلى

---

(١) وعلى هذا يكون تقديم عبارة الفرح على معنى الحزن من باب تقديم التحلية على التخلية كما يقول علماء البلاغة وإن كان العكس هو الغالب .

الذى هو من شيعته على القبطى الذى هو عدوه ، وكان القبطى باغياً على الإسرائيلىّ متشبثاً به ، فلما لم يرضخ لوساطة موسى بينهما . وكزهُ بيده ، أى ضربه أو دفعه ، فقضى عليه ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، بل تأْديبه ، ولعله كان به مرض قلبى لم يحتمل معه تلك الوكزة ، فماتمنها أوعندها ، وقد جاء فى الصحيحين أن قتله كانخطأً ولم يكن عمداً .

والمعنى : وقتلت رجلا من أقباط مصر على سبيل الخطإ ، حيث كان باغيا على رجل من بنى إسرائيل . فضربته فمات ، فأَصابك الغم والحزن بسبب قتله ، لما يترتب عليه من غضب فرعون عليك ،أو اقتصاصه منك ، وخشية أن نغضب نحن عليك من أجل قتله ، فنجّيناك من هذا الغمبغفران ماحدث منك بعد ماقلت : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى » ونجيناك من نقمة فرعون بالهجرة إلى مدين ، وابتليناك بالشدائد ابتلاءً شديداً وأنت فى طريقك إلى مدين ، فرارا من نقمة عدوك لتعتاد الشدائد والصبر عليها تمهيداً لتحمل أعباءِ الرسالةِ .

٤٠ ، ٤١ - (ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى) : أى ثم جئت من مدين على الموعد الذى قدَّرت إرسالك فيه ، واخترتك لوحى رسالتى .

(ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَلَاتَنِيَا فِى ذِكْرِى) : ولاتفترا فى تبليغ رسالتى ، تقول وَنَيْتُ فى الأمر أنى فيه ونًى ونْياً ، أى تباطأْت وفترت فيه ، ويطلق الونْى أيضا على الضعف ، والكلال ، والإعياء .

(إِنَّهُ طَغَىٰ) : إنه تجاوز الحد فى الظلم والجبروت والغرور .

(يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) : يتعظ أو يخاف . (يَفْرُطَ عَلَيْنَا) : يعجل ويقابلنا بالقول الغليظ علينا يقال : فرط منى أمرٌ ، أى بدر . ومنه الفارط فى الماء ، الذى يتقدم القوم إلى الماء ، (أَسْمَعُ وأَرَىٰ) : لا تخفى علىَّ خافية من أمركما .

التفسير

٤٢ - (اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى وَلَاتَنِيَا فى ذِكْرِى) :

هذه الآية مستأنفة . لبيان المقصود من اصطناع الله لموسى ، والمراد بالآيات هنا العصا واليد ، لأنهما الآيتان اللتان ذهب بهما موسى وهٰرون أولًا إلى فرعون ، بدليل أن موسى لما كلمه الله فى طور سيناء ، أمره سبحانه أن يلقى عصاه فألقاها ، فصارت حية ، وأن ينزع يده من جيبه فنزعها فصارت بيضاء - لمَّا حدث ذلك - قال الله لموسى : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِين[1] » والتعبير عن هاتين الآيتين بصيغة الجمع فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ أَنتَ وأَخُوكَ بِآيَاتِى » إما لأن المراد من الجمع ما فوق الواحد ، وإما لأن كل آية منهما تشتمل على آيات . فانقلاب العصا حيوانا آية ، وكونها ثعبانًا عظيمًا لا يقادر قدره آية أخرى ، وكونه مسخَّرًا لموسى بحيث لا يضرّه آية ثالثة ، وعودته بعد ذلك عصا آية رابعة ، وكذلك اليد ، فإن تحولها من السُّمرة إلى البياض آية ، وكون بياضها مُؤَقَّتًا آية ثانية ، وعودتها إلى حالتها الأُولى برغبته آية ثالثة .

وأما القول بأن المراد بها الآيات التسع فلا يناسب المقام .

ومعنى الآية : اذهب أنت يا موسى وليذهب معك أخوك هٰرون بآياتى ومعجزاتى الدالة على أنكما مرسلان منى ، ولا تتباطئا أو تفترا فى تبليغ رسالتى والدعاء إلى عبادتى ، وقيل : معناه تذكَّرانى ولا تنسيانى واستمدَّا العون والتأْييد منى ، فإنه لا يتم أمركما بغير تأييدى ، وعقب الله هذا الأمر المجمل ببيان من يذهبان إليه والمقصود من إرساله وطريقة أدائهما الرسالة فقال سبحانه :

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٣٢

٤٣ ، ٤٤ – (اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) :

لم يكن هٰرون مع موسى وقت مكالمة ربه ، فقد كان موسى عائدًا من (مَدْيَنَ) بعد هجرته إليها عشر سنين عقب قتله القبطى ، وكان هٰرون مقيمًا بمصر ، حيث لم يحدث منه ما يقتضى تركه لها ، كما حدث لموسى ، والأمر موجّه إليهما مع أن هٰرون غير موجود فى ساحة الخطاب ، على سبيل تغليب الحاضر على الغائب ، ولأن هٰرون سوف يصدق أخاه حين يبلغه أمر ربه بإشراكه معه فى الرسالة إلى فرعون ، فلهذا جُعل فى حكم الحاضر المخاطب .

وروى أن هٰرون أُوحى إليه بمصر ، أن يتلقى أخاه ، وقيل : بل أُلهم ذلك ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ، وعلى أى حال فقد التقى موسى بأخيه هٰرون ، وعرف أن الله أرسله وأشركه مع موسى فى تبليغ رسالة ربه .

والمعنى : اذهب يا موسى أنت وهٰرون أخوك مصحوبَيْن بآياتى ، إلى فرعون ملك مصر ، فإنه جاوز الحدَّ فى ظلم الخلق ، وفى الغرور حيث ادعى الأُلوهية ، فادعواه إلى الإيمان بى وترك الطغيان على عبادى ، واستعملا أُسلوب اللِّين فى دعوتكما إياه إلى الهدى وترك الطغيان لعله بهذا الأُسلوب اللين البعيد عن الخشونة يتذكر عظمة الله وآياته ، ويمعن فى التأمل فيها ، أو يخاف سوء المصير الذى ينتهى إليه أهل الطغيان ، فيؤمن بربه ، وينتهى عن غروره وطغيانه .

ولفظ : (لَعَلَّ) يستعمل للرجاءِ وللتعليل ، فإن أُريد منها الرجاءُ هنا ، فالرجاءُ يكون من موسى وهٰرون .

والمعنى على هذا : فقولا لفرعون قولًا لَيِّنًا ترجوان بهذا اللين أن يتعظ أو يخاف سوء المصير فيؤْمن ، ولا يصح أن يكون الرجاءُ من الله ، لأَنه تعالى يعلم قديماً من غرور فرعون إصراره على الكفر والطغيان ، وأنه بعيد عن التذكرة والخشية ، ولكنه أرسلهما إليه ليقيما الحجة عليه ، وإن أُريد من لعل التعليل . فالمعنى : لكى يتعظ أو يخاف .

وقد استنبط من الآية أن الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ينبغى أن يكون بأُسلوب لين لا خشونة فيه ، لكى يتأَثر باللين من تدعوه إلى الخير ، فإن الخشونة فى الدعوة تأْتى بعكس المقصود ، قال تعالى لرسوله : « وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » .

وإذا كان اللين مطلوبًا من صاحب الرسالة المؤيَّد من الله تعالى ، فإنه يكون مطلوبًا من غيره بطريق الأَولى .

٤٥ ـ (قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى) :

هذا استئناف مبين لما أجابًا به ربهما بعد أن كلفهما بدعوة فرعون باللين إلى ترك ما هو عليه ، وهذا القول كان وقت مناجاة موسى لربه ،فهو من موسى وحده ، وإسناده إليهما حينئذ على سبيل التغليب ، لأن هٰرون سوف يخاف من طغيان فرعون إذا بلغه من أمر الرسالة ما لا يحبُّه ، فكأنه مشارك موسى فى هذا المقال ، فأُسند إليه مع أخيه ، ويجوز أن يكون هذا القول قد حدث منهما معا بعد أن التقى موسى بهٰرون فى مصر وأخبره بما كلفا به من قبل الله تعالى .

والمعنى : قال موسى وهرون : ربنا ومالك أمرنا إننا نخاف إن بلغنا رسالتك إلى فرعون أن يبادرنا بقول غليظ ، ويجابهنا قبل أن نقيم له الحجة ونظهر له المعجزة ، أو أن يطغى ، ويجاوز الحد فيعاقبنا أو يقتلنا .

٤٦ ـ (قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى) :

أى قال الله مطمئنًا لهما ، بعد أن أظهرا له خوفهما من فرعون ـ لا تخافا منه ولا من قومه إننى معكما بالحفظ والنصرة والحماية ، أسمع وأرى ما يدور حولكما ، فلن أمكنه منكما ، ثم حضهما على التوجه برسالته سبحانه إلى فرعون فقال :

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا بنِىٓ إِسْرآئيلَ) : المقصود بإرسالهم إطلاقهم من الأَسر كما سنشرحه إن شاءَ الله تعالى . (والسَّلَامُ عَلَى منِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) : أَى والأَمان من عقاب الله لمن اتبع الهدى الذى أَرسلَنا به .

التفسير

٤٧ – (فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) :

نرى فى هذا النص الكريم أَن الله تعالى كلف موسى وهٰرون أَن يطلبا من فرعون فى أَول لقاءٍ بينهما أَن يرسل بنى إسرائيل معهما ، ولم يكلفهما بمطالبته بالإِيمان بربه سبحانه ، فى حين أَن سورة النازعات تدل على أَنهما كلفا بأَن يهدياه أَولًا إلى معرفة ربه . فقد جاءَ فيها قوله تعالى : « اذهبْ إِلَى فِرْعوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هل لَّكَ إِلَىٓ أَن تَزَكَّى وأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وجمعًا بين النصين نقول : إن الله كلفهما بالأَمرين جميعا . وإنهما تدرجا معه ، فطلبا منه إرسال بنى إسرائيل وإطلاقهم من الأَسر . ورفع التعذيب والقتل عنهم . قبل أَن يطلبا منه تبديل اعتقاده ، فإن الأَول أَسهل عليه من الثانى .

والمراد من إرسال بنى إسرائيل معهما تخليص الأُسارى منهم . وإخراجهم من تحت جبروته . وليس المقصود التصريح لهم بالتوجه معهما إلى الشام . ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذه الجملة : « ولَا تُعذِّبْهُمْ » أَى لا تعذبهم بإبقائهم فى السجون والتسخير . فقد كان هو وقومه يستخدمونهم

عذبوه وسجنوه .

والمعنى : فاذهب يا موسى أنت وأخوك هرون إلى فرعون ، فقولا له : إننا مرسلون من الخالق الذى أنشأك ورباك ، فأطلق سراح بنى إسرائيل من السجن ومن السُّخرة ، ولا تعذبهم بأى نوع من أنواع التعذيب الذى تمارسه أنت والقبط فى إذلالهم .

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ) :

أى وقد جئناك بحجة من ربك ، على أننا مرسلون من قبله ، ولسنا مفترين على الله ، بدعوى إرساله إيانا إليك ، والسلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى الذى أرسلنا الله به ، وليس السلام هنا بمعنى التحية ، لأنه ليس فى ابتداء كلامهم كما هى العادة فى التحية ، بل هو بمعنى الأمان لترغيبه فى حسن العاقبة .

ولو جاء هذا السلام أول الكلام لتحيته منهما ، لما كان مناسبًا لما أوصاهما الله به ، من أن يقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى ، فإن مفاجأته بأنه لا تحية له ، لأنها لأهل الهدى وهو ليس منهم ، تُعتبر مفاجأة خشنة منفِّرة يقولانها بين يديه غير عابئين بمنصبه فى قومه ، وَتَمْنَعُهُ من أن يتذكر أو يخشى ، وتخالف اللين المطلوب منهما فى محادثته ، ولأنه يعتبرهما من رعيته ، وقد نشآ فى نعمته وتحت سلطانه ، وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : « والسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتبع الْهُدى » فصل للكلام . والسلام فيه بمعنى التحية ، وجاء ذلك على ما هو العادة من التسليم عند الفراغ من القول ؛ إلَّا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون ، وخصَّا به متبعى الهدى ، ترغيبًا له بالانتظام فى سلكهم : اهـ .

والصواب ما قلناه أولا ، من أن السلام هنا بمعنى الأمان ، وقد جاء فى وسط كلامهما مع فرعون وليس فى آخره ، فقد قالا له عقب ذلك : « إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ » فكأنما قالا له : والأمان على من اتبع الهدى الذى جئناك به ، لأن العذاب على من كفر به وتولى عنه .

فإن قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ خطابه لعظيم الروم بتحيته على هذا النحو حيث قال له – كما جاء فى الصحيحين : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى » فلماذا لم يؤمر موسى وهرون بمثل ذلك ؟ فالجواب : أن النبى صلى الله عليه وسلم

إنما يفعل ذلك مع هرقل فى منزلة من العزة والمنعة ، لم يكن فيها موسى وهرون كماتقدم بيانه ، فلذا أوصاهما الله تعالى بملاينته على النحو الذى جاء فى النص الكريم .

٤٨ ـ (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) :

أى وقولا لفرعون أيضاً : إنا قد أوحى الله إلينا أن العذاب فى الدنيا والآخرة على من كذبنا ، وأعرض عما جئنا به من وحى ربنا .

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(خَلْقَهُ) : ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظائف المختلفة . (ثُمَّ هَدَى) : ثم أرشد ما خلقه لما يصلحه . (فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) : أى فما شأن أهل القرون السابقة وماحالهم . (عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ)[1] : المراد بالكتاب هنا علم الله تعالى ، وقيل اللوح المحفوظ ، وقيل صحف الأعمال . (لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) : أى لا يغيب سبحانه عن شىء يحدث فيفوته علمه ، ولا ينسى شيئًا علمه جل وعلا ، والجملة مستأنفة لتأكيد علم الله بأحوال القرون الماضية ، أو لتعليل علمه بها .

التفسير

٤٩ ـ (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى) :

جاء فى الآيات السابقة أنه تعالى أمر موسى وهارون ... إلى فرعون وإخباره أنهما رسولان من ربه ، وأن يطلبا منه رفع العذاب عن بنى إسرائيل ، ويخبراه أن السلام على من اتبع الهدى ، والعذاب على من كذب وتولى .

---

(١) (عند ربى) خبر أول لقوله (علمها) و(فى كتاب) خبر ثان له . وقيل هما خبر واحد مثل : الرمان حلو حامض ، وقيل (فى كتاب) هو الخبر ، و (عند ربى) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور .

وقد جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ماحدث من فرعون بعد لقائهما إياه وتبليغه ما أُمرا بتبليغه إليه ، ولم تتحدث الآيات عن أنهما توجها إليه وأبلغاه ، اكتفاءً ببيان موقفه من رسالتهما ، فإن ذلك يؤْذن بأَنهما توجها إليه وأبلغاه فبدأ يناقشهما فيما جاءاه به .

وأول ما بدأ به مناقشته أن قال : « فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى » فأَضاف الربوبية إليهما ولم يضفها إلى نفسه مع أَنهما أفهماه أنهما رسولان من ربه الذى هو ربُّهما ، لأَنه لا يريد الاعتراف بربوبية غيره ، ولعل فرعون اختص موسى بهذا السؤَال مع أَن هارون كان معه ، لأَن موسى هو الذى قام بتبليغه ، وإلى جانبه هارون يؤيده ، ويحتمل أَن يكون للتعريض بأَنه ربه ، كما قال : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » فكأَنه يقول له : فمن ربكما يا مَنْ كنتُ لك مُربيا ، وجئتَ تنزع الربوبية منى .

وعلى أى حال فالمعنى إذًا : إذا كنتما رسولىْ ربكما الذى أرسلكما فأَخبرانى من ربكما الذى تدعونى إلى الإيمان به يا موسى .

٥٠ - (قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) :

أى قال موسى جواباً لفرعون : ربُّنا يُعْرَفُ بصفاته ، ولا يدرك بذاته ، فهو الذى أعطى كل شىءٍ ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظيفة ، وأَعطاه ما يحقق به ما خلق له ، وهداه إلى تحقيقه ، فقد أَعطى العين الصورة التى تطابق الإبصار ، وأَمدها بالقوة التى تُبصر بها وأَعطى الأُذن الشكل الذى يوافق الاسماع ، وأَمدها بالقوة التى تستمع بها ، وكذلك الأَنف واليد والرجل وغيرها ، أَعطاها الله خلقها اللائق بها والمناسب لوظيفتها ، وأَمدها بالقوة التى تحقق ما خلقت لأَجله ، وهداها لتحقيقها ، ومثل ذلك يقال فى الحيوان والنبات ، بل وفى الجماد أَيضاً ، فالعلم من آن لآخر يكشف لنا عن عجائب الكون وإنك لترى فى الذرّة وتكوينها وخصائصها ما يحيِّر العقول ، فكيف بغيرها من ملكوت الله . ! !

٥١ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) :

لما وضح الحق فى جانب موسى ، خاف فرعون أَن يتأَثر الناس بما قاله موسى ، فيكفوا عن القول بأُلوهيته ، والاندماج فى عبوديته ، فلهذا وجه إليه سؤالا يريد أن يحرجه به ،

ويظهر ضعفه أمام سامعيه ، فقال له : إن كنت رسولًا يا موسى فأَخبرْنى : ما حال أَهل القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث مفصلة ؟ ولما كان موسى عليه السلام خالى الذهن عنها حين سؤاله ، أَجابه بما حكاه الله بقوله :

٥٢ - (قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) :

أَى قال موسى : - ردًّا على فرعون - علْم أَحوال القرون الماضية يختص به ربِّى الذى أَرسلنى وما أَنا إلا عبد له تعالى ، فلا علم لى إلا بما أَخبرنى من شئون الرسالة ، وقد بلغ من علم الله أَنه تعالى لا يضل ولا يغيب عنه شىء فى الوجود ، فلا يفوته علم شىءٍ منه ابتداءً ، ولا ينسى معلوماً دخل دائرة علمه ، فقد أَحصى وأَحاط بكل شىءٍ علماً أَزلا وأَبدًا .

والمراد بالكتاب على هذا الوجه ، علم الله تعالى ، تمثيلا لثبوت معلوماته سبحانه ، وتقرّرها وتمكنه منها ، بما استحفظه العالم وقيده فى كتابه ، تقريباً للأَذهان ، لأَن علم الله بها أَقوى وأَثبت مما حوته كتب الكاتبين ، ولكون المراد ما ذكر ، عقبه بقوله : « لاَ يَضِلُّ رَبِّى ولاَ يَنسَى » وقيل : المراد به اللوح المحفوظ ، والصواب ماقلناه لأَنه هو المناسب للمقام - والله أَعلم .

وقيل : إنما سأَله عن إحصاء أَعمال القرون الأُولى وجزائها ، فأَخبره بأَنها محفوظة عند الله فى كتاب ، وسيجازيهم عليها فى الآخرة ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، ولعل المراد بالكتاب على هذا الوجه ، هو السجل الذى يكتب فيه الملك أَعمال المكلف ، ويحصيها عليه ، كما جاءَ فى قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[1] .وقوله : « وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُورًا »[2]

(١) سورة ق ، الآية : ١٨

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٣

(ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مَهْدًا) : أى مبسوطة مذ لَّلة . وهو فى الأصل مصدر مَهَد الأرض أو الفراش أى بسطه ويسّره . وفعله من باب فتح يفتح ثم أطلق المهد على كل ما يبسط ويمهد ، وغلب على فراش الصبى . (سُبُلًا) : جمع سبيل وهو الطريق . (أَزْواجًا) : أى أصنافاً ونظائر متشابهة وأطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ، أو لأن بعضها ذكر والآخر أنثى (نَبَاتٍ شَتَّى) : أى متفرق ؛ جمع شتيت ، من شتَّ الأمر أى تفرق ، وألفه للتأنيث . (وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) : أى سرحوها وأطعموها من المرعى وهو مكان الكلإ والعشب . والأنعام الماشية التى ترعى ، وهى تذكر وتؤنث ؛ وأكثر ما تطلق على الإبل ، ومفردها نَعَم بفتحتين وهو مذكر دائماً ، كما قال الفراءُ يقولون هذا نَعم ــ انظر المختار . (أُولِى النُّهى) : أصحاب العقول السديدة ، وقيل لهم ذلك لأنهم يُنتهى إلى رأيهم ، أَوْ ينْهَوْنَ أنفسهم ، ومفرده نُهْيةٌ . بضم فسكون .

التفسير

٥٣ ــ (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ..) الآية .

هذا الكلام إمّا أن يكون بقية ما أبلغه موسى لفرعون عن الله تعالى[1] ، وإما أن يكون كلام موسى قد تم ، عند قوله : « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا ينسَى » وابتدأ الكلام منه سبحانه لتعداد نعمه على عباده .

(١) وعلى هذا يكون لفظ (الذى) وصفا لربى . أو خبراً لمبتدأ محذوف ، أما على الوجه الآتى فيكون خبراً لمبتدأ محذوف فحسب .

وعلى الأول يكون المعنى : لا يضل ربى عن أحوال القرون الماضية ولاينساها ؛ ربى الذى الذى جعل لكم الأرض ممهدة كمهد الصبى ؛ مبسوطة بحيث تستطيعون التقلب فيها ، والاستقرار عليها ، والانتفاع بها ، وفتح لكم فيما بين وهادها وجبالها ووديانها سبلا وطرقا ، تسلكونها من بلد إلى بلد ؛ ومن قطر إلى قطر ؛ لتستكملوا منافعكم ، وتحققوا مآربكم ، مما يكون متيسرا لدى غيركم ، ومفقودا أو قليلا عندكم .

وعلى الثانى يكون المعنى : هو الله الذى أنعم عليكم بنعمه العظيمة ؛ حيث جعل لكم الأرض مبسوطة كمهد الصبى ، وفتح لكم فيما بينها طرقا . . الخ .

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) :

إما أن يراد من السماء السحاب ، وإما أن يراد مافوقها ، فعلى الأول يكون قد عبر بالسماء عن السحاب ، لأن كل ما علاك سماء ، ونزول الماء من السحاب أمر واضح لا ريب فيه ؛ وعلى الثانى يكون إنزاله من السماء بمعنى إنزاله بسببها ، فإن السحاب يتكون من بخار الماء الناشىء عن حرارة الشمس المسلطة على المحيطات والبحيرات ، والأرض المروية ، وفيما يلى معنى الآية على الوجهين معاً :

المعنى : وهو الذى أنزل من السحاب أو بسبب الشمس التى هى فى السماء ، أنزل ماء بقدر معلوم ، بحيث لا يضر مصلحة البشر ، فيغرقهم ، فأخرجنا به أشباهاً ونظائر من النبات ؛ متفرقة فى خصائصها ، حيث ترونها مختلفة الطعم والشكل واللون والرائحة ، مختلفة النفع للإنسان فى بناء جسده وعلاجه من أمراضه ، وللحيوان كذلك ، وهى مع اختلافها متزاوجة ، ومتشابهة فى عموم النفع والجمال والنضرة والبهجة ، كما أنها متزاوجة حيث توجد بين أصنافها الذكورة والأنوثة « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[1] .

قالوا : ومن نعمته تعالى ، أن أرزاق العباد تقوم على الأنعام ، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يستسيغون أكله ، وبعد أن بين نعمه على خلقه بإنبات أصناف النبات ، أباحها لهم ولأنعامهم بقوله :

(١) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) :

أى كلوا ما يصلح منها لأكلكم ، وأطعموا أنعامكم فى المسارح والمراعى مالا يصلح منها لكم ، إن فيما ذكر من النعم لبراهين عظيمة ، لأصحاب العقول السديدة ، التى ينهون بها النفس عن الغواية . ويبعدونها عن القبائح ، منها يستدلون على وجود الخالق العظيم ، والمدبر الحكيم . والبرّ الرحيم .

* (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) : أى ومن الأرض نخرجكم مرة ثانية حين البعث والحساب ، والتّارة كل فعلة متجددة . (أَبَى) : امتنع عن الإيمان وكرهه ، يقال أباه إباءً وإباءة بكسر همزتها الأولى كرهه . (مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ) : أى وعدًا أو زمانًا موعودًا نلتزم به . (مَكَاناً سُوًى) : بضم السين وكسرها أى مكاناً منتصفاً تستوى مسافته بيننا وبينك ، أو مستوياً ليس به ارتفاع أو انخفاض . (يَوْمُ الزِّينَةِ) : هو يوم عيد لهم يجتمعون فيه مع البهجة والزينة . (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) : الضحى يؤنث ويذكر ، ووقته حين ارتفاع الشمس بدون إبعاد فى الارتفاع .

(فَجَمَعَ كَيْدَهُ) : أى مكره وحيل سِحْرِه . (وَيْلَكُمْ) : دعاءٌ عليهم بالويل وهو الهلاك . (فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ) :أى فيستأصلكم به ، يقال : أسحته وسحته بفتح الحاء . بمعنى أهلكه . (وقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) : أى خسر وهلك من اختلق الكذب .

التفسير

٥٥ - (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) :

المعنى : من الأرض بدأنا خلقكم - فإن خلق أبيكم آدم عليه السلام من ترابها وخلقه أصل لخلق كل فرد من أفراد البشر ، حيث إن لكل منهم حظًّا من خلقه عليه السلام ، انطوت عليه فطرته ، وقيل المعنى : خلقنا أبدانكم من الأرض . فإن النطف التى هى أصلكم تولدت عن الأغذية التى نبتت ونمت فى تراب الأرض الممتزج بالماء . وبهذا يظهر فى وضوح أنه سبحانه خلقنا من الأرض ، (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ): أى وفى الأرض نرجعكم إذا متم وتفرقت أجزاؤكم وبليت أجسادكم ، وإيثار التعبير بقوله : « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ »على « وإليها نعيدكم .. » للإشارة إلى الاستقرار الطويل بعد العودة إليها .

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) :أى ونخرجكم من الأرض ونحييكم مرة أخرى للبعث والحساب والجزاء ، وكون هذا الإخراج حصل مرة أخرى ، باعتبار أن خلق أبينا آدم من الأرض إخراج لنا منها أولا ، وإن لم يكن إخراج البدء وإخراج الإعادة متساويين من كل وجه ، وهذه الآية كقوله تعالى : « قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ »[1] .

٥٦ - (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ) :

حكاية لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعنة الله ، وقد صدرت الآية بالقسم إظهارًا لكمال العناية بما تضمنته من الآيات الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وأنها عرضت على فرعون فعاينها كلها وأبصر إعجازها .

والمراد بالآيات التى شاهدها فرعون ، جميع المعجزات ما يتصل منها بالتوحيد ، وما يتصل منها بنبوة الكليم ، قصدًا إلى إلزامه الحجة ، حتى يستجيب إلى دعوة الحق ، ويتخلى عن

---
(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٥

الكفر والعناد ، ولكنه عكس الآية ، وجعل أسباب الهدى والطاعة ، دوافع إلى الزيغ والتمادى فى الضلال وهذا مايحكيه الله تعالى بقوله : (فَكَذَّبَ وَأَبَى) أى فكذب بالآيات ، أوكذب موسى عليه السلام من غير تردد أوتأخر ، وكره الإيمان وأعرض عنه جحودا واستكبارًا .

٥٧ ـ (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى) :

الآية بيان لكيفية تكذيب فرعون وإبائه ، أى قال : نحن ننكر عليك مجيئك إلينا ، لإنجاء بنى إسرائيل من بيننا ، بل لإخراجنا من أرض مصر بما أظهرته من السحر ، حتى تكون خالصة لك ولقومك . فكيف تخرجنا منها بسحرك ! وهى أرضنا وأرض أجدادنا ، وإنما قال ذلك ، لحمل قومه على بغضه ومقته ، وإثارتهم للانتقام منه ، حيث أوضح لهم أن مراده ليس إنجاء بنى إسرائيل وتخليصهم ، بل إخراج المصريين من أرضهم ، والاستيلاء على أموالهم ، واسترقاق ذراريهم ، حتى يبتعدوا عنه ، ويبالغوا فى عداوته ومدافعته .

وتسمية المعجزة سحرًا ، لأنه لم يدرك حقيقتها بعد ، ولهذا توعد موسى بأنه سيأتيه بسحر مثلها على أيدى سحرته فقال :

٥٨ ـ (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ . .) الآية .

أى مادام الذى جئت به سحرًا فلنعارضك بسحر مثل الذى أتيتنا به ، ليتبين للناس أنه من صنعك ، وليس هو من عند ربك ، ثم قال لموسى عليه السلام :

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلآ أَنتَ) : أى فاجعل لاجتماعنا بك وعدًا أو زماناً موعوداً ، لا يقع إخلافه منا ولا منك ، وإنما نلتزم جميعاً الوفاء به ، واجعل موعدنا معك (مكاناً سُوًى) : أى اجعله فى مكان نَصَفٍ وعَدلٍ ، تستوى مسافته بيننا وبينك ، وبهذا قال كثير من أهل التفسير . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى زيد أنه قال : «مكاناً سوى» أى مكاناً مستوياً من الأرض ، بحيث يرى فيه بعضنا بعضاً ، ويرى كل المشاهدين ما يصدر منك ومن السحرة ، وفيه إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه .

واختار الآلوسى ذلك فى تفسيره ، وقال إنه حسن جدًّا ، وقد فوض فرعون إلى موسى عليه السلام أمر الوعد الذى طلبه منه ، مع إعلانه الوفاءَ به ، ليثبت لنفسه أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة ، وإعداد وسائل المغالبة طال الأمر أو قصر . قاصدًا إلى إرهاب موسى عليه السلام منه ومن سحرته ، ولكنه عليه السلام فَوت عليه ماقصد إليه ، فأسرع إلى الاستجابة إلى طلبه بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

٥٩ ـ (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) :

أى وقت وعدكم يوم الزينة ، وهو يوم عيد لهم يجتمعون فيه ويمرحون ، ويفاخرون ويزدانون فيه بأنواع الزينة ، أو هو يوم سوق لهم يزينِّونه ويتزَينون له ، وقيل غير ذلك . وأياما كان المقصود به ، فهو يوم معروف عندهم بأنه يوم اجتماع لهم وزينة ، وبسبب ذلك اختاره موسى عليه السلام للاجتماع الذى طلبه فرعون ، حتى يشهد العدد الكثير بطلان معارضة السحر لخوارق الآيات النبوية ، ليكون انتصار الحق ، وخذلان الباطل فى يوم مشهود ، ويشيع أمره بين القاصى والدَّانى .

ولم يكتف موسى عليه السلام بتحديد ذلك ، بل جعل إبراز المعجزة فى وقت يكثر فيه اجتماع الناس فى ذلك اليوم حيث قال :

(وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى):أى موعدكم يوم الزينة وقت الزينة وقت أن يجتمع الناس فيه وهو وقت الضحى ، حين يبدأُ ارتفاع الشمس فى الأُفق ليكون الوقت مُتَّسعًا لأَن يأْتوا بكل ما عندهم من سحر وإفك ، قطعًا لعذرهم وإظهارًا لعجزهم ، وإبرازًا لخسرانهم ، وبعد أن استمع فرعون إلى قول موسى عليه السلام ، وقع منه ما حكاه الله جل شأْنه بقوله سبحانه :

٦٠ ـ (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) :

أى فانصرف عن المجلس بدون إبطاء ، فأَخذ فى جمع السحرة من أَرجاءِ مملكته ، للاستعانة بما لديهم من حيلٍ ومكر قائلًا : « ائْتُونى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ »[1] فجمع السحرة ، وأَخذ يرغبهم ويعدهم بالغلبة ، وعظيم المكافأَة ، وذلك ما يحكيه الله بقوله :

« قَالُوٓا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »[2] .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٧٩ (٢) الشعراء ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢

٦١ - (قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا . . .) الآية .

لم تذكر هذه الآية إتيان موسى عليه السلام الموعد للإيذان بأنه محقق لا شك فيه ، أى أنه أتى ، وعند لقائهم تحدث إليهم بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه : « قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا » : أى قال لهم موسى : عذابًا لكم وقبحا لصنيعكم الذى تخيلون به للناس أشياء لا حقائق لها ، لا تختلقوا الكذب على الله بزعمكم أن ما أتيتكم به من المعجزة سحر يمكنكم أن تَنْقَضُّوا عليه بسحركم .

(فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) : أى فيستأصلكم الله بعذاب شديد بسبب افترائكم الكذب عليه ، وقد استحق الخيبة والحرمان من رحمة الله وثوابه من اختلق عليه الكذب ، ونسب إليه مالا يصح نسبته إليه . كدعواكم فضل السحر على المعجزة المؤيدة لرسوله ، فلا تكونوا أيها السحرة من المفترين .

(فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَتَنَازَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) : أى تخاصموا بينهم فى أمر معارضته وكيفيتها .

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) . النجوى ، : المسارَّة فى الحديث ، وإسرار النجوى : المبالغة فى إخفائها .

(بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) : بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) : أى ائتوا بكل حيلة لكم ومكر .

(مَنِ اسْتَعْلَى) : من طلب العلا وسعى سعيه .

التفسير

٦٢ - (فَتَنَازَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) :

لما سمعوا كلامه عليه السلام حين أنذرهم وحذرهم عاقبة أمرهم ، فكَّروا فيما طرق أسماعهم فتناولوا أمرهم الذى طلب منهم أن يفعلوه ، وهو مغالبة موسى والانتصار عليه . وتشاوروا بينهم فى رسم الطريقة الناجحة فى معارضته والانتصار عليه ، وأَسرُّوا الحديث الذى دار بينهم مبالغة فى إخفائه عن موسى وهرون عليهما السلام . وكانت نتيجة نجواهم - على ما قاله جماعة منهم الجبَّائى وأبو مسلم - ما حكاه قوله تعالى :

٦٣ - (قَالُوٓا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ . . .) الآية .

أى صدر عنهم بعد المناقشة والمناظرة قولهم الذى اتفقوا عليه وأكدُوه . وهو اتهام موسى وهرون عليهما السلام بالسحر . وأنهما خبيران بصناعته . يريدان أن تكون لهما الغلبة عليكم ، وأن يستتبعا الناس لهما . ويقاتلاكم فينتصرا عليكم ويخرجاكم من أرضكم مصر بسحرهما الذى أظهراه .

(وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) : أى يبطلا مذهبكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها وهو ما كان عليه فرعون ، وإنما يفعلان ذلك رغبة منهما فى إظهار مذهبهما وإعلاء دينهما . وقيل : ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى . وهم أشرافكم وذوو الرأى فيكم ، ولقد جاء هذا الرأى من السحرة فى حق موسى وهرون ، متابعةً منهم لفرعون وموافقةً على ما قاله للملإ حوله ، وذلك ما حكاه فى سورة الشعراء : « قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٢٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٥) »[١] .

٦٤ - (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا . . .) الآية .

كأن بعضهم قال لبعض : ما دام أمر موسى وهرون كما ذكر من كونهما ساحرين يبتغيان الاستيلاء على أرض مصر ، وإخراجكم منها ، فأجمعوا كل كيْد لكم ، وكونوا صفًّا واحدًا ورأيًا مجتمعًا ، بحيث ترمون به عن قوس واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى هيبتكم ، وإبراز كثرتكم ، ولذلك أثره فى أن تكون لكم الغلبة عليهما .

---

(١) ولقد جابه موسى بذلك فى قوله : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » من الآية ٥٧ من السورة .

ونقل خلاف كثير فى تعيين عدد السحرة ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان عددًا كثيرًا ، ليواجه به فرعون ذلك الموقف الرهيب الذى أحسَّ برهبته حين قال : « ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » .

(وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى) : هو الذى ختمت به الآية ، محكيًّا عن السحرة ، يؤكدون به فوزهم بالمطلوب لهم ، من المكافأة التى وعدهم بها فرعون ، إن كانوا من الغالبين .

أى . . وقد فاز بالنصر والجائزة من استعلى ، أى من علا وغلب موسى وعصاه بسحره ، وقيل : إن السين والتاء هنا للطلب ، أى وقد أفلح من استحق الموعود به من طلب العلا فبذل جهده ، وسعى سعيه بتقديم كل ما يستنصر به من تخييل وخداع ، وحيلة وخفّة يد حتى تتم لهم الغلبة يوم اللقاء .

(قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً) : الإيجاس : الإخفاء والإضمار والخوف ، أى أضمر فى نفسه الخوف مما فوجئ به . (تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا) : لَقِفَه – من باب عَلِمَ – يلقفه لقفًا بالقاف الساكنة ، ولقفا بالتحريك تناوله بسرعة ، والمراد أنها ابتلعت ما ألقوه بسرعة .

(فأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا) : أى خرّوا خاضعين لله تعالى ، وسُجدا جمع ساجد .

التفسير

٦٥ - (قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ) :

لما أتم السحرة استعدادهم ، أقبلوا على موسى عليه السلام بجمعهم الحاشد قائلين : إما أن تلقى ما عندك قبلنا ، وإما أن نكون أول من يُلْقى ما عنده ، وكان تخييرهم له عليه السلام ، إظهارًا لقوتهم وكمال ثقتهم بالانتصار عليه تقدم أو تأخر .

٦٦ - (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ) :

حينما سمع موسى عليه السلام ماخيروه به ، أجابهم باختياره أن يلقوا أولًا ، ليظهر لهم عدم اكتراثه بسحرهم ، وليبرزوا أقصى ما معهم من وسائل التمويه ، والخداع ، ويستفرغوا جهودهم فى معارضته ، لثقته بأن الله سيُظهره عليهم . فألقوا ما أعدُّوه لمنافسته ومغالبته من الحبال والعصى .

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ) : أى فألقى كل ساحر ما معه ، ففاجأ موسى عليه السلام فى هذا الوقت . . أن حبالهم وعصيهم بسبب سحرهم تتحرك وتسير ، قال الكلبى : خيل لموسى أن الأرض حياتٌ ، وأنها تسعى على بطنها .

وما وقع من موسى عليه السلام ليس أمرًا غريبًا أن يصدر من بشر رأى قومًا اشتهروا بالسحر ، وأجادوا طرقه وأحكموا وسائل التَّمويه ، وصرْف الأعين عن رؤية الواقع .

٦٧ - (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ) :

المعنى : فأضمر موسى عليه السلام فى نفسه شيئًا من الخوف من مفاجأة ما رأى بمقتضى الطبيعة البشرية عند رؤْية الأمر المخيف ، إذ هى مجبولة على النَّفْرَة من الحيَّات ، وضررها الذى اشتهرت به ، وقيل خاف أن يفتتن الناس بالسحرة ، ويغترُّوا بهم قبل أن يُلقى العصا ، ويستمروا فى اغترارهم إلى ما بعد إلقائها وفتكها بسحرهم ، تعصُّبًا منهم لبنى قومهم .

٦٨ - (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ) :

أى قلنا له : لا تستمر على خوفك الذى أضمرته فى نفسك ، لأنك أنت الغالب لهم ، المنتصر عليهم عند لقائك بهم - وغلبتك محققة لا شك فيها ، كما يؤذن بذلك النظم الكريم المشتمل على جملة من التأْكيدات لا تخفى على فطنة القارئ .

٦٩ـ (وَأَلْقِ مَافِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا . . .) الآية .

المعنى : وألق يا موسى عصاك ، وعبَّر عنها هنا بقوله سبحانه : (مَا فِى يَمِينِكَ) ، إما تصغيرًا لها ، فكأنه قيل له : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العود الصغير الجرم الذى فى يمينك ، وإما تهويلا لأمرها وتفخيمًا لشأنها ، وإشعارًا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة ، لما لها من آثار عظيمة ، وأفعال غريبة ، فكأنه قيل له : لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة ، فإن ما فى يمينك أعظم منها ، وهذه على كثرتها أضعف منها ، فألقها يا موسى : (تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) : أى إن تلقها تلقف الذى صنعوه من حبالهم وعصيهم التى تسعى ، لأن الله يحولها إلى تنين عظيم ، أى حية هائلة ، تبتلع ما ألقوه بسرعة فائقة ، والتعبير عما ألقوه بقوله : (إِنَّمَا صَنَعُوا) للإشارة إلى أن ما شوهد من سعيها ، إنما هو من تمويههم وصنعهم الذى هو كيد ساحر قصد به فتنة الناس وإضلالهم ، والتمكين لفرعون وحكمه ، وليست له حقيقة : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) :أى ولا يقدر ولا ينجو حيث جاء ، وأين أقبل ، وحيث احتال .

٧٠ـ (فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَى) :

حينما عاين السحرة ما حدث بعد إلقاء موسى عصاه ، وشاهدوه مشاهدة إمعان وتأمل ، علموا علم اليقين أن ذلك معجز وليس من قبيل السحر والتمويه ، وإنما هو حق لا شك فيه ، ولا يقدر عليه إلَّا الذى يقول للشىء كن فيكون ، لأنه بمعزل عن السحر الذى استفرغوا جهدهم للإحاطة بفنونه ، وطرقه وكل وجوهه ، وأدركوا أنه فوق قدرة البشر ، حيث تأكد لهم أن الله سبحانه هو الذى غيَّر مادة العصا إلى ثعبان عظيم أباد حبالهم وعصيهم أصلا وصورة ، ولو كان ما صنعه موسى سحرا لبقيت الحبال حبالا والعصى عصيا بعد أن أبطلت العصا سحرهم فيها ، ولما وَقَرَ هذا فى قلوبهم اتجهوا إلى موسى فوقع كل منهم على وجهه ساجدًا لله إعلانًا لتوبته وإيمانه بالله وبرسالة رسوله موسى عليه السلام ، حيث : «قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَى » وكفرنا بفرعون وبما يدعونا إليه ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير : « كانوا أول النهار سحرةً ، وفى آخر النهار شهداء بررة » : فقد قتلهم فرعون بعد إيمانهم بموسى كما سيجىءُ بيانه ، وعن عكرمة : لما خَرُّوا سُجَّدًا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة ، وقد اختلف العلماءُ فى عددِهم .فمنهم من أنهاهم إلى ثمانين ألفا ، كمحمد بن كعب ، ومنهم من قال : إنهم سبعون ألفًا كالقاسم

ابن أبى بزّة ، وقال السدّى : كانوا بضعة وثلاثين ألفًا .. إلى غير ذلك من الأقوال – والله أعلم بعددهم ، فليس أمامنا ما يدل على صحة هذه الأقوال المتباينة . والتعبير فى الآية بقوله سبحانه : « فأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا » دون فسجدوا إشارة إلى أنهم رأوْا ما ألجأهم فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين .

(قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أى وقع إيمانكم من غير أن أُبيحه لكم ، وأصل آذن ءأْأْذَنَ مضارع أَذِنَ . قلبت الهمزة الثانية الساكنة ألفًا تخفيفًا . (وَالَّذِى فَطَرَنَا) : أوجدنا.[1]

---

(١) وهو من باب خلق .

(لَن نُّؤْثِرَكَ) :[١] لن نفضلك . (لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا) :مفرد خطايا : خطيئة وهى الذنب المتعمد كالْخِطْءِبكسر الخاء ، أما الخَطَأُ بفتح الخاء فهو مالم يُتعمد ، ويريدون بخطاياهم ، الكفر والمعاصى . (جَنَّاتُ عدْنٍ) : أى جنات إقامة يقال : عدن بالمكان عدْنًا وعُدُونًا من بابىْ ضرب وقعد : أى أقام . (مَن تَزَكَّىٰ) : صلح واهتدى .

التفسير

٧١ـ (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ...) الآية .

يخبر الله سبحانه عن فرعون أنه تمادى فى عناده ومكابرته حين رأى ما أذهله من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ومن إيمان من استنصر بهم من السحرة أمام جموع الناس وحشودهم ، حين رأى ذلك توعد كل من آمن بأقسى وسائل التنكيل والتعذيب ، بسبب إيمانهم الذى أنكره عليهم أشد الأنكار ، وعدَّه جريرة تستوجب كل ما ينزل بهم من عقاب وعلى أى وجه كان ، وقد بيَّن جرمهم وفق فهمه السقيم بقوله : (آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أى أن إيمانكم بموسى عليه السلام وقع افتياتا منكم على سلطانى ، لأنه من غير أن آذن لكم به ، قال ذلك ليُرِى قومه أن إيمانهم غير معتد به حيث كان من غير إذنه ، ثم قال قولًا يعلم هو والسحرة والناس كلهم أنه افتراءٌ وبهتان ، وهو نسبته إيمانهم بموسى بعد أن غلبهم إلى أنهم تعلموا السحر من موسى ، فهو كبيرهم ومعلمهم ، فلهذا تواطئوا معه على كل ما حدث ، وقد حكى الله ذلك بقوله : (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) : أى إنه رئيسكم ومعلمكم السحر . فتواطأتم على ما فعلتم ، واتفقتم عليَّ وعلى رعيَّتى لتظهروه ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ».[٢] وقد أراد فرعون بقوله هذا أن يشيع بين قومه الشك والريبة ، توجيهًا لهم إلى عدم الاكتراث بما أظهره موسى عليه السلام من المعجزة الباهرة ، وبما أعلنه السحرة من الإيمان ، حتى لا يتبعوهم ، فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلَّا فقد علم فرعون أن موسى لم يعلمهم السحر ، فقد عَلِمُوه قبل قدومه عليهم بل قبل ولادته ، ثم توعد الذين آمنوا وعيدًا قاسيًا بقوله : (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) : أى فأقسم : لأقطعن أيديكم وأرجلكم مختلفات ،

(١) مضارع آثره : أى فضله . (٢) سورة الأعراف ، من الآية : ١٢٣

اليد اليمنى والرجل اليسرى ، واختار التقطيع على هذه الكيفية دون التقطيع من وفاق تنكيلًا كما أقسم : لأُصلبنكم أيضًا فى جذوع النخل ، وقد نفذ وعيده فقطع وصلب حتى ماتوا - رحمهم الله - قال ابن عباس : (فكان أوَّلَ من فعل ذلك) رواه ابن أبى حاتم . وإيثار كلمة (فِى) فى قوله : (فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) للدلالة على بقائهم على الجذوع زمنًا طويلًا كأنها محبس لهم ، وظرف احتواهم .

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ) : أى وأُقسم إنكم لتعلمن علمًا لا شك فيه مَنْ منا أشد عذابًا للناس وأدوم ، أهو موسى ، أم أنا الذى خذلتمونى بتواطئكم معه؟ وقصده من وعيده هذا إظهار صلفه وكبريائه ، واقتداره على التعذيب الشديد ، واستضعاف موسى والهزءُ به ، لأن موسى عليه السلام لم ينل أحدا بشىء من التعذيب . وقيل : معناه أى الإلٰهين أشد عذابًا وأدوم ، أنا أم إله موسى .

٧٢ - (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا . . .) الآية .

المعنى : أنهم أجابوه على وعيده وتهديده قائلين له فى غير اكتراث به وبصنيعه لن نفضلك على ما جاءنا من الله سبحانه وتعالى من المعجزات الظاهرة على يد موسى عليه السلام ، وقيل : لن نفضلك على ما عَلِمْنَاه من الحق واليقين ، ولن نركن إليك بتفضيلك على الله الذى خلقنا وسائر الناس ، ولم نكن شيئًا مذكورًا ، وقيل : إن لفظ (وَالَّذِى فَطَرَنَا) قسم جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، وهو قوله : (لن نُّؤْثِرَك عَلَىٰ مَا جَاءَنا مِن الْبَيِّناتِ) : أى وحق الذى خلقنا لن نؤثرك على الذى جاءنا من الله على يد موسى عليه السلام من الآيات الباهرة .

(فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ) : أى فافعل ما شئت واحكم بما أنت حاكم به ، لأنك (إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : يعنون أنه إنما ينفذ أمره وقت هذه الحياة . ولا يقضى فيها إلَّا بمتاع أو عقاب ، وما لهم من رغبة فى خيرها وزينتها ، ولا رهبة من عسرها وعقابها ، وهذه الجملة التى ختمت بها الآية وما بعدها تعليل لعدم المبالاة المستفاد من قوله : (فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ).

٧٣ - (إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ . . .) الآية .

أى صدقنا بالله وحده لا شريك له ، رجاءَ أن يغفر لنا ربنا ما اقترفناه من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الأُخرى ، أما الدار الفانية فليس لنا مآرب فيها حتى نتأثر بما ينزل بنا من نكال ، كما نضرع إليه أن يغفر لنا السحر الذى أكرهتنا على المعارضة به ،

قال أبو عبيد : إذا أمر السلطان أحدًا بفعل شيء فقد أكرهه على فعله ، وإن لم يتوعده ، لما فى مخالفة أمره من توقع العقوبة . ولا سيما إذا كان السلطان طاغية جبارًا . وإلى هذا الرأى ذهب الحنفية فى أحكامهم الفقهية . انتهى ملخصًا . ولا ينافى هذا قولهم فى آية أخرى : « بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » فإنهم قالوه مرضاة لفرعون الذى أجبرهم . وقد أفردوا الإكراه على السحر بطلب المغفرة إظهارًا لشدة نفرتهم منه وقوة رغبتهم فى مغفرة الله (وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) : أى والله خير لنا إن أطعناه . وأبقى عذابًا منك إن عصيناه . أو والله خير فى ذاته وصفاته ، لأنه الخالق الرازق وله الأمر كله ، وأبقى جزاءً . ثوابًا كان أو عذابًا .

٧٤ ـ (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ) :

قيل : هذه الآية والآيتان بعدها من قول السحرة لما آمنوا . وقيل : بل هى من كلام الله لبيان قاعدتين عامتين فى الإسلام ، وهما عقاب المجرمين . وثواب الصالحين .

والمعنى أن من يلقى الله يوم القيامة على الكفر والمعاصى ، فهو مستحق لأن يكون له جهنم دار إقامة دائمة لايموت فيها لينهى عذابه ، ولا يحيى حياة ناعمة وذلك كقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ »[1] .

٧٥ ـ (وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ) :

أى ومن يوافه مؤمنًا به تعالى ، وبما أيد به رسله من المعجزات العظيمة التى من جملتها ما شاهدناه ، وقد عمل الطاعات اتباعًا لما أمر به سبحانه ونهى عنه . فأولئك ينزلهم ربهم أعلى الدرجات وأعظمها التى تقصر دونها الصفات .

٧٦ ـ (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ) :

الآية بيان للدرجات التى استحقها أولئك المؤمنون ، أى أن لهم الجنات دار إقامة وهى على أكمل صورة وأجمل إعداد ، حيث تجرى من تحت غرفها وأشجارها الأنهار التى تملأ النفوس متعة وبهجة ، ماكثين فيها أبد الآبدين وذلك جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى وعبد الله وحده ، لا شريك له .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٣٦

وعلى ما قيل : من أن الآيات الثلاث التى بُدِئَتْ بآية : « إِنَّهُ من يأْتِ ربَّهُ مُجْرِماً » إلى آخر هذه الآية ، من قول السحرة . . يحتمل أنهم سمعوا ما قالوه من موسى أو من بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر أو ممن آمن من آل فرعون ، وكان فيهم المؤمن الذى يكتم إيمانه ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً أنطقهم الله به لما آمنوا .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى) : أى سِرْ بهم ليلا : تقول سريت الليل وسريت به إذا قطعته بالسير ، وأَسرَى لغة حجازية . (يَبَسًا) : اليَبَس بالتحريك المكان الذى كان فيه ماءٌ فذهب ماؤُه وفعله يَبِس من باب علِمَ وفى لغة يَبِس يَيْبِسُ بكسر الباء فيهما . .

(دَرَكاً) الدَّرَكُ : اللحاقُ أى لا تخاف أن يلحقكَ فرعونُ وجنوده .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بجُنُوده) : أى سار خلفهم حتى اقترب منهم ؛ يقال أَتْبعهُ وتَبعهُ بمعنى واحد .

(فَغَشِيَهُمْ) : أى أصابهم . (مِنَ الْيَمِّ) : من البحر .

التفسير

٧٧ - (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى . . .) الآية .

كان فرعون قد وعد موسى عليه السلام أن يرسل بنى إسرائيل معه ، ويطلقهم من أسره وقهره بعد أن ظهر موسى بآياته عليه ، ولكنه كان يماطل فى الوفاء فينزل به الله وبقومه آيات العذاب ، وكان كلما نزلت به آية ، وعد عند انكشافها أن يفى بوعده ، حتى إذا انكشف العذاب خاس بعهده ، فلما كملت الآيات البينات التى تتابعت عليه لنحو عشرين سنة ، بعد ما غُلِبت السحرة[1] أوحى الله إلى موسى أن يرحل عن مصر ببنى إسرائيل لإنقاذهم من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد وغيره عن نوف الشامى كما ذكره الآلوسى أثناء شرحه لقوله تعالى « آيات مفصلات » فى سورة الأعراف .

ظلم فرعون وطغيانه ، وأن يكون رحيله عنها ليلا حيث يقول سبحانه : « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى » وقد أتت الجملة مصدرة بالقسم إبرازًا لكمال العناية بمضمونها .

والمعنى : والله لقد أوحينا إليه آمرين إياه أن يسير ببنى إسرائيل فى الليل حفاظاً عليهم حتى لا يتعرضوا لمنع فرعون . ويقعوا فى قبضته . فيذيقهم أشد العذاب . ولما خرج بنو إسرائيل بصحبة موسى وتم لهم ذلك أصبحوا وليس لهم بمصر داع ولا مجيب . فغضب فرعون أشد الغضب ودفعته شهوة الانتقام إلى الإسراع فى جمع جنده وقواده قائلا لهم : « إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ »[1] ولما أعد للأمر عدته ، سار بمن معه يتبع موسى وقومه ، وقد بكَّروا « فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ » : أى عند مطلع الشمس ، ولما تراءى الجمعان نظر بعضهم إلى بعض . فقال أصحاب موسى عليه السلام « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »[2] . تثبيتاً للأقدام . وتطميناً للقلوب . وكان البحر أمامهم والعدو خلفهم . عند ذلك أمر موسى عليه السلام أن يفعل ما أشار إليه قوله تعالى :(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَسًا)[3] : أى فاضرب لهم البحر بعصاك لتتخذلهم من المكان الذى ضربته فيه طريقاً يبساً لاماء فيه ولاطين . فهو مصدر وصف به مبالغة : بمعنى أنه يابس جاف يتسنى السير فيه بيسر وسهولة . (لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ) : أى تفعل هذا وأنت فى حال لا تخاف أن يلحقكم فرعون وقومه من ورائكم ؛ لأنك ومن معك فى رعايتى ولا تخشى أن يغرقكم البحر من حولكم . إذ لا يحدث شىء فى الكون إلا بإرادتى .

٧٨ ــ (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . .) الآية .

الفاء فى قوله « فَأَتْبَعَهُمْ » تشير إلى مضمر طوى ذكره . ثقة بغاية ظهوره ، وتنوبهاً بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال .

والمعنى : ففعل موسى عليه السلام ما أمرناه به من السير ليلا ، فضرب لهم طريقاً فى البحر بعصاه ، وسلكه بمن معه . فأتبعهم فرعون بجنوده بحرًا كما أتبعهم بهم برًا ، أى

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ (٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٦١ ، ٦٢

(٣) وقرىء يبسا بإسكان الباء ، وهو إما مخفف من المحرك أو صفة مشبهة كصعب أو جمع يابس كصحب جمع صاحب ، ووصف به الطريق الواحد للمبالغة بجعل الطريق لفرط يبسه كأشياء يابسة أو يراد به الجنس ، وكان متعدداً لتعدد الأسباط . .

تبعهم وسار فى أثرهم ؛ حتى إذا اسْتُكْمِلُوا دخولا ، خرج موسى بمن معه إلى الشاطىء الشرق من البحر سالمين ، ولم يخرج أحد من فرعون وجنوده ، حيث حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ويراد بالبحر : بحر القلزم وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر (فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) : أى فعلاهم وغمرهم ماغمرهم ، من الأمر الهائل المروع الذى يعجز البيان عن وصفه ، حيث انطبق عليهم الماءُ فأغرقهم فهلكوا جميعاً ، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خالياً من الروح فى اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق ، ليراه بنو إسرائيل بعيونهم ، فيطمئنوا ويؤمنوا بهلاكه ، وكانوا من ذلك فى شك مريب ، ولتكون قصته آية وعلامة لمن وراءه من أهل عصره ومن يأتى بعده . تبين لهم العاقبة المحتومة لكل جبار عنيد . وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »[1] .

٧٩ - (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) :

أى وأضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى الخير بل سلك بهم مسلكاً أوصلهم إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة . حيث أغرقوا فأدخلوا ناراً خالدين فيها ، والجملة تأكيد لإضلاله إياهم .

(يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) : الْمَنُّ مادة حلوة لزجة تشبه العسل ، وكانت تنزل عليهم من الفجر

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٢

إلى طلوع الشمس كما قيل . والسلوى : السُّمَانى أو طائر يشبهه . (وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ) : الطغيان مجاوزة الحَدِّ ، ويراد منه فى الرزق تجاوز المأْمور به فى أكله .

(فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى) : أى يجب ويلزم . (وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى) : أى ينزل به ، وفى المصباح حلَّ العذاب يحُل بضم الحاء فى المضارع وكسرها ، أى نزل . انتهى بتصرف .

التفسير

٨٠ - (يَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ . .) الآية .

حكاية لِمَا خاطب الله سبحانه به بنى إسرائيل بعد إغراق عدوهم ، لِتذكيرهم ببعض نعمه العظيمة ، وَمِنَنِهِ الكبيرة التى توالت عليهم ، حيث يقول جل شأْنه : « قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَـدُوِّكُمْ » أى قـد خلصناكم من أسره وتعذيبه فيسرنا لـكم الهجرة إلى سـيناء برا وبحرا وحفظـناكم من الغرق . وأغرقنـا فرعـون وقـومه جمـيعاً وأنتم تنظرون كما يقـول تعالى : « وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَـوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ »[1] .ثم بعد نزولـكم سـيناءَ قربناكم « وواعَدْنَـكُمْ جَانبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ » : أى وعـدناكم أن تأْتوا جانب الطور الأَيمن على لسان نبيكم موسى عليه السلام للمناجاة ، حيث أَمرناه أن يأْمركم بالخروج معه ، ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : إن الوعد كان لموسى ، وخوطبوا به لأَنه كان لأَجلهم (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)[2] : أى وقد أَنعمنا عليكم نعمة عظيمة أُخرى ، فأَطعمناكم طعاماً طيباً مباركاً يسرناه لكم ، وجعلناه فى متناول يدكم حيث كان ينزل عليكم المن والسلوى ، فيأْخذ كل منكم حاجته منهما بدون عناءٍ رعاية لكم فى التيه ، ورحمة بكم ، وإحساناً إليكم ، ثم أَمرهم أمر إنعام بها وإباحة لتناولها فقال سبحانه :

٨١ - (كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ . . .) الآية .

المراد من الطيبات لذيذ الرزق الذى تستطيبه النفوس وتستحسنه الطباع السليمة ، وقيل : طيبات الرزق ما أَحله الله منه نوعاً وكَسبا ، ولقد عقب الله هذه المنة بنهيهم عن

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٥٠

(٢) تقدم بيان المن والسلوى فى المفردات .

الطغيان بقوله « وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » : أى ولا تطغوا بسبب الرزق بأن تحملكم السعة والعافية على العصيان لأن الطغيان تجاوزُ الحد إلى ما لا يجوز (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى) :أى فيجب ويقع عليكم مقتى . (وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى) :أى ومن ينزل عليه غضبى بسبب ارتكابه ما نهيته عنه ، فقد هلك . وقيل : فقد سقط وتردى فى الهاوية وهى قعر جهنم .

٨٢ – (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) :

وإنى لكثير المغفرة لمن تاب من شركه ومعاصيه وآمن بى وعمل صالحاً ، ثم استمر مهتدياً . وقيل : المراد بقوله « ثُمَّ اهْتَدَى » ثم طهر قلبه من الأَخلاق الذميمة ، كالعُجْبِ والحسد والكِبْرْ وغيرهما ، بعد ما آمن وعمل صالحاً ، وقال ابن عطية : الذى يَقْوَى ويظهر فى تفسير «ثُمَّ اهْتَدَى» أن يكون المعنى ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق فى شىءٍ من الأَشياءِ ، فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل ، ا هـ .

والتوبة التى أشارت الآية إلى تكفيرها الذنوب والخطايا ، هى التوبة النصوح ؛ التى يقلع بها التائب عما كان فيه ، ويعزم على ألا يعود إليه أبدًا ، ويندم على ما فعل ؛ فإن كانت المعصية فى حق آدمى يزاد على ذلك أن يبرأ منها ؛ برد الحق إلى صاحبه إن كان مالا ونحوه وبتمكينه من نفسه أو طلب عفوه إن كان حدًّا .

* (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(مَآ أَعْجَلَكَ) : ما حملك على العجلة والسرعة

(هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) : هم قادمون بعدى يسيرون على أثرى . .

التفسير

ذهب موسى لمناجاة ربه مع من اختارهم من قومه لصحبته فى هذه المناجاة[١] ، وغلبه الشوق إلى مناجاة ربه فأسرع إلى مكان المناجاة وخلف قومه وراءه فسأله الله تعالى – وهو العليم – عن سبب العجلة منكرًا عليه تركه للنقباء السبعين الذين اختارهم من قومه لصحبته قائلا :

٨٣ – (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَامُوسَى) :

أى شىء حملك على العجلة ؟ وكان الجواب المتوقع أن يذكر سبب العجلة وهو شدة الشوق إلى الله . ولكن موسى فهم أنه تعالى ينكر عليه تركه لقومه خلفه فقال :

٨٤ – (قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) : أى هم قادمون خلفى يتبعون أثرى وسيلحقون بى سريعاً .

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ) : وأسرعت إلى مناجاتك طلباً لرضاك يارب وتلبية لأمرك ، ذكر القاسمى : «أنه سبحانه إنما أراد بسؤاله عن سبب العجلة – وهو أعلم – أن يعلم موسى أدب السفر ؛ وهو أنه ينبغى تأخر رئيس القوم عنهم فى السفر ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذًا فيهم ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لا يحصل فى تقدمه عليهم . ألا ترى أن الله عزوجل علم هذا الأدب لوطا فقال : « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ »[٢] على أن موسى غفل عن هذا الأمر مبادرة منه إلى رضا الله عز وجل . ومسارعة إلى الميعاد مع الرحمن وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم » . .

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وابتلينا . (السَّامِرِىُّ) : نسبة إلى سامراء ، وينسب بعض الباحثين السامرى إلى طائفة معروفة من اليهود باسم السامريين . وهم الآن طائفة صغيرة من اليهود تقيم فى نابلس وتخالف سائر اليهود فى عاداتها وتقاليدها[٣] .

---

(١) راجع تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف من التفسير الوسيط .

(٢) الحجر ، من الآية ٦٥

(٣) راجعه فى قصص الأنبياء للشيخ النجار .

٨٥ـ (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ) : الآية .

أى قال الله تعالى لموسى : فإنا قد أوقعنا قومك فى الابتلاء والاختبار ليظهر فى واقع الأمر مدى صدقهم فى الإيمان وضعفهم فيه (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ) : أي حملهم على الضلال وفتنهم حتى عبدوا العجل ، وسيأتى بيان ذلك تفصيلا . . .

(فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(أَسِفًا) : شديد الحزن . (طَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى طال عليكم عهد خروجى لإحضار الألواح بما تحمله من أوامر ونواه . (بِمَلْكِنَا) : باختيارنا وإرادتنا ـ يعنون أنهم مكرهون مضطرون . (أَوْزَارًا) : أثقالا أو ذنوبا . (عِجْلًا جَسَدًا) : صورة عجل مجسم فى هيئة تمثال . (لَهُ خُوَارٌ) : الخُوار صوت البقرة .

التفسير

٨٦ـ (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفا . . .) الآية .

فعاد موسى إلى قومه وهو فى أشد الغضب والحزن لكفرهم بعد الإيمان وضلالهم بعد الهداية (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) : أى قال موسى موبخا لهم : يا قوم

ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ، فكيف تعودون إلى الشرك بعد أن أنقذكم الله منه ؟ (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى أفطال عليكم زمان مفارقة موسى لكم ؟ أو عهد إنجائكم من فرعون مصر وإغراقه لمن ظلمكم (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى) : أى أنكم بفعالكم هذا كأنكم أردتم أن يحل عليكم غضب ربكم ، حيث أخلفتم وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله وتنفيذ ما أُمرتم به .

٨٧ - (قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا . . .) الآية .

قالوا : ما فعلنا ذلك باختيارنا (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ) : ولكنا كنا نحمل أعباءً وأحمالًا من ذهب المصريين فظنناها موضعًا للمؤاخذة لأنها ليست ملكًا لنا وإنما استعرناها من المصريين فى عيدنا لنردها إليهم بعد حين : (فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ) : فألقينا بها فى النار تخلصًا منها كما فعل السامرى وكما أمرنا .

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) : وكان السامرى ماهرًا فى الصياغة فصنع تمثالًا ذهبيًّا للعجل أبيس معبود المصريين قبل هجرة بنى إسرائيل من مصر ، وجعله بحيث إذا حُرِّكَ صدر منه صوت كخوار الثيران أو جعل فيه ثقوبًا إذا هبت فيها الريح أصدر هذه الأصوات ، والماهرون فى صناعة الدمى الآن يجعلونها تصدر بعض الأصوات أو تحرك بعض الأعضاء .

وأجاز بعضهم أن يكون السامرى قذف الحلى فى النار بدعوى أنها محرمة عليهم لسرقتهم إياها من المصريين ، واشترى لهم عجلا جسدا حيا ، وسرق الذهب لنفسه .

(فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ) : أى قال السامرى ومن افتتن به وتابعه : يا قوم هاهو ذا إلٰهكم وإله موسى قد نسيه هنا وذهب يطلبه فى الطور ويناجيه هناك ، أو نسى موسى ألوهيته. وضل الطريق إلى ربه فخرج يبحث عنه ، فى حين أن هذا العجل هو ربه ، وهكذا أضلهم السامرى وفتنهم حتى عبدوا العجل .

٨٩ - (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) :

الاستفهام هنا للتوبيخ ، أى أعموا فلم يروا أن هذا العجل لا يتحدث إليهم ولا يرد على أسئلتهم وأنه لا يملك أن يضرهم أو ينفعهم ، فكيف يكون إلٰهًا مستحقًّا للعبادة والتقديس؟!

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾)

المفردات :

(فُتِنتُمْ) : ابتليتم واختبرتم . (لَن نَّبْرَحَ) : سنبقى .

(عَاكِفِينَ) : مقيمين على عبادته .

التفسير

٩٠ - (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا أَمْرِى) :

زعم اليهود - كما ورد فى سفر الخروج (الإصحاح) ٣٢ - أن هٰرون عليه السلام هو الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل ودعاهم إلى عبادته . وذلك دأبهم فى تلويث الأنبياء بل وقتلهم بغير حق إذا لم يوافقوا هواهم - مع أنه نبى مرسل معصوم من الأخطاء ، وبخاصة الشرك بالله أو الرضا عنه - وقد برَّأه الله فى هذه الآية مما ألصقوه به .

والمعنى : ولقد قال هارون لبنى إسرائيل حين رآهم مقبلين على عبادة العجل - بتزيين السامرى - قال لهم قبل أن يستغرقوا فى عبادته : إن هذا العجل فتنة واختبار من الله لكم . أتعبدونه وهو لا يملك من أمركم شيئًا ، أم ترفضونه وتعبدون الله ، فإنه إلٰهكم الحق الجدير بالعبادة ، لأنه المتصف بالرحمة البالغة حيث أنجاكم من عدوكم ، فاتبعونى فى عبادته وتوحيده وأطيعوا أمرى بالكف عن عبادة العجل .

٩١ - (قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) :

أصروا على باطلهم ولجوا فى عنادهم وقالوا : سنظل عاكفين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ويخبرنا بالحقيقة .

(قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾)

المفردات :

(مَا مَنَعَكَ) : قال عيسى بن موسى معناه : ما حملك على عدم اتباعى ، فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على سواه ، وقيل : المنع على ظاهره ، وحرف (لا) صلة للتأكيد وليس للنفى ، كما فى قوله : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » : فهى بمعنى ليعلم ، وكما فى قوله تعالى فى حق إبليس فى سورة الأعراف : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » : فهو بمعنى ما منعك أن تسجد ، ليتفق مع قوله فى سورة (ص) : « مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » .

التفسير

٩٢ ، ٩٣ ـ (قَالَ يَا هَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا أَن لَّا تَتَّبِعَنِيٓ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) :

كان موسى عليه السلام قد اشتد به الغضب ، فجذب أخاه هٰرون من لحيته وشعر رأسه وقال له : يا هٰرون ما حملك حين رأيت بنى إسرائيل ضلوا عن الهدى فعبدوا العجل ، ما حملك على عدم اتباعى إلى جبل الطور لتتلقى تعليماتى ، أو ما حملك على عدم اتباعى فى تشديد النكير عليهم ، لتحول بينهم وبين ما فعلوه (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) بقولى لك : « اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ »[1] ، فكيف تركتهم حتى وصلوا إلى ماوصلوا إليه ؟

---

(١) الأعراف ، الآية : ١٤٢

٩٤ - (قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) :

قال له هارون : يا أخى وابن أمى التى طبعتنا على الحنان والشفقة لا تجذبنى بعنف من شعر رأسى وشعر لحيتى .

(إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) :

إنى خفت أن أقسو على بنى إسرائيل فينقسموا إلى فريقين : فريق معى ، وفريق يتمسك بعبادة العجل ؛ فتقع بينهم حرب ، وأكون أنا سببًا فى تمزيق وحدتهم وتشتيت أمرهم وتفريق كلمتهم ، فكنت أحاول أن أردهم إلى الصواب بالنصح والإرشاد .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(مَا خَطْبُكَ) : أى ما حالك وما شأنك ، والخطب الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب .

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) : أدركت وعلمت ما لم يعلموه وأيقنته .

(الرسول) : قيل المقصود به جبريل عليه السلام ، وقيل موسى .

(فَنَبَذْتُهَا) : طرحتها .

(سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) : زينت وحسنت .

التفسير

٩٥ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) :

فى هذه الآية يتجه موسى عليه السلام إلى السامرى ، ليحاسبه ويوبخه على صرفه قومه إلى عبادة العجل بعد أن فرغ من عتاب أخيه هرون على تركهم يعبدونه ، واعتذر هرون عليه السلام بأنه نصحهم فلم ينتصحوا وأنه خشى أن يقول له موسى : فرقت بين بنى إسرائيل ،

ولم ترقب قولى فى المحافظة على وحدتهم ، والحكمة فى التصرف معهم ، وكان للسامرى نفوذ فى بنى إسرائيل ، وكان قوى التأثير عليهم . قال قتادة : كان السامرى عظيماً فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ،ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ، « قَالُوا يَا مُوسَى اجعَل لَّنَآ إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ »[1] . فاغتنمها السامرى وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل[2] .

٩٦ - (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) :

قال الفخر الرازى : عامة المفسرين على أن المراد بالرسول : جبريل ، والمراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته . والأكثرون منهم على أنه رآه يوم فلق البحر ، وعن على أن ذلك كان حين نزل ليذهب بموسى إلى الطور ، ثم اختلفوا فى كيفية رؤيته جبريل دون سائر الناس ، وحكى الرازى عن هؤلاء المختلفين حكايات لا أصل لها ، وذكر القرطبى وغيره : أن السامرى لما زينت له نفسه أن يأخذ قبضة من التراب الذى تحت حافر فرس جبريل . جعل يلقى منه على الجماد . فيتحول إلى حيوان له روح ولحم ودم . فلما سألوا موسى أن يعيدهم إلى عبادة العجل زجرهم . فصنع لهم السامرى فى غيبته عجلا من الحلى . وألقى من هذا التراب عليه . فتحول إلى جسد من لحم ودم له خوار كسائر العجول ، ويقول القرطبى فى موضع آخر نقلا عن مجاهد : خواره وصوته كان بالريح لأنه أحدث فيه خروقاً . فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة .

وبهذا نقول فإن تحويل الجماد إلى حيوان حقيقى لا يكون معجزة إلا لنبى ، كما حدث لموسى ، حين حول الله عصاه الخشبية إلى حية تسعى ، ولا يصح أن يجرى الله مثل ذلك على يد من يعارض النبوة ويثير الشبه حولها ، ولو أنهم قالوا إنه كان ساحرًا وإنه خيل لهم بسحره أنه عجل حقيقى لكان ذلك خيرًا مما قالوه ، وقد أحسن الإمام الرازى فيما نقله عن أبى مسلم الأصفهانى ، إذ قال نقلا عنه ما خلاصته : ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف ، وقد رد عليهم موسى قائلا : (إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) الآيات من سورة الأعراف .

(٢) القرطبى ج ١١ ص ٢٣٩

ذكره المفسرون ، ونرى فى الآية وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام ، وبأثره سنته وشريعته ، وبيان الآية على هذا أن موسى لماأقبل على السامرى باللوم والسؤال عما دعاه إلى صنع العجل وإضلال قومه بعبادته ، قال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت مالم يعرفوه فى دينك ياموسى . فقد تبين لى أنه ليس بحق ، فقبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى أخذت شيئاً من سنتك ودينك فطرحته عن قلبى ، وحملت القوم على ترك دينك بصناعة العجل وتحويلهم إلى عبادته ، فعند ئذأدرك موسى كفره ، فتوعده بالعقاب فى الدنيا والآخرة ، وإنما وصف موسى بالرسول وهو لا يؤمن به على سبيل التهكم . كما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » .

وقد عقب الرازى على هذا الرأى بقوله : واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق .

والمعنى على هذا : قال السامرى لموسى ردًا على لومه وتوبيخه : علمت من أمر دينك مالم يعلمه قومك ، فكرهت البقاء فيه ، فقبضت قبضة من دينك المأثور عنك ، فطرحتها عنى وحملت قومى على مخالفتك فصنعت لهم عجلا جسدا له خوار بسبب دخول الريح فيه أو بالسحر ، ودعوتهم إلى عبادته ، حيث قلت لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فاستجابوا لى وعبدوه وكذلك سولت لى نفسى .

(قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(لَامِسَاسَ) : لا يمسنى أحد .

(مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ) : أى وعدا بالعذاب يوم القيامة لا خلف فيه .

(ظَلتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا) : دمت على عبادته ملازما ومقيما ، وأصله ظللت ، فخفف بحذف اللام الأولى . (لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ) : أى لَنَذْرُوَنَّه ونُطَيِّرنه فى البحر ، والنسف نقض الشىء أو تعريضه للريح ليبعثره أو ينفضه مما يشوبه ، والمراد منه هنا التَّذْرية والذَّرْو وهو المعنى الثانى للنسف ، والمِنْسف ما ينسف به الطعام .

(وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً) : أحاط علمه بكل شىء .

التفسير

٩٧ ــ (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَامِسَاسَ ..) الآية .

أى قال موسى للسامرى بعد اعترافه بصناعة العجل وحمله قومه على عبادته ــ قال له : اذهب عنا منفيا من بيننا ، بحيث لا يمسك أحد ولا تمس أحدا ، حتى تلجئك هذه المقاطعة إلى أن يختل عقلك فتقول : لامساس ، ترديدا لما يقوله الناس بعضهم لبعض فى النهى عن ملامسته ، تأكيدا لفصله عن المجتمع الذى أضله ، وتنفيذا لما أوصاهم به موسى عليه السلام من مقاطعته وترك معاملته والاتصال به ، وهذا هو الذى نراه مناسبا فى تفسير الآية .

ومن المفسرين من قال : إن الله عاقبه بمرض جلدى ، وكان يصاب بالحمى إن مسه الناس ، فكان يسترحمهم قائلا : لا مساس ، فابتعد عنه الناس لا يؤاكلونه ولا يعاملونه لذلك ، وأنكر الجبائى هذا الرأى ، وقال : إنه خاف وهرب إلى البرية ، وجعل يهيم فيها فلا يجد أحدا من الناس يمسه ، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل : لا مساس . اهـ

وبما أننا لانجد دليلا على هروبه إلى البرية ولا على إصابته بمرض جلدى ، فلهذا نرى أن ماذكرناه أولا فى تفسير الآية هو المناسب للنص الكريم .

وتعتبر هذه الآية من الأصول التى يعمل بها مع الذين يحدثون حدثا كبيرًا فى الدين ، وقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، حيث أوجب على المسلمين مقاطعتهم حتى عفا الله عنهم .

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدا لَن تُخْلَفَهُ) : وإن لك ياسامرى وعدا بالعقاب فى الآخرة لن يحدث فيه خلف ، فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ .

(وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً) :

قد عرفت مما تقدم أن العجل الذى صنعه السامرى من حليهم فيه ثلاثة آراء (أحدها) : أنه عجل تحول من حلى إلى حيوان ، حينما وضع عليه السامرى ترابا من تحت حافر الفرس التى كان يركبها جبريل - كما قيل - (وثانيها) : أنه عجل من ذهب لم تحل فيه الحياة ، وأن خواره صناعى أو بسبب السحر ، فعلى أنه عجل حيوانى ، يكون حرقه بعد ذبحه ، حتى إذا صار رمادا نسفه فى اليم ، أى ذراه فى الهواء فى اتجاه البحر ، أما على أنه عجل صناعى لم تحل به الحياة ، وأن خواره صناعى أو بطريق السحر ، فيكون حرقه وتصييره رمادا من آيات موسى عليه السلام ، لأن الذهب إذا صهر بالنار يصبح سائلا ولا يمكن نسفه ، (وثالثها) أنه عجل حيوانى اشتراه موسى السامرى بعد أن صهر الذهب وسرقه ، وأمر حرقه بعد ذبحه واضحٌ ، وأن كنا نستبعد أن يحرقه موسى وهو لحم حيوان أحل الله أكله ، وكان يكفى - لو صح أنه حيوان حقيقى - أن يذبحه ليظهر بذبحه عدم صلاحيته للألوهية ، ثم يبيح لهم أكله .

والذى يظهر لنا والله أعلم أنه عجل صناعى [١] وأن خواره صناعى أو عن طريق السحر ، وأن الحياة لم تحل فيه ، فإن ذلك معجزة فلا يجريها الله على يد منافق لا يعترف بوحدانيته تعالى ، بل هى من آيات الرسل كما حدث لعصا موسى عليه السلام ، وأن إحراق موسى له يعتبر آية و معجزة من معجزاته عليه السلام .

والمعنى : وانظر ياسامرى إلى العجل الذى صنعتَه وجَعَلْتَه لك إلها ، وأقمت على عبادته ملازما أنت ومن استجاب لك من قومك ، والله لنحرقنه حتى يصير رمادا ، ثم لننسفنه ونذرينه ليلقيه الريح فى البحر حتى تعلم أنت ومن تبعك عجزه عن حماية نفسه من النار ، وفساد رأيكم فى عبادته .

٩٨ - (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) :

هذه الآية جاءت لإحقاق الحق بعد إبطال الباطل ، والخطاب فيها لعموم بنى إسرائيل.

---

(١) والآية شبه صريحة فى ذلك ، إذ يقول الله فى الآية (٧٧) حكاية عمن عبدوه « قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار . . » الآية

والمعنى : ما إلهكم يابنى إسرائيل سوى الله الذى لا إله سواه أحاط علمه بكل شىء ، فكيف تشركون به العجل الذى لا يعلم مايراد به ، ولا يستطيع حماية نفسه ، وبهذا تم حديث موسى بشأن العجل الذى عبدوه .

(كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(ذِكْراً) : المراد به القرآن الكريم ، وأطلق الذكر عليه لأنه يذكر الناس بما ينفعهم ، أو لأنه شرف للرسول ولقومه صلى الله عليه وسلم كما فى قوله : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ» .

(وِزْراً) : أى ذنبا ثقيلا . (الْمُجْرِمِين) : المشركين . (زُرْقاً) : أى زرق الأبدان أو العيون . (يَتَخَافَتُونَ) : يخفضون أصواتهم من شدة مايجدون .

(إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً) : ما مكثتم فى القبور أو الدنيا إلا عشر ليال .

(أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) : أعدلهم رأيا .

(إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) : مالبثتم فى القبور أو فى الدنيا إلا يوما .

التفسير

٩٩ - (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً) :

أى مثل ذلك القصص الصادق من خبر موسى وقومه نقصُّ عليك يامحمد أمثاله من قصص الأولين تسلية لك مما حل بك من قومك ، وتأييدا لنبوتك ، وتبصيرا للمستبصرين من

أولى الألباب الباحثين عن الحق ، وقد أعطيناك من عندنا قرآنا مذكّراً بما فى تلك الأنباء والقصص من العبر وهو كتاب شريف جامع لكل الكمالات .

١٠٠ ، ١٠١ - (مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً . خالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً) :

أى من أعرض عن هذا الذكر العظيم الذى أعطيناك أيها الرسول ، ولم يؤمن بما جاء فيه من العقائد والأحكام الدنيوية والأخروية فإنه يحمل يوم القيامة إثما عظيما لاقدرة له على احتماله مقيما فى جزائه جهنم إقامة دائمة ، وبئس للمعرضين عنه - وبئس لهم - يوم القيامة هذا الحمل الذى حملوه بالإعراض عن الذكر الذى بعثك الله به إليهم [1] .

١٠٢ - (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) :

أى اذكر لهم يامحمد يوم ينفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث من القبور ، حيث يقوم الناس لرب العالمين ، ونسوق المجرمين يومئذ بعد البعث زرق الأجساد أو زرق العيون من أجل مايحملونه من الأوزار ، وخوفهم من محاسبة العليم القهار ، وسئل ابن عباس عن وصفهم هنا بقوله «زُرْقًا» وفى آية أخرى بقوله «عُمْيًا» فكيف يجمع بينهما ؟ فقال : ليوم القيامة حالات ، فحالة يكونون فيها عميا وأخرى يكونون فيها زرق العيون .

وقال الفراءُ : المراد من «زُرْقًا» عميا لأن العين إذا ذهب نورها ازْرَقَّ ناظرها .

١٠٣ - (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً) :

أى يخفضون أصواتهم ، ويتهامسون فيما بينهم قائلين ، مالبثتم فى القبور إلا عشر ليال ، أو عشرة أيام [2] ، ومرادهم من قولهم ذلك استقصار مدة لبثهم فى القبور وسرعة انقضائها ، بعد أن تحقق لديهم البعث الذى أنكروه من قبل ، يقولون ذلك على سبيل التنديم ، كأنهم قالوا : قد بعثتم ومالبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة ، وقد كنتم تزعمون أنكم لن تبعثوا منه

(١) وافراد الضمير فى قوله « فإنه يحمل » مراعاة للفظ (من) ، والجمع فى قوله « خالدين » وقوله « وساءلهم » مراعاة لمعناه .

(٢) قيل : إن تقديرها بعشرة أيام أولى من تقديرها بعشر ليال ، ليناسب قول أمثلهم فى الآية التالية (إن لبثتم إلا يوماً) فإن قيل : إن تقديرها بالأيام يقتضى تأنيث العشرة ، على قاعدة تأنيث العدد إذا كان المعدود مذكراً ، والعكس بالعكس ، وأجابوا بأنه إذا حذف المعدود وأبقى عدده فقد لا يؤتى بالتاء ، حكى الكسائى : صمنا من الشهر خمساً ، ومنه ما جاء فى الحديث « ثم أتبعه بست من شوال » فإن المراد ستة أيام وحسن الحذف مراعاة الفواصل .

أبدا ، وعن قتادة أنهم قصدوا بهذه العشر مدة لبثهم فى الدنيا ، استقصارا لها لزوالها وتأسفهم عليها بعد أن عاينوا الشدائد التى لاغاية لها ، وأيقنوا أنهم استحقوها بسبب إضاعتهم دنياهم القصيرة فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات : انتهى بتصرف . وفى مجمع البيان عن ابن عباس وقتادة أنهم قصدوا مدة لبثهم بين النفختين ، حيث يمكثون أربعين يوما مرفوعا عنهم العذاب .

١٠٤ ـ (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) :

نحن أعلم بما يقوله هؤلاء المتحسرون على ضياع رقادهم أو إقامتهم فى دنياهم حين يقول أحسنهم طريقة فى القياس بين ماكانوا فيه وما هم مقبلون عليه . مالبثتم إلا يوما واحدا ، يريد بذلك حملهم على الندم أكثر فكأنه يقول لهم : إن تقدير إقامتنا فى القبور أو فى الدنيا بعشرة أيام يعتبر شيئا كثيرا بالنسبة إلى مانحن مقبلون عليه من الشدائد فما لبثنا أكثر من يوم واحد ، ووَصَفَ القرآن قائلَ هذا بأنه أَمْثَلُهُمْ طريقة لكون ماقاله أعظم فى التنديم ، وأقوى فى التحسير ، وأدل على شدة ماهم مقبلون عليه ، ولكل مقام مقال يحسن فيه أكثر من غيره .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(يَنسِفُهَا) : يذريها ويطيرها . (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) : فيتركها سهلا مستويا .

(لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا) : لا تجد فيها انخفاضًا ولا شيئاً مرتفعا .

(يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) : يتبعون إسرافيل الذى دعاهم بالنفخ فى الصور إلى الحساب .

(لَا عِوَجَ لَهُ) : أى لا عوج للداعى على معنى لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه .

التفسير

١٠٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الجبال عند قيام الساعة بعد ما سأل السائلون رسول الله عنها ، وهؤلاء السائلون ممن ينكر البعث من قريش . فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم قالوا على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة ، وقيل هم أناس من المؤمنين سألوا عنها على سبيل التعلم وطلب المعرفة .

والمعنى : ويسألك السائلون يامحمد عن حال الجبال يوم القيامة : أتظل باقية على ما هى عليه . فقل مجيبا لهم ، يجعلها الله كالرمل أو التراب ثم يرسل عليها الريح فتذروها وتبعثرها . ولا تستعصى على من يقول للشىء كن فيكون .

ولا يوجد فى القرآن أمر من الله للرسول مقرون بالفاء ، يجيب به السائلين سوى ما هنا .

أما ماعداه فبدون الفاء كقوله تعالى : «يَسْأَلُونك عَنِ الْخمْرِ والْمَيْسِر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ» وقوله سبحانه : «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ» وقوله : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفال قُلِ الأَنفَالُ لله والرَّسُولِ» الخ .

والسبب فى هذا أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وقد جىء بها هنا للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل المشرك من بقاء الجبال تبعًا لظنه عدم الحشر ، أو للمسارعة إلى تعليم السائل المؤمن حفظا لعقيدته مما يقوله المنكرون ، وهذه خلاصة ما نقله الآلوسى عن الإمام الرازى[1] .

---

(١) ويرى القرطبى أن الفاء هنا فى جواب شرط مقدر ، أى فإن سألوك عن الجبال فقل ، وقد علم الله أنهم سوف يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال ، أما سائر ما فى القرآن من أسئلتهم ، فكان قد وجه إلى الرسول فعلا ، فتميز جوابها بعدم ذكر الفاء .

١٠٦ ، ١٠٧ – (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً) :

أى أنه تعالى بعد أن يزيل الجبال ويبعثرها ، يترك أُصولها أرضاً مستوية ، كأنها مع غيرها صف واحد على سمت مستو متماثل ، بحيث لا ترى فى أُصول تلك الجبال المنسوفة انخفاضاً ولا نتوءًا بارزا والعِوج بكسر العين يستعمل فى غير المستقيم حسيا ومعنويا أما مفتوح العين فقاصر على الحسى غير المستقيم.(١)

١٠٨ – (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ) الآية .

أى يومئذ ينسف ربى الجبال ، يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر ، وهذا الداعى هو إسرافيل ، وظاهر ما جاء فى القرآن أن هذه الدعوة هى النفخة الثانية فى الصور قال تعالى فى سورة الزمر : «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُون » (٦٨) وهى المعنية بقوله فى سورة يس : «ونُفِخَ فى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ » (٥١) والله أعلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها .

ومن المفسرين من جعلها دعوة كلامية ، حيث قال . إن إسرافيل يضع الصُّور فى فمه ويقول : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ، هلموا إلى العرض على الرحمن فيقبلون من كل صوب إلى صوته . .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الله تعالى الناس يوم القيامة فى ظلمة ، تطوى السماءُ وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس صوته يؤمونه ، فذلك قوله تعالى : «يَوَمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ » .

وقال على بن عيسى : الداعى هو الرسول الذى كان يدعوهم إلى الله عز وجل : انتهى .

وأظهر الأقوال ما قلناه أولا ، من تفويض العلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها إلى العليم الخبير سبحانه وتعالى ، ومعنى « لَاعِوجَ » لا يعوّج للداعى مدْعوٌّ ولا عدول له عنه ، وذلك مثل قولهم : لا عصيان له أى لا يعصى ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى : لا شك فيه .

(١) واختار المرزوقى أنه لا فرق بينهما – انظر الآلوسى .

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا) :

أى وخفتت أصوات الخلائق هيبة للرحمن ، ورهبة من الموقف الرهيب ، فلا تسمع من أحد من أهل الموقف إلا صوتاً خفيفا خافتا يصدر من فمه .

وفى إحدى الروايات عن ابن عباس أن المراد من الهمس هنا خفق الأقدام ، وبمثله قال عكرمة وابن جبير والحسن . واختاره الزجاج والفراء ، ومنه قول الشاعر : وهنّ يمشين بنا همسا .

والمعنى على هذا : سكتت أصواتهم وانقطعت كلماتهم ، فلا تسمع منهم إلا خفق أقدامهم وهم يمشون إلى المحشر ، والخطاب فى قوله «فلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً» لكل من له سمع يستمع به .

١٠٩ - (يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) :

أى يومئذ يدعوهم داعى الرحمن إلى المحشر للحساب ، فيستجيبون له خاشعين . لا تنفع الشفاعة أحدا من أفراد الأمم . إلا من أذن الرحمن بالشفاعة لأجْله من بينهم ، ورضى له قول الشافع وأذن له به .

ويصح أن يكون المعنى : ورضى للمشفوع له ما كان يقوله ، والمراد منه كما قاله ابن عباس : قوله (لا إله إلا الله) وخلاصة المعنى على هذا : لا تنفع الشفاعة أحدا ، إلا من أذن الرحمن فى أن يُشفع له وكان مؤمنا . والمراد على كل تقدير : أنه لا تنفع الشفاعة أحدا إلا من ذكر ، وأما من عداه فلا تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدِّين للشفاعة عن الناس ، كما قال تعالى : « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

١١٠ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) :

أى يعلم الرحمن ما يستقبله المحشورون من المقادير التى كتبها لهم أو عليهم وما تركوه خلفهم من أعمالهم وأحوالهم الدنيوية ، ولايحيطون علما بالمذكور من مجموع الأمرين ، فإنهم كما قال الجبائى : لا يعلمون جميع ما ذكر ، ولا تفصيل ما علموه منه .

ويجوز أن يكون المعنى ولا يحيطون به تعالى علما ، من حيث صفاته وكمالاته التى لا تتناهى ولا يعرف أحد كنهها ومداها ، فنحن لا نعلم من أمره سبحانه إلا ما جاءت به الرسل وما تتسع له عقولنا .

*﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات :

(وعَنَت) : وخضعت وذلت خضوع العانى وهو الأسير . وفرق بعض اللغويين بين الخضوع وبين الذل . فجعل الخضوع بمعنى الخشوع والتذلل لذى طاعة ، وجعل الذل وصفا لمن كان ذليل النفس فى ذاته .

(الْقَيُّومِ) : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وحفظهم . (هَضْماً) : نقصا من الحق .

التفسير

١١١- (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) الآية .

المراد بالوجوه جميع الناس أو المجرمون الذين سبق الحديث عنهم ، وإطلاق الوجوه عليهم مجاز ، ويصح أن يراد بها حقيقتها . وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، وأول ما تبدو عليه آثار الخضوع والذل .

والمعنى : وذلت الوجوه وخضعت واستسلمت فى هذا اليوم العصيب الذى تقدم الحديث عن بعض أهواله ـ استسلمت استسلام الأسرى لجبار السموات والأرض ، الحى الذى لا يموت ، القائم على أمور عباده ، بتدبيرها وحفظها ، والقيام بما يصلحها .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) : المراد بمن حمل ظلما ، كل كافر ، أو ما يَعُمُّهُ وغيره من سائر العصاة ، وخيبة كل عاص بقدر ما حمل من الظلم .

والمعنى : وخضعت النفوس للحى المسيطر على كل شىء وقد خسر كل من كسب ظلما فى دنياه ، حين يعرض يوم القيامة على مولاه فيأمر بعقابه على ما كسبت يداه .

وبعدما حكت هذه الآية خيبة الظالمين الآثمين ، عقبها الله ببيان حسن حال المؤمنين الصالحين ، فقال سبحانه :

١١٢ - (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً) :

أى ومن يعمل شيئًا من الصَّالِحاتِ فى دنياه وهو مؤمن به ويجعل دنياه مزرعة لآخرته ، فإنه يُقْبل يوم القيامة على الملك الحق العادل فى خلقه ، وهو مطمئن النفس ، لا يخاف « ظُلْماً » بأن يحمل أوزارا لم يرتكبها « وَلاَ هَضْماً » بأن ينقص حق من حقوقه ، أو يضيع ثوابٌ لعمل من أعماله مهما قلَّ أو خفى بل يُوفَّى أجره كاملا ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيوْمِ الْقِيامةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً وَإن كَانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتينَا بِهَا وَكَفَى بنَا حَاسِبين »[1] .

ولا يقتصر جزاؤه على الوفاء ، بل يضاعف ثوابه على قدر نيته وعمله ، وفقا لمشيئة الله تعالى « واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ »[2] .

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) : كررنا وفصلنا فيه من الإنذار والتخويف .

(ذِكْراً) : اعتبارا واتِّعاظا .

(فَتعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) : فتنزه الله الملك الكامل التصرف فى ملكه ، الثابت فى ذاته وصفاته .

(يُقْضَىٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : يتم جبريل تبليغ القرآن الموحى به إليك .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ (٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١

التفسير

١١٣ - (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) :

أى مثلما تقدم من التنزيل المشتمل على القصص النافع والوعد بالثواب على العمل الصالح، والوعيد بالعقاب على العمل السيء والكفر، ومثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن كله . بأسلوب عربى واضح ليفهموه ، وليكون آية على نُبُوَّتِكَ ، يعجزهم عن معارضته، وكررنا فيه من التخويف والإنذار على الكفر والمعاصى ، لكى يتقوها ، أو يحدث لهم اعتبارا واتعاظا يؤدى بهم إلى التقوى .

وفسر قتادة التقوى هنا بالحذر والورع ، وفسر بعضهم الذكر بالشرف .

١١٤ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) الآية .

أفاد هذا النص الكريم استعظام شئونه تعالى فى ملكه ، وما صرف فى القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهى المقتضية لوجوب العمل به ، كما أفاد التعجب من عظمة القرآن ووجوب الإقبال عليه والعمل به ، وتعظيم من أنزله .

والمعنى : تقدس الله وتنزه عن النقائص فهو المتصرف بالأمر والنهى ، الحقيق بأن يعمل بكتابه ، لكى يرجى ثوابه ، ويخشى عقابه ، وهو الدائم الذى لايزول ولا يتغير .

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : ولا تعجل يامحمد بقراءة القرآن الذى يوحى به إليك، ترديدًا لما تسمعه من قبل أن يُتِمَّ جبريل تبليغه إليك، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا التقى به جبريل وألقى عليه القرآن يتبعه عند تلفظه بكل كلمة خوفا من أن يصعد جبريل عليه السلام ولم يحفظه ،حرصا على حفظ الوحى ،فطمأنه الله على ذلك ،وبشره بجمعه إياه ، ونهاه عن التعجل بقراءته عند نزوله كما قال تعالى فى سورة القيامة : «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ». [1]

ثم أرشده الله سبحانه وتعالى إلى الدعاء بالاستزادة من العلم مطلقا بقوله :

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) : وكان صلى الله عليه وسلم يسأل الله دائما الاستزادة من العلم.

---

(١) الآيات ، من ١٦ - ١٩

أخرج الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال » .

وهذا دليل على فضل العلم ، وحثٌّ على التزود منه ماوجد الإنسان إلى ذلك سبيلا .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ) : أى وصيناه لايقرب الشجرة . (عَزْمًا) : ثباتا وتصميما .

(فَتَشْقَىٰ) : فتتعب بمتاعب الدنيا . (وَلَاتَعْرَىٰ) : يقال عَرِى يَعْرَى إذا تجرد من اللباس

(وَلَاتَضْحَىٰ) : ولايصيبك حر الشمس ، يقال : ضَحَا ، كَسَلا ضَحْواً ، وَضَحِىَ كَرَضِىَ ضحْياً ، أصابته الشمس . (فَوَسْوَسَ) : الوسوسة ؛ الخَطْرَةَ الرديئة ، وتطلق على الهمس الخفى ، وعلى حديث النفس . (شَجَرَةِ الْخُلْدِ) : الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت

كما زعم الشيطان . (طَفِقَا يَخْصِفَانِ) : شَرَعَا وأخذا يلزقان على عورتيهما ورقة فوق أخرى من ورق الجنة . (فَغَوَىٰ) : فضلَّ عن مطلوبه . (اجْتَبَاهُ) : اصطفاه .

التفسير

١١٥ - (وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) :

تمهيد :

كرر الله سبحانه وتعالى قصة آدم فى كثير من السور القرآنية بأساليب متعددة ،ليعرف أبناؤه من البشر عداوة الشيطان لهم ولأبيهم من قبلهم ، حتى يحذروا أفانينه فى تزيين الباطل ، وينجوا من سوء المصير الذى يدبره لهم ، وقد حكى الله سبحانه فى هذه السور كيف أغوى الشيطان آدم وأغراه بعصيان ربه ، فانخدع بأفانينه الشريرة فوقع فيما أراده من المعصية ، ليخرج من الجنة كما خرج ، وليتسلط على ذريته كما هدد وتوعد ، ولاشك فى أن هذا التفصيل مثل لبيان ما أجمله الله سبحانه فى قوله فى الآية السابقة « وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » والمراد من العهد إلى آدم وصيته وأمره ، تقول : عهد الملك إلى فلان إذا أوصاه وأمره .

والمعنى : ولقد وصينا آدم وأمرناه أن لا يقرب الشجرة فغفل عما وصيناه به ولم يشتغل بحفظه ولم نجد له ثبات قدم فى تنفيذه ، حيث خدعه الشيطان بأساليبه ، فنسى تحذير الله له منه بقوله : « إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » . وفسر ابن زيد وغيره قوله : (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) بمعنى لم نجد له عزما على مخالفة عهد الله ، بل كان عن طريق نسيان تحذير الله له من عداوة الشيطان دون تعمد للإثم والمخالفة .

١١٦ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ) :

هذه الآية شروع فى بيان ماعهد به لآدم ، وكيفية نسيانه وفقدان عزمه ، والمعنى واذكر يامحمد وقت أمرنا للملائكة بالسجود لآدم تشريفا وتكريما وبيانا لفضله ، فامتثل الملائكة جميعا وسجدوا إلا إبليس فإنه تمنَّع عن السجود له حقدا وحسدا، لظنه أنه أفضل منه ، حيث خلق من نار وخلق آدم من طين ، والنار فى زعمه أفضل من الطين .

١١٧ - (فَقُلْنَا يَـٰٓآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ) :

أى فقلنا عقب امتناع إبليس عن السجود لآدم – قلنا له – تحذيرا وإرشادًا : إن هذا عدو لك وعدو لزوجك فاحترسا منه ، فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة فتتعب أنت وزوجك بمتاعب الدنيا التى لا تكاد تحصى ، وتشقى بكثرة التعب والنَّصَب فيها .

١١٨ ، ١١٩ – (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) :

إنك فى الجنة فى عيش رغيد هنىء فلا تعب ولا مشقة ، فأنت فى دار كرامة لا يصيبك فيها شىءٌ من الجوع أو العرى ، فالغذاءُ فيها يأْتيك بمجرد الرغبة لا عن جوع ، والكساءُ الفاخر فيها يأْتيك كذلك لاعن احتياج ، لا يصيبك فيها الظمأُ أَو حر الشمس ، لأنْ شرابها تابع للإرادة لا عن عطش ، ولأَن ظلها دائم « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا[١] » .

فاجتمعت لك فيها الأَسباب التى توفر الراحة للإنسان ، وتجلب له السعادة ، فاحرص عليها ، وحافظ على البقاءِ فيها ، وابتعد عن كل ما يؤدى بك إلى الخروج منها .

١٢٠ – (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـٰٓآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ) :

ولكن الشيطان وهو عدوه المتربص به ، الواقف له بالمرصاد ، لم يتركه يعيش فى هذا النعيم حسدا له عليه ، فأَخذ يخطر له فى نفسه خطرات من الأَمانى الكاذبة ، ويهمس له بها همسا خفيا قائلا : إنى سأَدلك على شجرة إن أَكلت منها خلدت ولم تمت ، وملكت ملكا لا يفنى .

١٢١ – (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) : فتأَول آدم نهى الله عن الأَكل من الشجرة ، بأَنه نهى عن شجرة بعينها ، وهى التى أُشير إليها فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ[٢] » . ولم يحملها على الجنس ، فأَكل من جنسها هو وزوجه ولم يأْكل منها نفسها ، فانكشفت لهما عوراتهما – وكانت مستورة عن أَعينهما – عقابا لهما على الأَكل منها ، فقد كان الأَجدر به أَن يفهم من النهى عمومه لجنس الشجرة لاخصوصه بها .

(١) سورة الإنسان ، من الآية : ١٣

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٥

ومن المفسرين ، من جعل انكشاف عورتيهما مرتبا على الأكل من الشجرة ، لمصلحة أخرى وليس عقاباً[١] .

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) : وشرعا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترها . حياءً وخجلا ..

(وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) : وخالف آدم بذلك أمر ربه فضلَّ عن مطلوبه وهوالخلود فى الجنة ، أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة ، أوعن الرشد باغتراره بوسوسة عدوه . وقد عرفت أن أكله من الشجرة كان بنوع من التأويل كما تقدم بيانه ، وسمى ذلك عصيانا لعلو منصبه عليه السلام الذى يقتضى مزيد الانتباه لكيد عدوه ، وعدم تصديقه فى مزاعمه .

ومن العلماء من فسر ظهور سوآتهما ومحاولة سترها بأنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهرلهما أنهما قد زَلَّا وخلعا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سوأة المعصية ، فاستولى عليهما الخوف والحياءُ من ربهما ، وأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يُرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها .

١٢٢ - (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) :

ثم ألهم الله آدم التوبة ، فتاب إلى ربه فاختاره الله وتاب عليه واصطفاه وقربه إليه..

١٢٣ - (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) الآية .

قال الله لآدم بعد أن أكل من الشجرة : اهبط أنت وزجك من الجنة إلى الأرض ، وقد أُمر بذلك تنفيذا لحكمة الله من خلق آدم وحواء ، وهى استخلافه وذريته فى الأرض كما قال تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » سورة البقرة .

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) : هذا إخبار من الله لآدم بعداوة إبليس له ولذريته إلى يوم القيامة . ويجوز أن يكون المعنى : بعض أولادكما لبعض عدو ، وأُسندت العداوة إلى آدم وحواء لأنهما منشأُ أولادهما المتعادين .

---

(١) راجع ما كتبناه بسعة عن ذلك فى تفسير مثله فى سورتى البقرة والأعراف ، وهناك تعرف آراء العلماء فى الجنة التى كانا فيها وغير ذلك من الأمور الهامة . .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) : وأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه سيتعهد ذريته بإرسال الرسل وبيان الطريق المستقيم فى كتب ينزلها عليهم ، هادية لهم ، فمن اتبع الهدى الذى أنزله وسار فى الطريق الذى رسمه ، وعمل بما شرعه ، فلا يضل طريقه فى الدنيا ، ولا يشقى بالعذاب يوم القيامة ، لأنه اختار لنفسه طريق السعادة فسعد فى دنياه وأخراه .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾)

المفردات :

(عَن ذِكْرِى) : عن الهدى المذكر بعبادتى .

(مَعِيشَةً ضَنكًا) : ضيقة شديدة ، والضنك : الضيق .

(آيَاتُنَا) : الأدلة والبراهين الدالة علينا .

(فَنَسِيتَهَا) : فتركتها وأعرضت عنها .

(أَسْرَفَ) : جاوز الحد فانهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

التفسير

١٢٤ - (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) الآية .

بعد أن بين الله حسن مصير من اتبع هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، جاءت هذه الآية لتبين مصير من أعرض عنه .

والمعنى : ومن انصرف عن الهدى الذى يذكره بعبادتى فإن له معيشة ضيقة فى حياته مهما كان فى سعة من العيش ، فإنه يكون شديد الحرص على الدنيا متهالكا على الازدياد منها ، خائفا من انتقاصها ، وقيل الضنك مجاز عما لاخيرَ فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه ، وزيادة فى عذابه يوم القيامة ، كما دلت عليه الآيات ، وبهذا المعنى فسره ابن عباس ، فقد أخرج ابن أبى حاتم بسنده عنه أنه قال فى الآية : كل ما أعطيته عبدا من عبادى قلّ أو كثر لا يتقيى فيه فلا خيرفيه وهو الضنك فى المعيشة : اه . وفسره عكرمة بالكسب الحرام .

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) : أى ونسوقه يوم القيامة فاقدا البصر على الحقيقة ، حتى يقول : « رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا » وكان كذلك لأنه لم ينتفع بما أعطاه الله من بصر ينظر به فى آيات الله . وقيل : عَمَاهُ كناية عن عدم اهتدائه إلى حجة تنفعه ، أو إلى حيلة يدفع بها العذاب عن نفسه .

١٢٥ - (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) :

أى قال هذا الذى حشره الله أعمى يوم القيامة - قال - فى حيرة وحسرة : يارب لأى سبب حشرتنى أعمى وقد كنت فى الدنيا بصيراً أرى كل شىء ، فيأتيه الجواب حينئذ من قبل الله فيما يحكيه بقوله :

١٢٦ - (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) :

أى مثل ذلك العمى الذى جئتَ به فى الآخرة كنت أعمى فى الدنيا ، فقد جاءتك آياتنا فعَمِيتَ عنها ، وتركتها كالشىء المنسى الذى لا يخطر بالبال ، فاليوم نجازيك مثل عملك ، فنجعلك أعمى عن الاهتداء إلى حجة تنفعك ، ونتركك فى حيرتك وعماك ترك المنسى ، وندفع بك إلى النار لتَصْلى عذابها وتتلظى بنارها ، ولهذا قال سبحانه عقب هذه الآية :

١٢٧ - (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) :

أى وبمثل ذلك الجزاء العادل نجازى كل من أسرف على نفسه فى ارتكاب المعاصى وترك الإيمان بربه ، ولم ينظر فى الآيات التى نصبها فى الأنفس والآفاق ، ولم يعمل بشرعه الذى

أرسل به رسله ، حيث نجعله أعمى فى الآخرة ، لا يهتدى إلى سبيل النجاة من عذابها ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾)

المفردات :

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) : أَفَلَمْ يتبين لهم ما يدلهم على الهدى .

(لِأُولِى النُّهَىٰ) : لأصحاب العقول الراجحة .

(لَكَانَ لِزَامًا) : أى لكان عقابهم لازماً لا يتأخر عنهم .

التفسير

١٢٨ - (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ) الآية .

أى أغفل هؤلاء المعرضون من أهل مكة عن ذكر الله ، فلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من أهل القرون الماضية الذين ضلوا وأعرضوا عن ذكر ربهم ، وهم يمشون فى مساكنهم حين أسفارهم كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم الدالة على ماكانوا عليه من عظمة وسعة فى العيش فلقد أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يُغْنِ عنهم ماكانوا فيه من القوة والمنعة - لم يغن عنهم - من عذاب الله شيئاً ، وحاق بهم ماكانوا يكسبون ، فلو كان هؤلاء أصحاب عقول سليمة لاعتبروا بهؤلاء السابقين ، كما قال سبحانه : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ » إن فى إهلاك أهل هذه القرون الماضية على كفرهم ، لعظات بالغات لأصحاب العقول الراجحة ، التى تنهاهم عن الكفر والمعاصى .

١٢٩ ـ (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) :

ولولا كلمة سبقت من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا يعذب أمته فى الدنيا بعذاب الاستئصال كما عذبت الأمم السابقة . ولولا موعد سماه الله لعذابهم وهو يوم القيامة ـ لولا ذلك ـ لكان عذابهم العاجل المستأصل لهم لازماً محتماً ، لأنهم سلكوا طريق السابقين فى التكذيب والإنكار . فاستحقوا بذلك العذاب مثلهم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »[1] .

(فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾)

المفردات :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) : نَزِّه الله وعظِّمْهُ حامدًا له .

(آنَاءَ اللَّيْلِ) : ساعاته جمع إِنًى كَإِلَى[2] .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٣ ، ٣٤ فارجع إلى تفسيرهما هناك فى كتابنا (التفسير الوسيط) .

(٢) وأنى كمعصا وإنى كعلم .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) : أى وأجزاءً منه ، جمع طَرَف ، وهو الطائفة من الشئ ـ ذكره القاموس والصحاح .

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) : لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل .

(أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ) : أصنافًا من الكفرة .

(زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : زينتها وبهجتها .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنختبرهم به .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ) : ما ادخره الله من الثواب والنعيم فى الآخرة .

التفسير

١٣٠ ـ (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) :

بعد ما أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن المكذبين له مستحقون للعذاب الذى حل بمن سبقهم ، وأنه لولا ما سبق من وعد الله له بأنه لايعذب أمته وهو فيهم ـ بعد هذا كله ـ أمره الله بالصبر على أذاهم ، وتحمل كل ما يقولونه ، فإن عذاب الآخرة نازل بهم لامحالة .

والمعنى : فاصبر أيها الرسول على مايقوله مشركو مكة الذين أسرفوا فى الكفر بآيات ربك وتكذيبك ، فقد توعدناهم بأجل مسمى ينالون فيه عذاباً أشد وأبقى ، واشتغل بتسبيح ربك وتنزيهه عن النقائص ، واحمده ، على ما أنعم به عليك من مختلف النعم ، وأعلاها النبوة والمعونة فى تبليغ الرسالة مع معارضة هؤلاء المعاندين ، وليكن هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى أوقات مختلفة من الليل وأطراف النهار ، رجاء أن يمنحك الله من مزيد التوفيق وعظيم النصر وجزيل الثواب ، ما ترضى به نفسك الصابرة على أذاهم ، الصامدة فى تبليغ الدعوة إليهم ، وفى معنى هذا الوعد الكريم يقول سبحانه فى سورة الضحى : « ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وتأول بعض المفسرين الآية بأنها إشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس ، وجعل التسبيح فيها مجازًا عن الصلاة ، فكأنه سبحانه يقول : وصل لربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر قبل غروبها ، وصلاة العشاء فى

بعض آناء الليل وأوقاته ، وصلاتى الظهر والمغرب فى أطراف النهار ، فصلاة الظهر فى آخر طرف النصف الأول وأول الطرف الثانى ، وذلك وقت زوال الشمس عن كبد السماء وصلاة المغرب فى آخر طرف النصف الثانى منه ، ولهذا قال سبحانه (أطراف) بصيغة الجمع ، ويصح أن يراد من الجمع مافوق الواحد ، أى وطرفى النهار ، وقت الزوال ووقت الغروب ..

١٣١ - (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) :

بعد ما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فى الآية السابقة بالصبر على مايقوله المشركون فى حق آيات ربه ، والاشتغال عن سفههم بتسبيح ربه وحمده ، نهاه فى هذه الآية عن التطلع إلى ما هم عليه من زينة الحياة الدنيا ، فإنها فتنة لهم .

والمقصود من نهيه عن ذلك دوام التنزيه بما هو عليه من عدم التطلع إلى زينة الحياة الدنيا التى يتحلى بها المشركون ، وتبصير المؤمنين بأن ما عليه المشركون من غنى ويسار إلى زوال ، وما هو إلا فتنة لهم ، فلا يتطلعون إليه ، ولا يهتمون به ، وأن رزق الله ومثوبته على الإيمان والإيذاء خير مما هم عليه . .

والمعنى : قد أغنيتك بطاعتى وآياتى ، فاصبر على ما يقولون فى شأنها وشأنك ، ودُمْ على ما أنت عليه من عدم النظر إلى ما متعنا به أمثالا من المشركين متزاوجين - أى متماثلين فى الغنى والجاه ، حيث أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، لنفتنهم فى هذا المتاع ، فهو إلى زوال ، وما يرزقك الله فى الدنيا من النصر والفتح والغنائم ، وفى الآخرة من الثواب على الصبر وقلة المبالاة بدنياهم ، أبقى مما هم عليه من الثراء والجاه الفانى ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا برسولهم فيما هو عليه من الزهد فى دنياهم وعدم التطلع إليها ، فسيرزقهم الله فى دنياهم وأخراهم ما هو أجدى عليهم وأبقى مما يتمتع به المشركون : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ »[1] .

(١) سورة النحل ، من الآية : ٣٠

١٣٢ - (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) :

يرشد الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية إلى أن يأمر أهله بالمداومة على أداء الصلاة والمحافظة عليها فى أوقاتها المحددة لها . ليكون فى ذلك إرشاد لأمته فتعلم أنها مأمورة بذلك بطريق الأولى .

والمعنى : وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة ، واصطبر أنت على أدائها وملازمتها ، ونحن حين نكلفك بالصلاة لا نسألك أن ترزق نفسك ، نحن نكفل رزقك فنحققه لك وأنت تقوم بها ، وذلك بتهيئة أسبابه ، وإعانتك على تحصيله ، فأنت وسعيك ورزقك من صنع ربك ، فلن تعوقك الصلاة المفروضة عن تحصيله فى وقت الفراغ ، والعاقبة المحمودة لأهل التقوى الذين يصلون ، وعلى ربهم يتوكلون وهم يعملون .

وقد ائتمر أصحاب رسول الله صلى لله عليه وسلم ، بما أمر الله رسوله وأهله ، فكانوا يصلون كما يصلى ، ويفزعون إليها فى ضيقهم ، كما يفزع ، أخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا : « وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ . . » الآية .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : (كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ماشاء الله تعالى أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ، ويقول لهم : الصلاةالصلاة ، ويتلو هذه الآية « وأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ » .

ويصح أن يراد من أهل الرسول من آمن به من المؤمنين ، كما فى قوله تعالى للوط : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ »[1] .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٨١

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

المفردات :

(لَوْلَا يَأْتِينَا) : لولا حرف يفيد الحث على تحقيق ما بعده مثل هلَّا .

(بِآيَةٍ) : بمعجزة تدل على صحة ما يدعو إليه .

(بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) : المراد بالصحف الأُولى : الكتب السماوية السابقة ، وفى جملتها التوراة والإنجيل ، والمراد بما فيها ما اشتملت عليه من قصص الأَنبياء والأَحكام المشتركة بين الرسالات . والمراد ببينة مافى الصحف الأُولى : القرآن ، فكونه مشتملا على ماجاءَ فيها يجعله آية واضحة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأَنه أُمىّ لاعلم له بما جاءَ فيها .

(نَذِلَّ) : نُهان . (وَنَخْزَى) : ونفتضح . (مُتَرَبِّصٌ) : منتظر .

(الصِّرَاطِ السَّوِيِّ) : الطريق المستقيم .

التفسير

١٣٣ - (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

أَى وقال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنكارا . لما جاءَهم به من البينات : هلا يأْتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى الرسالة ، مثل ما جاءَ به غيره من الرسل لأَقوامهم من المعجزات الحسية التى شاهدوها ، وهم بهذا القول قد بلغوا الغاية فى العناد والمكابرة ، حيث أَنكروا آية الآيات ومعجزة المعجزات ، وهو القرآن الكريم فلهذا رد الله عليهم بقوله :

(أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى) . أى أقالُوا ذلك ولم تأْتهم بينة مافى الكتب السماوية الأُولى ، ممثلة فى القرآن الكريم ، فإن اشتماله على ما جاءَ فيها من قصص وعبر وعقائد وأحكام يعتبر آية بينة على أنه رسول من عند الله ، فإنه أُمى لايقرأُ ولا يكتب ، ولا صلة له بأَهل الكتاب ، فضلا عما اشتمل عليه من أعلى درجات الفصاحة التى لا يستطيع البشر أن يأْتوا بمثلها ، وقد تحداهم أن يأْتوا بسورة منه فعجزوا ، أَو لم يقنعهم ذلك فى كونه معجزة حتى يطلبوا معجزة أُخرى سواه وقد فات أَوان المعجزات المادية ، وجاءَ أَوان المعجزة العلمية الباقية بقاءَ الزمان ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

« مَامِنَ الأَنبياءِ نبيٌّ إلا أُعطى من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيتُه وحياً أَوحاه الله إلىَّ فأَرجو أَن أَكونَ أَكثرَهم تابعاً يوم القيامة »[1] وقد كانت للنبى معجزات غير القرآن كانشقاق القمر وغيره ، ولكن التحدى لم يقع إلا به ، ولهذا تكفل الله بحفظه ليبقى آية للرسالة المحمدية الباقية إلى يوم القيامة ، أَما المعجزات المادية فلا بقاءَ لها .

١٣٤ - (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) :

أَى : إنا بعثنا محمداً إليهم ، وأَيدناه ببينة مافى الصحف الأُولى وهو القرآن ، ولو أَنا أَهلكناهم بشركهم ومنكراتهم من قبل محمد أَو من قبل إتيان البينة ، لقالوا محتجين : ربنا هلَّا أَرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى الهدى والرشاد فنتبعه من قبل أَن نذل فى الدنيا بالهوان والإهلاك ، ونفتضح بظهور جرائمنا فى الآخرة على رءُوس الأَشهاد فى المحشر ، وبالعذاب المهين فى نار جهنم .

١٣٥ - (قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) :

قل أَيها الرسول لهؤلاءِ المشركين المتمردين على الحق - قل لهم - : كل منا ومنكم منتظر ما يؤول إليه أَمره فى الآخرة ، فانتظروا فستعلمون عن قريب من هم أَصحاب الطريق السوى الذى لا عوج فيه ، ومن اهتدى من الضلالة ، هل هم المؤمنون بالقرآن العاملون بآياته ، أَم هم الذين كفروا به وصدوا عن سبيله ، وسيتبين لكم ذلك قريباً بنصر من اهتدى إلى طريق رحمة ربه ، على من ضلَّ عنه إلى طريق عذابه ، أَو يتبين لكم ذلك عند الموت أَو يوم القيامة وكل آت قريب - والله أَعلم .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب فضائل القرآن .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٥٫٠٠٤ - ١٩٨٢ - ٨٥٦٥



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثالث والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣

« سـورة الأنبيـاء »

من السور المكية ، وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة ، وسميت بذلك لاشتمالها على كثير من قصص الأنبياء ، وبيان أحوالهم مع أممهم ، وما لاقوا منهم من عنت وتكذيب ، جاءت فى إطار المنهج المكى العام من الدعوة إلى عقيدة التوحيد ، وذم عقيدة الشرك ، وتوبيخ المشركين على إعراضهم عن الذكر ، وعلى دعواهم تنافى النبوة والبشرية ، والإخبار بأن الله أهلك كثيرًا من الأمم المكذبة لرسلها عقابًا لهم .

وقد اشتملت على آيات الله فى السموات والأرض ، وبيان أنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » . وأن المشركين ليس لديهم برهان على مشروعية شركهم ولا على صحته ، وأن التوحيد عقيدة جميع المرسلين ، وأن من اتخذوهم أولادًا لله ليسوا كذلك ، بل هم عباد مكرمون ، كما بينت أن السموات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ففصل الله بينهما ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه ، كما بينت أنه تعالى حفظ الأرض من الاضطراب بالجبال ، وأنه جعل السماء فوقنا كالسقف ، وحفظها من السقوط ومن العيوب ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر ، فكيف يعبدون غيره ، وأن الخلائق جميعًا سوف يموتون ، وإلى الله يرجعون ، وعابت على المشركين استهزاءهم بالرسول لِنَهْيِهِ إياهم عن عبادة آلهتهم ، وتوعدتهم على تكذيبهم بيوم القيامة الذى سيأتى الناس بغتة ، ثم بيَّنت أنه تعالى سيضع الموازين يوم القيامة ، فيقضى بين الناس بالحق ، ولا يظلمهم مثقال حبة من خردل ، ثم تحدثت عن أنه تعالى آتى موسى وهرون التوراة ضياءً وذكرًا للمتقين ، وآتى محمدًا ذكرًا مباركًا فكيف ينكرونه ، ثم حكت قصة إبراهيم مع قومه وأنه حطم أصنامهم ، وسفَّه أحلامهم فرجعوا إلى الحق ، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى وثنيتهم ونصرة آلهتهم ، وأنهم حكموا بقتله إحراقا بالنار ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، فهاجر مع لوط إلى الأرض المباركة ، ووهب الله له حال حياته إسحق ويعقوب بن إسحق عليهم السلام ، ثم عقَّبتْ قصتَه بقصة لوط فنوح فداود وسليمان ، فأيوب فإسماعيل فذى النون فزكريا ويحيى فمريم وعيسى عليهم السلام ، لعلَّ المشركين يعتبرون بما جاء فيها من عظات ، ويرجعون عن شركهم وعنادهم ،

وبعد أن حكت السورة قصص الأنبياء وبينت أنهم جميعًا على ملة واحدة ، وهى ملة التوحيد ، وأنه تعالى ربهم جميعًا ، فلا يحلُّ لهم أن يعبدوا سواه ، ونعت على الأُمم تفرقهم فى الدين ، ما بين موحد ومشرك ، وبينت أنهم راجعون إليه للجزاء ثم وصفت أهوال القيامة ، وسوءَ جزاء الكافرين ، وحسن جزاء المؤمنين ، وبينت أنه تعالى كتب فى الزبور من بعد الذِّكر أن الأَرض يرثها عباد الله الصالحون ، وأنه أرسل محمدًا رحمة للعالمين ، وتوعدتهم على الكفر به ، وانتهت بقوله تعالى حكاية عن رسوله : « قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

وفى شأْنها أَخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « بَنُو إِسْرَائِيلَ والكهفُ ومريمُ وطه ، والأَنبياء هُنَّ من العتاق الأُوَل ، ومن تلادى » يريد من قديم ما كتب وحفظ من القرآن ، كالمال التِّلاد - أى القديم ، يعنى أنها من أوائل ما نزل من القرآن ، حيث نزلت بمكة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(حِسَابُهُمْ) : أى زمن حسابهم وهو يوم القيامة .

(مُّعْرِضُونَ) : منصرفون عن التفكير فى عاقبتهم .

(ذِكْرٍ) : ما يذكرهم من القرآن بواجبات ربهم .

(مُّحْدَثٍ) : جديد حديث النزول .

(يَلْعَبُونَ) : يسخرون ويستهزئون .

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) : متغافلة بما يلهيها .

(النَّجْوَىٰ) : المسارَّة فى الحديث وإخفاؤه .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) : تخاليط فى رؤى المنام .

(افْتَرَاهُ) : اختلقه من عند نفسه .

(من قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : المراد من القرية المُهْلَكة أهلُها .

التفسير

١ - (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) :

المراد من الناس هنا : المشركون ، فهم الموصوفون بأنهم فى غفلة وإعراض عن يوم الحساب وبأنهم يستمعون الذكر وهم معرضون لاهية قلوبهم ، وبقولهم عن الرسول والقرآن : « هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » .

والمعنى : قَرُبَ ودنا للمشركين يوم حسابهم - وهو يوم القيامة - وحالهم أنهم فى غفلة عنه ، معرضون عن القرآن الذى يذكرهم به ، فهم بدنياهم مغرورون ، وبأُخراهم مكذبون ، ولسوف يندمون حين يرون أنهم فى العذاب محضرون .

والتعبير عن وقت حساب الناس فى الآخرة بأنه قريب لهم ، لأن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها قليل ، ولهذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات ونُبُوَّتُهُ خاتمة النبوات ، ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين »[١] وأشار إلى أصبعيه الوسطى والإبهام التى تليها ، أى أن بعثته قريبة من الساعة قرب نهاية الإبهام من نهاية الإصبع الوسطى ، وقد ظهر من أمارات قربها أنك : (تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ العَالة رِعَاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان) كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح ، وأن الأرض تزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كما قال تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ »[٢] على أن الموت هو القيامة الصغرى ، وهو منهم قريب ، وحينئذ يعرفون حالهم ومآلهم .

٢ - (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)[٣] :

هذه الآية مبينة لمدى إعراضهم عن يوم الحساب الذى هو قريب منهم ، وعن الحق الذى قامت به الحجة عليهم .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن سهل - كتاب التفسير - باب (أيان مرساها)

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٢٤ (٣) جملة «وهم يلعبون» حال من الواو فى قوله : «إلا استمعوه»

والمعنى : ما يأتى هؤلاء المشركين شىء من القرآن مُذكِّرٌ لهم من ربهم ،حديث النزول مع جبريل ، إلَّا فى حال لهوهم ولعبهم بعباراته ، حيث يقدحون فيه ويعترضون عليه ، وينكرون ما جاء به ، جهلًا منهم بمكانته من الحق ، ومنزلته من الصدق ، .ولو أن هؤلاء تذكروا بمواعظ القرآن ، لتحققوا من الآخرة وقربها ، ولطابت نفوسهم بالتوبة والعمل لأُخراهم ، ولم يركنوا إلى زخارف دنياهم ، ولكنهم كما قال الحسن : كلما جُدِّد لهم الذكر ، استمروا على الجهل .

٣ ـ (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ[1] وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) :

أى أن مشركى مكة كلما أُنزل إليهم شىء من القرآن حَدِيث النزول ، يذكرهم بما يجب لله من صفات الكمال ، وبأَنهم سوف يحاسبون على أعمالهم ، لايستمعون إلَّا وهم عابثون مستهزئون ، ساهية قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأَمل والتعقل فيما تنتهى إليه دنياهم ، وما هم منتهون إليه من عذاب السعير ، وفى معنى ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ »[2] . ثم أَطلع الله نبيه على مؤامرتهم فقال :

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)[3] : أى وبعد أَن غمرتهم الغفلة وأَعرضوا مستكبرين لاهين مكذبين بالبعث والحساب ، أخفى هؤلاء الطاغُون تناجيهم ومسارتهم حين يثبطون المؤمنين ويَصُدُّون الناس عن الإسلام ، بِتنْقِيص الرسول وتكذيبه ، وإثارة النفوس عليه ، حتى ينفروا منه ، ويعرضوا عن دعوته ، يقولون لهم :

(هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) : الاستفهام للنفى المشوب بالتعجب ، أى ما هذا إلَّا بشرٌ مثلكم ، فهو واحد منكم ، وليس من الملائكة ، فكيف تسمعون له وتطيعونه ، إنه يريد أن يتميز عليكم ويتزعمكم ، فليس بنبى ولا رسول كما يقول لكم ، ومثلهم فى هذا مثلُ قوم نوح ، حين قال بعضهم لبعض : « مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَآئِكَةً »[4] .

---

(١) لاهية حال ثانية من الواو فى قوله « استمعوه » مؤكدة للعبهم ،وقلوبهم فاعل لاهية، لأن الوصف يعمل عمل الفعل .

(٢) سورة الصافات الآيتان: ١٣، ١٤ (٣) (الذين ظلموا) بدل من الواو فى قوله (وأسروا) أو أن الواو فى (أسروا) حرف للدلالة على الجمعية ، و (الذين ظلموا) فاعل،وهذه لغة أزد شنوءة ، قال شاعرهم : يلوموننى فى اشتراء النخيل أهلى وكلهمو ألوم . قال أبو حيان : وهى لغة حسنة وليست شاذة كما قال بعضهم ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وغيرهما ، حيث قالوا : إن الواو فى (أسروا) مثلها فى(قائمون) ومثل التاء فى قامت حرف للدلالة على جمع المذكر فى الأولى وعلى المؤنثة فى الثانية .

(٤) سورة المؤمنون : من الآية : ٢٤

ثم زادت قريش فى غلوها ، فزعمت أن القرآن سحر ، وأن محمدًا يسحر به عقول الناس فقالوا منكرين على المؤمنين اتباعه :

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) : والاستفهام فى الآية لاستنكار مجيء الناس لسماعه ، وتسفيه المؤمنين وتوبيخهم على إيمانهم به .

والمعنى : ما لكم تتوجهون إلى السحر وتطيعون صاحبه ؟ وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر وتدركون بعقولكم ما يؤثّر بسحره على الضعفاء من قريش ، فيفرق به بين الوالد وولده ، وبين الرجل وأهله ، وغاب عنهم أن الحق أقوى من السحر ، وأنه هو الذى فرق بين أهل الهدى وأهل الضلال خوفًا من عدْواهم أو من ظلمهم وعدوانهم ، وما محمد بساحر ولا عرف السحر ، وما القرآن إلَّا رحمة للعالمين .

٤ - (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

قرئ (قَالَ) بصيغة الماضى و (قُلْ) بصيغة الأمر ، وقد أفاد مجموع القراءتين ، أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أمره ربه أن يقول هذا القول ردًّا على مزاعمهم فى نجواهم ، وأنه امتثل فقاله لهم .

والمعنى : قال محمد لمن تناجوا واستَخْفَوْا بأحاديثهم طعنًا فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال محمد لهم : ربى يعلم قول كل قائل فى السموات والأرض ،وهو عظيم السمع محيط العلم ، فكيف لا يعلم سركم ونجواكم ؟ ويعاقبكم على صدكم عن سبيله ، وكفركم بكتابه ورسوله ، وما أنتم فى ملكه وملكوته وفى دائرة علمه وانتقامه إلَّا شيءٌ قليل .

ولم يكتف هؤلاء الظالمون بما زعموه فى حق القرآن من كونه سحرًا ، بل تخبطوا فى وصفه ووصف رسوله ، كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٥ -(بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) :

الأضغاث فى الأصل : الحشائش والأعشاب اختلط يابسها برطبها ، أى : أن رسالة محمد فى نظرهم أحلام مختلطة رآها فى نومه ، حملته على أن يتوهم ما توهم ، ويقول ما قال ولا حقيقة فى الواقع لما ادَّعاه ، ولا تأويل له كما لا تُؤَوَّل الأحلام المختلطة ، ومن كان كذلك فلا ينبغى أن يُصدَّق أو يتبع ، ثم أضربُوا عن هذه الفرية ، حين رأوها هزيلة

أمام عظمة القرآن وبلاغته ، فزعموا أنه افتراه بفصاحته ، ونسبه وحيًا إلى الله ، ثم اشتد تخبطهم فعدلوا إلى وصفه بأنه شاعر يجيد صوغ الشعر ، ويحسن سبكه ويسحر ببلاغته من يسمعه ، حتى يحمله على اتباعه ، متجاهلين أن محمدًا الذى نشأ بين أظهرهم لا يعرف الشعر ولم يزاوله فى حياته : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »(١) .

وفى الطبرى أن هذه الدعاوى المفتراة ، والمزاعم المختلقة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت لطوائف من المشركين لكل طائفة فريتها التى كفرت بها . يقول رحمه الله فى تفسير الآية : « ما صدقوا بحكمة القرآن ولا أنه من عند الله ، ولا أقروا بأنه وحى أوحاه الله إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل قال بعضهم : هو أهاويل رؤيا رآها فى النوم ، وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه على الله ، واختلقه من قِبَل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر وهذا الذى جاء به شعر » اهـ .

وهذا التنقل فى أباطيلهم ومفترياتهم مع علمهم أنه على الحق ، ناشئ عن استكبارهم وعنادهم ، حتى قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٢) . وصدق الله العظيم إذ يقول : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »(٣)

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) : أى إن كان محمد صادقًا فيما ادعاه من أن الله بعثه للناس رسولًا ، وأنزل معه كتابًا ، وأن الذى يتلوه وحى يوحى إليه من الله ، ويريدنا على تصديقه فليؤيد قوله بمعجزة كونية تدعم دعواه ، كمن سبقه من المرسلين ، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى ، وكعصا موسى ، وناقة صالح وغيرها ، فإن فعل ذلك آمنا به وصدقناه ، ودعونا الناس لدعوته ، وأعناه على تبليغ رسالته .

٦ ـ (مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) :

لما اقترحوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتى بآية تثبت لهم نبوته كمعجزة صالح وموسى وعيسى وغيرهم من المرسلين نزل قوله تعالى : (مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : أى أن أى قرية أهلكناها كانت غير مؤمنة فاقترح أهلها آيات كالتى تريدها

(١) سورة يس ، آية : ٦٩ (٢) الزخرف ، الآية : ٣١
(٣) الأنعام ، من الآية : ٣٣

قريش فلما جاءتهم لم يؤمنوا ، وسنة الله أنه إذا أجاب أمة إلى ما اقترحت من آيات ثم لم تؤمن أخذها أخذ عزيز مقتدر .

(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) : الاستفهام فيه للإنكار والاستبعاد ، فمعنى : (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أن قريشًا لا يؤمنون إن جئناهم بالآيات التى أرادوها ، وحينئذ يحق عليهم من العذاب والهلاك ماحق على الأولين ، فلهذا لم نجبهم إلى ما طلبوا ، لأنهم سيؤمنون بدونها ، وينتشر بهم الإسلام وفقًا لمشيئتنا .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(رِجَالًا) : أى بشرًا لا ملائكة . (أَهْلَ الذِّكْر) : المراد بهم هنا : أهل الكتاب .

(جَسَدًا) الجسد : جسمُ الإنسان خاصة كما قاله الخليل ، وعممه صاحب القاموس فى الإنس والجن والملك ، وهو المناسب للآية . (صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) : بنصرهم على أعدائهم . (الْمُسْرِفِينَ) : الكافرين . (ذِكْرُكُمْ) : وعظكم أو شرفكم . (تَعْقِلُونَ) : تتدبرون وتتعظون . (وَكَمْ) : كم خبرية تفيد الكثرة . (قَصَمْنَا) : القصم الكسر مع تفريق الأجزاء أى : أهلكنا . (أَحَسُّوا بَأْسَنَا) : أدركوه بالحاسة أى : عاينوا العذاب الشديد الذى يوشك أن ننزله بهم . (يَرْكُضُونَ) : يفرون هاربين ، وأصل الركض : استحثاث الفرس برجلى الراكب ليسرع فى جريه . (مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) : ما وسع الله عليكم فيه من مختلف النعم . (دَعْوَاهُمْ) : دعوتهم . (جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) : أهلكناهم جميعًا فكانوا كالزرع المحصود . (خَامِدِينَ) : ميتين ، والخمود أصلًا للنار ، يقال : خَمَدَتِ النَّارُ أى : هَمَدَت وَطُفِئَتْ ، شبه ذهاب أرواحهم بخمود النار .

التفسير

٧ ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) :

هذه الآية رد على ما زعموه من أنه لايصح أن يكون الرسول بشرًا ؛ حسبما يقتضيه قولهم السابق : « هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » .

المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى الأمم التى سبقت أمتك ، إلا رجالًا من البشر مثلك ، نوحى إليهم على لسان الملك ما نوحيه من العقائد الحقة والشرائع اللائقة بحالهم وزمنهم وبقصص الأنبياء الذين سبقوهم مع أممهم ، كما نوحى إليك ، فما بالهم ينكرون عليك الرسالة لأنك بشر ، ولست فى ذلك بدعًا من الرسل ، فكلهم من البشر .

والواقع أنهم يجادلون بالباطل ، فهم على علم بأن الرسول لا يكون إلا بشرًا ، إذ أنهم يقرون برسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولهذا يحجون البيت الحرام الذى بنياه ، ويزعمون أنهم على شريعتهما ، ولقد عاملهم الله بجهالتهم ومغالطتهم ، فقال لهم :

(فَاسْأَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : أى فاسألوا أيها الجاهلون المفترون على رسالة محمد ، اسألوا أهل الكتاب عن الرسل : أبشرًا كانوا أم ملائكة ، إن كنتم لا تعلمون

حال الرسل السابقين ؟ فالمراد بأهل الذكر : أهل الكتاب ، فإنهم مع عداوتهم للرسول لا يستطيعون إنكار بشرية الرسل ، فإن موسى صاحب التوراة من البشر ، وهذا شيء لا يستطيع اليهود المجاورون للمشركين إنكاره ، وقيل : أهل الذكر : هم أهل القرآن ، وردَّ ابن عطية هذا الرأى بأنهم كانوا خصومهم فكيف يسألونهم .

٨ - (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) :

بعد أن بيَّنَ القرآن أن سنة الله فى الرسل أن يكونوا بشرًا ، بيَّن ما فيهم من بقية صفات البشر فقال : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) : أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم الماضية جسدًا لا يأكلون الطعام كما هو شأن الملائكة الذين تريدون رسولكم منهم ، ولكن جعلناهم بشرًا مثله ، يأكلون الطعام كما يأكل ، وما كانوا باقين أبدًا فى الحياة الدنيا ، بل هم إلينا راجعون كسائر البشر .

ومع كون الآية مقررة لما قبلها فهى رد على قولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » ويقول الآلوسى فى تفسيرها : (والظاهر أنهم يعتقدون فى الملائكة الحياة الأبدية كاعتقاد الفلاسفة فيهم ، وحاصل المعنى على هذا جعلناهم أجسادًا متغذية صائرة إلى الموت حسب آجالهم ، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون) انتهى بتصرف يسير .

٩ - (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) :

ثم وفينا بوعدنا لرسلنا السابقين بالنصر على عدوهم ، وحقت كلمتنا لهم ، فأخذنا الأمم الذين عصوهم وعتوا عن أمر ربهم بالعذاب بعد أن أجبناهم إلى الآيات التى طلبوها فكفروا بها ، فأنجينا رسلنا ومن أردنا نجاته من المؤمنين - أنجيناهم مما أخذنا به أممهم الكافرة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ »[1] . وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والتمادى فى الضلال ، هذه أنباء من قبلكم وتلك عاقبتهم فما لكم تعرِّضون أنفسكم لمثل ما نزل بهم بانتهاجكم نهجهم ، وسيركم فى طريقهم .

---

(١) سورة يونس ، آية : ١٠٣ .

١٠ - (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . .) الآية .

التنوين فى (كِتابًا) للتعظيم ، والمعنى : لقد أنزلنا على رسولنا كتابًا عظيمًا ، فيه تذكير وموعظة لكم ، كما أن فيه عزكم وشرفكم ، إن آمنتم به ، وصدقتم من بلَّغه ، كما قال سبحانه : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) : أى شرف لمن اتبعه ، وعمل بما جاء به .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى ألا تتفكرون فلا تعقلون ، وفيه معنى الأمر ، أى تَفكَّروا لكى تدركوا فيم يكون خيركم ؟ وفيه الإشارة إلى أن من أعرض عما جاء به الرسول فلم يُعْمِلْ عقله فيه ، ولم يتدبر أمره ، موسوم بعدم التعقل وقلة التبصر ، وهو ما لا يليق بعاقل ، ومثله فى المعنى قوله تعالى : « بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ »(٢) . وهل يعرض عن داعية الشرف والاتعاظ عاقل ؟

١١ - (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) :

هذه الآية وما بعدها لتفصيل ما أُجمل فى قوله تعالى : « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » وبيانٌ لكيفية إهلاكهم .

والمعنى : إن سنتنا التى لا تتغير هى أن نأْخذ الجاحدين بالآيات إذا ما لجُّوا فى ضلالهم وكثيرًا من الأُمم قصمنا أى : أهلكناها إهلاكًا تامًّا ، ودمرناها تدميرًا كاملًا . فالمراد بالقرية أهلها على حد : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » وتلك القرى التى أهلكناها كانت ظالمة لنفسها بكفرها ومعاصيها ، ظالمة للرسل والمؤمنين بالتكذيب والاضطهاد ، وملاحقتهم بالكيد والإيذاء ، وأنشأْنا بعد إهلاك هذه القرى الظالمة قومًا آخرين ليسوا منهم ، حلوا فى أماكنهم ، وسكنوا قراهم ، والظاهر أن هذه القرى المهلكة لا يراد بها قرى معينة ، وقيل : إن المراد بها قرية باليمن تسمى « حضور » قتل أهلُها نبيَّهم ، فانتقم الله منهم أبلغ انتقام لبلوغهم فى الكفر أبشع ما يكون وهو قتل الأنبياء ، والرأى الأول هو الظاهر ، فإن لفظ : (كَمْ) يدل على كثرة القرى المهلكة فكيف يُرَادُ به قريةٌ واحدة بعينها ؟ .

---

(١) الزخرف ، من الآية : ٤٤ والذكر بمعنى الوعظ أو الشرف والعز .

(٢) المؤمنون ، من الآية : ٧١

١٢ ـ (فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ) :

وهذا بيان لحالهم حين حلول العذاب بهم . أى : فلما أدركوا عذابنا الشديد وشعروا بوقوعه بهم ، وأحسوه بحواسهم (إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ) :وأصل الركض ؛ ضرب الراكب دابته برجله لتسرع ، أى : أنهم ركبوا دوابَّهم وركضوها ـ ظنًّا منهم أنها تنجيهم من أخذ الله وعذابه[1] ، أو هو على تشبيههم فى فرارهم بالراكض يسرع طلبًا للنجاة ، فجعلوا كأنهم يستنهضون أنفسهم حثًّا لها على السرعة والتماسًا للنجاة من عذاب لا مفر منه أبدًا[2] .

١٣ ـ (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) :

أى : قيل لهم هذا ، والقائل إما من الملائكة ، وإما من المؤمنين ، أو أن من يراهم يقول بلسان الحال هذا المقال : لا تسرعوا فى عَدْوِكم ، وعودوا إلى مقر نعمتكم ومواطن ترفكم الذى أبطركم حتى جحدتم وكفرتم ، وأقيموا فى مساكنكم ووطئوا مجالسكم ، كما اعتدتم ، لعل أتباعكم يَمْثُلُون بين أيديكم ، ويسألونكم عما تأمرونهم به لينفذوه ، أو لعلكم تُسْأَلون عن باعث هذا العذاب عليكم ، وسبب نزوله بكم ، أو لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون قبل نزول البأس بكم ، فتسارعون إلى الإيمان طلبًا للنجاة ، وكل ذلك على سبيل التهكم والسخرية بهم ، وفى الآية آراء أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

وهذا الفرار منهم أَبْلَغُ فى الجهل وأبعد عن السداد؛ إذ أنهم يقيسون أخذ الله القادر القاهر بأخذ الناس للناس فظنوا الهرب منجيًا ، فهربوا فلاحقهم عذاب الله .

١٤ ـ (قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى أن أهل هذه القرى الظالمة لما أحسوا بأسنا وعذابنا ، ركضوا وأسرعوا طلبًا للنجاة وقالوا ـ نادمين ـ يندبون نهايتهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لرسلنا ولآيات ربنا ولأنفسنا ، فحق علينا قول ربنا ، وهكذا يندم الظالمون بعد فوات الأوان ، ويتحسرون ويعترفون بخطاياهم حين وقوع العقاب ، وسوف ينتهون بعده إلى عذاب دائم : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ[3] » .

(١) وهو على هذا فعل متعد لمفعول. (٢) وهو على هذا استعارة مكنية، وقال أبو زيد : وركض تستعمل لازمة بمعنى جرى وعلى هذا لا يكون فى الكلام تجوز .

(٣) سورة غافر ، آية : ٥٢

١٥ - (فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء والنداء ، والمقصود بها قولهم : « يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » : أى أنهم ظلوا يولولون مرددين هذه الدعوة ، قائلين : يا هلاكنا قد جاء أوانك ؛ فقد كنا ظالمين لأنفسنا بما أشركنا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ، وما زالوا يرددون دعوتهم هذه حتى أتم الله إهلاكهم وإفناءهم وكانوا كالزرع المحصود الذى انقطعت صلته بالحياة ، وأصل الخمود : انطفاء النار بعد اشتعالها ، فشبه موتهم بعقاب الله بعد حياتهم ونشاطهم - شبه - بخمود النار بعد اشتعالها فتصبح لا ضوء لها ولا دخان ولا حرارة بعد أن تحولت إلى رماد .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَاعِبِينَ) : أى عابثين بدون حكمة . (لَهْوًا) : اللهو كل ما يتلهى ويتسلى به .

(نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ) : نرمى به عليه . (فَيَدْمَغُهُ) : فيصيبه ويقهره .
(زَاهِقٌ) : هالك فانٍ . (الْوَيْلُ) : الهلاك والعذاب . (مِمَّا تَصِفُونَ) : بسبب وصفكم لربكم .
(وَلا يَسْتَحْسِرُونَ) : وَلا يَمَلُّونَ وَلا يَتعبون.. (يَفْتُرُونَ) : يَعْيَوْنَ ويضعفون .
(أَمِ اتَّخَذُوا) : بل أَتَّخذوا ؟ . (يُنشِرُونَ) : يُحْيُون الموتى .
(لَفَسَدَتا) : لخربتا واختلَّ نظامهما .

التفسير

١٦ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) :

عقَّب الله - سبحانه - إخماد الظالمين و إهلاكهم ، واستخلاف قوم آخرين مكانهم بهذه الآية ليشير بها إلى أن أفعاله تعالى لا تَخلو عن الحكمة ، وأَن إهلاك الظالمين عين الحكمة ، لكفرهم وظلمهم ، وقد أَفادت الآية الكريمة أن ما بين السموات والأَرض شيءٌ عظيم يقتضى الإشارة إليه ، وإن لم يصل العلماءُ بعد إلى تفصيله ، وإن عرفوا بعضه كالأَشعة الكونية والجاذبية والهواء .

والمعنى : وماخلقنا السموات والأَرض ومافيهما وما بينهما من الكائنات والعناصر والعوالم التى لا يعرفها بحقائقها وأَوصافها إلا نحن - ما خلقنا ذلك عابثين لمجرد التلهى بل خلقناها مشحونة بالآيات والعجائب ، ليتعرف علينا عبادنا بآياتنا ، ولمصالح دنيوية وأُخروية ، وحكم علوية ظاهرة وخفية ، وسيتجلى ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٧ - (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّا تَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ) :

هذه الآية مقررة لما قبلها من انتفاء اللهو واللعب فى خلق السموات والأَرض ومابينهما ، كما أَنها منزهة له تعالى عما زعمه المشركون من أَن الأَصنام بنات الله ، ومازعمه النصارى من أَن لله زوجة وولدًا هما مريم وعيسى عليه السلام ، ومازعمه اليهود من أَن عزيرا ابن الله ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً .

يقول الإمام الواحدى : اللهو : طلب الترويح عن النفس . ثم المرأة تسمى لهوا وكذا الولد ، لأنه يُسْتروَحُ بكل منهما ، ولهذا يقال لامرأة الرجل وولده : رَيْحَانَتَاه .

والمعنى : لوأردنا أن نتخذ لهوا من النساء أو الأولاد ، لاتخذناه من عندنا مما نصطفيه ونختاره [1] ، لا كالذين زعمتموهم ، لأن ولد الوالد وزوجته يكونان عنده لاعند غيره . انتهى بتصرف .

وتفسير اللهو بالولد مَرْوِىٌّ عن ابن عباس والسدى ، وتفسيره بالمرأة مروى عن قتادة ، وفسر الجبائى الآية بقوله : لو أردنا اتخاذ اللهو لاتخذناه من عندنا ، بحيث لا يطلع عليه أحد؛ لأنه نقص فَسَتْرُهُ أولى ، انتهى .

وقد أفادت هذه الجملة أنه تعالى يستحيل عليه اتخاذ زوجة أو ولد بأى صورة فى السماء أو فى الأرض ، لأنه تعالى يستحيل عليه أن يشتغل باللهو ، فكل أفعاله تتسم بالجد والحكمة ، ولذا ختم الآية بقوله سبحانه : «إن كُنَّا فاعِلِين » أى أننا لا نفعل ذلك لكونه مستحيلا فى حقنا .

١٨ - (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . . .) الآية .

ليس من شأْننا التلهى والعبثُ بل شأْننا الحق والجد ، ولهذا نَقذف الباطل بالحق فيدمغه ، ويذهب به ، ويقضى عليه ويدمره .

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) : هالك زائل ، وفى التعبير بالقذف الذى لايكون إلا فى الأجسام الصلبة - عادة - من حجر ونحوه ، وبالدمغ الذى أصله إصابة الدمَاغ وهو مقتل ، وبالزهوق الذى هو خروج الروح من الجسد إبراز للمعنوى فى صورة المُحَسِّ المشاهد ، وفى ذلك أبلغ تصوير لغلبة الحق على الباطل حتى يمحقه ويمحوه .

قال الزمخشرى فى كشافه : « بل » للإضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه تعالى لذاته كأنه قال : تنزيهًا لنا أن نتخذ اللهو واللعب من عادتنا ، فموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نَغْلِبَ اللهو بالجد ، وندحض الباطل بالحق . اهـ .

---

(١) كما فى قوله تعالى فى سورة الزمر : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا صطفى مما يخلق مايشاء » وحرف « لو » فى كلتا الآيتين يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط .

(وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) : المخاطبون بذلك ابتداء هم الكفار من أهل مكة ، ولأمثالهم في كل حين مالهم من الويل الشديد ، و « مِنْ » في قوله (مما تصفون) تعليلية ، و « ما » مصدرية أي بسبب وصفكم الله تعالى بما لا يليق بجلاله سبحانه ، ويجوز أن تكون « ما » اسما موصولا ، والمعنى : ولكم الويل من الذى تصفون الله به مما يجب تنزيهه عنه من اتخاذ الصاحبة والولد كما قال سبحانه : « وأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَاوَلَدًا »[1] .

١٩ - (وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) :

بينت الآيات السابقة فساد الأديان التى تزعم أن لله ولدا ، كما توعَّدت أُولئك الزاعمين بإبطال مزاعمهم ، ونَصْرِ الحق على باطلهم حتى يزهق ، وأن الله تعالى سوف يعاقبهم على افترائهم ، وجاءت هذه الآية لبيان كمال استغنائه عن الولد المزعوم وعن طاعتهم ، فإنه سبحانه يملك من فى السموات والأرض ، وكل من عنده خاضعون لربوبيته .

والمعنى : ولله من فى السموات والأرض من سكانهما ، وما فيهما من سائر المخلوقات ، له تعالى كل ذلك خلقًا وملكًا وتصرفًا وتدبيرًا ، وإحياء وإماتة وتعذيبًا وإثابة ، دون شريك له فيه ، ومَنْ عنده فى مكانة الشرف والكرامة من الملائكة ، لايستكبرون عن عبادته وطاعته فى كل ما يأْمرهم به ، ولا يَمَلُّونَ ولايتعبون ، فأى حاجة لله تعالى فى أن يتخذ ولدًا وهو تام الاستغناء عن الولدية ، وأى ضرر أصابه بعبادتكم لغيره ؟ والتعبير عن الملائكة بأَنهم عنده سبحانه ، على سبيل التمثيل بِجَعْلِ منزلتهم فى الشرف ورفعة الجاه كمنزلة المقربين مكاناً من الملوك ، ونَفْىُ استكبارهم عن العبادة ، مشْعِرٌ بالتعريض بمن كفر من الناس واستكبر على عبادته .

ولما بيَّن الله فى هذه الآية أن الملائكة لايستكبرون عن عبادته الشاملة لكل أنواع الخضوع لأوامره وتعظيمه وتنزيهه، عقَّبها بالتنويه بحال من أحوال عبادتهم فقال سبحانه :

٢٠ - (يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) :

فقد بيَّن سبحانه فى هذه الآية حالا من أحوال خضوع الملائكة لله ، وأنهم لا تشغلهم عبادته والخضوع له فيما يأْمرهم به من شئون الكون عن دوام تسبيحه .

(١) سورة الجن ، آية : ٣ ومعنى (تعالى جد ربنا . . . الخ) تنزه استغناؤه ومجده عن اتخاذ زوجة أو ولد .

والمعنى : ومَنْ عند الله من الملائكة لايستكبرون عن عبادته والخضوع لأوامره ، فهم يسبحونه ليلا ونهارًا لاينقطعون ، والمقصود من ذكر الليل والنهار الدوام ، سواءٌ كان عندهم ليل ونهار أولم يكن ، ولا يمنعهم هذا التسبيح الدائم من قيامهم بما يكلفهم الله به ، قال تعالى : « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ». فالتسبيح لهم بمنزلة التنفس لايشغلهم عنه شاغل .

٢١ ـ (أَمِ اتَّخَذُوٓا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ) :

بهذه الآية بدأ التقريع والتوبيخ لمن اتخذوا آلهة لهم غير الله تعالى ، وحرف (أَمْ) هنا إما بمعنى (هل) الاستفهامية الإنكارية ـ كما جنح إليه بعض المفسرين ـ والإنشار بمعنى الإحياء .

والمعنى على هذا : هل اتخذ المشركون آلهة من الأرض هم يُنْشِرُون الموتى ، ويعيدونهم أحياءً ، كلا فإنهم لايقدرون أن يدفعوا الفناء عن أنفسهم ، فكيف يُنْشِرُون غيرهم ويحيونهم ، فلماذا عبدوهم ؟

وإما أن تكون (أَمْ) بمعنى بل والهمزة ، فكأنه قيل : بل أَتَّخَذُوا ، وتكون (بل) للإضراب الانتقالى عن النقاش السابق ، إلى تقريع الكفار وتوبيخهم على اتخاذ آلهة عاجزين .

والمعنى على هذا : بل أَتَّخَذَ المشركون آلهة من هذه الأرض هم يعيدون الموتى إلى الحياة ، كلَّا فهم أعجز ما يكونون عن ذلك .

وعلى أى التقديرين فى تفسير حرف (أَمْ) فمآل المعنى واحد كما هو واضح مما قدرنا ووصف آلهتهم التى اتخذوها بكونها من الأرض لتحقيرها ، وتوبيخ عابديها على تركهم رب السموات والأرض الذى هو يحيي ويميت إلى آلهة حقيرة لا قدرة لها على إحياء الموتى .

٢٢ ـ (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

بعد أن بيَّن الله فيما تقدم هوان آلهتهم وعجزها ، ووبخهم على عبادتها معه سبحانه جاءت هذه الآية الكريمة ، لكى تقيم الدليل العقلى على وحدانيته تعالى .

والمعنى : لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله تدبر شئونهما وتصرف أمرهما لفسدتا؛ وذلك لأن شأن التعدد الاختلاف والتغالب ، وأن يفسد كل من الآلهة عمل الآخر ، وبما أن المشاهد هو صلاح السموات والأرض وبقاؤهما منذ بدء الخليقة على هذا النظام البديع والتدبير المحكم ، فإن ذلك يدل أوضح دلالة على أن خالقهما ومدبرهما هو إله واحد .

والآية الكريمة تشير إلى برهان عقلى يسمى برهان التمانع والتعارض بين إرادات الآلهة المتعددين ، وشاهد صحة هذا البرهان فى الحياة ، أن الأمة لا يصلح أمرها إلا بملك واحد ، فإن تعددت ملوكها فسد الأمر فيها ، والجسد الواحد لا يصلح أمره إلا بقلب واحد ، فإن تعددت القلوب فسد الجسم ، ولهذا قال تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » كما أن الأسرة لا يصلح أمرها إلا برئيس واحد ، فإن تعدد الرؤساء فيها فسد ، والمصنع لا يديره إلا رئيس واحد ، فإن تعدد رؤساؤه تعارضوا وفسد الأمر فيه ، وهكذا كل أمر فى الحياة لا يصلح إلا بإرادة واحدة رشيدة فعالة مسيطرة ، ليس لها معارض يفسد عليها تدبيرها ، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عما يقوله المشركون عن شركائهم بقوله فى نهاية الآية :

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) : أى فيترتب على هذا البرهان الواضح تنزه الله صاحب العرش والسلطان المطلق عن وصف هؤلاء المشركين إياه بأن له شركاء تستحق العبادة معه ، إذ أنهم جميعا فى ظل سلطانه وتحت عرشه وفى قبضة ملكه ، وكرم ربوبيته .

وهذه الجملة مع إفادتها تنزيه الله تعالى عما يدعيه المشركون ، فقد أفادت التعجب من عبادتهم هذه المعبودات الخسيسة ، وفى عدها شريكة لرب العرش العظيم .

ولعلماء العقيدة براهين أخرى ، وحسب القارئ ما قدمناه .

٢٣ ـ (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) :

استئناف مبين لما يقتضيه تفرده سبحانه بالألوهية وعظمة الربوبية ، وهو أن يكون سائلا لعباده عما يفعلون لامسئولا منهم عما يفعله فيهم ، يقول العلامة الزمخشرى فى

تفسير هذه الآية : « وإذا كانت عادة الملوك ألا يسألهم مَنْ فى مملكتهم عن أفعالهم ، وعما يُوْرِدُون و يُصْدِرُون من تدبير ملكهم تهيبا وإجلالا مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان مَلِك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بألا يُسْأَل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن مايفعله كله معقول ، ومرتبط بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبيح » انتهى بتصرف يسير .

أما العباد فإنهم يُسأَلون بمقتضى عبوديتهم وتكليفهم بطاعته سبحانه ، والعمل بشرائعه التى شرعها لهم على ألسنة رسله ، وبمقتضى ما منحهم من عقول صالحة لتمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر والنفع من الضر ، وفى جملة من يسألهم الله من عباده من أشركوهم معه كالمسيح والملائكة ، فكيف تصلح معبوداتهم للعبادة وهم مسئولون للإله الواحد سبحانه وتعالى .

(أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(أَمِ اتَّخَذُوا) : بل أتخذوا . (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) : أحضروا دليلكم .

(هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ) : أى ما فى القرآن من التوحيد ونفى الشريك ذكرُ من تبعنى . (وَذِكْرُ مَن قَبْلِي) : ممن تقدمنى من أهل الأديان السماوية

(وَلَداً) أى : من الملائكة على ما يزعمون .

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) : لا يتكلمون إلا بأمره .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) : يعلم ما عملوا وما سيعملون .

(لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) : لا يشفعون إلا لمن يأذن الله لهم فيه .

(مُشْفِقُون) : خائفون على أنفسهم مراقبون لربهم .

التفسير

٢٤ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...) الآية .

« أم » هى المنقطعة المفيدة معنى « بل والهمزة » جاءت للانتقال من إظهار بطلان ما اتخذوه آلهة فى قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . . » الآيتين ، إلى تأكيد بطلان ذلك الاتخاذ ، والهمزة التى تضمنتها أم لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحه ، وتكرار هذا مع ما سبق ، لتأكيد استقباح حالهم ، واستنكار كفرهم باتخاذ الشريك لله سبحانه ، ومزيد توبيخهم على ذلك ، فكأنه قال : ما أشد قبح ما فعلتموه من اتخاذ آلهة لا حول لها ولا قوة ، بل هى فى حكم العدم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) :

أى قل لهم - يا محمد - ردًّا عليهم وتفنيدًا لمزاعمهم : أحضروا برهانكم ودليل صدقكم على مُدَّعاكم ، عقليا كان أو نقليا .

والمقصود من طلب البرهان على صحة شركهم تعجيزهم وتحديهم والسخرية بمزاعمهم ، إذ لا يوجد برهان عليه عقلا ، كما أشار إليه قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ولوضوح عجز هؤلاء الشركاء عن حماية أنفسهم مما يضرهم أو أن يجلبوا لأنفسهم ما ينفعهم ، فكلهم تحت سلطانه تعالى .

كما أنه لا يوجد دليل نقلى على جواز شركهم ، وإليه يشير قوله تعالى :

(هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي) : أى هذا التوحيد الذى دعوتكم إليه ، هو ذكر مَن معى من أمتى ، وذكر من قبلى من الرسل وأممهم ، فهو شريعة الله فى جميع الرسالات ، ولم يختص به الأمة المحمدية .

ويصح أن يكون المعنى : هذا القرآن تضمن وَعْظ الله لأُمتى ، ووعظه سبحانه لأُمم الأنبياء والمرسلين قبلى ، فاقرءُوا الكتب السماوية كلها ، وانظروا هل تجدون فى أحدها ما يخالف الآخر فى عدم مشروعية الشرك ؟ ثم انتقل الأُسلوب القرآنى من الخطاب إلى الغيبة بطريق الإضراب الانتقالى ، فى ختم الآية بقوله تعالى : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » أى : أن هؤلاء المشركين لايجدى تبكيتهم على عقيدة الشرك التى لايوجد لأحد عليها دليل عقلى ولا نقلى ، فدَعْ مطالبتهم بالبرهان ، فإنهم لا يعقلون أن الشرك لا برهان له ، ، فلهذا لا يفرقون بين الحق والباطل ولا يميزون بينهما ، فتراهم يعرضون عن الحق دون تأمل .

والتعبير بأكثرهم لأن فيهم من اهتدى إلى معرفة الحق ، ثم آمن به مقبلا عليه متفانيًا فى سبيل الدفاع عنه .

٢٥ ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ) :

بيَّن الله فى الآيات السابقة بطلان عقيدة الشرك عقلا ونقلا ، وجاءت هذه الآية لتؤكد ذلك ولتبين أن عقيدة التوحيد ، كانت عقيدة الرسل التى أوحاها الله إليهم ، قال قتادة : لم يرسل الله نبيا إلا بالتوحيد ، وإن اختلفت الشرائع . انتهى بتصرف يسير .

والمعنى : وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا إلى أمته بشريعة من شرائعنا إلا أوحينا إليه فيها أنه لا إله لهم سواى ، فاعبدونى أنتم وجميع أممكم ولا تعبدوا أحداً غيرى .

٢٦ ـ (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) :

تحكى هذه الآية جناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، بعد بيان تنزهه عن الشريك مطلقا ، وسبب نزول هذه الآية أن حيا من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ،

ونقل الواحدى : أن هذه العقيدة ليست قاصرة عليهم ، بل قالها معهم قريش وجهينة وبنو سلامة وبنو مليح ، وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود إن الله تعالى صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فنزلت . وأيا كان سبب النزول فالآية الكريمة تظهر شناعة هذا القول وقائليه من هؤلاء وغيرهم كالنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، وجميع من قالوا : الملائكة بنات الله ، وكما تشنع هذه الآية على عقائدهم فيهم ، تبين صفة هؤلاء عند الله وهى العبودية دون النبوة .

والمعنى : وقال فريق من الناس : اتخذ الرحمن له ولدًا يشاركه فى الألوهية ، وليس الأمر كما زعم هؤلاء الزاعمون ، بل هؤلاء الذين زعموهم له أولادا ما هم إلا عباد مقربون عند الله ، مكرمون منه ، لصفاء عبادتهم لربهم ، وإخلاصهم لربهم ، ولفظ الولد يطلق على الواحد وكذا المتعدد كما هنا ، ولهذا جاءت بعده صيغة الجمع فى قوله : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى : بل الولد الذين زعموهم لله هم عباد مكرمون عنده .

٢٧ – (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) :

أى أن من زعموهم أولادًا لله لا يسبق قولهم قوله تعالى ، ولا يعملون إلا بأمره كما هو شأن العبيد المطيعين لسيدهم المنقادين له ، فهم تابعون لمولاهم فى أقوالهم وأفعالهم دائما ، ثم بين السر فى أدبهم هذا بقوله :

٢٨ – (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) :

أى أن هؤلاء الذين زعموهم أولادا ، فى غاية الطاعة له ، لأنه سبحانه يعلم بجميع أحوالهم المستقبلة والماضية ، فلهذا يراقبونه تعالى ويخشونه ، ويطيعونه فى أمرهم كله ولا يتقدمون للشفاعة لأحد إلا لمن ارتضى أن يُشْفَعَ له من المؤمنين العصاة دون الكافرين لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى بيان من يرتضى الله الشفاعة لهم : « مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ » فهو يرى أن الشفاعة تكون

لعصاة المؤمنين ولو كانوا من أهل الكبائر ، وشفاعتهم تكون بطلب الغفران لهم من ربهم فى الدنيا أو فى الآخرة .

ومعنى قوله تعالى : (وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) : أنهم مع كرامتهم على الله خائفون من وقوع أى تقصير منهم فى طاعته ، مشفقون من تبعاته ، وما ذلك الإشفاق والخوف إلا من شدة خوفهم منه وإجلالهم لمقام الله تعالى

* (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) : أى مرتوقتين ومتصلتين ليس بينهما انفصال ،والرتق فى الأصل : الضم والسَّدُّ ، يقال : رتق الفَتْقَ من باب نَصَرَ ، رَتقاً ورُتوقاً إذا سده .

(فَفَتَقْنَاهُمَا) : الفتق ، الشق ، وهو ضد الرَّتْق ، يقال : فَتَق الشيءَ[1] أى : شَقَّه وفصل بعضه عن بعض .

(فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ) : أى فيها جبال ثوابت :

(أَن تَمِيدَ بِهِمْ) : لئلا تضطرب اضطراباً يختل به توازنها .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) : الفَجُّ ؛ الطريق الواسع ، والجمع فجاج ، مثل : سَهْم وسهام ، وسُبُلٌ : جمع سبيل وهو الطريق ، يذكر ويؤنث .

(وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ) : المراد بها هنا المُظلة للأرض . قال ابن الأنبارى : تذكر وتؤنث ، وقال الفراءُ : التذكير قليل .

(كُلٌّ فِى فَلَكٍ) : الفَلَكُ محركةً : مدار النجوم والكواكب .

والجمع : أفلاكٌ وفُلُكٌ بضمتين .

(يَسْبَحُونَ) : أى يسرع كل منهما فى مداره كالسابح فى الماء ، وجمع الضمير مع أنه راجع إلى الشمس والقمر ، لأن الجمع قد يستعمل فيما فوق الواحد[2] .

التفسير

٢٩ – (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ . . . .) الآية .

أى ومن يقل من الملائكة على نفسه إنى إله أُعْبَدُ من دون الله تعالى (فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) : أى فذلك القائل الذى يُفْرَضُ صدور هذا القول منه ، نجزيه أشد العذاب ، وننزل به أقسى النكال لاتغنى عنه صفاته السَّنيَّة ، ولا أعماله المرضية ، وهذا فرض غير واقع لعصمة الملائكة .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّٰلِمِينَ) : أى مثل هذا الجزاء الفظيع نجزى الظالمين الواضعين للألُوهية والعبادة فى غير موضعهما ، أو نجزى الذين يتجاوزون الحد ، فيضعون الأشياء فى غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم فى شئونهم الدينية .

---

(١) وهو من باب «قعد» .

(٢) واستعمال ضمير جماعة العقلاء تنزيلا لهما منزلتهم لدقة سيرهما وانتظامه كما يفعل العقلاء .

٣٠ - (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً . . . . .) الآية .

تشير الآية إلى تجهيل الكفار بتقصيرهم فى التفكر والتدبر فى الآيات الكونية الدالة على قدرة الله الباهرة ، واستقلاله بالألوهية ، وقهره لجميع المخلوقات ، وأنها جميعاً تحت سلطانه العظيم .

والمعنى : أعميت بصائر الذين كفروا ولم يعلموا من الشواهد والآيات أو من الكتب السماوية أن السموات والأرض كانتا قبل فصلهما كياناً واحدا لا انفصال فيه بينهما ، حيث كانتا دخاناً فى بدء خلق الله لهما فشقه وفصل بينهما .

روى عكرمة والحسن وقتادة وابن جبير عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية :

إن السموات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما ، ورفع السماء إلى حيث هى ، وأقر الأرض [1] .

ويقول ابن كثير فى تفسيرها : أى كان الجميع متصلا بعضه ببعض فى ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، وجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً . انتهى بتصرف يسير واختصار .

وتقول لجنة الخبراء فى تعليقها على هذه الآية بالتفسير المنتخب ، ماخلاصته : إن هذه الآية تقرر معانى علمية ، أيدتها النظريات الحديثة فى تكوين الكواكب والأرض ، وهى أن السموات والأرض كانتا فى الأصل متصلا بعضها ببعض على شكل كتلة متصلة متماسكة ثم انفصلتا ، واستدل على ذلك بأدلة علمية عديدة . اهـ .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) : تلك آية أخرى من آيات القدرة العظيمة ، أى : وخلقنا من الماء الميت كل ما فيه حياة ، كما أنه محتاج إلى الماء فى استمرار حياته وبقائها ، إذ هو عنصر هام فى إبداع وغذاء وتنمية كل شىء حى - إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً - أى : أن كل ما فى الكون مما يتصف بالنمو لا يستغنى عن الماء ، وإلا لحقه الفناء والدمار ، ولذلك كان جديراً أن يَمُنَّ به سبحانه على خلقه ؛ لأنه من أفضل النعم على الخلق وأولاها بالتقدير والاعتبار .

---

(١) نقله الآلوسى فى تفسير الآية .

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) : إنكار عليهم لعدم التصديق بما يشاهدون من الآيات التى تتصل بالآفاق والأنفس ، مع دلالتها على تفرده – جل شأنه – بالألوهية .

بمعنى : أيرون ذلك مشاهدة ومتكررا فى كل شىء حى فلايؤمنون بمبدعه ، وكان عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به ، وقد شاهدوا آياته « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

٣١ – (وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . .) الآية .

أى : وجعلنا بقدرتنا فى الأرض جبالا ثوابت تحفظ توازنها لئلا تضطرب بهم اضطرابا لايعقبه ثبات ، فلا يكون للناس عليها قرار بسبب ذلك ، أما الميْدُ بسبب الزلازل ونحوها فإن الآية لاتأبى وقوعه ؛ لأنه مَيْدٌ يعقبه ثبات واستقرار .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعلنا فى الأرض جميعها ، سهولها وجبالها وهضابها طرقا واسعة ؛ لكى يهتدوا بها إلى مصالحهم ومهماتهم ، وذكرت الآية (سُبُلًا) بعد أن ذكرت قبلها فجاجًا ، بيانًا للفجاج ودفعا للإبهام عنها ؛ لأن الفج قد يكون مَسْلُوكا وقد لايكون ، ولتدلَّ ضمنا على أن الله خلق الفجاج ووسَّعها رعاية للسَّابلة الذين يسلكونها ورحمة بهم .

وقيل : إن المعنى وجعلنا فى الجبال طرقا واسعة ليسلك الناس فيها ويعبروا من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، فقد يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وتلك البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة واسعة ليسلك الناس فيها من هنا إلى هناك .

ويصح أن يكون المراد من قوله (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أن يهتدوا بذلك إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والرحمة ، أو ما يعم الاهتداء إلى ذلك والاهتداء إلى البَصَر بفضل الله عليهم ، وبما يسره لهم من تبادل المنافع التى فيها صلاح أمرهم ، وتقويم شأنهم .

٣٢ – (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ) :

هذه آية أخرى من آيات الألوهية الدالة على وجود الصانع ، وكمال قدرته ، أى : وجعلنا السماء المُظلة للأرض كأنها قبة عليها ، جعلناها سقفا محفوظًا بقدرتنا من أن يقع على

الأرض ، مرفوعا عنها بدون عَمَد ظاهرة يرتكز عليها ، ودعائم يستند إليها ، وذلك كقوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » [1] . فقد أمسكها الله تعالى بقوانين تقتضى حفظها مرفوعة فى الفضاء بقدرته ، إلى أن يشاء الله انفطارها ، وانتثار كواكبها « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » [2] .

وقيل : وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا بالملائكة أو بالنجوم من أن يسترق الشياطين السمع ، ودليله : « وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ » [3]

وقيل : سقفًا محفوظًا من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم الذى تطوى فيه السماء كَطَىِّ السِّجِلِّ للكتب ، وقد روى ذلك عن قتادة .

(وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ) : أى وهم عن آيات السماء الدالة على الوحدانية وكمال القدرة ذاهلون لايتدبرون فى ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، ونجومها وكواكبها ، ورياحها وسحابها وغيرها ، ولو تأملوها أدنى تأمل لهداهم التأمل إلى الإيمان واليقين ، ولكنهم آثروا الإعراض عنها والبقاء على ماهم عليه من كفر وضلال .

٣٣ـ (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ ...) الآية .

هذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون ، جاء على طريق الالتفات من التكلم فيما سبق إلى الغيبة هنا ، لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام الذى يُذَكِّرهم الله فيه بأنه جل شأنه هو الذى خلقهن وحده ، لخيرهم ومنفعتهم ، فخلق الليل ليسكنوا فيه ، حتى يستريحوا من مشاق العمل ومتاعبه ، وخلق النهار لينصرفوا مع إشراقته إلى الدأب والسعى لتحصيل أرزاقهم التى يسَّرها الله لهم ، وجعل الشمس آية النهار ليستضيئوا بها وينعموا بدفئها ، وجعل القمر آية الليل ليهتدوا بنوره المستمَدّ من ضوء الشمس ، ولهما أثرهما النافع فى حياة النبات ونموه وخُضرته وإيتاء أُكُلِهِ ، وبهما يعلم عدد السنين والحساب .

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : رقم ٢
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨
(٣) سورة الحجر ، الآية : ١٧

(كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) : أى كل واحد من الشمس والقمر يدور فى مداره فى الفضاء لايرتكز على شىء ، ولا يهوى فى الفضاء ، كالسابح الماهر ، يشق الماء ، ولا يسقط فى قاعه وكذلك شأن سائر النجوم والكواكب « صُنْعَ اللهِ الَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » .

وأسند دورانهما إلى ضمير جماعة العقلاء ، تنزيلا لهما منزلتهم ، فى انتظامهما فيما سخرهما الله من أجله ، والمراد بالجمع ما فوق الواحد ، واسْتُحسن ليناسب فواصل الآيات ، والتعبير عن دورانهما بالسباحة لشبهه بها ، من حيث إن دورانهما فى الفضاء دون أن يسقطا ، يشبه سباحة السابح الماهر فى الماء دون أن يسقط فى القاع .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(الخُلْدَ) : البقاءُ الدائم . (وَنَبْلُوكُمْ) : ونعاملكم معاملة المختَبر .

(فِتْنَةً) : محنة وابتلاءً .

التفسير

٣٤ - (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ...) الآية .

نزلت الآية حين قال المشركون : نحن نتربص بمحمد رَيب المنون ضيقا بدعوته ، وكانوا يدفعون نبوته وينكرونها ، ويقولون : إنه شاعر ، وسيموت كما مات شاعر بنى فلان .

وكان نزولها تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن ما تمنوه له لاَحِق بهم .

والمعنى : وما كان من سنتنا أن يخلد أحد من قبلك ، لا من الأنبياء ولا من المرسلين ، ولا من سائر البشر . لكون ذلك مخالفا للحكمة التكوينية التى قدر الله فيها أن يكون لكل حَىٍّ أَجل ينتهى عنده ، ثم يبعث الله الموتى ليحاسبهم على ما كانوا يعملون ، فلا شماتة فى الموت فهو ضريبة القهار على جميع عباده ، ولهذا قال سبحانه :

(أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) : أى أفإن مت أنت بمقتضى حكمتنا فَهُمُ الخالدون حتى يشمتوا بعدك فى موتك ، كلا ، فليسوا بمنجاة من الموت ، فإن الموت واقع بهم لا محالة. وفى معنى ذلك قال الإمام الشافعى رحمه الله :

تمنَّى رجال أن أموت وإن أَمُتْ فتلك سبيل لست فيها بأَوحدِ

فَقُلْ للذى يبغى خلاف الذى مضى تزود لأُخرى مِثْلِهَا فكأَن قد

٣٥ـ (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ...) الآية .

هذه الآية تؤكد المقصود من الآية السابقة « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ » .

والمعنى : كل نفس يحدث لها الموت ، وتذوق مرارة مفارقة الروح للجسد ، وهى تختلف شدة وضعْفاً حسب تفاوت الناس إيمانا وجحودًا ، ولعل فى التعبير بالذوق إشارة إلى ذلك .

(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) : أى نعاملكم معاملة المختبر لإظهار ما فى نفوسكم من خير أو شر وذلك بما نختبركم به من الشدة والرخاء ، والصحة والمرض وغيرها ، مما تحبون أو تكرهون ، فننظر هل تصبرون عند البلاء ، وتشكرون عند النعماء ، أو تقنطون وتكفرون؟

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) : للحساب والجزاء لا إلى غيرنا ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من عمل « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

(١) من الآية رقم ٤٩ من سورة الكهف .

(وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ما يتخذونك إلا مهزوءا بك ومسخورًا منك ، يقال : هزأ منه وبه كَمَنَع وسَمِعَ ، هُزْءًا وهُزُءًا بإسكانِ الزاى و ضمها أى : سَخِر .

(يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ) : يذمها ويعيبها بقرينة المقام . (مِنْ عَجَلٍ) : العَجل والعجلة : طلب الشيء وتحريه قبل أوانهِ وقد يكون ضارا ، وفِعْله من باب عَلِمَ .

(مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) : المراد بالوعد مجيءُ الساعة . (لا يَكُفُّونَ) : لا يمنعون .

(بَغْتَةً) : فجأة . (فَتَبْهَتُهُمْ) : تدهشهم وتحيرهم .

(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : يُؤَخَّرُونَ ، يقال : نظره : أى تأنى عليه ، وأنظره : أخَّره .

التفسير

٣٦- (وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ...) الآية .

المعنى : وإذا لقيك الذين كفروا من مشركى مكة كأبى جهل والنضر بن الحارث وأضرابهما ما يتخذونك إلا مهزوءا بك ، مسخورا منك ، مع علمهم بشرف أصلك

وعلو قدرك ، وكرم خُلُقك ، وصدق قولك ، ويقولون مستنكرين محقرين :

(أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ) : بالسوء والعيب . (وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ) : أى يعيبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذِكْر آلهتهم بالسوء من ضعف وعجز ، وحالهم أنهم يكفرون بذكر الرحمن المنعم بجلائل النعم وسوابغ الرحمة على عباده ، فهم لا يعترفون باسمه ولا يذكرونه ، فأى الفريقين أحق بالاستنكار والتحقير ؟ إنهم بما اقترفوه من كفروطغيان وسفه هم الأحقاءُ بذلك ، وبأن يُذْكر صنيعهم بالتسفيه والتقبيح .

٣٧ـ (خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ...) الآية .

فى هذه الآية صورة بلاغية ، حيث جُعل الإنسان الذى خلقه الله من الطين ـ جُعلَ ـ كأنه مخلوق من عَجَل ، وذلك لفرط عجلته وقلة صبره ، ولهذا تراه قد يبادر إلى الكفر دون نظر إلى عواقبه ، ويندفع فى طلب أمور دون النظر فى مآلها ، وقد يكون فيها ضرره وهلاكه ، ومن ذلك ما صنعه النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله جل شأنه : «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] .وكان فى ذلك يعبر عن قومه لأنه كان من زعمائهم ، ولهذا أسند القول إليهم وإن كان هو قائله ، والعجلة وإن كانت من طبع الإنسان ، لكن الله جعل لكل غريزة ضوابط من العقل والحكمة ، توجهها نحو الخير ومكارم الأخلاق ، وتهديها سواء السبيل .

(سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) : خطاب للكفار المستعجلين لنزول العذاب والمعنى : سأُريكم آياتى فى عذابى الذى أُنزله بكم فى حينه ، فلا تستعجلونِ بإنزاله قبل الأجل الذى ضربته له ، فإن لكل شيء أجلا مضروبا . وقد حدث ذلك فى غزوة بدر الكبرى ، وماتلاها من الانتصارات الساحقة ، التى أتمها الله بالقضاء على عبادة الأوثان وعابديها بالجزيرة العربية .

وقيل : المعنى سأجعلكم تدركون آياتى التى تدل على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المعجزات الباهرة ، وما له من العاقبة المحمودة ، وسيتحقق وعدى لامحالة ، فاتركوا العجلة ؛ لعل الله يشرح صدوركم فتهتدوا .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٢

٣٨ـ (وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

المعنى : ويقول الذين كفروا : متى وعد الله؟ قصدًا إلى استبطاء مجىء الساعة ، واستعجال إتيانها بطريق الإنكار والاستهزاء ، لا قصداً إلى تعيين وقت المجىء ، بدليل قولهم للنبى والمؤمنين: « إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » فى الإخبار عن مجىء الساعة مع ما فيها من هول وعذاب .

وقيل : المراد بالوعد العذاب الذى طلبوه ، واستعجلوا وقوعه ، والرأى الأول أولى لأنه هو المناسب للآية التالية ، وهى قوله تعالى :

٣٩ـ (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم يوم القيامة من الشدائد بسبب كفرهم ، كما استعجلوه مستهزئين ، فإن نار جهنم تحيط بهم من جميع جهاتهم ، فلا يستطيعون دَفْعَها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فَضْلًا عن أطرافهم ، وسائر بدنهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ، فإن حالهم فى الآخرة كما قال الله تعالى : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[1] . وكقوله سبحانه : « لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ »[2] .

وقيل : لو يعلمون ذلك لما أقاموا على الكفر ، ولآمنوا بالله ورسوله ، ثم بيَّن الله تعالى أن وقت الساعة مما لا سبيل إلى علمه فقال :

٤٠ـ (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . .) الآية .

أى : لا يعلم أحد وقت مجيئها غير الله تعالى ، بل تَفْجَؤُهُمْ وتبغتهم من غير شعور بوقت مجيئها ، فتحيرهم وتدهشهم ، بما يكون معها من شدائد وأهوال تغلبهم على أمرهم (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) : فلا يقدرون على رد الساعة عن وقتها الموعود مهما بذلوا من جهد. (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : أى ولا هُمْ يُمهلون ولا يُؤخرون طَرْفَةَ عين ، لتوبة أو اعتذار ، بل يُؤخذون بالنواصى والأقدام .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٦

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٤١

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ) : سخر منهم أقوامهم - يقال : هزأ منه وبه ، كَمَنَعَ وسَمعَ ، وتَهَزَّأَ واستهزأ أى : سَخِرَ .

(حَاقَ بِهِم) : أحاط بهم ولزمهم ، وفِعْله حَاقَ يحيق كباع ، حَيْقًا وحُيُوقًا .

التفسير

٤١ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

نزلت الآية تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعْزية له ببيان أن ما حدث له من سخرية المشركين ، حتى قالوا له : «مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» - ما حدث له من ذلك - قد حدث مثله لإخوانه المرسلين من قبله ، وهى مع ذلك وعْد ضمنى من الله بأنه سيصيب المستهزئين به مثل ما أصاب من سبقوهم من الساخرين برسلهم ، لِمَا بَيْنَ جُرْمَيْهِمَا من تشابه وتقارب .

وتصدير الآية بالقَسَم للإيذان بالاهتمام بتحقيق مضمونها ، أى : وبالله لقد استهزئ فى زمان قبل زمانك برسل ذوى شأن خطير ، وعدد كثير ، فأحاط بهم الذى كانوا به يستهزئون ؛ حيث أُهلكوا من أجله ، فإذا كان هذا حال إخوانك الرسل مع أممهم ، فليس بِدْعًا ما تراه من هؤلاء المعاصرين من كفار قريش ومن وَالَاهُمْ من سخرية واستهزاء ، فاصبر كما صبروا ، ولسوف ينصرك الله على قومك يا محمد ، كما نصر المرسلين من قبلك على أقوامهم ، والعاقبة للصابرين .

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(يَكْلَؤُكُمْ) : يرعاكم ويحفظكم ، وفعله كَلأَ ، كَمَنَعَ . (مِنَ الرَّحْمنِ)أى : من سخطه وغضبه . (مُعْرِضُونَ) : لاهون غافلون . (وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : يُجارون ويُمنعون ، تقول العرب : أنا لك صاحب من فلان ، بمعنى : مجيرك ومانعك منه ، وأَصْحَبَ فلان فلانًا أجاره ومنعه . (إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ) : أى أحذِّركم وأخوفكم بالقرآن . (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) : أصابهم قدر ضئيل من العذاب .

(لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا) : يا هلاكنا ودمارنا .

التفسير

٤٢ - (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ . . .) الآية .

أمر الله سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى هذه الآية أن يسأل أولئك المشركين

المستهزئين بما جاءهم به من الحق - أن يسألهم- سؤال تقريع وتنبيه إلى نعمه التى أسبغها وتفضل بها عليهم ، حتى لا يغتروا بما يتقلبون فيه من أمن واستقرار ، وإمهال ومطاولة ، فقال - جل شأنه - :

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) : أى قل أيها النبى لهؤلاء الكافرين : من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم - من يحفظكم - من عذاب الله الذى رحمكم بإمهالكم ؟ لا أحد يستطيع أن يحميكم من نقمته بكم .

ويجوز أن يكون المعنى : من هذا الذى يحفظكم ويحرسكم من نوازل الليل والنهار بدل الرحمن ؟ فَمَنْ هم الذين تركنون إليهم ، وتتوهمون حفظهم وحراستهم لكم فيهما ؟ .

وقدم الليل على النهار فى الآية ، لأن كوارثه أشد من كوارث النهار ، والحفظ منها أهم ، وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا يحميهم من عذابه إلَّا رحمته العامة ، ولولاها لكانوا أحقاء بتركهم للكوارث تحصدهم حصدًا ، وكان عليهم أن يعرفوا ذلك ويشكروه لله ويذكروه ، ولكنهم أعرضوا عن آياته ، واستهانوا بآلائه ، وتمسكوا بما هم عليه من الإشراك به ، كما يقول - جل شأنه - :

(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) : أى لا يُخْطِرونه ببالهم فهو بعيد عن مجال تفكيرهم ولهذا لا يخافون بأسه ولا يعتبرون ما هم عليه من الأمن والدَّعَةِ حفظًا وكلاءة لهم منه .

وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته للإيذان بأنهم بلغوا الغاية القصوى فى الغى والضلال حين أعرضوا عن شكره وذكره سبحانه وتعالى .

فإن قيل : إنما اتخذوا الآلهة وعبدوها لتُقَرِّبهم إليه زلفى ، فهم يعرفون أنه ربهم ، فالجواب : أن من عرف الله لا يصح أن يعبد سواه ، ولا أن يلجأ إلى ذكر غيره ويعرض عن ذكره ،كما فعل هؤلاء ، فكانوا بإشراكهم وإعراضهم عنه جاهلين بجنابه - سبحانه .

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا . . .) الآية .

انتقال من بيان جهلهم بكلاءة الله وحفظه إياهم ، وإعراضهم عن ذكره - جل شأنه - إعراضًا تامًّا - انتقال من ذلك - إلى توبيخهم لاعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها .

والمعنى : بل أللمشركين آلهة تحفظهم وتحميهم من عذاب يأتيهم من جهتنا ، فهم مُعوِّلون عليها واثقون بها ، كلاَّ فهم كما قال الله :

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : وهو استئناف مؤكد لما قبله من الإنكار ، وموضح لبطلان اعتقادهم فى أن تستطيع تلك الآلهة أن تدفع عنهم ما ينزل بهم من شدائد وويلات ، حيث إن آلهتهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يجدون من يجيرهم ويدفع عنهم قضاءً من جهتنا ، بل هم فى غاية العجز ، فكيف يتوهم أن ينصروا عابديهم ، ويستجيبوا لمن يدعونهم من دوننا .

وقيل : (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : أُريد به الكفرة ، وروى ذلك عن قتادة وابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - على معنى لا يستطيع الكفار نصر أنفسهم بآلهتهم ، ولا يصحبهم نصر من جهتنا .

٤٤ - (بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . . .) الآية .

إضراب انتقالى عما تدل عليه الآية السابقة من بطلان توهم نصر آلهتهم - إلى الإخبار بأنهم إنما وقعوا فى هذا التوهم الباطل بسبب أننا متعناهم وآباءهم بما يشتهون من النعمة وطال عليهم العمر فيها ، حتى ظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافتروا وأعرضوا عن التدبر والتفكر فى آيات ربهم ، وبعدوا عن الحق واتبعوا ما سولته لهم أنفسهم .

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : يذكِّر الله قريشًا فى هذه الآية الكريمة بعاقبة الكفرة من حولهم ، وأنهم لما بطروا نعمة الله عليهم وكفروا بها أهلكهم وأزال دولهم ، وانتقص الأرض من حولهم ، بتخريبها بعد عمرانها ، وكذلك يجزى الله الكافرين .

والمعنى : أَعَمِيَ هؤلاء المشركون بمكة فلم يروا أنا نأتى أرض الكفرة من حولهم ، فننقصها من جوانبها ، بتخريب مدنها ، والقضاء على عمرانها ، وإهلاك أهلها عقابًا لهم على كفرهم بنعم ربهم وآياته ، كما حدث لقرى عاد وثمود وقوم لوط وسبإٍ وغيرهم .

(أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) : أى أَبَعْدَ خراب مدنهم ، وإهلاك أهلها لكفرهم يعتبرون الغالبين ؟ كلَّا ، بل هم المغلوبون ، ومصيركم يا معشر قريش سوف يكون كمصيرهم : « سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا »[1] .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٢ .

٤٥ - (قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ . . .) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة غاية الهول لأولئك الذين يستعجلون إتيان الساعة ، وما يصاحبها من عذاب ، ونَعت عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يحفظهم من نوازل الليل وكوارث النهار - بعد ذلك - جاءت هذه الآية لتعلمهم أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : ما أنا إلَّا مبلِّغ عن الله ما أُنذركم به من مجىء الساعة وعذابها بما أوحاه الله إلىَّ فى هذا القرآن المنزل علىَّ من لدن حكيم عليم ، وليس من شأنى أن آتيكم بما تطلبونه مما ينافى الحكمة التكوينية والتشريعية ، وما على الرسول إلَّا البلاغ .

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) : من تتمة الكلام الذى أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يقوله لهم ، توبيخًا وتقريعًا ، أى أنهم لطول إعراضهم عن سبيل الحق ، صاروا كالصم الذين أفقدهم الصَّمَمُ حاسة السمع ، فجعلهم بمعزل عن سماع صوت الداعى إذا أنذرهم وحذرهم ، وتقييد نفى السماع بإنذارهم مع أن الصم لا يسمعون الكلام إنذارًا أو تبشيرًا ، للإشارة إلى شدة الصمم فيهم ؛ لأن الإنذار عادة يكون بأصوات مرتفعة مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه ، فإذا لم يسمعوها يكون صَمَمُهُمْ فى درجة لا غاية بعدها .

ويجوز أن يكون قوله سبحانه : « وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ » كلامًا مستأنفًا من جهته تعالى تسلية لنبيه عما يُنْتَظَرُ من إعراضهم ، كأنه قيل له : قل لهم أيها الرسول : إنما أُنذركم بالوحى ، واعلم أنهم دائبون على إعراضهم ، فهم بمعزل عن السماع حينما ينذرون ، لطول إعراضهم ، فلا يَكُنْ فى صدرك حرج منه ، فما عليك إلَّا البلاغ .

٤٦ - (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

تبين هذه الآية فداحة العذاب الذى أُنذروه فأعرضوا عن الاستماع إلى نذيره .

والمعنى : وبالله لئن أصاب هؤلاء المكذبين أدنى إصابة من عذابه تعالى الذى يَسخَرون منه لَيَدْعَنَّ على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك ، وليعترفُنَّ بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدنيا ، فيعترفون حين لاينفعهم الاعتراف ، ويندمون حين لا يجديهم الندم .

وإذا كان هذا حالهم عندما تمسهم نفحة من عذاب الله ، فكيف يكون حالهم حينما يغشاهم « مِن فَوقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ) : أى نقيم لكل مكلف ميزانًا لوزن أعماله ، ثقلًا وخفة ، وسيأتى بيان المراد من ذلك .

(الْقِسْطَ) : العدل، وهو من المصادر التى يوصف بها الواحد والمثنى والجمع كلفظ (العدل) .

(وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ) : مثقال الشىء ميزانه .

(خَرْدَلٍ) : شجر معروف ، حَبُّه من أصغر الحبوب وأدقها . ويُضرب مثلًا للصغر .

(مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) : أى محاذرون وجلون من أهوالها .

التفسير

٤٧ ـ (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .) الآية .

هذه الآية مُستأنَفة لبيان عدل الله بين عباده عند مجىء الساعة التى أنذرهم بها . وأن أعمالهم معلومة لديه ، فلا تخفى منهم خافية ، ولا تُظلم نفس شيئًا .

ويرى جماعة من السلف أن هذه الموازين حسية وأن الله تعالى يحول أعمال عباده إلى أجسام ، لتكون صالحة للميزان الحسى ، حتى يرى كل عامل عمله ماثلًا أمامه ، إظهارًا للمعدلة وقطعًا للمعذرة : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا »[1]. ويستشهدون على رأيهم هذا ببعض الآثار .

وقال مجاهد وقتادة والضحاك : الميزان تمثيل لعدل الله وليس ثمة ميزان حسى ، إذ أنه سبحانه ليس بحاجة إليه ، فهو يعلم السر وأخفى ، فى حين أن أعمال العباد يجدونها مسطرة فى كتبهم كما حدثت فى دنياهم . وحكْمَ الله مقرونًا بها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَآ أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه . هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ »[2] .

وبهذا الرأى أخذ المعتزلة ، وينبغى عدم الجدل فى حقيقة الميزان وترك أمرها إلى الله تعالى. واللام فى قوله تعالى : (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) بمعنى فى ، أو للتعليل - أى لأجل يوم القيامة . (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) : أى فلا يقع على أى نفس مؤمنة أو كافرة ظلم فى جزائها الذى تستحقه على أعمالها ، فلا ينقص ثوابها ولا يزاد عقابها : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ولهذا قال سبحانه :

(وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) : حبة الخردل تضرب مثلًا فى القلة والحقارة ، أى : وإن كان العمل الذى أتى به المكلف فى غاية الدقة والصغر جئنا به فى صحيفته فيتعرف عليه ويجزى به ، وعاد الضمير بالتأنيث على مثقال ، لاكتسابه التأنيث من الحبة التى أضيف إليها ، وهى مؤنثة .

وقرأ مجاهد وعكرمة : « آتَيْنَا بِهَا » أى : جازينا بها ، من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٠

(٢) سورة الحاقة ، الآيات : من ١٩ - ٢٩

(وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) : أى لا أحد أسرع وأدق حسابًا منا ، فنحن نحصى على كل عامل ما قدمه من خير وشر ، أسَرَّ به أو جهر ، صَغُر أو عَظُم ، ثم نجزيه بالعدل والقسطاس المستقيم ، كما قال سبحانه : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا[١] » . قال أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها : إن رجلًا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلس بين يديه فقال : يا رسول الله إن لى مملوكَيْن يَكْذِبُونَنِي ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك عليهم ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفافًا لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى يبقى قِبلَكَ) فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : مَا لَهُ ؟ أما يقرأ كتاب الله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ؟ فقال الرجل : ما أجد خيرًا لى من مفارقة هؤلاء ، إنى أُشهدك أنهم أحرار كلهم . أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها .

٤٨ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) :

لما أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لقومه : ما أُنذركم إلّا بالوحى الذى يوحيه إليه ، أردف ذلك ببيان أن تلك سنة الله فى الأنبياء والمرسلين ، فكلهم تأتيهم شرائعهم بوحى من ربهم لتبليغ أممهم بما أوحى إليهم .

والمعنى : ولقد أوحينا إلى موسى وهرون - كما أوحينا إليك يا محمد - كتابًا جامعًا بين كونه فارقًا بين الحق والباطل وكونه ضياءً يستضاءُ به فى ظلمات الجهل ، ودياجير الغواية وغياهب الضلال ، وتذكيرًا للمتقين ووعظًا لهم ، وتخصيص المتقين بذلك الشرف ؛ لأنهم المنتفعون به المستضيئون بأنواره .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٠

وفسر ابن زيد الفرقان الذى أُوتيه موسى وهٰرون بالنصر على الأَعداء كما فى قوله تعالى: « وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »(١) قال الثعلبى : هذا القول أشبه بظاهر الآية ، فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى وهٰرون النصر والتوراة التى هى الضياءُ والذكر . انتهى بتصرف يسير .

٤٩ ـ (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) :

الآية تصف المتقين الذين ينتفعون بالتوراة ويستضيئون بنورها ، ويتعظون بذكر آياتها البينات قبل نسخها ، فتذكر أَخص صفاتهم وهى أَنهم يخشون ربهم ، ويخافون عذابه غائبين عن أَعين الناس ، وذلك بما وقر فى سرائرهم لعمق الإِيمان ، وقوة اليقين ، وهم خائفون من مجىءِ الساعة ، وما وراء ذلك من حساب وجزاءٍ ، فلهذا تَعظُم خشيتهم من ربهم فى سرائرهم غائبين عن أَعين الناس .

أَو المراد يخشون ربهم وهو غير مرئى لهم ، فقد عرفوا بالنظر والاستدلال أَن لهم ربًّا قادرًا على أَن يجازى على الأَعمال فهم يخشونه ـ جل شأْنه ـ ، ويخافون عذابه وهو غير مشاهَد لهم ، ووصف المتقين بالإِيمان بالغيب ، شهادةٌ بصدق إِيمانهم ، ومدحٌ لهم ، كما فى قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ(٢) » .وقوله : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٣) » .وقوله : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٤) » . إِلى غير ذلك من الآيات ، وإِنما وصف المتقون بالخشية من الساعة بعد أَن وُصفوا بعموم خشيتهم من الله ، لتهويل أَمرها ، ووصفهم بضد ما اتصف به المستعجلون الذين لجُّوا فى عُتُوِّهم ، وأَعرضوا عن ذكر ربهم ، والثناء على المتقين من أَهل التوراة قبل أَن ينسخها بالإِنجيل ثم بالقرآن العظيم ، الذى أَوجب الله الإِيمان به على اليهود والنصارى وسائر البشر ، ولهذا قال سبحانه :

٥٠ ـ (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

أَى : وهذا القرآن ذكْر يتعظ به أُولو الأَلباب ، كثير البركة موفور النفع ، أَنزلناه

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٤١
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣
(٣) سورة الملك ، الآية : ١٢
(٤) سورة ق ، الآية : ٣٣

تأييدًا لرسولنا محمد وآيةً على نبوَّته ، أفأنتم له منكرون وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، أفَلَيْسَ ذلك آية على أنه منزل من عند الله كالتوراة التي آمن بها غيركم ، لقد ضللتم عن الهدى ، وتجاوزتم الحد يامعشر قريش ، وكنتم بإنكاركم له من الخاسرين .

* (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رُشْدَهُ) : الرُّشد الاهتداء إلى وجوه البر والصلاح . (التَّمَاثِيلُ) : جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه ما خلق الله ، والمراد : الأصنام . (عَاكِفُونَ) : ملازمون ومقيمون على عبادتها . (ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : انحرافٍ وبُعْدٍ واضح عن النهج القويم . (اللَّاعِبِينَ) : اللاهين العابثين . (فَطَرَهُنَّ) : خلقهن وأوجدهن من عدم على غير مثال سبق . (الشَّاهِدِينَ) : المصدقين له المؤمنين به .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ . ...) الآية .

ذكر - سبحانه - فيما سبق من الآيات رسالة موسى وكتابَهُ ، والقرآن وما حوى من ذكر وبركة ، وجاءت هذه الآية وما بعدها من الآيات ؛ لنعرف منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه .

والرشد هو : الاهتداء لوجوه البر والخير والصلاح ، قال الفراءُ : أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ أ هـ .

فالله سبحانه يخبر عن خليله إبراهيم أنه آتاه الهداية إلى الحق فى صغره ، وألهمه الحجة على قومه قبل النبوة ، كما قال سبحانه : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ »(1)

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) : أى وكنا به وبما يتحلى به من الصفات الجميلة ، والسجايا الحميدة التى تجعله من أهل الاجتباء والاصطفاء ، كنا بذلك كله عالمين .

ومعنى الآية إجمالا : ولقد أعطينا إبراهيم رشده وهديناه إلى وجوه الصلاح والخير فيما يفعل وما يدع ، وكنا بجدارته وأهليته لذلك عالمين ، فقد صنعناه على أعيننا ، وأعددناه ليحمل رسالتنا ، فزودناه بالشمائل الطيبة ، والسجايا الكريمة ؛ ليكون ذلك عونًا له على أدائها ، وعصمة له من أن يناله أحد ، أو يحط من قدره حَسُودٌ أو حاقد .

وهذا هو شأن الله - جل جلاله - فى اختيار رسله يحيطهم بكريم عنايته ويطهرهم من كل نقص أو عيب .

٥٢ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) :

هذا هو الرشد الذى أوتيه إبراهيم فى صغره ؛ حيث أنكر على قومه عبادة الأصنام قبل أن تأتيه النبوة ، وكلمة (إِذْ) ظرف لقوله : (آتَيْنَا) فى الآية السابقة .

والمعنى على هذا : ولقد منحنا إبراهيم هداه وأرشدناه إلى الطريق المستقيم وقت أن قال لقومه - ساخرًا منهم ومن آلهتهم - : ما هذه التماثيل التى أنتم عليها عاكفون ، وعلى عبادتها مقيمون ، وهى لا تستحق شيئًا مما تصنعون ، فليس لها من الصفات ما يقتضى تعظيمها فضلًا على عبادتها ، فكيف عكفتم على عبادتها ؟

ويجوز أن يكون لفظ (إِذْ) مفعولًا به لفعل محذوف تقديره (اذكر) .

والمعنى على هذا : اذكر أيها الرسول لقومك ما كان من أمر إبراهيم مع قومه .

---

(1) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣

والمراد من ذكر هذه القصة: بيان مخالفتهم لجدهم إبراهيم فى عقيدته ، فقد كان عدوًّا للأصنام التى يعبدونها ، كما أن فيها حث النبى على أن يحتذى مع عَبَدَةِ الأصنام من قومه حذو أبيه إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فيبين لهم فساد عبادة غير الله ، ويصبر على أذاهم .

٥٣ ـ (قَالُوا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) :

أى قال قوم إبراهيم ـ لمَّا لم يجدوا حجة مقنعة ولا برهانًا يعتمدون عليه ـ قالوا ـ : إنا وجدنا آباءنا مقيمين على عبادة هذه الأصنام فاقتفينا أثرهم ، وسرنا على نهجهم ، وفى هذا الرد غاية الامتهان لعقولهم ، ونهاية الاستخفاف بعقيدتهم ؛ لأن الاحتجاج بالتقليد مُسْتَنَدُ العاجز المفحَم ، وكأنهم قالوا : لا دليل لنا على ما نفعل ولا حجة لدينا فى عبادتنا تلك إلَّا تقليد الآباء والنسج على منوالهم .

والتعلل بتقليد الآباء فى عبادة غير الله داء استشرى فى أمم كثيرة ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٓ أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَىٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] .

٥٤ ـ (قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

وهكذا جاء رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ مسفهًا لعقولهم وعقول آبائهم من قبلهم ؛ إذ أقسم لهم أنهم وآباءهم فى ضلال وَغَىٍّ واضح ، بعُدوا به عن طريق الحق ، وانحرفوا عن النهج القويم .

٥٥ ـ (قَالُوٓا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) :

أى أن إبراهيم عليه السلام ، لمَّا سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ، قالوا له : أهذا الكلام الذى صدر منك تعيب فيه آلهتنا ، وتحط من قدرها ، تقوله هازلًا ولاعبًا أو تقوله جادًّا ومحقًّا فيه ؟ فإنا لم نسمع به قبلك ، فأجابهم بما حكاه الله بقوله :

٥٦ ـ (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) :

أى: قال إبراهيم ـ ردًّا على قومه ـ : لقد جئتكم بالحق ، ولست هازلًا أو لاعبًا ، فليست هذه التماثيل أربابا لكم ولا لغيركم ، بل ربكم المستحق لعكوفكم على عبادته ، هو رب السموات

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم : ٢٣

والأرض الذى خلقهن وما فيهن دون شريك أو معين ، وأنا على ربوبيته من الشاهدين ، مما قام عندى من الأدلة والبراهين ، فلست مثلكم أعبد ما لا تقوم على ربوبيته حجة ولا برهان وأعتذر بتقليد الآباء والأجداد .

ويجوز أن يكون الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) راجعًا إلى التماثيل ، فالله - تعالى - هو الذى خلق المادة التى صنعت منها ، وهذا أدخل فى تضليلهم وأثبت فى الاحتجاج عليهم ؛ حيث قد عبدوا مخلوقات لله الذى يعبده ، تجرى عليها أحكامه ، فهى لا تملك شيئًا من أمر نفسها . فضلًا عن غيرها .

ثم توعدهم بأنه سيفعل بتلك الأصنام فعلًا له خطره وشأنه ، ليثبت لهم بالطريقة الفعلية أنها لا تملك من أمر نفسها شيئًا فقال :

(وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(لَأَكِيدَنَّ) : الكيد ؛ الاحتيال لإلحاق الأذى بغيرك . (تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) : تَنْصرفوا عنها وتتركوا حراستها . (جُذَاذًا) : قطعًا ، من الجذِّ وهو القطع . (يذْكُرُهُمْ) : يتحدث عنهم بما يعيبهم . (كَبِيرًا) : أى كبيرًا فى تعظيمهم له ، أو فى حجمه.

(يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) : يسمى بهذا الاسم. (عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ) :على شهود منهم ،جمع عَيْن بمعنى شاهد . (يَشْهَدُونَ) :يحضرون مساءلته وعقوبتنا له على فعله .

(فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) : فعادوا إلى أنفسهم يتلاومون . (الظَّالِمُونَ) : الذين ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يعقل .

(نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) : انقلبوا عليها ، والجملة كناية عن أنهم رجعوا عن رأيهم وذلك بالشروع فى الجدل .

التفسير

٥٧ ـ (وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) :

أكد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما اعتزم من الكيد للأصنام بلام القسم ونون التوكيد فى قوله : (لَأَكِيدَنَّ) .

والظاهر أنه ـ عليه السلام ـ لم يواجههم بالوعيد والتهديد المفهوم من الآية ؛ لأن المواجهة لاتتفق مع الكيد والاحتيال للإيقاع بالأصنام وتكسيرها .

روى أن (آزر) خرج هو وقومه فى يوم عيد لهم ، فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعامًا ، وقالوا : إلى أن نرجع تكون الآلهة قد بَرَّكت عليه فنأكل منه ، فذهبوا وبقى إبراهيم معتذرًا بأنه سقيم ، ثم نظر إليها وكانت سبعين صنمًا مصطفة ، وثَمَّة صنم عظيم ، ونظر إبراهيم إلى ما بين أيديها من الطعام فقال لها ـ مستهزئًا ـ : ألا تأكلون ؟ فلمَّا لم يجيبوه قال : ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليها ضربًا باليمين وجعل يكسرها بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلَّا الصنم الكبير ، علق الفأس فى عنقه ثم خرج . ا هـ

ويشير إلى ذلك قوله تعالى :

٥٨ - (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) :

أى : فعمد إبراهيم إليها تكسيرًا وتقطيعًا حتى صارت قطعا صغيرة . وإنما استثنى كبير الأصنام دون جَذٍّ وكسر ؛ لكى يرجعوا إليه ويستخبروه الخبر ، فلا يجدوا عنده جوابًا ، فهو الجماد الذى لاينطق ، ولعلهم حينئذ يستيقظون من سباتهم ، ويتنبهون من غفلتهم ، ويكون ذلك سببًا فى إقلاعهم عن عبادة الأصنام ، والرجوع إلى دين إبراهيم ، والإيمان بالله رب السموات والأرض دون سواه ، فلما عادوا إلى أصنامهم عجبوا لما أصابها ، ولم يستدلُّوا بذلك على حقارتها ، بل حدث منهم ما حكاه الله بقوله :

٥٩ - (قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى : قالوا- سائلين على سبيل التعجب والتأثيم والوعيد - قالوا : مَنْ أحدث هذه الفعلة الشنعاء بآلهتنا ومعبوداتنا فنالها بالتحطيم والتكسير؟ ثم وصفوا المحطِّم لها بقولهم :

(إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) : مؤكدين ظلمه وتعديه بإنَّ ولام القسم- يعنون : أنه بما فعل قد ظلم الآلهة بالاعتداء عليها ، وظلم نفسه بتعرضه لسخطها - كما يزعمون ويتوهمون- كما أنه ظلم عشيرته وقومه بإهانتهم فى تكسير آلهتهم .

٦٠ - (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) :

أى : قال الذين سمعوا إبراهيم يعيب الأصنام وعبادتها ، ويدعو إلى إله غيرها : إنا سمعنا فتى يذكر آلهتنا بسوءٍ ، واسم هذا الفتى إبراهيم ؛ فلم يذكر أحد آلهتنا بسوءٍ غيره ، ولم يستهزئ بها وينكر ألوهيتها سواه ، فيغلب على ظننا أن يكون هو الذى فعل بها ما نرى .

وفى تعبيرهم عن إبراهيم بقولهم : (يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) استهزاءٌ به وسخرية منه وإغراءٌ به ، وتشغيب عليه للنيل منه .

وضمير الجماعة فى قولهم : (يَذْكُرُهُمْ) : يشير إلى أنهم كانوا يضفون على هذه الأصنام صفات العقلاء وأنها تضر وتنفع .

٦١ - (قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) :

أى : أنهم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل لهم : إن فاعل هذا يُظَنُّ أنه إبراهيم ؛ لأنه كان يذكرها بسوءٍ ، قالوا : فأْتوا به فى مكان ظاهر بحيث تراه كل عين وتشاهده ؛ ليشهدوا

مساءلته والعقوبة التى تحل به ، فيشفى ذلك صدورهم ويذهب غيظ قلوبهم ، وليكون ما ينزل به رادعًا لمن تحدثه نفسه أن ينال من الآلهة ، أو يحاول الميل إلى دين إبراهيم الذى يدعو إليه ، فلما أحضروه بمشهد من قومه سألوه سؤال تقرير حتى يعترف بما فعل ليقدموا على عقابه .

٦٢ - (قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ) :

أى : أأنت الذى حطمت آلهتنا وكسرت معبوداتنا التى هى عندنا بمكان التقديس والتعظيم ؟ وكيف تجرأت على ذلك ولم تخف غضبها عليك ، ولا غضبتنا لها ، وانتقامنا منك ؟

وكان جواب إبراهيم - عليه السلام - غريبًا عجيبًا مخالفا لما كانوا ينتظرون ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٦٣ - (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ) :

لم يكن إبراهيم يقصد أن صنمهم الكبير هو الذى حطم الأصنام الصغيرة على الحقيقة ، بل كان يريد بهذا الأسلوب المجازى إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، والاستهزاء بهم ، وتنبيههم إلى قِصَر فهمهم ، وسوء تقديرهم ، مع إرشادهم إلى الصراط السوى والسبيل المستقيم ؛ لأن هذا الصنم وإن كان كبيرًا فإنه لا إرادة له ولا حياة فيه ، فلا يستقيم أن ينسب إليه تحطيم غيره من الأصنام وتفتيتها غيرة منها وكراهة لها ، والذى يرشح ويقوى هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك : (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ) وكأنه قال لهم : لا يعقل أبدًا ولا يستقيم لدى من عندهم مُسكة من عقل أن يكون هذا الصنم قد قام بتحطيم غيره من الأصنام ، فجميعها جماد لا حياة فيها ، وقد صنعت بأيديكم ، ولا يتميز واحد منها على سواه بكبر أو زينة ، فإن صورها وأشكالها قد جاءت حسب أهوائكم ومشيئتكم فكيف تعبدونها ؟ وإذا كانت لا تستطيع حماية نفسها ممن حطمها فكيف تخرون سجدًا لها ، أولى بكم أن تتدبروا أمركم ، وتثوبوا إلى رشدكم ، فتتركوا عبادتها ، وتفردوا الله وحده بالعبادة والطاعة . (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ) : وهذا غاية السخرية ، ونهاية الإلزام بالحجة الدامغة ؛ فهم لا ينطقون ، ومن لا ينطق فلا يستطيع الإخبار عمن اعتدى عليه ، ومن كان كذلك فليس أهلًا للعبادة ، وإذا عبده الحمقى والسفهاء فجدير به أن يُحَطَّمَ .

٦٤ ـ (فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى فتنبهوا واقتنعوا بأن إبراهيم محق فيما قال ، ورجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ، فوصف بعضهم بعضًا بالظلم : (فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ) : لأنهم كذبوا إبراهيم وعبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ،ولا الإخبار عمن حطمها ، وهذه اليقظة العقلية تحدث أحيانًا حين تسطع الحجة ويبهر الدليل ، ولكنها لا تلبث طويلًا عند الجهلاء المقيمين على الضلال ، ولذا لم يثبت قوم إبراهيم على هذا الاقتناع ، فعادوا إلى جهالتهم ورُدُّوا إلى سفاهتهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

٦٥ ـ (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ) :

أصل النكس : قلب الشيء ، بحيث يكون أعلاه أسفله، وأُريد به ـ هنا ـ : أنهم عادوا إلى المجادلة بالباطل بعد ما استقاموا بمراجعة إبراهيم لهم ، ولم يستندوا فى انتكاسهم هذا إلى برهان ساطع أو دليل قاطع ؛ ولكنه العناد الذى تركهم فى ريبهم يترددون مع أن الحجة لا تزال قائمة عليهم بقولهم فى الدفاع عن أنفسهم :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ) : وكان مقتضى هذا أن يستمروا على يقظتهم وأن يخضعوا لحُجَّة إبراهيم ومنطقه ، ولكنهم لغلبة الجهل والصلف عليهم تنكروا للحق، وانساقوا وراء الباطل جهلا واستكبارا .

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۖ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(أُفٍّ) : لفظ يدل على التوجع والتألم مما يجد . (حَرِّقُوهُ) : أحرقوه بالغ الإحراق .

(انصُرُوٓا آلِهَتَكُمْ) : انتقموا لها . (بَرْدًا وَسَلَامًا) : بَرْد أَمنٍ لا برد هلاك .

(كَيْدًا) : إهلاكا ناشئا عن الكيد ، وهو تدبير الشر للعدو .

(الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) : هى بلاد الشام .

(نَافِلَةً) : هبة خالصة وزيادة على ما سأل إبراهيم :

التفسـير

٦٦ - (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ) :

بعد أن ظهرت الحجة لإبراهيم عليهم ، قال مبكتا وموبخا لهم : أتعودون إلى الجهالة

فتعبدون مالا يجلب لكم نفعا إن أنتم عبدتموها ، كما أنها لا تضركم شيئا من الضرر إن أنتم تركتموها .

٦٧ـ (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

قُبحًا لكم ولما تعبدون من دون الله ، ألاَ تتفكرون فيما صرتم إليه فلا تعقلون سوء عملكم وقبيح صنعكم ؟ الأجدر والأولى بكم أن تتدبروا وترجعوا إلى الفطرة السليمة التى تهدى إلى الخالق - جل وعلا - فهو الذى فطركم وربَّاكم . وخلق معبوداتكم ، فتعالى الله عن الشريك والمثيل ، وعن قبول عبادتكم لسواه .

٦٨ـ (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أى قال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم وانصروا بذلك آلهتكم ؛ فقد سخر منها ونالها بالتحطيم ولم يرع قدسيتها وتعظيمها عندكم . (إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مبينا فهذا سبيله ، و إلَّا تفعلوا كنتم مفرطين فى حقها ، وهذا الذى قالوه هو سبيل المُفْحَم المحجوج الذى بهتته الحجة وعجز عن البرهان ، فقد قالوا ذلك بعد أن استيقنت أنفسهم أن آلهتهم لا تستطيع أن تنصرهم عليه ، بعد أن عجزت عن دفع التحطيم عن أجسادها .

٦٩ـ (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إبْرَاهِيمَ) :

أى قلنا للنار حين ألقوا فيها إبراهيم : كونى بردا وسلاما عليه ، والمقصود من هذا الأمر الكريم أنه سبحانه سلب منها طبيعتها وهى الإحراق ، وجعلها باردة غير ضارة ببرودتها بحيث تكون سلاما عليه ، فلا يصيبه منها أذى فى جسده ولا فى نفسه ، فجمع له الله فى تلك النار بين السلامة الحسية والسلامة النفسية ، فكان مشروح الصدر مطمئن القلب ، سليم البدن .

ذكر أصحاب الأخبار قصة تحريق إبراهيم - عليه السلام - مرة مطولة ، وأخرى موجزة ، ونحن نسوقها باختصار فيما يلى :

لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم بنوا له بنيانا كالحظيرة ، يشير إلى ذلك

قوله تعالى : «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ »[١] . ثم جمعوا له الكثير من صلاب الحطب ، وأوقدوا نارا عظيمة ثم اتخذوا منجنيقًا ووضعوا فيه إبراهيم مقيدًا مغلولا ، وقذفوه فى النار ، فأتاه جبرائيل ــ عليه السلام ــ وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ؟ قال له : أما إليك فلا . قال جبرائيل : فاسأل الله ربك ، قال : حسبي من سؤالى علمه بحالى ، فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » وبهذا رد الله كيدهم إلى نحورهم .

قال أبو حيان فى (البحر) : قد أكثر الناس فى حكاية ما جرى لإبراهيم عليه السلام ، والذى صح هو ما ذكره الله تعالى من أنه عليه السلام أُلقى فى النار فجعلها الله عليه بردًا وسلاما ، وبقول أبى حيان نقول ، والله أعلم .

٧٠ ــ (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) :

أى : أرادوا بإبراهيم عليه السلام مكرا عظيما فى الإضرار به ؛ عقابا له على دعوة التوحيد التى جاء بها ، وظنوا أنهم سينالون مايريدون ، وأخذوا لذلك أسباب إهلاكه ، من إشعال النار وطرحه فيها ، ولكن ضل سعيهم ، وباء عملهم بالفشل الذريع ، فقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما ، وكان ما فعلوه هو البرهان القاطع على أنه ــ عليه السلام ــ على الجادة والصراط المستقيم ، وهم على الباطل ، فجعلهم الله بذلك أخسر الخاسرين ، وأتعس الماكرين المبطلين .

٧١ ــ (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) :

أى : وأتممنا على إبراهيم النعم بأن نجيناه من هؤلاء القوم فرحل من بلادهم بالعراق وقال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي »[٢] . وهاجرت معه زوجته سارة وابن أخيه لوط بعد أن آمن به ، ورحلوا معا إلى الأرض المباركة ، أرض الشام التى باركها الله ؛ بأن جعلها مهبط كثير من الأنبياء ، ومهد معظم الرسالات ، كما أكرمها بكثرة خيراتها وزيادة ثمارها وتدفق المياه

---

(١) سورة الصافات ، الآية : ٩٧

(٢) سورة العنكبوت ، من الآية : ٢٦

فى أرجائها ، وامتلاء أرضها بالأشجار ، ووفرة الأرزاق فيها . ثم هاجرلوط إلى المؤتفكة حيث أرسله الله إلى قومها المشهورين بفعل الخبائث وستأْتى قصته معهم قريبا فى هذه السورة .

وفى تعميم البركة للعالمين ما يفيد أن الذى بها من خيرات ليس مقصورًا على أهلها ، ولعل ذلك أكثر وضوحا فى جانب الهداية ؛ لأن نور الرسالات والنبوات انتشر من هذه البقاع إلى العالمين ، ولم يكن حبسا على المقيمين فيها ولا مختصا بهم .

وقد انتشرت فى أرض الشام دعوة إبراهيم – عليه السلام – ، كما أنها عمت أرض الحجاز حيث بنى البيت الحرام ، ودعا الناس من حوله إلى عبادة الله وحج بيته الحرام ، إلى غير ذلك من جهات الأرض التى زارها .

٧٢ – (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ...) الآية .

يعدد الله نعمه على إبراهيم عليه السلام ، فإنه – تعالى – قد نَجَّاه من النار ثم هيَّأَ له ولابن أخيه لوط الذهاب إلى الأرض المباركة ، وبعد أن استقر به المقام منَّ الله عليه بنعمة الذرية ليكونوا امتدادًا له فى أداء رسالة الله فى الأرض ، فوهب له من زوجته (سارة) إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

والتعبير عن رزقه بإسحق وابنه يعقوب بأنه هبة ونافلة ؛ لأنه رُزِقَهما فى أعلى سن اليأْس ، والنافلة فى اللغة قد تطلق على : العطية ، وعلى هذا تكون (نَافِلَةً) حالا من إسحاق ويعقوب ، ويجوز أن تكون حالا من يعقوب وحده ، فقد قيل : إن هبة إسحاق كانت إجابة لدعوة إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ »[1] وهبة يعقوب كانت زيادة وعطية له من غير سؤال منه لربه سبحانه وتعالى .

(وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ) : أى وكلا من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب جعلناهم طائعين لنا عاملين بأوامرنا مجتنبين محارمنا .

---

(١) سورة الصافات ، من الآية : ١٠٠

٧٣ ـ (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ....) الآية .

أى : وأعددناهم ليكونوا أنبياء هداة وأئمة يقتدى بهم الناس ويتبعون سبيلهم ؛ فهم الأُسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، إذ الدعوة بالعمل مع القول آكد وأقوى وأكثر نفعًا من الدعوة بالقول وحده ، ومع كونهم قدوة لغيرهم فى عقائدهم وسلوكهم ، فهم يهدون بأمرنا أى : يدعون الناس إلى دين الله بإرشاد ووحى منا ، وقد بين الله ما أوحاه الله إليهم ليعملوا به ويبلغوه فقال :

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ) : أى وشرعنا لهم فعل الطاعات والمبرات التى يسعد بها البشر فى دنياهم وأُخراهم ، ومن أعظم هذه الخيرات التى شرعناها لهم : إقام الصلاة ، أى : أداؤها تامة كاملة على خير الوجوه فى أوقاتها ، وإيتاء الزكاة لمستحقيها مما يحبون ومن خير ما يملكون ، لا يدفعهم إلى بذلها رغبة أو رهبة من أحدٍ إنما يقدمونها ابتغاء مرضاة ربهم .

فأنت ترى أن الله خصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع دخولهما فى الخيرات التى أوحاها وشرعها ؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل القربات المالية . ومجموع العبادتين تعظيم للخالق ، ورحمة بالمخلوق .

وقد جمع الله لهؤلاء الصفوة من خلقه فضائل الصفات ، وكرائم الشمائل ، فوصفهم بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ، ثم زادهم فضلا فوصفهم بالإمامة والقدوة ، ثم وصفهم بالنبوة والوحى .

وبعد أن بين أصناف نعمه عليهم بَيَّن اشتغالهم بعبوديته فقال :

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) : أى : خاشعين لا يستكبرون عن عبادتنا . ولا يتجهون بها إلى أحد سوانا فقد قابلوا إحسان الله عليهم بإخلاص العبودية له وحده .

(وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾)

المفـردات :

(حُكْمًا) : حكمة ونبوة . (الْقَرْيَةِ) قيل: هى سدوم . (الْخَبَآئِثَ): هى كل منكر من الأَعمال ، ومن أَفحشها إِتيان الذكران . (فَاسِقِينَ) : خارجين عن أَمر الله وطاعته . (الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) : الطوفان والغرق .

التفسير

٧٤ـ (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ....) الآية .

لما ذكر الله قصة إِبراهيم عليه السلام مع قومه ، وبين أَنه أَنجاه ولوطا إِلى الأَرض المباركة ، أَتبعها قصة ابن أَخيه لوط مع قومه .

ومعنى الآية : وأَعطينا لوطا حكمة فى سلوكه مع قومه الذين يمارسون أَفحش رذيلة فى العالمين ، فكان يأْخذهم إِلى الفضيلة بالأُسلوب الرشيد والمنطق السديد، كما آتيناه علمًا دينيا وشرعا كريما يتبعه ويأْمر به قومه .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ) : وأنعمنا عليه بأن نجيناه وحفظناه من كيد أهل قريته ، وخيانتهم له ، ومن الهلاك معهم عندما قلبها بهم ودمرها عليهم ، جزاء ما ارتكبوا من المنكرات ، وكان أشدها فحشا إتيانهم الذكران ، والاستغناء بهم عن الحلال الطيب من نسائهم .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) : إنهم قد طبعوا وجبلوا ونشأوا خارجين عن طاعة ربهم ، مرتكسين فى الرذيلة ، فكان إتيانهم الفواحش متفقا مع خسيس طبائعهم ومرذول جبلتهم .

٧٥ ـ (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وأدخلنا لوطا فى رحمتنا ، وأحطناه بفضلنا وجزيل عطائنا ، فمنحناه النبوة وهى قمة المنح ، فأى رحمة أفضل وأتم وأكمل من اصطفاء الله لعبده واختياره ليكون مُبلغا عنه تعالى وهاديا لقومه ، ويجوز أن يراد من الرحمة الجنة ، أى : أدخلناه فى جنتنا ؛ لأنه من الصالحين .

٧٦ ، ٧٧ ـ (وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

المعنى : واذكر ـ يا محمد ـ نبأ نوح وقت أن اشتد به الكرب ؛ من أذى قومه تارة بالتكذيب والتسفيه ، وأخرى بالكيد والسخرية ، فالتجأ إلينا مستعينًا بنا ، ودعانا بقوله : « أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ »[1] وطلب منا أن نهلك جميع الكافرين من قومه بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[2] وذلك بعد أن أعلمناه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فاستجبنا له وحققنا ما طلب فنجيناه وخلصناه من الحُزْن والضيق العظيم ونصرناه من قومه الذين كذبوا بآياتنا ، حيث حميناه من شرهم ، فإنهم كانوا أهل سوء وقبح وفساد ، وجعلنا عاقبتهم جميعًا الإغراق بالطوفان بعد أن أنجينا نوحا ومن آمن من قومه .

(١) سورة القمر ، من الآية رقم : ١٠ (٢) سورة نوح ، من الآية رقم : ٢٦

(وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْحَرْثِ) : الزرع . (نَفَشَتْ) : رعته ليلا بلا راع وأفسدته ، يقال : نفشت بالليل ، وهَمَلَتْ بالنهار . (حُكْماً) : حكمة وفقها[1] (لَبُوسٍ) : اللبوس عند العرب : السلاح كله ، درعا كان أو سيفا أو رمحا أو غيرها ، والمراد به هنا : الدرع .

(لِتُحْصِنَكُمْ) لتحفظكم وتمنعكم . (بَأْسِكُمْ): البأس ؛ الشدة والحرب .

(يَغُوصُونَ) : ينزلون إلى أعماق البحار .

(عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ) : عملا غير ذلك كبناء القصور ، والصناعات البديعة .

التفسير

٧٨ـ (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ...) الآية.

(١) انظر القرطبي .

أى : اذكر - أيها الرسول- لقومك قصة داود وسليمان وشأنهما فى قضية غنم لقوم انتشرت فى زرع لآخرين ،فأكلت ما أكلت وأتلفت ما أتلفت ، وخلاصة ما ذكره المفسرون فى هذه القصة : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال الأول : إن غنم هذا دخلت حرثى ورعته وما أبقت فيه شيئا ، فقال داود - عليه السلام - لصاحب الحرث : اذهب فإن الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان ، فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لوكنت أنا القاضى لقضيت بأن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نفعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، حتى إذا كان العام القابل ، وكان الحرث على هيئته يوم أكِلَ رُدَّت الغنم إلى صاحبها ، وقبض صاحب الحرث حرثه ، فوافق داود على حكم سليمان ، وقال له : القضاء ما قضيت ، وبمعناه قال ابن مسعود ومجاهد وغيرهما .

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) : أى وكنا شاهدين عالمين بما حكم به كل واحد منهما لا يغيب عنا منه شىء .

٧٩- (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) :

أى : فأرشدنا وألهمنا سليمان إلى أصوب الرأيين وأرشد الحكمين ، فقد اجتهد داود - عليه السلام - فى الأمر فرأى أن ما أكلته الغنم وأتلفت يقدر ويقوَّم بثمنها جميعًا فحكم بها لصاحب الحرث ، ورأى سليمان - عليه السلام - أن غير هذا أرفق بالفريقين ، وقضى بأن تسلم الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بها لبنا وسمنا وصوفا ونسلا ، ويقوم صاحب الغنم على الحرث حتى يعود إلى ما كان ، ثم يرد إلى كل منهما ما يملك من حرث أو غنم كما تقدم بيانه

وهذا الحكم قد بنى على اجتهاد من داود وسليمان عليهما السلام - فالنبى - له أن يجتهد فيما لم يرد فيه نص ، والوحى قد يقره أو يعدله أو لا ينزل فى شأنه بشىء فيكون تقريرًا للحكم ، وكلاهما - عليهما السلام - آتاه الله الحكمة والعلم فلم يخرج حكم أحدهما على ما تقتضيه الحكمة حسب اجتهاده ؛ فكلاهما كانت له المعرفة بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام والبصر بالأمور ، وفضل سليمان راجع إلى فضل أبيه ، والوالد تسره زيادة ولده عليه .

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) : أى وجعلنا كُلًّا من الجبال والطير تسبِّح الله تعالى حين يسبحه داود ، وكان ذلك تسبيح مقال ليكون وجه الامتنان على داود بتسبيحها معه ظاهرا واضحا . وقال بعض المفسرين : إن التسبيح كان بلسان حالها ، فهى لاتنطق ، ولكن بديع صنعتها ، ودقة تركيبها ، وعظيم المهام المتعلقة بها تدل على أنه - تعالى - هو الخالق البديع .

وفى كل شىء لـه آية تـدل على أنه الواحـد

والرأى الأول أوضح وأرجح لما يأْتى :

١ - أن حمل التسبيح على أنه كان بلسان الحال لايجعل لداود مزية على غيره ، فكل الأشياء - ومنها الجبال والطير - تسبح بلسان حالها .

٢ - أن تخصيص الجبال والطير دون غيرها بالتسبيح وكونها مسخرة مع داود يقتضى أن يكون التسبيح قوليًّا .

٣ - أن الشأْن فى اللفظ أن يحمل على ظاهره مالم تكن - ثَمَّةَ - ضرورة صارفة عن هذا الظاهر ولا ضرورة ههنا .

٤ - أن قوله تعالى : «وَكُنَّا فَاعِلِينَ » يشير إلى ذلك ،أى : وكنا قادرين على أن نفعل العجائب ، أن تسبح الجبال والطير بلسان المقال

٨٠ - (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) :

أى : وأرشدناه إلى صنع لباس الحرب ودروعها لتمنعكم وتحميكم من بأْس حربكم مع عدوكم وشدته ، وقد اتخذ داود - عليه السلام - من الحديد دروعا واقية بعد أن ألانه الله له ،وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ » (١) .

وقدم تسخير الجبال على الطير ؛ لأن تسخير الجبال وتسبيحها أعجب وأدل على قدرة الله وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد ، أما الطير فهى حيوان يصيح ويعبر عما فى نفسه بمنطقه الذى علمه الله إياه .

(١) سورة سبأ ، من الآيتين : ١٠ ، ١١

٨١ـ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ) :

وهذا هو الإنعام الأول الذى خص الله به سليمان عليه السلام .

ومعنى النظم الكريم : وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ، فلا يعوقها عائق ولا يقف شىء دون سيرها ، فهى تتخطى كل مايعترضها وتتغلب عليه .

(تَجْرِى بِأَمْرِهِ) :أى تطيعه وتنقاد له ـعليه السلام ـ فإن أرادها سريعة شديدة أسرعت واشتدت ، وإن أرادمنها غير ذلك كانت على حسب ما يريد ويحكم ، تتجه وفق مشيئته به وبرجاله فى ليل أو نهار .

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) : إلى أرض الشام التى باركنا فيها ، حيث جعلناها مكان الخصب العميم ، والخير الكثير ، والماء الوفير ،والشجر النضير ، وهى فوق ذلك مهبط كثير من الرسالات ومهد معظم الأنبياء ، فالبركة تشملها حسًّا ومعنى .

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ) أى : وكنا بكل شىء سخرناه فى الكون عالمين بطريقة تسخيره ، وتدبير أسبابه وآثاره ، فلهذا سخرنا لسليمان هذه المخلوقات التى تعجز قدرته عن أن تسيطر عليها ، وكل ذلك إنما يجرى حسبما تقتضيه حكمتنا ويحيط به علمنا .

٨٢ـ (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ....) الآية .

وهذه هى النعمة الثانية التى اختص الله بها سليمان ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : وسخرنا لسليمان بعض الشياطين من الجن ينزلون فى أعماق البحار يستخرجون له من الجواهر والنفائس مايحتاج إليه ملكه .

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ) : من بناء المدن والقصور والحصون ويصنعون الصنائع العجيبة كما قال الله تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ »[1] .

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) : أى وكنا للشياطين حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا ما عملوه أو يضروا رعيته ، وكان أمرهم معه كما قال تعالى : « وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »[2] .

(١) سورة سبأ ، من الآية : ١٣ (٢) سورة سبأ ، من الآية : ١٢

ويقول الفخر الرازى تعليقا على تسبيح الحجارة وإلانة الحديد لداود ، وعلى تسخير الريح والشياطين لسليمان عليهما السلام :

« اعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف : فأكثف الأجسام الحجارة والحديد ، وقد جعلهما الله معجزة لداود - عليه السلام - فأنطق الحجر وليّن الحديد ، وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ؛ لأنه كما قدر على إحياء الحجارة فأى بُعد فى إحياء العظام الرميمة ؟ وإذا قدر على أن يجعل فى أصبع داود - عليه السلام - قوة النار مع كون الأصبع فى نهاية اللطافة ، فأى بُعد فى أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا ؟ وألطف الأشياء فى هذا العالم : الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان - عليه السلام - أما الهواء فقوله تعالى : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ » وأما النار فلأن الشياطين مخلوقة منها ، وقد سخرهم الله تعالى له فكان يأمرهم بالغوص فى المياه وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته تعالى على إظهار الضد من الضد » اهـ .

* (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(مَسَّنِيَ) : أصابنى . (الضُّرُّ) : سوءُ الحال بسبب المرض .

التفسير

٨٣ - (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

واذكر فيمن تذكره من الأنبياء والصالحين أيوب - عليه السلام - وما أصابه من البلاء وما قابله به من الصبر والضراعة والدعاء، واثقا أنَّ كل شِدَّة إلى انتهاء وأن البلاء لم ينج منه أحد حتى الأنبياء، قال تعالى : « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أشد الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يَتْرُكَهُ يمشى وما عليه خطيئة » . رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه .

ويذكر الرواة : أن أيوب - عليه السلام - كان واسع الثراء ، ذا مالٍ وافر وأولاد ، فأصابه البلاءُ فى ماله ، وفى ولده ، ثم فى صحته ، واشتد به البلاءُ وحلَّ به الإعياءُ ، فشكا إلى ربه متضرعا قائلا : « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ويقول الرازى فى المسألة الرابعة - تعليقًا على هذه الآية - : إن أيوب عليه السلام ألطف فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب ، وعقب الرازى ذلك بقوله : فإن قيل : إن الشكوى تقدح فى كونه صابرًا ، فالجواب ما قاله سفيان بن عيينة حيث قال : من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد منه ذلك جَزَعا ، إذا كان فى شكواه راضيًا بقضاء الله ، إذ ليس من شرط الصبر استحلاءُ البلاء ، أَلَمْ تسمع قول يعقوب : « إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى اللهِ » انتهى بتصرف يسير.

وقد ورد فى بلاء أيوب وفى مدته روايات واهنة لا يقبل العقل تصديقها ؛ حيث إنها تصف مرضه بأنه نفَّر عنه الناس وأبعدهم منه ، وأنه مكث به عدة سنين ، وأن

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٥

زوجته كانت تقوم بالخدمة فى البيوت لتحصل على رزقه ، وكل ذلك باطل من جهة الرواية ، ومن جهة ما يجب للأنبياء ، من الصفات الكريمة التى تجمع الناس حولهم ، ولا تبعدهم عنهم ، ليستطيعوا أداء رسالة مولاهم ؛ وكل ما جاء فى الآية أنه تعالى امتحنه بضر ، فشكا إلى ربه راجيا رحمته تعالى لأنه أرحم الراحمين ، ولابد أن يكون هذا الضر مما يصاب بنحوه الأنبياء ، ولا يبعد عنهم الأوفياء والأولياء ولا يمنعهم من أداء رسالتهم .

ويقول النسابون : إنه ابن أنوص ، وكان من ولد عيصو بن إسحاق ، وأمه من ولد لوط ، وزوجته بنت ميشا بن يوسف ، أو رحمة بنت إفرايم بن يوسف عليه السلام ، والله أعلم بصحة هذا النسب : انظر الرازى والبيضاوى فى النسب المذكور .

٨٤ـ (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ) الآية .

فلبّينا دعاءه وأجبناه إلى مطالبه ووهبناه العفو والعافية فأعدنا له صحته وأزلنا ما أصابه من مرض فى جسمه .

(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) :

وكما أزلنا ما به من الضر ، عوضناه من أولاده الذين ماتوا أولادًا بعددهم ومثلهم معهم ، تفضلا منا وعطفًا عليه جزاء صبره ورضاه بما قضيناه عليه ، ولتكون قصّته عبرة وذكرى لكل من يعبد الله ويرضى بقضائه ويصبر على بلائه ويشكره على نعمائه .

وليعلم الناس أن البلاء ليس عقابًا على ذنب ارتكبه صاحبه ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء ، وليدركوا أن من أسباب الفرج دعاء الله تعالى والابتهال إليه ، وأن العاقبة للمتقين ، « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ » .

٨٥ـ (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) :

ذكر هؤلاء الأنبياء بعد ذكر قصة أيوب ووصفهم بالصبر ، يدل على أن كلا منهم قاسى من شدائد الحياة ما اقتضى منه الصبر ، أما إسماعيل فصبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام بأرض غير ذى زرع ، وصبر على ما عانى فى بناء البيت ومشاق التكليف .

وأما إدريس فقد قيل : إنه مصرى بعث إلى قومه ، وإنه أول من خاط الثياب ووصفه بأنه من الصابرين يدل على أنه عانى من مشاق التبليغ ومحن الحياة ما اقتضى وصفه بذلك .

وأمَّا ذو الكفل فقد قيل : إنه ابن أيوب . وقيل : بل هو إلياس ، واختلف فى نبوته ، وأكثر العلماء على أنَّه نبى من أنبياء الله ؛ ولذا ذكره الله فى سورة الأنبياء ، ووصفه مع قرينيه بقوله تعالى : « كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » للدلالة على أن الصبر كان من أبرز صفاتهم ، وأنهم امتحنوا بمشاق تقتضى التنويه بصبرهم عليها وإن كنا لم نعثر على المحنة التى صبر عليها ذو الكفل .

٨٦ـ (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا . .) الآية .

المراد بالرحمة هنا : النبوة ، أو الجنة ونعيم الآخرة ، أو ما هو أعم من ذلك .

(إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ) : هذه جملة مستأنفة فى موضع التعليل ، وصلاحهم هو الصلاح الكامل ؛ لأنهم الأنبياء المعصومون فاستحقوا بذلك إدخالهم فى رحمة الله ، أو المراد بالرحمة : النبوة ، والمعنى : أنعمنا عليهم بالنبوة التى هى رحمة منا لأنهم من الصالحين لها .

٨٧ـ (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا . . .) الآية .

النون : الحوت ، وذا النون : يونس ـ عليه السلام ـ ونسب إليه ، لأنه التقمه وهو مليم ، كما سيأتى بيانه فى قصته ، والمعنى : واذكر يا محمد لقومك قصة ذى النون حين تولى عنهم مغاضبا لهم ، فقد بعثه الله لأهل نينوى من بلاد الموصل فبلغهم رسالة ربه ، وخوفهم عذابه ، ولكنهم لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم فهاجر عنهم مغاضبا لهم ، وهذا معنى قوله تعالى : « إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا » أى : غضبان على قومه ولم يؤمر بذلك ولا أُذِنَ له فيه .

(فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) : أى فظن أن لن نضيق عليه ولا نؤاخذه فى متاركة قومه وخروجه من بينهم دون إذن منا .

(فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) :

فى النص الكريم أمور ملحوظة دلت عليها قصة يونس فى سورة الصافات ، حيث بينت أَنَّهُ «أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ».

والمعنى : أنه -عليه السلام- لما ترك قومه دون إذن من الله غضباً عليهم لكفرهم وإصرارهم عليه مع طول دعوته إياهم ، التجأ إلى سفينة مشحونة ، فلما لجَّجَت بمن فيها توقفت عن السير فقال قائلهم : إن الريح مواتية ، فلماذا تتوقف ؟ لابد أن يكون بها رجل عاص ، فأجروا القرعة بينهم ، فخرجت على يونس ، وكان بذلك من المغلوبين ، فألقوه فى البحر فالتقمه الحوت وهو مليم. أى : آت بما يلام عليه ، وأصبح بذلك داخل ظلمة كثيفة كأنها ظلمات ، حيث احتواه بطن الحوت داخل ظلمة البحر فنادى فى هذه الظلمات : لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِين ، إذ تركت قومى دون استئذان منك .

٨٨- (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ . .) الآية .

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » دعاءه الذى تضمنه نداؤه أن «لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » ففى هذه الجملة طلب يونس - عليه السلام - من ربه بأسلوب التلويح أن يكشف عنه غمه ويزيل عنه كربه ، بعد أن وصفه بكمال الربوبية ، ونزهه عن كل النقائص واعترف على نفسه ، وهو من ألطف أساليب الأدب فى الدعاء إذ يُعَرِّض بطلبه ولايصرح به «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ » الذى نزل به بسبب إلقائه فى بطن الحوت .

(وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) : أى وكما نجى الله يونس من غمه ينجى كل مؤمن يعترف بذنبه ويقرّ بتقصيره فيه نادما عليه ، -ينجيه- إن هو استعان بربه وسأله العفو والمغفرة.

(وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(لَاتَذَرْنِى) : لاتتركنى . (فَرْدًا) : وحيداً لاعقب لى. (أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) : جعلناها صالحة للإنجاب . (يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) : أى يبادرون إليها ويجتهدون فيها .

(رَغَبًا وَرَهَبًا) : طمعًا وخوفًا . (خَاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين .

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) : صانته . (آيَةً) : علامة .

(تَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُمْ) : أى اختلفوا فى دينهم.

التفسير

٨٩ ـ (وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ . . . .) الآية .

أى : واذكر يامحمد نبأ زكريًّا حين نادى ربه ، أى دعاه قائلا :

(رَبِّ لَاتَذَرْنِى فَرْدًا) :لاتدعنى وحيدا لا ولدلى كما جاء فى قوله تعالى :

« فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »[1] .

(١) سورة مريم ، الآيتان : ٥ ، ٦

(وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) : لِأَنَّ الأُمور كلها تصير إليه حتما .

٩٠ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ....) الآية .

أى : أجبناه إلى ما طلب ، من أن يرزقه الولد ، وهو فى سنِّ اليأس ، تفضلا منا ورحمة ، وأصلحنا له زوجه بإزالة موانع الحمل فقد كانت عقيما عاقرًا ، كما جاء فى قوله تعالى حكاية عنه : « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً » .

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) : هو بمثابة التعليل لما تقدم من قبول الدعاء وهبة الولد وإصلاح الزوج ، أى : استجبنا له ، ورزقناه يحيى فى أقصى سن اليأس ، وأصلحنا له زوجه العقيم ، لأن أهل هذا البيت كانوا يسارعون فى الخيرات ولايتباطأُون عنها إذا ما حانت الفرصة لفعلها . فالضمير فى « إنهم » لزكريا وأهله .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) : أى ويعبدوننا مخلصين العبادة راغبين طامعين فى ثوابنا ، خائفين مشفقين من عذابنا .

(وَكَانُوا لَنَا خاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين لا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

٩١ - (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ....) الآية .

هى مريم - عليها السلام - أثنى الله عليها بالعفة وعدم مساس البشر قبل أن تحمل بعيسى - عليه السلام - ، فإحصانها فرجها : كناية عن أنها لم يمسسها بشر .

وقد أراد الله تعالى أن يجعلها آية للناس بقدرته على خلق بشر فى أرحام النساء بغير أب على خلاف السنة المعهودة ؛ ليعلموا أنه كما قدر على خلق بشر بلا أب ولا أُم كما صنع مع آدم - عليه السلام - وبغير أم كما صنع بحواء - عليها السلام - فهو قادر على أن يخلقه دون أب كما صنع بعيسى - عليه السلام - .

ويصور الله خلقه فى جوفها بقوله :

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) : أى نفخنا فى جوفها من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فهو الذى نَفَّذَ أمر الله تعالى .

ومعلوم من الدين بالضرورة ، أن جبريل يطلق عليه (الروح) ، كما قال تعالى :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » .

ولذا قال سبحانه : (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) : أى وجعلنا ولادتها إياه على هذه الحال آية على قدرتنا ومظهرا لربوبيتنا .

٩٢ ـ (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً . . .) الآية .

والأمة كما تطلق على الجماعة من الناس تطلق أيضا على الدين والملة ، وهو المراد هنا . أى : إن الدين الذى جاء به سائر الأنبياء الذين تقدم ذكر أنبائهم دين واحد ، يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإن اختلفت شريعة كل نبى فى بعض التفاصيل الفرعية التى تقتضيها طبائع العصور المختلفة ، أما العقائد وأصول الأحكام فواحدة من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة .

(وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) : أى وأنا الرب الذى اخترت الدين ، وأرسلت كل رسول إلى أمته بشريعته جملة وتفصيلا ، على وفق إرادتى ، وطبقا لمشيئتى ، وأنا أعلم كيف أبعث الرسل إلى الأمم برسالاتى وأنا المستحق للعبادة دون سواى ، فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، وحيث كان دين الله واحداً فى أصوله ، فيجب الإيمان بجميع رسل الله الذين يبلغون عنه دينه .

فلا يحل لأحد أن يؤمن ببعض الأنبياء دون بعض ، ولا ببعض الكتب دون بعض ، ما لم تغيرها الأهواء والشهوات ، وتدخل عليها ما لم يأمر به الله .

٩٣ ـ (وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ...) الآية .

كان الخطاب فى قوله تعالى فى الآية السابقة « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » كان هذا الخطاب يقتضى أن يقول هنا : وتقطعتم أمركم بينكم ، ولكنه عدل إلى أسلوب الحديث عن قوم فى حكم الغائبين فقال : « وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ » إنزالاً لهم عن شرف الخطاب ، بسبب ما أحدثوه من التفرق فى الدين وجعله قطعا موزعة ، ولكى يحكى أخبارهم لغيرهم ذمًّا لهم ، كأنه قيل : ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء من الاختلاف فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء ، وفى ذلك ذم للاختلاف فى الدين ، وإسقاط للمختلفين فيه عن رتبة الخطاب إعراضا عنهم .

ومما اختلف الناس فيه من دين الله : أمر توحيد الخالق سبحانه .

فقد قال قوم : عزير ابن الله ، وقال آخرون : المسيح ابن الله . وغيرهم : الملائكة بنات الله ، وعبد آخرون الأوثان ، ومنهم من عبدوا الكواكب وغيرها .

وخلاصة ذلك أنهم أغفلوا ما أمروا به ، من وجوب الاعتصام بوحدة الدين ونبذ الفرقة فيه .

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) : أى كل الأمم التى فرقت الدين ، واختلفت فيه ، عائدون إلينا بعد الموت للجزاء والحساب «فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

(فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾).

المفردات :

(فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) : أى لا يضيع الله أجر عمله .

(وَحَرَامٌ) : الحرام الممنوع منه بقهر الله أو بشرعه أو بالعقل أو بأمر من يطاع أمره ،

والمراد منه هنا الأول كما فى قوله تعالى : « وَحَرَّمْنَا عَلَيهِ الْمَرَاضِعَ » : أى منعنا موسى بقدرتنا من أن يرضع من المراضع سوى أمه - انظر المادة فى مفردات الراغب .

(عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَا هَا) : أى قدرنا إهلا كها ، والمراد من القرية : أهلها .

(لَايَرْجِعُونَ) : لا يبعثون . (فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) : أى فتح سدهم الذى كف أذاهم عن البَشر . (وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) : وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون . (الْوَعْدُ الْحَقُّ) : الموعود الثابت ، والمراد به : ما يحدث بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء .

(شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى مفتوحة لا تطرف .

(يَاوَيْلَنَا) : الويل العذاب ، والغرض من ندائهم إياه : التَّحسر .

(كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا) : أى أغفلناه وأهملناه فلم نعمل له .

(حَصَبُ جَهَنَّمَ) : هو الوقود الذى تشتعل به النار . (زَفِيرٌ) : الزفير نَفَس ؛ المغموم يخرجه من أقصى جوفه .

التفسير

٩٤ - (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ....) الآية .

بعد أن بيَّنَ الله تعالى تفرق الناس فى أمر الدين ؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان مصير كل منهم .

والمعنى : فمن يعمل من الصالحات التى بينها الله فى رسالاته إلى رسله ، وهو مؤمن بما يعمله منها ، وبأن التكليف بها صادر عن الله تعالى ، فلا حرمان له من أجر عمله.

وعبَّر هنا عن الحرمان من الثواب بكفران السعى ؛ لبيان كمال نزاهة الله تعالى عنه ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة منه سبحانه وتعالى ، مع أنها من فضله وكرمه .

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) : الضمير فيه عائد على السعى ، أى : إننا نثبت هذا العمل فى صحيفة صاحبه ؛ ليعلم أننا لا نضيع عليه نقيرا ولا قطميرا من طيبات أعماله ، كما قال سبحانه : « فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » .

٩٥ - (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَايَرْجِعُونَ) :

بيَّنَ الله فى الآيات السابقة أن الناس تقطعوا أمر الدين فيما بينهم واختلفوا فيه ، وأنهم إلى الله راجعون للحساب والجزاء ، وأن المؤمنين الصالحين سيجزون خير الجزاء . وجاءت هذه الآية وما بعدها لتؤكد للكفار رجوعهم إلى الله وسوء حالهم يوم القيامة .

والمعنى : وممنوع على كل قرية قضينا أزلا بإهلاك أهلها لشدة طغيانهم وفسادهم ، حرام عليهم ، وممنوع تخلفهم عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء ، فلابد من رجوعهم إلينا مقهورين بقدرتنا ، مسخرين ببعثنا إياهم وإعادة الحياة إلى أجسادهم ؛ ليلقوا عقابهم الأُخروى ، بعد ما ذاقوا عذابهم الدنيوى .

ومن العلماء من اعتبر حرف « لا » صلة ، وليس نافيا ، وأن المعنى : وممتنع على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا بعد إهلاكهم ، أو يرجعوا إلى التوبة .

والمعنى الأول هو المناسب لما تقدم من قوله سبحانه : « كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » ولما سيأتى عقبه من الجزاء الأُخروى للمنكرين للبعث ، وشخوص أبصارهم وتحسرهم على كفرهم يوم الجزاء .

٩٦ - (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) :

(حتى) هذه هى التى يبتدأ بعدها الجمل ، ولا تفارقها معنى الغاية ؛ فهى غاية لمقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : تستمر هذه القرى على ما هى عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من يأجوج ومأجوج وخروجهم من كل مكان مرتفع من الجبال والهضاب ، يسرعون إلى البغى والعدوان على خلق الله ، والآية واضحة الدلالة على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات

الساعة ، كما يدل عليه قولهُ تعالى عقبها : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » الآية . فإن جملة « اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » داخلة معها فى حيز الشرط ، وجوابهما هو قوله تعالى : «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » فكأنه قيل : فإذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب بذلك الوعد الحق ، فاجأتهم القيامة بأهوالها ، كما يدل على ذلك أيضاً حديث مسلم وأبى داود وغيرهما ، فقد جاء فيه : « أن الله تعالى يبعث يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى : « مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله - عز وجل - فيرسل عليهم نغفا[١] فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ... » الحديث .

ومن العلماء من قال : إن يأجوج ومأجوج هم التتار ، وأنهم فتحوا السد الذى بناه دونهم ذو القرنين ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، ويعرف هذا السد بسد باب الحديد - وراء جيحون - بين سمرقند والهند ، كما يشتهر أيضًا بسد الصين ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيوشه المخرِّبة ومر به « شاه روح » وكان فى خدمته رجل ألمانى يدعى « سيلد برجر » وجاء ذكر هذا السد فى كتابه ، كما تحدث فيه عن مرور « الشاه » به وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر[٢] .

ولعله يشهد لصحة هذا الرأى ما أخرجه مسلم بسنده عن أم حبيبة بنت أبى سفيان أن زينب بنت جحش زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - قالت : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزعا محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها - قالت : يارسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم - إذا كثر الخبث[٣] » .

فهذا يؤذن بأن بداية فتح السد حدثت فى عهده - صلى الله عليه وسلم - وقد توقع النبى من ذلك شرًّا كثيرًا على العرب ، وقد وقع ذلك فى غزوات التتار على البلاد

---

(١) النغف : دود أبيض يكون فى النوى إذا أنقع ، قاله أبو عبيد .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

(٣) الحديث الثانى من « كتاب الفتن » فى صحيح مسلم .

الإسلامية ، وقتلهم الخليفة فى بغداد ، وإلقائهم كتب العلم فى نهر دجلة ، وقتلهم أعدادًا هائلة من المسلمين ، واستيلائهم على البلاد الإسلامية حتى الشام، حيث هزمهم جيش مصر فى معركة (مرج دابق) .

سؤال هام وجوابه

إذا كان سد يأجوج ومأجوج قد فتح كما يشير إليه حديث مسلم المذكور ، وكما دلت عليه أحداث التتار بعد تحطيم سد الصين الذى اشتهر بأنه سد يأجوج ومأجوج ، فكيف يكون تخريبه من علامات الساعة القريبة ، فى حين أن الدنيا لاتزال كما هى دون أن تحدث أشراط الساعة الكبرى ، ومنها نزول عيسى عليه السلام ؟ولايحتمل أن يكون «يأجوج ومأجوج » لا يزالون وراء سدهم فى مكان آخر من الأرض وأنه لم يفتح بعد ؛ فإن الأقمار الصناعية صَوَّرتْ كل أنحاء الأرض ، والطيارات طارت فوق أقطارها وبحارها فلم يبق فى أرض الله مكان خفى عن عدسات التصوير أو عن العيون ، فكيف تكون أمتان بهذا الخطر ، وبالكثرة التى تحدثت الأخبار عنها ولا يعثرلهم على مكان ؟ فضلا عن أن بلاد الله كلها مفتوح بعضها على بعض ، ومتصلة بشتى وسائل الاتصال فأين يوجدون ؟

لهذا نرى أن يأجوج ومأجوج اسمان مأخوذان ـ كما قالوا ـ من أَجَّ الظليم : إذا أسرع أو من أجيج النار : وهو اتقادُها ، فيمكن إطلاقهما على ذوى الغلبة والقهر من أهل الفسادّ .

وقد أطلقهما الله فى سورة الكهف على صنف حجزهم ذو القرنين بسده ثم فتحوه ، وأطلقهما هنا على صنف خطير آخر يخرج فى آخر الزمان فى عهد عيسى ـ عليه السلام ـ قرب قيام الساعة ، ويكون من علاماتها ، وقد عبر الله عن خروجهم حينئذ بالفتح فى قوله : « حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » على سبيل الكناية ، للإيذان بأن أبواب شرهم تفتح على مصاريعها بعد أن كانت مغلقة ، كما تقول: فتح العدو شره على الآمنين ، هذا ما نراه فى فهم النص الكريم ، والله تعالى أعلم .

٩٧ ـ (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ....) الآية.

المراد باقتراب الوعد الحق؛ القرب الشديد للبعث الذى وعده الله عباده فى كتابه

وعدًا ثابتا لا يتخلف ، ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم ، ويكون بعد النَّفْخَةِ الثانية فى الصور .

وجملة « اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » وكلتاهما فعل الشرط . أما جوابه فهو قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » كما تقدم بيانه . أى : فإذا حال الذين كفروا وشأنهم شخوص أبصارهم ، وفتحها على أهوال القيامة بحيث لا تطرف ولا تغمض .

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى يقولون من شدة الكرب فى حسرة وندامة : ياهلاكنا قد كنا فى دنيانا فى غفلة عن هذا اليوم ، ومافيه من الأهوال الجسام ، ولم ندر أنَّه مصيرنا ، ثم أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، فقالوا : « بلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » لأنفسنا حيث نبهتنا الآيات والنُّذُر فلم نتنبه للخطر المنتظر ، وبقينا كافرين بالبعث والحساب فحق علينا قول ربنا بالخلود فى العذاب المهين .

المعنى الاجمالى للآيات السابقة

ولكى يتضح معنى هذه الآيات الثلاث مجتمعة نجملها فيمايلى :

٩٥ـ وممنوع على أهل أية قرية أهلكناها لكفر أهلها وطغيانهم ، ممنوع عليهم أن يتخلفوا عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء . فلابد من رجوعهم إلينا لذلك .

٩٦ـ وتستمر هذه القرى المهلكة على ما هى عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من (يأْجوج ومأْجوج)(١) وخروجهم من كل مكان مرتفع يسرعون إلى العدوان فى آخر الزمان

٩٧ـ واقترب بخروجهم تحقيق الوعد الحق بالبعث ، إذ يهلك الله الخلائق ثم يبعثهم ويحشرهم إلى ساحة الحساب حيث الأهوال الجسام ، فإذا أبصار الكافرين الذين أنكروا البعث شاخصة لا تطرف هلعًا ، يقولون من شدة الكرب : ياعذابنا الشديد الذى

(١) هذا اسم كنائى لأمة شديدة الجبروت تظهر آخر الزمان ، غير التتار الذين احتجزهم ذو القرنين بسده ، واجتاحوا السد فى القرن الخامس عشر كما تقدم بيانه ، وقد دل حديث مسلم على فتحه ، راجع ما كتبناه فى ص ١١٥٧ تحت عنوان : (سؤال هام وجوابه)

ينتظرنا ، قد كنا في دنيانا في غفلة عن هذا اليوم بل كنا ظالمين لأنفسنا بالإصرار على الكفر .

٩٨ـ (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) :

الخطاب في الآية لأهل مكة ،ومعلوم أنهم كانوا مقيمين على عبادة الأصنام والأوثان ، فالله سبحانه وتعالى يخبرهم بأن مصيرهم ومعبوداتهم النار ، وهذا الحكم عام فيهم وفي كل من عبد غير الله على شاكلتهم ، كالذين يعبدون الكواكب أو الأشجار أو نحوها .

أما المعبودات العاقلة المؤمنة فلا تدخل في هذا العموم ؛ لأن (ما) في قوله : «وَمَا تَعْبُدُونَ» لما لا يعقل .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا هذه الآية قال له ابن الزبعرى : خَصَمْتُكَ وربِّ الكعبة : أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح ، وبنومليح الملائكة؟ فردَّ عليه بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أنَّ مَا لِمَا لاَ يَعْقِلُ؟» .

ولو جعل الخطاب عاما لم يدخل هؤلاء كما تقضى به أدلة السمع والعقل ، لبراءتهم من الذنوب والمعاصي التي ارتكبها عابدوهم بتسويل شياطينهم ، وسيأتي النص على براءتهم في الآية رقم (١٠١) .

والحَصَبُ : ما تُرمَى به النار لتتقد به ـ من حَصَبه بكذا أي : رماه به .

والمعنى : إنكم يا أهل مكة ومن على شاكلتكم ممن يعبدون غير الله يُرْمَى بكم وبمعبوداتكم في نار جهنم ، أنتم عليها واردون وفيها داخلون ، فلا تعصمكم منها آلهتكم كما لا تعصم نفسها منها ، فكيف تعبدونها ؟

٩٩ـ (لَوْ كَانَ هَٰؤُلَآءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أي : لو كان ما تعبدونه ـ يا أهل مكة ـ من أوثانكم آلهة ، لما دخلوا النار واحترقوا بها ؛ فإن الإله يحمى نفسه من العذاب ، وكل من العابدين ومعبوداتهم في نار جهنم خالدين ، لا فكاك لهم فيها ، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ» .

ويلاحظ أن إحراق آلهتهم معهم لا يرجع إلى مسئولية الآلهة عن عبادة البشر لهم ؛ لأنها لا تسمع ولا تعقل ولا تحس ، بل المراد منه تسفيه عقول هؤلاء الذين عبدوها وإهانتهم بإهانة آلهتهم

١٠٠ ـ (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) :

(لَهُمْ فِيهَا زفِيرٌ) الزفير : خروج النفَس من الحيوان .

والمعنى : لأهل مكة وسواهم من المشركين ـ لهم فى جهنم ـ أنفاس متتابعة تخرج من صدورهم ، يحاولون بها تنفيس ما بهم من وقود النار وسوء الحال ، وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض ولا صراخهم ؛ لشدة ما يعانونه جسديًّا ونفسيًّا ، نعوذ بالله من شرها .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفـردات :

(الْحُسْنَىٰ) : الجنة ، أو التوفيق للطاعة . (حَسِيسَهَا) : أى الصوت الذى يحس من توهجها (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم بسبب صرف أهل النار إلى النار .

(كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) : كطى الديوان لصحائفه المكتوبة .

(الزَّبُورِ) : المراد به هنا كل كتاب أنزله الله ، مأخوذ من الزَّبْر وهو الكتابة ، وقد غلب لفظ الزبور على كتاب داود – عليه السلام –

(الذِّكْرِ) : المراد به هنا اللوح المحفوظ .

(لَبَلَاغًا) : لكفاية تُبْلغُ الإنسان إلى بغيته .

التفسير

١٠١ – (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) :

بعد أن ذكر الله سوء مصير من يتخذون آلهة من دون الله ، وأنهم وما يعبدون وقود جهنم وأنهم فيها مخلدون ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان حُسْن جزاء المؤمنين . والحسنى : تأنيث الأحسن والمراد بها هنا : الجنة ، أو التوفيق للطاعة ، فهو الخصلة الحسنى ، ومعنى سبق الحسنى لهم : تقديرها فى الأزل من الله تعالى ، لما علمه فيهم من إيثارهم طاعته على هوى أنفسهم .

(أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) : أى أولئك الذين سبقت لهم منا الحسى مبعدون عن جهنم أى لايدخلونها .

وأما قوله تعالى : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا »[1]

فقيل : الخطاب للكفار خاصة ، وقيل : إن الورود قد يطلق على القرب ، ولا مانع من أن يحضر المؤمنون من الإنس والجن حول جهنم حيث لايحسون بصوتها ولا يشعرون بحرارتها . ويؤيد هذا قوله تعالى :

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٧١

١٠٢ - (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ) : .

أى : لا يسمعون صوتها الصادر عن اتقادها ، فضلا عن أنهم لاتدركهم حرارتها ، تكريما لهم - « وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ » : أى دائمون فيما أحبته نفوسهم من ألوان النعيم حسية كانت أو معنوية ، فبكل يتنعمون ، وهذه ثلاث صفات لمن سبقت لهم الحسنى ، وهى : البعد عن النار ، وعدم الإحساس بما فيها من الشدائد ، وخلودهم فى الجنة ينعمون بلذتيها الحسية والمعنوية .

١٠٣ - (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

وهذه صفة أخرى لهم تضمنت الوعد بنجاتهم من بعض أهوال الآخرة

و (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم ، والمراد به : النفخ الثانى فى الصور ، وقيل : الموت ، وقيل : انصراف أهل النار إلى النار .

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) : أى يستقبلونهم مبشرين ، قائلين لهم :(هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) : به فى الدنيا ، وتبشرون بمجيئه وبالنعيم فيه ، ويكون هذا الاستقبال عند القيام من القبور ، وهذا يؤيد تفسير « الفزع الأكبر » بالنفخ الثانى فى الصور . وتبشير الملائكة لهم حين تلقاهم يكون بالأمان والسلام وتحقيق الوعد الذى وعدوا به فى الدنيا ، ويعتبر ذلك أسمى نعم الله عليهم ، ومنتهى آمالهم وأمانيهم .

١٠٤ - (يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...) الآية .

المراد من طى السماء : إخفاؤها بالمحو لتحل محلها سماء أخرى ، وفاقا لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » والسجل : الديوان الذى يشتمل على الصحائف المكتوبة ، ويطلق أيضاً على كل صك به كتابة مسجلة فيه ، والمراد

بالكتب : ما يكتب فيه من الأمور المختلفة ، وقرئ « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ » أى : لجنس الكتاب ، والمعنى لا يختلف فى القراءتين ، ومعنى الآية : واذكر لأمتك أيها الرسول - اذكر لهم - يوم نخفى السماء كما يخفى السجل ما كتب فيه حين يطوى عليه ، وذلك « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ » حيث يبعث الله الخلائق ويحشرها على أرض جديدة ، وتحت سماء جديدة ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم .

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) : أى أنه تعالى يُعيد السماء كما بدأها بعد أن أفناها بقدرته سبحانه ؛ فإنه يقول للشيء : (كُنْ فَيَكُونُ) .

وأجاز بعض المفسرين أن يكون المعنى : كما بدأنا أول خلق الناس حفاة عراة نعيدهم كذلك ، واستندوا إلى حديث أخرجه مسلم عن ابن عباس جاء فيه : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بموعظة فقال : يا أيها الناس : إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراة غرْلاً « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ... » الحديث . كما استندوا إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) : أى وعدنا بإعادة الخلائق وبعثهم وعدا علينا إنجازه ، إنا كُنَّا فاعلين ما وعدناهم ، قادرين على تحقيقه .

١٠٥ - (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ) :

المراد من الزبور هنا : كل الكتب السماوية ، التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله . مأخوذ من زبَرَ الكتابَ[1] - أى كتبه - والمراد من الذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب - كما قاله مجاهد وابن زيد ، والمراد بالأرض التى يرثها عباد الله الصالحون : أرض الجنة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية ، ودليل هذا التأويل قول أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

---

(١) وهو من باب ضرب ونصر.

الْعَامِلِينَ ».وتأويل الأرض بالجنة هو المناسب لما تقدم من قوله تعالى : « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » بعد قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآيات .

والمعنى على هذا : ولقد كتبنا فى جنس الكتب السماوية من بعد الكتابة فى اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة يرثها عبادى الصالحون أهل التقوى ، ولأمة محمد خير نصيب فيها بمشيئة الله تعالى .

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالأرض : أرض الدنيا ، والوارثون لها : أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ، يستولون عليها من الكافرين بالفتوحات ، سلمية كانت أو حربية ، مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »[1] وهذا الرأى هو إحدى الروايات عن ابن عباس .

وعلى أن المراد بالأرض أرض الدنيا ، والوارثين لها أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصح أن يراد من الزبور كتاب داود ـ عليه السلام ـ ومن الذكر التوراة فإنه يطلق عليها الذكر ، كما فى قوله تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » فتكون البشارة بميراث أمة محمد للدنيا جاءت فى الزبور بعد التوراة .

١٠٦ ـ (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ) :

البلاغ يطلق على الكفاية ، وعلى ما يتوصل به إلى الغاية . والمعنى : أن ما تقدم مما احتوته السورة من عقائد وشرائع وآداب فيه الكفاية للوصول إلى الغاية المطلوبة لقوم شأنهم العبادة ، فإذا أخذوا أنفسهم به واحتكموا إلى شرائعه ، والتزموا بآدابه بلغوا ما يرجون من عظيم الثواب ، والنجاة من العقاب . . .

---

(١) سورة الصف ، آية : ٩

(وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾)

المفردات :

(فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) : المراد من الاستفهام هنا : الأمر . (تَوَلَّوْا) : أعرضوا ولم يُسْلِموا .

(آذَنتُكُمْ) : أعلمتكم . (مَاتُوعَدُونَ) : أى من غلبة المسلمين للكافرين .

(الْجَهْرَ) : ماتظهرونه وتجهرون به . (مَا تَكْتُمُونَ): ما تسرون وتخفون .

(إِنْ أَدْرِى) : لست أدرى . (فِتْنَةٌ) : ابتلاءٌ واختبار .

(احْكُم بِالْحَقِّ) : اقض بالعدل . (مَا تَصِفُونَ) : ما تقولونه من الكفر والتكذيب .

التفسير

١٠٧ ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

« ومَآ أَرْسَلْنَاكَ » : أى وما بعثناك يا محمد بما بعثناك به من الهدى ودين الحق ؛ رحمة للناس أجمعين ؛ فإنك توضح لهم به صحيح العقيدة ، وتعلمهم الأحكام نى بها يحكمون ، وإليها يحتكمون ، وفيها مناط السعادة فى الدارين ، فما أرسلناك يعنِتهم أو يشق عليهم أو بما هو فوق طاقتهم ، وهو ما يوضحه قوله تعالى :

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »(١)

وفيه تعريض بما فوت الكافر على نفسه من هذه الرحمة ، حين أعرض ونأى بجانبه ، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

١٠٨ - (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ....) الآية .

بعد أن بين الله سبحانه أنه سيطوى السماء ، ويبعث الخلائق كما بدأهم ، وأن أرض الجنة يرثها الصالحون ، وأنه أرسل نبيه محمداً رحمة للعالمين عقب ذلك بأمره - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو المشركين إلى التوحيد والإسلام ؛ رحمة بهم لعلهم يسلمون ، فينجوا من سوء المصير .

والمعنى : قل أيها المبعوث رحمة للعالمين - لهؤلاء المشركين من قومك ولغيرهم : ما أوحى الله إلىَّ إلاَّ أنه إله واحد ، فما لكم تتخذون معه آلهة تعبدونها من الحجر والشجر والبشر وغيرها ، ولا تصلح العبادة لسواه .

(فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) : أى فأسلموا لله وانقادوا لأمره ، والتمسوا رضاه بطاعته ؛ حتى تفوزوا بالنجاة وتكونوا من المفلحين . ثم عقب ذلك بإنذارهم على الإعراض فقال :

١٠٩ - (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ..) الآية .

أى : فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه ، فقل لهم : « آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » : أى بلغتكم ما أوحى الله إلىَّ أن أبلغه من توحيده فى العبادة ، مستوين فى الإعلام بذلك ، فلم أخص به جماعة دون آخرين .

ويجوز أن يكون المعنى : أعلمتكم ذلك مستويا معكم(٢) فى العلم بما أعلمتكم به من وحدانية الله لظهور الأدلة عليها ، كما يجوز غير ذلك من المعانى ، وحسب القارئ ما ذكرنا .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٨

(٢) فعلى الأول تكون كلمة « على سواء » حالا من كاف المفعول فى «آذنتكم» وعلى الثانى تكون حالا من التاء والكاف أى من الفاعل والمفعول .

وقد نقل الآلوسى عن الزمخشرى أن فى قوله تعالى لهم : « آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَآءٍ » الخ استعارة تمثيلية ؛ حيث شبه حال الرسول معهم بحال من بينه وبين أعدائه هدنة ، فأحس بغدرهم فنبذ إليهم العهد ، وشهر النَّبْذَ وأشاعه ، وآذنهم جميعا بذلك - وعقب عليه الآلوسى بقوله : وهو من الحسن بمكان . اهـ

(وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ) : إن ، هى النافية ، والمراد بقوله : « مَا تُوعَدُونَ » هو غلبة المسلمين عليهم ، أو هو ما يلقونه من عذاب يوم القيامة ، أى أنا لم أعلم ذلك لأن الله استأثر بعلمه ، ولم يطلعنى عليه ، إنما علم ذلك كله عند ربى .

١١٠ - (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) :

إنه سبحانه يعلم ما تطعنون به علىَّ وعلى شريعتى مجاهرين بذلك ، ويعلم ما تخفون فى صدوركم من الأحقاد على المسلمين ، وإذا كان الله يعلم الجهر وما يخفى ، وهو مُجَازٍ عليهما لا محالة ، كان على العاقل البصير أن يخلص النية لله تعالى ، وأن يصون لسانه وقلبه عن الوقوع فيما يوبقه من القول والنية وسوء الظن .

١١١ - (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ....) الآية .

الضمير فى « لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ » عائد على مفهوم من المقام، وهو تأخير مجازاتهم ، والمعنى : لست أدرى ؛ لعل تأخير مجازاتكم مع إصراركم على ما أنتم عليه زيادة لكم فى الفتنة وإبعاد فى الاختبار والإملاء .

(وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) : وتمتيع من الله لكم بلذات الدنيا إلى وقت مقدر تقتضيه الحكمة الإلهية ، ويعظم فيه قيام الحجة عليكم ، فيكون أشد فى الإيقاع بكم ؛ لأن المعرض مع تتابع الآيات وتوالى النذر يكون أشد عقابًا وأبعد نكالا .

١١٢ - (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ...) الآية .

ختم الله السورة بحكاية دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتفويضه الأمر إلى ربه وتوقعه الفرج منه .

والمعنى : قال الرسول : يارب اقض بينى وبين قومى بحكمك الحق وذلك بنصرتى عليهم . وقد قرئ : قُلْ بصيغة الأمر ، أى : قل يا محمد داعيًا ربك أن يفصل بينك وبين قومك بالحق والعدل . قال قتادة : كان الأنبياءُ يقولون : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسول الله أن يقول ذلك ، فكان إذا لقى العدو يقول ــ وهو يعلم أنه على الحق ، وعدوه على الباطل ــ : « رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ » اهـ .

ولا فرق فى المعنى على القراءتين إلاَّ أن قراءة « قال » لحكاية ما قاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقراءة « قل » أمر من الله لنبيه بما يدعو به .

(وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) :

كانوا يقولون : إنهم على حق فى عبادة أوثانهم ، وإن العاقبة سوف تكون لهم وإن ما توعَّدهم به القرآن من العذاب على شركهم لو كان حقا لنزل بهم ، فلهذا حكى القرآن عن نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال لهم فى مقابل ما قالوه : « وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » .

أى : والله الذى مَلَكنا وربَّانا ، المنعوت بالرحمة الشاملة هو الذى أطلب معونته على تفنيد ما تزعمون من تلك الأوصاف ، بإظهار حقى على باطلكم ونصرى عليكم ، وقد كذَّب الله سبحانه ظنونهم ، وخيب آمالهم وخذلهم ، ونصر الرسول والمؤمنين عليهم وصدق الله العظيم إذ يقول : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٤٧

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٢٥٤ - ١٩٨٣ - ٢٥,٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الرابع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٤

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن علي

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٣٨٠١ س ١٩٨٢ - ٢٥٫٠٢٠

« ســـورة الحج »

اختلف فى كونها مدنية أو مكية ، والجمهور على أنها مختلطة ، فمنها مكى ومنها مدنى ، قال القرطبى : وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضى ذلك ، ثم نقل عن الغزنوى قوله فى هذه السورة : « وهى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيًا ، سلميًا وحربيًا ، ناسخا ، ومنسوخا ، محكما ومتشابها » .

مقاصدها :

بدأت هذه السورة بأمر الناس بتقوى الله ، والتحذير من أهوال يوم القيامة حيث يحاسبون على أعمالهم ، وأتبعته التحذير من الجدال فى الله بغير علم ، وبيَّنت أطوار خلق الإنسان ودلالتها على البعث ، كما بينت دلالة إخراج النبات من الأرض عليه .

ثم حذرت من عبادة الله على حرف – أى على ضعف وشك – فإنه وخيم العاقبة وأتبعت ذلك بيان حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وأنه تعالى سينصر رسوله على من كفر به ، وسيفصل بين المؤمنين وأعدائهم يوم القيامة ، وأنه تعالى يخضع لسلطانه من فى السموات والأرض ، وجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأن كثيرا من الناس يسجد له سجود طاعة عملا بشرائعه ، وكثيرا منهم حق عليهم العذاب بسبب عدم سجودهم وخضوعهم لشرائعه ، ثم بينت مصير المختصمين فى ربهم ، فذكرت أن الكافرين تقطع لهم ثياب من نار ، ويعذبون بمختلف ألوان التعذيب فيها ، وأن المؤمنين يدخلون الجنة ويحلون فيها بالذهب واللؤلؤ ويلبسون ثياب الحرير ، ويهتدون فيها إلى الطيب من القول مثل : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ » ، ويهتدون إلى طريق الله الحميد فى سلوكهم فليس فيها لغو ولا كذب ولا شغب ، فأقوالهم دائما طيبة ، وأعمالهم حسنة ، وعشرتهم مرضية ثم بينت أنه تعالى عرَّف إبراهيم مكان البيت ليبنيه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمره أن يدعو الناس إلى حجه مشاة وركبانا ، يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وأن يَطَّوَّفوا بالبيت العتيق ، وحذرت من الشرك بالله فى أداء المناسك ، وأوجبت تعظيم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ،

ثم ذكرت أن البُدْنَ المهداة من شعائر الله ، وأنها تذبح قائمة على قوائمها ، وبينت أن الله تعالى لن يصل إليه شيء من لحومها بل تصل إليه التقوى ممن أَهْدَوْها فينبغي لهم أن يشكروه على تسخيرها لهم ، ويكبروه على ما هداهم ، وأن هؤلاء الحجاج الشاكرين المكبرين لهم البشرى على إحسانهم ، ثم عقبت ذلك ببيان أنه تعالى تكفل بالدفاع عن المؤمنين ، لأنه لا يحب كل مختال فخور .

وبينت أنه تعالى أذن للمهاجرين الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق أن يقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم ، وأنه تعالى قد شرع لعباده شرعة الدفاع ، فلولاه : « لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً » .

ثم ذكرت أن الرسول ليس وحده فى تكذيب قومه إياه ، فقد كُذِّب نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى من أقوامهم ، وأنه تعالى أهلكهم ، وأنه – سبحانه – أمهل كثيرا من القرى وهى ظالمة ، ثم أخذها وإليه المصير ليعاقبها فى الآخرة بعد إهلاكها فى الدنيا ، والمقصود مما ذكر تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – عما أصابه من قومه ، ووعيد قومه بأنهم إن لم يؤمنوا أصابهم ما أصاب الأمم التى قبلهم وأن عليهم أن لا يَغْتَرُّوا بإمهالهم .

ثم بينت أن الشيطان كما يوسوس للمشركين من أمته – صلى الله عليه وسلم – فيلقى فى نفوسهم الشُّبَه والتخيلات أثناء قراءته ليجادلوه بالباطل ، فإنه فعل مثل ذلك مع أمم الأنبياء والمرسلين السابقين وأنه تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان من الشبه – أى يبطله – بتوفيق النبى – صلى الله عليه وسلم – لرده ، أو بإنزال ما يرده ثم يأتى الله بآياته محكمة لا تنال منها شبهة من الشياطين وأوليائهم .

ثم بينت أنه لا يزال الذين كفروا فى مرية منه لعماهم عن الحق حتى يأتيهم عذاب يوم عقيم ، والمُلْكُ يومئذ يتفرد به الله ، فيحكم بينهم ويجزى كل امرئ بما قدمت يداه .

وذكرت أن من أدركه الموت بعد الهجرة – سواءٌ أمات حتف أنفه أو قتل فى سبيل الله – فإن الله يَرزقه فى الجنة رزقاً حسنا بسبب هجرته ، وأن من عاقب المعتدى بمثل مابدأه به من

الاعتداء ، ثم تمادى المعتدى فإن الله ينصر من بُغِىَ عليه ، ذلك بأن الله هو الحق ، وما يعبده المشركون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

ثم تحدثت عن آيات الله فى إنباته من الأرض نباتاً بهيجاً ، وفى تسخيره ما فى السموات والأرض ، وإمساكه السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وفى الإحياء والإماتة ، وذكرت أنه تعالى جعل لكل أُمة منسكا وشريعة ، فلا يصح أن ينازعك أحد يا محمد فيما شرعه الله لأُمتك من الشريعة العامة الخاتمة ، فإن جادلوك ففوض الأمر إلينا ، فسوف نحكم بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون .

وتحدثتْ عن أن معبودات المشركين لا تصلح للعبادة لأنها ضعيفة وقد بلغ من ضعفها أنها لا تستطيع أن تخلق ذبابا ولواجتمعت لخلقه ـ وإن سلبها الذباب شيئاً لا تستطيع استعادته منه « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » وأن المشركين « مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » .

وأنه تعالى : « يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً » للأنبياء « وَمِنَ النَّاسِ » رسلا للبشر فلا وجه لاعتراض مشركى مكة على اختيار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرسالة ، وطالبتِ المؤمنين فى ختامها بأن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربهم ويفعلوا الخير ليفلحوا ، وأن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده لأنه اجتباهم ، وأنه سبحانه ما جعل عليهم فى الدين من حرج ملة أبيهم إبراهيم ، وأنه سماهم المسلمين من قبل وفى هذا القرآن ليكون الرسول شهيدا عليهم ويكونوا شهداء على الناس ، ولهذا يجب عليهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويعتصموا بالله الذى هو مولاهم « فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ) الزلزلة : التحريك الشديد المتكرر الذى يزيل الأشياء عن مقارها[١] والساعة :القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأُ الناس فى ساعة لايعلمها إلا الله تعالى ، والزلزلة التى تحدث عند الساعة من صنع الله تعالى ككل الزلازل ، وإضافتها إلى الساعة من إضافة المصدر إلى فاعله مجازا كما فى نحو إنبات الربيع للبقل ، والمنبت فى الحقيقة هو الله ، أو هى من إضافة الحدث إلى زمن حدوثه ، فإن الساعة زمن حدوث تلك الزلزلة الكبرى ، كما أضيف المكر إلى الليل والنهار فى قوله تعالى : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ[٢] » .

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ) الذهول : النسيان ، والمرضعة : التى تباشر الإرضاع فعلا ، أما المرْضِع – بلا هاء – فهى مَنْ شأْنُها الإرضاع وإن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به .

---

(١) وأصل الكلمة من ز ل عن الموضع أى زال عنه وتحرك ، وزلزل قدمه أى حركها – قاله القرطبى .

(٢) سورة سبأ ، من الآية : ٣٣

التفسير

١ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) .

الخطاب فى الآية يعم حكمه المكلفين من وقت نزولها إلى أن تقوم الساعة ، والأصل فى الخطاب أن يكون لمن حضر المشافهة به ، ولكن الخطاب الشرعى يعم حكمه كل من يصل إلى سِنِّ التكليف فى عهد الرسول أو بعده إلى أن تقوم الساعة وذلك بطريق التغليب عند بعض الفقهاء ، وبطريق الحقيقة عند غيرهم ، وعموم الحكم فى ذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة ، سواءٌ أكان بالتغليب أم بالحقيقة ، والزلزلة : التحريك الشديد المتكرر كما تقدم بيانها فى المفردات ، وقد تستعمل فى تهويل الأمر وتعظيم الخطب على سبيل المجاز ، والمقصود بها فى الآية : إما المعنى الحقيقى المصاحب لقيام الساعة بعد النفخة الثانية وفيه يقول الله سبحانه : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[1] » .

ويقول أيضاً : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ[2] » .

وإما أن يقصد بها المعنى المجازى ، وهو مايحدث يوم القيامة من أهوال جسام تجعل الولدان شيبا ، ويكون الناس بسببها سُكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

والزلزلة على كلا المعنيين تكون يوم القيامة ، وبه أخذ ابن عباس ، فقد روى عنه أن زلزلة الساعة : قيامها ، وممن قال بهذا الرأى الحسن .

وقيل : المراد بها زلزلة تحدث قبل قيام الساعة وقبل طلوع الشمس من مغربها ، فقد وردت آثار كثيرة بحدوث زلزلة عظيمة قبل قيامها ، وتكون من أشراطها ، ويقول أصحاب هذا الرأى : إنها تكون قبل طلوع الشمس من مغربها .

والرأى الأول هو الظاهر من الآية - كما يؤذن به صدرها وختامها - فإنه سبحانه دعاهم فيها إلى التقوى خوفا من العذاب الشديد يوم زلزلة الساعة ، فهذا شاهد على أن

(١) سورة الزلزلة . (٢) سورة الانفطار ، الآيات من ١ - ٥

المراد بالزلزلة : مايحدث يوم القيامة بعد النفخة الثانية من تغييرات كونية ، يشير إليها قوله تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[1]» والمعنى الإجمالي للآية : يأيها المكلفون من الناس ذكوركم وإناثكم ، معاصرين لنزول الوحى أو بعده إلى يوم القيامة : اجعلوا لأنفسكم وقاية وحماية من عذاب ربكم وذلك بطاعته فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن زلزلة الساعة وأهوال يوم القيامة ، شيءٌ عظيم الخطر منبيءٌ عن مجيء الوعد الحق، حيث تحاسبون على أعمالكم وتجزون عليها .

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يره . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[2]» فالعاقل من أخذ من يومه لغده ، وعمل لما بعد الموت .

وبعد أن نبّه الله على خطورة الساعة بتعظيم زلزلتها وتهويلها ، عقب ذلك ببيان بعض آثارها على الناس فقال :

٢ - (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَاهُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) :

تضمنت هذه الآية ثلاثة آثار لزلزلة الساعة ، وما أحدثته من هول ورعب « أولها » الأم التي ترضع وليدها فى حنان وإقبال عليه ، تراها حين تحدث زلزلة الساعة الرهيبة ، تنسى وليدها الذى تضعه فى حجرها ، وتنحنى عليه وقد ألقمته ثديها ، تنساه من الرعب الذى هز كيانها ، وعطل أمومتها وأذهل عقلها وجمد حنانها ، وماكانت لتنساه لولا أن الخطب شديد « وثانيها » : أنك ترى الحوامل من شدة الهول والفزع تتعطل أجهزة الإمساك فى أرحامهن فتنحدر الأجنة دون إرادة منهن ، ولايمر الأسى بقلوبهن على أجنتهن ، فالرعب من الحاضر والخوف من المستقبل يستولى على مشاعرهن «وثالثها » : أنك ترى الناس فقدوا الوعى والرشاد ، حتى تحسبهم سكارى من الفزع والاضطراب والهذيان .

والكلام على طريق التمثيل ، وأنه لو كان هناك مرضعة ورضيع لذهلت عنه حال إرضاعها إياه لشدة الهول ، وكذا مابعده ، لأنه لاحمل ولا رضاعة ولا سكر يوم القيامة أما إذا أريد من الزلزلة ماورد حدوثه منها قبيل قيام الساعة وقبيل طلوع الشمس من مغربها ، فيجوز حمل الكلام على حقيقته .

(١) سورة ، إبراهيم الآية : ٤٨ (٢) سورة الزلزلة ، الآية : ٧ ، ٨

والمعنى الإجمالى للآية : يوم ترون آثار هذه الزلزلة العظمى تنسى كل أم ترضع ولدها أنه فى حجرها ، وأن ثديها فى فمه ، وتغفل عنه غفلة تامة ، لشدة ما أصابها من الرعب والفزع والذهول من أهوالها ، وتنحل عضلات الإمساك فى أرحام الأمهات فلا تستطيع الحفاظ على أجنتها ، فتنحدر تلك الأجنة دون إرادة من أمهاتها . وترى الناس من قوة الهول والفزع كأنهم سكارى من شدة الذهول والهذيان ، وليسوا سكارى على الحقيقة ، ولكن عذاب الله يومئذ شديد عنيف . نسأل الله الأمان واللطف بعباده .

قال الزمخشرى فى كشافه : روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق . فقرأهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يُرَ أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويحاور ، والجدل : شدة الخصومة والمدافعة (مَرِيدٍ) : متجرد للفساد ، من قولهم : شجرة مرداء لاورق لها ، وغلام أَمْرَدُ لمن لم ينبت شعر لحيته .
(تَوَلَّاهُ) : اتخذه وليا ومتبوعا .

التفسير

٣ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) :

تحدثت الآيتان السابقتان عن زلزلة الساعة وأهوالها ومظاهر الرعب التى تحدث فيها وعن وجوب تقوى الله والعمل ليوم الوعيد ، تفاديا للعذاب الشديد . وجاءت هذه الآية

والتى تليها عقبهما ، لتجهيل من يجادل فى الله وقدرته على بعث الناس وحسابهم ، وتحذير الناس من سوء عاقبة الذين يتبعونه ويقتدون به ، وقد نزلت الآيتان فى النضر بن الحارث فقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك رضى الله عنه (أنه كان جَدِلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله لايقدر على إحياء من بَلِىَ وصار ترابًا) .

والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فالنص الكريم فى هذه الآية والتى تليها يتناول كل من يتبع أئمة الضلال ، فيجادل فى شئون الله بغير علم .

والمعنى : ومن الناس من يخاصم ويدافع فى شئون الله تعالى بجهالة ، فلا يرجع فى مزاعمه إلى برهان عقلى أو دليل نقلى ، كهذا الذى ينكر البعث والنشور ويستبعده على الله الذى خلقنا أول مرة ، وخلق الأرض والسموات العلى ، وكالذى ينسب إلى الله البنين والبنات فى حين أنه تعالى «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ» وكالذى ينكر معجزة القرآن دون حجة أو برهان ، وهو فى ذلك وأمثاله يتبع كل شيطان مريد متجرد للفساد عَرِىٍّ عن الخير والحق ، من شياطين الجن أو من شياطين الإنس وقد عقَّب الله هذه الآية ببيان مصير أولئك المتبعين لأئمة الضلال فقال :

٤ - (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) :

أى قضى الله على الشيطان المريد من أئمة الضلال أنه من اتبعه وسلك سبيله ، فشأنه أنه : يضله عن سواء السبيل فى دنياه ، بتحسين البدع والمنكرات ، وتزيين المحرمات وفاسد المعتقدات ويسوقه باتباعه فى ذلك إلى عذاب السعير فى أخراه ، فعلى العاقل أن ينظر فى العواقب ، فلا يجعل نفسه تابعا لذى رأى فاسد ، ومذهب ملحد لينجو من سوء المصير .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥))

المفردات :

(فِى رَيْبٍ) : فى شك . (مِن نُّطْفَةٍ) : من مَنِىٍّ ، وهى مأْخوذة من نطف الماءَ إذا صَبَّه ، وكذلك المنى يخرج مصبوبا . (مِنْ عَلَقَةٍ) العلقة : قطعة دم جامدة ، وسميت بذلك لعلوقها بجدار الرحم وستأْتى لها عدة معان . (مِن مُّضْغَةٍ) المضغة : قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ . (مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) أَى : مُسَوَّاة سليمة من العيوب والنقصان وغير مسواة لوجود بعض النقصان فيها ، فيتبع هذا التفاوتَ فى تكوين المضغة ، تفاوتُ الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم[1] ، وسيأْتى بيان ما قيل فى تفسير ذلك .

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت سميناه وعيّناه للولادة . (ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ) : ثم لتصلوا إلى كمال قوتكم جسدا وعقلا وتمييزا ، والأَشُد : واحد جاءَ على وزن الجمع ، أَو جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل إنه جمع شدة بكسر الشين ، كنعمة وأَنعم .

(أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ) أَى : أَخَسِّه وأَدناه وهو زمن الهرَم والخرَف .

(١) راجع الكشاف

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) أى : ميتة يابسة ، يقال : همدت الأرض إذا يبست لاعشب فيها ، وهمد الثوب : إذا بلى .

(اهْتَزَّتْ) أى : تحرك نباتها ، والإسناد إليها مجازى ، أو تخلخلت وانفصل بعض أجزائها عن بعض لخروج النبات . (وَرَبَتْ) : ازدادت بالماء وجذور النبات .

(وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتت من كل صنف حسن يبعث البهجة والسرور فى نفس من يراه .

التفسير

٥ ـ(يَأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ...) الآية .

هذه الآية مستأنفة لإقامة الدليل على إمكان البعث ، وإلزام المجادلين فيه الحجة ، بعد أن حكت الآيتان السابقتان جدالهم فى شئون الله ومنها البعث ، وأنهم فى جدالهم يتبعون كل شيطان مريد ، يضلُّهم ويسوقهم إلى عذاب السعير .

فالمراد من الناس فى الآية : المجادلون فى البعث المنكرون له ، والتعبير عن اعتقادهم فيه بالريب والشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه فضلا عن عدم وقوعه ، للإيذان بأن أقصى مايحتمل صدوره ممن لم يشاهد البعث هو الشك فى أمره ، وهذا يزيله البرهان التالى ، أما : ما هم عليه من الإنكار الجازم المصحوب بالمكابرة والعناد ، فخارج عن دائرة الاحتمال .

وخلقهم من تراب إما فى ضمن خلق أبيهم آدم ، وإما لأنهم مخلوقون من النطف وأصلها التراب ، فإنها ناشئة عن الغذاء الذى تغذى به الوالدان ، والغذاءُ أصله التراب .

والمراد من النطفة هنا : ماءُ الرجل والمرأة مجتمعين ، فى ماء الرجل الحيوانات المنوية ، وفى ماء المرأة البويضة[1] فإن الجنين يتولد من الماءين ، ولذا يشبه الولد أبويه ، فإذا حصل اللقاءُ بين الرجل والمرأة ، التقى الماءان فى القناة التى بين الرحم والمبيضين ، فيحصل

(١) وهى تخرج منها مرة كل حيض شهرى .

فيها تلقيح البويضة بأقوى الحيوانات المنوية[1] إن أراد الله خلق جنين من لقائهما ـ وبعد التلقيح تتكون الخلية الأولى ، وتنقسم بسرعة إلى خليتين ، ثم إلى أربع ثم إلى ثمان ـ وهكذا ـ وفى اليوم الرابع للتلقيح تكون قد وصلت فى انقساماتها إلى مجموعة كثيرة من الخلايا متماسكة ، فتنزلق إلى الرحم ، وبعد سبعة أيام ونصف من التلقيح تقريبا تلتصق بجدار الرحم فى قرار مكين وحولها غشاء يقيها ، ويكون الجنين حينئذ طبقة من الخلايا لاتمييز بينها .

وتظل الخلايا فى نموها وتكاثرها وتطورها ، وفى خلال الأسبوع الثالث يبدأ التمييز لما تخلّق منها .

فإذا مضى أربعون يوما من التلقيح ، انتهى طور التحولات الأولية للنطفة ، وذلك هو المَعْنِيُّ بالفقرة الأولى من قوله :صلى الله عليه وسلم- : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . . .) الحديث أخرجه البخارى بسنده عن ابن مسعود[2]

والعلقة فى اللغة : واحدة العلق ، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد ، وعلى دودة فى المياه الراكدة تعلق بالجسد فتمتص دمه ، وعلى كل مايعْلق بغيره أو يُعَلَّق عليه ، ويبدأ طور العلقة بعد أربعين يوما من بدء الحمل ، كما جاء فى الحديث الشريف .

واللائق بحال التطور الذى حدث للنطفة ، أن يكون إطلاق لفظ العلقة على الجنين حينئذ ، لأنه يشبه الدودة العالقة فقد حدث له بعض التصوير الأولى فى مَبْدأ طور العلقة ، وهو عالق بجدار الرحم ، وليس مجرد دم جامد كما يقولون .

فإذا مضى على هذا الطور أربعون يوما اتضح تصويره أكثر من ذى قبل ، ووصل وزنه إلى خمسة وعشرين درهما ، وامتد طوله إلى ثمانية سنتيمترات ، وبهذا ينتهى طور العلقة

---

(١) ليكون نسل الإنسان قويا ، كما تفعل اليعسوب (ملكة النحل) فإنها تختار أقوى الذكور لتلقيحها ، وحجم البويضة أكثر من ضعف حجم الحيوان المنوى ، وكلاهما فى غاية الصغر ، فالحيوان المنوى يساوى ٦/ ١٠٠٠ «ستة على ألف » من المليمتر ، ولايرى إلا بمنظار مكبر ـ تعاليت يا ألله ـ

(٢) كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ـ كما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

ويليه طور المضغة الذى يستمر أربعين يوما أُخرى كما جاء فى الحديث « ثم يكون مضغة مثل ذلك » .

والمضغة فى اللغة : مايمضغ من لحم وغيره وهى فى أصل الإنسان : قطعة لحم فيها بعض التصوير ، وسميت بذلك لأنها فى مجمل مظهرها تشبه فى أوّل طورها قطعة لحم قدر مايمضغ ، إذْ أنها حينئذ تزن خمسة وعشرين درهما تقريبا ، وطولها ثمانية سنتيمترات كما تقدم ، ويظل الجنين فى طور المضغة ينمو وينتقل فى التصوير إلى ماهو أكمل حتى يتم خلقه فى نهايته ، فيكون وزنه نحو سبعين درهما ، وطوله نحو ثمانية عشر سنتيمترا ، وحينئذ تبدأُ حركته فى بطن أمه حيث قد نفخت فيه الروح ، وهذا هو الذى يشير إليه قوله تعالى : « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(١) .

ويشير إليه قوله – صلى الله عليه وسلم – بعد دور المضغة : « ثم ينفخ فيه الروح » وبهذه الحركة تطمئن الأم على حياة جنينها .

والمقصود من نفخ الروح فيه حينئذٍ إعطاؤُه دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم خلقه ، أما أصل الحياة فموجود فى الحيوان المنوى والبويضة قبل التلقيح ، ثم فى الخلية الأُولى التى نشأَتْ من تلقيحه لها ، ولولا الحياة فيهما لما تكونت تلك الخلية ، ولولا استمرار الحياة لما تكاثرت وتطورت حتى أَصبحت شيئا آخر مخالفا لأَصلها .

ويستمر الجنين فى النمو وهو محاط بثلاثة أغشية ، وفى نهاية الشهر التاسع يكون قد اكتمل نموه ، وأصبح صالحا لأن يعيش خارج بطن أُمه ، فيولد غالبا إن لم يكتب الله له البقاء فى بطن أمه أكثر من تسعة أشهر(٢) .

والمراد من قوله فى المضغة (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) : أنها صالحة لكمال التخليق والتصوير ، لخلوها من العيوب ، وغير صالحة لهذا الكمال ، لوجود بعض العيوب فيها ، فينشأُ عن

(١) سورة المؤمنون من الآية : ١٤

(٢) إذا ولد الجنين لتسعة أشهر يكون طوله من خمسة وأربعين إلى خمسين سنتيمترا ، ووزنه من ثلاثة إلى ثلاثة ونصف كيلو جرام. فتبارك الله أحسن الخالقين .

ذلك التفاوت فى خلق الإنسان فبعضه يكون كامل الخلق سالما من العيوب ، وبعضه الآخر يكون به بعض النقصان والعيب فى صورته وفى طوله وقصره وأعضائه ووظائف تلك الأعضاء[1] وغير ذلك .

وفسّر بعضهم المخلقة بالمصورة ، وغير المخلقة بغير المصورة ، والمراد تفصيل حال المضغة ، وبيان كونها أولا قطعة لحم لم يظهر فيها شىء من الأعضاء ، ثم ظهرت شيئا فشيئا ، ولكن هذا المعنى يقتضى تقديم غير المخلقة على المخلقة ، مراعاة للتدرج فى الخلقة .

وروى عن مجاهد وغيره : أن المخلقة التى تواردت عليها أطوار التخليق حتى تمت مدة الحمل ، وغير المخلقة التى لم يتم لها ذلك وسقطت ، وأوردوا على هذا الرأى : أن الآية فى خلق الإنسان من نطفة فعلقة ، فمضغة ، فكيف يخلق الإنسان من نطفة ساقطة فى أى طور من أطوارها ، والرأى الأول هو المناسب للمعنى ولتفاوت حال الخلائق كمالاً ونقصانا والمعنى الإجمالى لهذا الجزء من الآية مايلى :

يـأيها الناس المنكرون للبعث المجادلون فيه بغير علم : إن كنتم فى شك فى إمكانه وحصوله ، فلا مجال لإنكاركم ولا لِشَكِّكُم ، فإنا خلقناكم أصلا من تراب فى ضمن خلقنا لأبيكم آدم ، ثم قدّرنا فى خلقكم منهاجاً آخر حيث خلقناكم من نطفة الوالدين ، وذلك أنه حين تلتقى النطفتان تنشأ عن لقائهما بمشيئتنا الخلية الأولى لتكوين الإنسان ثم تتكاثر تلك الخلية بانقسامها السريع إلى خلايا متماسكة ، ثم تستقِرُّ مِنَ الرحم فى قرار مكين بأمرنا ، ثم طورنا هذه النطفة فى الرحم حتى وصلت إلى طور العلقة ، حيث يصبح الجنين فيها كالدودة العالقة بالرحم ، بعد أن أفضنا عليه شيئا من التخليق والتكوين ثم كبّرنا هذه العلقة حتى جعلناها فى حجم المضغة ، وجعلنا هذه المضغة كاملة التخليق ، بحيث ينشأ عنها إنسان كامل التكوين ، أو ناقصته لينشأ عنها إنسان ناقص فى تكوينه ، بأن يكون دون الأول فى الحسن وجمال التصوير ، أو فى تمام الأعضاء وقيام الأجهزة الجسمية بأداء وظائفها ونحو ذلك ــ خلقناكم على هذا النمط البديع المتفاوت ــ لكى

(١) وهذا المعنى مأخوذ من قولهم : خلق السواك والعود أى : سواه وجعله صالحا للاستعمال ، فالمضغة المخلقة على هذا بمعنى المسواة السالمة من العيوب ، وغير المخلقة مافيها بعض العيوب وإلى هذا المعنى ذهب الزمخشرى وغيره .

تبين مالا يمكن حصره من عظمة الخالق وحكمته وكامل تدبيره وعظيم قدرته وغير ذلك من عظائم الأمور التى من جملتها البعث والنشور فإن من تأمل ماذكر من الخلق التدريجى جزم بأن من قدر على خلق البشر من تراب لم يذق طعم الحياة ، وأنشأه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى ، بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال ، مع مابين تلك الأطوار من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بعد موته ، بل هو أهون فى القياس .

ثم بين الله حال الجنين بعد تلك الأطوار فقال سبحانه :

(وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَانَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان مستقبلهم بعد تلك الأطوار .

والمعنى : ونثبت فى الأرحام بعد تلك الأطوار ما نشاءُ بقاءه فيها إلى أجل سميناه لوضع كل جنين منكم بعد تمام خلقه وكمال نموه وصلاحيته لأن يعيش خارج بطن أمه ، وغالبُه تسعة أشهر ، ويقول الفقهاءُ : أدناه ستة أشهر ولحظتان للوطء والوضع ، وأقصاه عند الحنفية سنتان ، وعند الشافعية أربع سنين وهذا نادرٌ جداً .

(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ) : المراد بالطفل هنا : الأطفال ، فإنه يطلق على الواحد والجمع ، أى : ثم نخرجكم بعد مدة الحمل التى أردناها ـ نخرجكم أطفالا بعد أن كنتم أجنة ، ثم نُنَمِّى أجسادكم وقواكم لتبلغوا أشدكم وكمالكم فى الجسم والعقل .

أما الذى لانشاءُ إقراره فى الأرحام ، فإننا نسقطه منها فى أول زمن الحمل أو فى آخره أو فيما بينهما ، تبعا لحكمتنا .

ثم بيَّن الله أحداثا أخرى تحدث بعد الولادة فقال على سبيل الاستئناف :

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) أى : ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو فى أثنائه ومنكم من يبقى بعد بلوغ الأشد ويرتد إلى أخس العمر وأحقره ، حيث يمعن فى الشيخوخة والهرم ، فتضعف قواه الجسدية والعقلية ، وينتهى أمره إلى أن ينسى ما علمه من قبل ، ولا يقبل علما جديدا بعد ، وذلك زَمَنُ

الخرفِ والخيالات التى لا أصل لها ، حيث يعود إلى ضحالة الطفولة وسذاجتها وسوء التصرف فيها .

وقد أوصى الله الأولاد بالإمعان فى الإحسان إلى الوالدين فى هذه المرحلة الخطيرة ، والتجاوز عما عسى أن يحدث فيها منهم ، وألا يقابلوهم بالتأفف والانتهار ، إذ قال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوآ إِلآَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا »[1]

وقد أجمل الله أطوار حياة الإنسان بصورة أخرى غاية فى الاختصار والبلاغة ، حيث قال فى سورة الروم :

« اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَل مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ »[2]

وهذه الأطوار التى نشاهدها فى خلق الإنسان ، نشاهد مثلها فى الحيوان والنبات ، وينتهى الكل إلى ممات ، ولا يبقى سوى الديان « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[3] .

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) :

هذا دليل آخر يسوقه الله تعالى حجة على أن البعث حق لا شك فيه ، والخطاب فيه لكل ذى عينين ممن يجادلون فى البعث وغيرهم ، والمعنى : وترى أيها الانسان بعينيك – ترى الأرض – يابسة لا نبات فيها فإذا اشتملت على البذور وأنزلنا عليها الماء ، دبت الحياة إلى البذور ، فأخرجت جذورها لتعلق بجوف الأرض وتتشبث بها – كما علقت النطفة برحم الأم وتشبثت منه بقرار مكين – وأخرجت براعمها وأشطاءها فوق سطح

(١) سورة الإسراء ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٢) الآية : ٥٤
(٣) سورة الرحمن ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

الأرض ، وقد اهتزت بذلك وعلت قشرتها ، وأنبتت من كل صنف حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الريح ، من مختلف أنواع النبات والطعوم والأشجار المورقة المثمرة ، وشجيرات الزينة ذات المنظر المونق ، والعبير الذى يشرح الصدور .

ولا شك أن البعث يتجلى فى النبات واقعياً من آن لآخر ،فإنه كلما يبس ومات بعثه الله من جديد ، بإفاضة الماء على بذوره فى جوف الأرض ، فتدب الحياة فيها ، فتخرج جذورها لتستقر بها ، وتنبت براعمها وأشطاءها محيطة بسيقانها بقدرة الله الحكيم الخبير ، ونرى فيها من كل زوج بهيج مرة بعد أخرى ، فهل بعث الإنسان بعد موته يختلف عن هذا فى كثير أو قليل ؟ وصدق الله إذ يقول : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنْشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[1] » .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الْحَقُّ) : الثابت الذى لا شك فى وجوده .

(لاَرَيْبَ فِيهَا) الريب : الشك ، والمراد من نفى الشك فى الساعة : أنها لا ينبغى أن يحدث فيها شىء من الشك لوضوح أدلتها ، وإن شك فيها الجاهلون .

(١) سورة يس ، الآيتان : ٧٨ ، ٧٩

التفسير

٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :
هذا كلام مستأنف لبيان السر فى تطورات خلق الإنسان والنبات ، والسبب الحقيقى فيها وما تدل عليه من تحقيق البعث .

والمعنى : ذلك الذى تقدم بيانه من خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، ابتداء بخلقه من التراب وانتهاء بجعله فى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ومن خلق النبات بمثل تلك الأطوار - ذلك كله شاهد بأن الله هو الحق الموجود الذى بيده الأمر كله ، وأنه تعالى مِنْ شأنه إحياء الموتى بدءا وإعادة ، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرة بعد أخرى وأنه سبحانه قادر تمام القدرة على كل شىء . « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[١] .

٧ - (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) : معطوف على أن الله هو الحق ، داخل معه فى حيز السببية والشهادة أى : ذلك التطور فى خلق الإنسان والنبات حاصل وشاهد بأن الله هو الحق ، وأن مِنْ شأنه إحياء الموتى كما ترون فى تطويره الإنسان والنبات وأنه على كل شىء قدير ، ولهذا قَدَرَ على إبداع هذا الكون ، وأن الساعة التى يُنْهى فيها الحياة الدنيا ستأتى من غير شك فى مجيئها ، وأن الله سوف يبعث من فى القبور ليحاسبهم فى أخراهم على ما قدموه فى دنياهم ، « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[٢] . فلهذا يريكم الآيات لعلكم تتفكرون .

والتعبير بلفظ «آتية» بدلا من لفظ «ستأتى» للدلالة على تحقق إتيانها ولابد ، لاقتضاء الحكمة مجيئها حتى يأخذ المحسن جزاء إحسانه والمسىء جزاء إساءته ، وإلا لضاع على كل ذى حق حقه ، ولتساوى المحسن بالمسىء فى مصيره ، وذلك مناف لعدالة الله وحكمته.

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

وإنما قال سبحانه : « لَا رَيْبَ فِيهَا » مع أن الملحدين يرتابون فيها للإيذان بأنها فى ظهور دلائلها ووضوح أمرها بحيث لا يصح أن تكون مجالا للارتياب فيها ، ولا تصلح مظنة للشك على الإطلاق .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويناوىء . (فِى اللهِ) : فى ذاته أو صفاته . (بِغَيْرِ عِلْمٍ) : بغير يقين ضرورى (وَلَا هُدًى) : ولا نظر سديد يهديه إلى الحق . (وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) : ولا كتاب سماوى يضىء له سبيل الحق . (ثَانِىَ عِطْفِهِ) العِطْفُ : الجانب ، وثَنْيُهُ لجانبه : كناية عن الإعراض تكبرا . (خِزْىٌ) : ذل وهوان

التفسير

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الذين يكابرون فى الحق بلا دليل ، ويؤمون غيرهم فى الضلال ، أما الآية السابقة « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » الخ فنى بيان حال من يقلدونهم ويتبعونهم ، ويجوز أن تكون هذه معطوفة على تلك للغرض المذكور[1] وأئمة الضلال فى مكة أشهرهم أبو جهل والنضر بن الحارث

(١) ويرى ابن عطية أن هذه الآية تكرار للآية السابقة لغرض التوبيخ فكأنه قيل : هذه الأمثال فى غاية الوضوح والبيان ، ومن الناس من يجادل فى شئون الله الخ ، والواو للحال على هذا الوجه .

والأخنس بن شريق ، فقد كانوا يجادلون فى شئون الله بغير حق ليصرفوا الناس عن الهدى الذى بعث به محمد -صلى الله عليه وسلم- .

والمعنى : وبعض الناس يجادل فى شئون الله فينكر البعث والنشور ، والحساب والجزاء ، ويجعل الملائكة بنات الله ، وينكر اصطفاءه أنبياء من البشر ، وغير ذلك مما أكثروا فيه الجدل ، دون أن يكون لديهم علم يقينى ضرورى بما يقولون ، أو استنباط نظرى يهديهم إلى الحق ، أو كتاب سماوى ينير لهم سبيله ، وكل جدل لا يقوم على شىء من تلك القواعد ، فهو منهار وضلال مبين .

٩ - (ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) :

أى : ومن الناس من يجادل فى الله بجهالة ، لاويا جانبه ، معرضا عن الحق مستكبرا عليه ، يفعل ذلك لكى يضل الناس عن سبيل الله ، ويصرفهم عن اتباع الحق ، له بسبب ذلك خزىٌ وذلٌ وهوان فى الدنيا حين يصرعه الحق ويرتفع لواؤه ، ويبطل باطله ويزول أثره ، ونذيقه يوم القيامة عذاب النار الشديد الإحراق .

١٠ - (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

ذلك الذى تقدم من خزى الذى يضل عن سبيل الله وعذابه ، بسبب ما حدث منه من الكفر والمعاصى ، وأنه تعالى لا يحدث منه ظلم لعبيده .

والتعبير عن نفى مطلق الظلم عنه تعالى بصيغة المبالغة « لَيْسَ بِظَلَّامٍ » لتأكيد نزاهته عنه بتصوير التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(عَلَى حَرْفٍ) : على طَرف من الدين . (فِتْنَةٌ) : شرٌّ وبلاءٌ .

(انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) : ارتد إلى الكفر (الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : الخسران البين الواضح من أبان بمعنى :اتضح وظهر (الضَّلالُ الْبَعِيدُ) : الانحراف البعيد عن الحق .

(يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ) : يقول الكافر لصنمه يوم القيامة بصوت مرتفع حين اتضح له أن ضره أقرب إليه من نفعه . (لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) : لبئس الناصر ولبئس المصاحب أنت أيها الإله الذى كنت أعبده .

التفسير

١١ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

لقد صورت الآيات السابقة صنفين من أهل الضلال ، أولهما ، من يجادل فى الله بغير علم متبعا فى جداله أئمة الكفر من كل شيطان مريد . وثانيهما : من يجادل

فى الله بجهالة ، ولكنه يغطى جهالته بِثَنْيِ عطفه وخيلائه سَتْراً لجهالته وادعاء للزعامة والإمامة على من دونه من الكافرين ، لكى يتبعوه فى سفهه وجداله بالباطل ، وجاءت هذه الآية لتصور صنفاً ثالثاً منهم ، وهم أولئك المذبذبون فى عقائدهم ، الذين لايستقرون فيها على حال ، بل يتقلبون فيها وفق المنافع والمضار .

أخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : « كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاما ونُتِجَتْ خيله قال هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء »وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم من الإسلام ، فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : أَقِلْنِى. فقال : « إن الإسلام لا يُقَال » ، فقال : لم أصب من دينى هذا خيرًا . ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : « يايهودى : الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تسبك النارُ خَبَثَ الحديد والذهب والفضة » فنزلت الآية .

وعن الحسن أنها نزلت فى المنافقين ، ونحن نقول : سواءٌ كان سبب نزولها هذا أو ذاك ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية فيمن يتَّجِرُ بالدين ، ولا يؤمن عن يقين .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن الناس من يعبد الله على طرف من الدين لا تعمق له فيه ، فإن أصابه خير دنيوى كالرخاء والصحة والولد ، ثبت على هذا الطرف ثبات المستفيد لا ثبات المؤمن المتيقن ، وإن أصابته فتنة ومكروه فى نفسه أو أهله أو ماله ، انقلب على وجهه الذى كان متجها إليه ، فارتد ورجع عن دينه ، ومثله فى ذلك كمثل الجندى الخائر العزيمة ، جبان القلب ، يكون فى طرف الجيش ، فإن أحسَّ بظفر وغنيمة بقى ليحرزها ، وإن أحس بهزيمة لاذ بالفرار ملطخا بالعار .

وقد بين الله عاقبة كفره وارتداده فقال :

(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)فأما خسارته فى دنياه فعدم حصوله منها على ما يريد ، وتعرضه للقتل إن عُرِفَتْ رِدَّتُه ، وأما خسارته فى الآخرة فالعذاب الأليم والسعير الدائم ، وذلك هو الخسران الواضح الذى لايخفى على ذوى الألباب .

١٢ ـ (يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُ وَمَالاَ يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيد):

هذه الآية مستأنفة لبيان حاله فى دنياه بعد ردته عن الإسلام ونكوصه على عقبيه بعد الإقدام .

والمعنى : أن هذا الذى انقلب على وجهه وارتد عن الإسلام ، لفوات المنافع الدنيوية التى كان يرجوها منه ، يعبد من دون الله أو يدعو لحاجته مالا يضره إن كفر به ومالاينفعه إن آمن به وعبده أودعاه ، فهو مخلوق لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكها لسواه ذلك الانصراف عن الحق إلى الباطل هو الضلال البعيد عن سبيل النجاة .

١٣ ـ (يَدْعُوا لَمَن[1] ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) :

وهذه الآية مستأنفة أيضاً لبيان مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى .

والمعنى : أن من انقلب عن الإسلام وعبد غير الله أو دعاه . يقول يوم القيامة حين يعذب بسبب معبوده الذى ارتد إليه ،وكان يأمل شفاعته أو حمايته يقول نادما بصوت مرتفع : المولى الذى ضرره أقرب تحققا من نفعه والله لبئس المولى الذى يتخذه الإنسان لنفسه ناصرا ، ولبئس العشير الذى يصطفيه عشيرا ، فكيف بما هو ضرر محض لا نفع فيه ؟.

وقد استفيد من هذه الآيات الثلاث أن الله تعالى لا يقبل النفاق فى الدين ، والتجارة بالعقيدة ، فليس لله من الدين إلا الدين الخالص ، والعقيدة الثابتة ، وأن الصبر على البلاء واجب كل مؤمن ، وميزة كل تقى . ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم- : « أشد الناس بلاءً الأنبياءُ ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبْتَلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صُلْباً اشتد بلاؤُه ، وإن كان فى دينه رقَّةٌ ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه البخارى وغيره .

---

(١) يدعو بمعنى ينادى بصوت مرتفع ، واللام فى قوله (لمن) موطئة للقسم ، و (من) اسم موصول مبتدأ ، و (ضره) مبتدأ ثان مضاف إلى الهاء ، و (أقرب من نفعه) خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره صلة الموصول وهو لفظ (من) وجملة لبئس المولى ولبئس العشير جواب قسم مقدر أى والله لبئس المولى ولبئس العشير ، وجملة القسم، وجوابه خبر المبتدأ الأول وهو لفظ (من) أى : ينادى المشرك قائلا يوم القيامة للمعبود الذى ضره أكثر من نفعه : والله لبئس المولى ولبئس العشير .

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : تجرى من تحت قصورها وأشجارها .

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) : فليمدد بحبل . (إِلَى السَّمَآءِ) : إلى سقف بيته ، وكل ماعلاك سماء.

(ثُمَّ لْيَقْطَعْ) : ثم ليختنق ، من قطع بمعنى اختنق - كذا فسره ابن عباس ولعلهم أطلقوا القطع عليه لما فيه من قطع النَّفس ، وقيل المعنى : ثم ليقطع الحبل بعد الاختناق ، على أن المراد به فرض القطع وتقديره تهكما .

التفسير

١٤ - (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) :

بعد أن حكت الآيات السابقة حال أصناف ثلاثة من الكفرة ،وسوء مآلهم ، جاءت هذه الآية للإخبار عن حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وجميل ثوابهم فى جنات النعيم .

والمعنى : إن الله يثيب المؤمنين الصادقين الثابتين على دينهم ، الذين يعملون الصالحات وفق شريعتهم ، فيدخلهم فى الآخرة جنات وبساتين تجرى بينها الأنهار ، تحت القصور

والأشجار ، إن الله يفعل ما يريد ، فيثيب المحسن جزاء إحسانه ويعاقب المسيء جزاء إساءته «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ» .

١٥ - (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) :

تضمنت الآيات السابقة سوء حال طوائف من الكفار وسوء عاقبتهم ، وحسن حال المؤمنين بالله ورسوله وجزيل ثوابهم ، ولما كان ما يصيب هؤلاء وأولئك يعتبر نصرًا من الله لرسوله ، جاءت هذه الآية لتؤكده وتحققه ، وتتحدى من يقف فى سبيله - صلى الله عليه وسلم - . وتعده بالنصر الحاسم فى الدارين .

والمعنى : أنه تعالى ناصر رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفى الآخرة بإعلاء درجته ، وإدخال من صدقه جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والانتقام ممن كذبه بعذاب الحريق ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يمنعه مانع ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه ، ويظن أنه تعالى لا يحققه ، بسبب مدافعته ومكايده ، فليبالغ فى استفراغ الجهد فغاية أمره خيبة مساعيه ، وعقم مقدماته وفساد مؤامراته ، وبقاءُ ما يغيظه من نصر الله لرسوله ، وقد وضع مقام هذا الجزاء قوله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » لغرض التحدى والتهكم ، ومعناه : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق بهذا الحبل الذى وضعه غُلاًّ فى عنقه ، فلينظر وليتأمل هل يشفيه من الغيظ قتله نفسه حسرة على نصر الله لرسوله؟ وتفسير القطع بالاختناق مروى عن ابن عباس ومجاهد وعطاءٍ وغيرهم ، مأخوذ من قطع إذا اختنق ، لأن الغُلَّ يقطع النفس إذا ضاق على العنق .

وخلاصة معنى الآية : من ظن أن الله لا ينصر نبيه محمدا وكتابه ودينه وأمته المؤمنة ، وكان هذا النصر يغيظه ، فليذهب فليقتل نفسه فإن الله ناصره لا محالة ، قال تعالى : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »[1] .

---

(١) سورة غافر ، الآيتان : ٥١ ، ٥٢

١٦ ـ (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ) :

أى : وكما أنزلنا الآيات السابقة واضحة الدلالة على خذلان الباطل وأهله ، ونصر الحق وذويه ، أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الصافية الجلية ، ولأن الله تعالى يهدى من يريد هدايته ، ممن أقبل عليه وشرح الحق صدره ـ أنزل القرآن على هذا النحو البديع ليكون داعيهم إلى الهدى ، وقائدهم إلى سواء السبيل .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ هَادُوا) : هم اليهود ، ولعل التعبير عنهم بالذين هادوا لرجوعهم إلى الله بتوبتهم من عباده العجل بعد عودة موسى من مناجاة ربه . (وَالصَّابِئِينَ) : أصحاب دين على الروحانيات ، وسنعرض لتفصيل أمرهم فى تفسير الآية ، والصابئون من : صَبَأَ ، وله عدة معان ، منها : خرج من دين إلى دين وهو من باب منع وكرم يستعمل بمعنى : صار ، وبمعنى : طلع كما فى قولهم : صَبَأَ النَّجْمُ كَأَصْبَأَ .

(وَالْمَجُوسَ) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنار على ما روى عن قتادة .

(يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ) : يحكم بينهم ، ويجزى كلا على حسب عقيدته وعمله .
(شَهِيدٌ) : أى مراقب وعليم .
(أَلَمْ تَرَ) : ألم تعلم . (يَسْجُدُ) : يخضع ويذل .

التفسير

١٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ) :

حكى الله فى الآيات السابقة سوءَ أحوال الكفار - تابعيهم ومتبوعيهم والمذبذبين منهم - وبين سوءَ مصيرهم ومنقلبهم ، وبين حسن حال المؤمنين الصالحين وجميل مثوبتهم ، وختم ذلك ببيان أنه تعالى مؤيِّد رسوله بالنصر والغلبة فى الدنيا والآخرة ، وجاءت هذه الآية الكريمة لتؤكد نصره فى الآخرة على جميع الفرق الكافرة .

وقد ذكر الله فى هذه الآية ست فرق يفصل الله بينها يوم القيامة ، أولاها : المؤمنون ، والمقصود بهم فى هذا المقام : من آمن بالله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وثانيها : الذين هادوا وهم المعروفون باليهود ، ولما ذهب موسى لميقات ربه ، صنع لهم السامرى عجلا جسدا له خوار ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه ، فأخبره الله بما صنع قومه فرجع إليهم غضبان أسفا ، ووبخهم على ما فعلوا ، وطلب إليهم التوبة ، وقد حكى الله ذلك فى عدد من السور ، ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوآ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوآ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »[1]

فمعنى كونهم هادوا : أنهم رجعوا إلى الله وتابوا عن عبادة العجل فتاب عليهم ، أى : قبل توبتهم ، فلهذا أطلق عليهم القرآن : (الذين هادوا) مراعاة لما كان من أجدادهم ، وأما المعاصرون للنبى - صلى الله عليه وسلم - فهم مكلفون بالإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ومن لم يؤمن به فهو كافر ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »[2] .

(١) الآية : ٥٤ .
(٢) سورة البينة ، الآية : ٦ .

وثالثها : الصابئون ، وقد جاء عنهم فى كتاب ـ الملل والنحل ـ للشهرستانى : أنهم كانوا على عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويقال لمقابليهم : الحنفاء ، وكانوا يقولون : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأحكامه ـ جل شأنه ـ إلى متوسط روحانى لا جسمانى ـ ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات ، وكانوا يعظمونها غاية التعظيم ويتقربون إليها ، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها والتلقى منها بذواتها ، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ، وهى السبع السيارات وبعض الثوابت ، فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى شيئاً وهى الأصنام .

والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية هم عبدة الأصنام . وقد أفحم إبراهيم كلتا الفرقتين وألزمهم الحجة ـ وذكر الشهرستانى فى موضع آخر من كتابه : أن ظهورهم كان فى أول سنة من ملك طهمورث من ملوك الفرس اهـ[1] وذكر صاحب كتاب « الصابئة » أنه توجد فى سهول الموصل جماعة منهم يؤمنون بأن الخالق واحد أزلى لا أول لوجوده ولا نهاية له ، منزه عن عالم المادة والطبيعة ، وهو الذى أوجدها ، ولكنهم مع هذا يتقربون إليه بعبادة الأفلاك والكواكب ، زاعمين أنها أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية خالدة ناطقة ، وأن كل ما يحدث فى العالم يكون على حسب ما تجرى به الكواكب حسب أمر الله لها ـ كما زعموا ـ فعظموها ثم جعلوا لها تماثيل وأصناماً ترمز إليها فعبدوها[2]

ونحن نقول : إنهم بجميع فرقهم كفار ، ولا يغنيهم اعترافهم بوجود الله على النحو الذى مرَّ بيانه ، لأنهم كالمشركين الذين أشركوا الأصنام مع الله فى العبادة ، مع اعترافهم بأنه ـ تعالى ـ هو الخالق . وقد جاء الإسلام لمحاربة الشرك فى جميع صوره ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

---

(1) انظر الآلوسى فى الآية ، فعنه نقلنا ماتقدم عن الصابئة .

(2) ومن العلماء من أباح ذبائحهم ونكاح نسائهم ومنهم من منع ذلك ، انظر القرطبى فى تفسيره : « الصابئين » فى آية البقرة ج 1 ص 434 .

ورابعها : النصارى وعقائدهم فى المسيح معروفة ، وهم كافرون بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وخامسها : المجوس وهم كما قال الآلوسى -نقلا عن الشهر ستانى- :طوائف كانت قبل اليهود والنصارى ، يؤمنون بالشرائع على خلاف الصابئة ، ولهم شبهة كتاب ، وهم يعظمون النار . وروى عن قتادة : أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنيران ، وقال القرطبى : هم عبدة النيران القائلون بأن للعالم أصلين : نوراً وظلمة .

وسادسها : الذين أشركوا ، وهو وصف شامل لكل من عبد غير الله فيدخل فيه عبدة الحيوان والأنهار والأمهات والآباء ونحوهم ، ممن لا يزالون على تلك المناهج فى الهند والتبت وأفريقيا وغيرها ، وكل هذه الفرق كافرة عدا الفرقة الأولى التى آمنت بالله ورسوله .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه ، واليهود الذين يعاصرون الإسلام ، والصابئين على اختلاف فرقهم التى مرَّ بيانها ، والنصارى المعاصرين للإسلام على اختلاف مذاهبهم ، والمجوس ، والذين أشركوا بالله رب العالمين - أشركوا به - غيره من خلقه فى العبادة ، إن هؤلاء جميعاً يقضى الله بينهم يوم القيامة فيظهر المحق منهم وهم المؤمنون ، والمبطل منهم وهم سائر الفرق ، ويجزى كلا على حسب حاله ، فيثيب المؤمنين ويعذب سواهم ،وما ربك بظلام للعبيد ، إن الله مراقب لعباده شهيد على أعمالهم محيط بعقائدهم وما كسبته جوارحهم فهو على كل شىء شهيد وبكل خلقه عليم .

١٨ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ) :

هذه الآية جاءت لتأكيد قدرة الله على الفصل بين هذه الفرق التى ذكرت فى الآية السابقة وهى التى اختلفت إيماناً وكفراً ، ببيان خضوع كل شىء فى هذا الكون له تعالى ، ومن كان كذلك فإنه لا يصعب عليه الفصل بين من أطاعه ومن عصاه ، والرؤية فى قوله

(أَلَمْ تَرَ) : رؤية القلب والعقل ، فهى بمنزلة أَلَمْ تعلم ، والمراد بالسجود هنا : الخضوع ، وهو عام فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد فكل ما فى الكون خاضع لتدبير الله وأحكامه ، والمراد بمن فى السموات والأرض :ما فيهما بطريق القرار فيهما أو الجزئية منهما « فَمَنْ » مستعملة هنا للعاقل وغيره ، كما تستعمل (ما) فى مثل ذلك أحياناً .

وإفراد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر مع دخولها فى عموم من يسجد له تعالى فى السموات والأرض ؛ لأن الناس عبدوها مع الله مع أنها مخلوقة له وخاضعة لأحكامه .

فذكرت هنا لتنبيه الناس إلى خطئهم فى عبادتها ، فالشمس عبدتها حِمْير ، والقمر عبدته كنانة ، ونجم الدبران عبدته تميم ،والشِّعْرَى عبدتها لخم وقريش ، والثريا عبدتها طيء ، وعطارد عبدته أسد ،وعبد أكثر العرب الأصنام المنحوتة من الجبال ،والعُزَّى عبدتها غطفان ، وهى شجرة من السمر المعروف .

ومن الناس من عبد البقر فى الهند وغيرها ،وقد مرت عقيدة الصابئة فى عبادة الكواكب ، فلهذا نبَّه الله إلى خطأ هؤلاء العابدين وكفرهم بمن خلقها وسخَّرَهَا .

وقد انتقل الكلام فى آخر الآية من سجود التسخير إلى سجود الطاعة الاختيارية ، وذلك فى قوله تعالى : (وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ) فهو على تقدير : ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، وهم صنف المؤمنين من الفرق الست التى مرت فى الآية السابقة (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : وهم باقى الفرق الست لأنهم لا يخصونه بالسجود ــ كما مرَّ بيان حالهم ــ ولا يصح أن يقصد بسجود كثير من الناس سجود التسخير ، فيعطف على من فى السموات والأرض ، لأن سجود التسخير عام فى الناس جميعًا ــ مؤمنهم وكافرهم ــ فلا يصح قصره على المؤمنين دون سواهم ، ومن العلماء من جعل « كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ » مبتدأً و قدَّر خبره (حق له الثواب) بدليل ما بعده ، وهو قوله سبحانه :

(وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : أى وكثير منهم وجب عليه العذاب بكفره وإبائه السجود الذى كلفه الله بأن يكون له خالصاً .

ومن العلماء من جعل « كثير » مبتدأ وقوله « من الناس » خبره على معنى : وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون المتقون المستحقون للثواب ، أما غيرهم فقد خرجوا عن حقيقة جنسهم بانحرافهم فى عقائدهم .

والمعنى الإجمالى للآية : ألم تعلم أيها المفكر العاقل أن الله تعالى يخضع لتدبيره وحكمته وسلطانه كل ما فى السموات والأرض ، ما استقر فيهما أو كان جزءًا منهما ، وأنه تخضع له الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهى مخلوقة له وخاضعة لتدبيره وسلطانه ، فكيف يتخذها الناس آلهة معه؟ .

ويسجد لله تعالى سجودَ طاعة واختيار كثير من الناس وهم المؤمنون المتقون ، فحق لهم الثواب .

وكثير من الناس لايخضعونه تعالى بالسجود فحق عليهم العذاب ، ومن يُهِنْهُ الله تعالى بتعذيبه على معاصيه وسوء عقيدته ، فليس له من يكرمه بإنقاذه من الإهانة والتعذيب ، فإنه تعالى يفعل ما يشاءُ ، مما تقتضيه حكمته وعدله ، فلا معقب لحكمه ولا معارض لمشيئته .

* (هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(هَٰذَانِ خَصْمَانِ) : الخَصْم المخاصم مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو مثنى أو جمعا .

(اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) : وقع الجدل بينهم فى شأن ربهم . (الْحَمِيمُ) : الماءُ الحار .

(وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) :المقامع جمع مِقْمعة كَمِكْنَسةٍ وهى : الأعمدة من الحديد يضرب بها .

(عَذَابَ الْحَرِيقِ) : أى عذاب الاحتراق ويكون بالغليظ من النار .

التفسير

١٩ ــ (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ . . . . .) الآية .

المراد بهذين الخصمين اللذين اختصموا فى ربهم : فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين المنقسم إلى الفرق الخمس التى ذكرت عطفا على المؤمنين فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) وقد أُريد بهما ذلك تعيينا لطرفى الخصام وتحريراً لمحله ، وإزاحة لما عسى أن يتبادر إلى الذهن من كون الخصام بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى ، وروى عن مجاهد والحسن وعطاء بن رباح وعاصم بن أبى النجود والكلبى ما يؤيد ذلك من أنهما فريقا المؤمنين والكافرين ، وهذا يتفق مع ماروى عن ابن عباس من أن الآية رجع إلى الأديان الستة المذكورة فى الآية التى أشير إليها سابقاً . وبه يتبيّن كون الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع مَن عطف عليهم من الفرق الخمس الكافرة .

ومعنى اختصامهم فى ربهم : اختصامهم فى شأنه ــ عز وجل ــ فيما يتعلق بذاته وصفاته ، وفيما يليق به ومالا يليق ، فآمن به على ما ينبغى فريق وكفر فريق ، ولما كان كل خصم يجمع طائفة جاء (اختصموا) بصيغة الجمع ،واعتقاد كل من الفريقين حقِّية ما هو عليه ، وبطلان ما عليه الفريق الآخر ، وبناءُ كل منهما أقواله وأفعاله على اعتقاده ، يكفى فى تحقيق خصومته للفريق المقابل له ، وإن لم يجر بينهما الجدل والخصام على سبيل المواجهة .

وحمل الآية على العموم المذكور لا ينافى ما قيل من أنها نزلت فى الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ــ رضى الله عنهم ــ ، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة

والوليد بن عتبة ، أو أنها نزلت فى المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم فَصَّلت الآية ما أُجمل سابقا فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ببيان ما أُعد لكل فريق من جزاء فَصْلا لهذه الخصومة فقال سبحانه :

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ) : أى تُقَطَّع لهم فى الآخرة من النار الهائلة قِطَع تشبه الثياب فى كونها على مقادير جثثهم ، وإحاطتها بهم كما تحيط الثياب بلابسها ؛ وذكر التقطيع بصيغة الماضى (قُطِّعَت) مع أنه سيقع فى المستقبل ، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود به كالواقع المحقق .

« وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب ، وليس شىءٌ حمِىَ فى النار أشدّ منه ؛ فليست الثياب من نفس النار بل من شىء يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة !! ولذا قال وهب : « يُكْسَى أَهلُ النار ، والعُرْى خير لهم » اهـ من تفسير الآلوسى والله أعلم بصحة ما نقل عن سعيد بن جبير ، فإنه من الغيب الذى لا يعرف إلا بالوحى .

(يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) : أى يصب على رءوسهم الماء الحار الذى انتهت حرارته إلى غايتها .

٢٠ - (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) :

أى : يذاب بالحميم إذا صب على رءوسهم - يذاب به - ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وكذلك تذوب به جلودهم بمعنى : تتساقط .

وقيل التقدير : يذاب به ما فى بطونهم وتحرق الجلود ، كقوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

٢١ - (وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) :

أى : وجعل الله لتعذيبهم أعمدة من حديد يضربون بها ويُدفعون . وقيل المقامع : المطارق وهى المرازب أيضا ، وقيل : هى سياط من نار ، وسميت بذلك لأنها تقمع المضروب أى : تُذِلُّه .

٢٢ - (كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا . . . .) الآية .

أى : كلما أرادوا الخروج من النار لِغَمٍّ عظيم من عذابها رغبة فى الخلاص منه ، وأشرفوا على الخروج ، وذلك حين تجيش بهم النار وتثور ، فترفعهم إلى أعلى نحو أبوابها - كلما حدث منهم ذلك - ضربوا بالمقاطع فأُعيدوا إلى معظم النار ، لَا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعادون إليها .

قال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا فى الخروج ، إن الأرجل لمُقَيَّدَةٌ وإن الأيدى لَمُوثَقَةٌ ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها ، وقال الحسن : معنى الخروج : أن النار تضربهم بلهبها ، فتلقيهم إلى أعلاها ، فضُربوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفًا .

وكلا الرأيين يدور على أن إرادة الخروج من النار ليست على حقيقتها ، بل هى مجاز عن مشارفتهم الخروج منها ، برفعهم إلى أعلاها .

وقال : بعضهم إن المعنى : كلَّما أراد أحدهم أن يخرج من مكانه المعدّ له فى النار إلى مكان آخر ، فخرج أُعيد فيه بضرب الزبانية إياهم بالمقامع .

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أى : وقيل لهم إذلالاً وإهانة : ذوقوا عذاب الحريق ، وهو عذاب الغليظ من النار العظيم الإحراق ، جمعا لهم بين التعذيب البدنى والنفسى .

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) : الأَساور جمع أَسْوِرة كأَسْلحة ، وواحد أَسْوِرة سُوار - بكسر السين وضمها - كسلاح وغراب ، وهو ما يلبس فى اليد (وَلُؤْلُؤًا) : وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . (إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) : إلى طريق الله المحمود وهو الدين الحق .

التفسير

٢٤ - (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . .) الآية .

لما أخبر - سبحانه - عن حال الفريق الأَول فريق الكفار وما هم فيه من العذاب والنكال ؛ عقَّبه بذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين ببيان ماهم فيه من نعيم مقيم .

والمعنى : أن الله تعالى يكافىء المؤمنين على إيمانهم مكافأَة كريمة ، فيدخلهم جنات تجرى الأَنهار فى أَرجائها وتنساب فى جوانبها ، وتحت أَشجارها ، وبين قصورها . ليصفو جوها ويَرِقّ هواؤُها ، وتطيب الإقامة فيها ، واستكمالًا لنعيمهم (يُحَلَّوْنَ فِيهَا من أَسَاوِرَ مِنَ ذَهَبٍ) : أى تلبسهم الملائكة فى الجنة بأَمر ربهم أَساور متخذة ومصنوعة مِنْ ذهب ، ويمنحون لؤلؤًا يحلَّون به ، وقال القشيرى : المراد : ترصيع السوار باللؤْلؤ .

ولا يبعد أَن يكون فى الجنة سوار من لؤْلؤٍ مصْمَت بمعنى أَنه لايخالطه شىءٌ ، ثم يضعون كل ذلك فى أَيديهم[1] ، كما فى صحيح مسلم من حديث أَبى هريرة قال : سمعت حبيب الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «تبلغ الحلية من المسلم حيث يبلغ الوضوءُ» (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) : أَى : أَن جميع ما يلبسونه يكون من حرير سُنْدسِه وإستبرقه . كما قال تعالى: « عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ »[2] . وذلك فى مقابلة ثياب الكافرين التى قطعت لهم من نار

---

(١) تطلق اليد على المعصم ، كما تطلق على الكف وعلى الذراع كلها .
(٢) سورة الإنسان ، من الآية : ٢١

قال النص الكريم : «وَلِبَاسُهُمْ» ولم يقل: ويلبسون، كما قال: يُحلَّون . للإشعار بأن اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما يحتاج إلى بيان نَوْعِهِ . بخلاف التحلية ، فإنها ليست من لوازمهم الدائمة ؛ فلذا جعل بيانها بصيغة (الفعل) المضارع ليفيد التجدد من آن لآخر ، وفى تصدير الآية الكريمة عن المؤمنين بالتوكيد (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ ...) إظهار لمزيد العناية بهم وإشارة إلى تحقق ما وعدوا به ، والتحلية بلبس الحرير قيل : هو حكم عام فى أهل الجنة ، وقيل : هو باعتبار الأغلب ، لما أخرج النسائى وابن حبان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو) اهـ .

قال القرطبى فى تفسيره : وذلك لاستعجال ما حرم الله عليه فى الدنيا . ثم قال هذا نص صريح ، وإسناده صحيح .

٢٤ - (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) :أى وهدى الله - سبحانه - المؤمنين فى الدنيا ، ووفَّقهم إلى الطيب من القول ، وهو كلمة التوحيد واتباع الأوامر . واجتناب النواهى ، وحكى الماوردى : هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقيل : ما يعم ذلك وسائر الأذكار (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) : أى إلى طريق الله المستحق غاية الحمد لذاته ، وصراطه : هو الإسلام فهو سبيل الله إلى الجنة .

وقيل : إن ذلك يكون فى الآخرة ، بأن يقولوا عند دخول الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ »[1] . « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »[2] . وما يقع فى محاورتهم من طيب القول : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »[3] كما هدوا فيها إلى طريق الجنة فهى المكان المحمود الذى يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم ، وتفضل به عليهم . كما جاء فى مسلم .

(إنهم يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلْهمون النَّفَس) .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧٤

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٤

(٣) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥))

المفردات :

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى ويمنعون الناس عن طريق الإسلام ؛ لأن الصد : المنع . والسبيل : الطريق . (وَالْمَسجِدِ الْحَرَامِ) : يراد به المسجد نفسه ، وقيل : الحرم كله ومنه مكة . (الْعَاكِفُ فِيهِ) : أى المقيم فيه الملازم له ، وفعله من باب : قعد وضرب . (وَالْبَادِ) : الطارىء عليه من سكان البادية وغيرها . (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) : الإلحاد فى اللغة ؛ الميل عن القصد ، أى : ومن يرد فيه مرَاداً مائلا عن القصد والاستقامة ، بسبب ظلمه .

التفسير

٢٥ ـ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ......) الآية . نزلت هذه الآية ـ على ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ـ فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المسلمين عام الحديبية عن المسجد الحرام ، فكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يحاربهم وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود فى العام القابل .

وكان نزول الآية وعيداً لهؤلاء المشركين من قريش ومن والاهم ، حيث بالغوا فى الظلم والطغيان بسبب كفرهم وما صاحبه من الصد عن الاسلام وعن المسجد الحرام ذاته أو عن الحرم كله ومنه مكة ، وقد صُدّ عنه النبي وأصحابه وكانوا بالحديبية وعُبِّر عن الحرم بالمسجد الحرام لأنه المهم المقصود .

والتعبير فى النص الكريم بقوله : (وَيَصُدُّونَ) مع أنها بمعنى وصَدُّوا لا ستحضار الصورة الماضية تهويلا وتقبيحا لأمر الصد الذى واجهوا به النبى وأصحابه مع علمهم بأنهم حضروا مسالمين قصدا إلى النُّسُك ، ومن حقهم أن يدخلوه . كما قال تعالى :

(الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) : أى جعلنا دخوله حقا لجميع الناس لقضاء النُّسُك فيه ، يستوى فى ذلك المقيم فيه أو فى حرمه ، مع الحاضر إليه من أهل البادية وغيرهم مِمَّن يفدون عليه . فأهل مكة ليسُوا أحق بتقديسه وتعظيمه من النازحين إليه . (ومَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) : أى من يرد فيه مراداً مّا بإلحاد ، أى : ميل عن الاستقامة إلى الإثم بسبب ظلمه الذى حَمَله على الإقدام عليه عامدا غير متأول .

من يفعل ذلك (نُذِقْهُ مِنْ عذَابٍ أَلِيمٍ) : أى ننزل به فى الآخرة ألوانا من أشد العذاب وأقساه ، لأن الله عظم فيه الذنب – صغيره وكبيره – ، وضاعف عليه العقاب . مما جعل أُولى النُّهى يبالغون فى المحافظة على حرمته ، ويبتعدون عن كل ما يمس قدسيته ،وكانوا يعدون شتم الخادم فيه إلحاداً بظلم ، واليمين اللغو كذلك ، كقولهم : لا والله . وبلى والله ، مع أنها غير مؤثمة فى غير الحرم ، أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : (كان لعبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – فسطاطان ، أحدهما فى الحل ، والآخر فى الحرم . فإذا أراد أن يصلى صَلَّى فى الذى فى الحرم ، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الذى فى الحل ، فقيل له . فقال : نُحدَّث أن من الإلحاد فيه : لا والله ، وبلى والله) ويروى عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص – رضى الله عنهما – إن من الإلحاد فى الحرم أن نقول : كلاَّ والله ، وبلى والله . وكان مجاهد يرى (أن المعاصى تُضَاعف بمكة كما تضاعف الحسنات) فتكون المعصية معصيتين : إحداهما : بنفس المخالفة ، والثانية : بإسقاط حرمة البلد الحرام – وقال الخفاجى : الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل ، لا على مجرد الإرادة ، وبه قال ابن مسعود وعكرمة . اهـ من تفسير روح المعانى .

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦))

المفردات :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) : أى جعلنا مكانه مباءة ومرجعا يعود إليه إبراهيم للعبادة والعمارة ، ويقال : بوأته الدار ، وبوأت له الدار بمعنى : أمكنته إياها .

(أن لاتُشرِكْ بِي شَيْئًا) : أى لا تشرك بى فى العبادة شيئًا ، بل اجعلها لى وحدى .

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) :أى واجعل ساحته نقيّة طاهرة من الأصنام والأوثان ؛ ليكون خالصاً للطائفين والمصلين لرب العالمين .

التفسير

٢٦ - (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ . . .) الآية .

أى : واذكر - أيها النبى - وقت جَعلنا مكان البيت مباءة لإبراهيم يرجع إليه للعمارة والعبادة ، وأذنّا له ببنائه بمعاونة ولده إسماعيل . وقال الزجاج : المعنى : بَيَّنّا له مكان البيت ليبنيه ، ويكون مباءة له ولعقبه ، يرجعون إليه ويحجونه .

ويقال : إنه كان مبنيا قبل أن يؤمرا إبراهيم ببنائه ، ولكنه كان قد دَرَسَ وفنى من عوادى الزمن ، فكشف الله لإبراهيم عن أساسه بما أرسله يومئذ من ريح عاتية : أزالت عنه ما كان يطمس معالمه ، ويخفى حدوده ، ويَتَسَتَّر رسومه .

وتوجيه الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر الوقت الذى وقعت فيه تلك الحوادث ولم يُوَجّه إليه ليذكر الحوادث نفسها مع أنها هى المقصودة لذاتها - للمبالغة فى إيجاب

ذكرها ؛ لأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، والسياق يشير ظاهره إلى أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم - عليه السلام - وأنه تعالى هداه إليها .

روى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ »[1] أنه قال : هى القواعد التى كان عليها البَيْت قبل ذلك . ا هـ وبعد هذا بنته قريش فى الجاهلية ، وحضر بناءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان شاباً ، ثم بناه عبد الله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفى وهو البناء الموجود اليوم - كما قاله الآلوسى .

(أن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا) أى : قائلين له : لا تشرك بى فى العبادة شيئاً بل اجعلها خالصة لى وحدى . والخطاب - لإبراهيم عليه السلام - ونهيه عن الشرك نهى لأبنائه ، وأتباعه وكل من تناسل منهم وإشارة إلى خطيئة كل من أشرك بالله من قُطَّان البيت وسكانه .

(وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) أى : وطهره من الشرك والأرجاس والأصنام ، ليكون خالصًا للموحدين الطائفين حوله ، والمصلين فيه أو حوله ، أو متجهين إليه إذا صلوا بعيدا عنه . والتعبير عن الصلاة بالقيام والركوع والسجود ؛ لأنها من أعظم أركانها ، وقد دلت الآية على أن الطواف لا يشرع إلا حول البيت ، وأن الاتجاه فى الصلاة لا يكون إلا إليه ، ما لم يمنع من ذلك مانع ، وقد فصَّلَتْ كتب الفقه ذلك .

(وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) أى : ناد فيهم وادعهم إلى الحج .

(يَأْتُوكَ رِجَالاً) أى : مشاة . ومفرد (رِجَالاً) : راجل - أى ماش على رجليه - ، والفعل : رَجِلَ ، كفرح .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٧

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : أى ركبانا على كل بعير مهزول من طول السفر وبعد المشقة ، وفعله من بابى: قَعَد وقَرُب . (مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) : الفج الطريق الواسع بين جبلين . ويراد به هنا : مطلق طريق ، والعميق: هو البعيد . وفعله كَكرم وسَمِع أى : من كل طريق بعيد .

التفسير

٢٧ – (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا . . . .) الآية .

لما فرغ إبراهيم – عليه السلام – من بناء البيت أُمِر بأَن ينادى فى الناس داعيًا إياهم أن يحجوا هذا ، البيت أى : يقصدوه للنسك ، فلبى أمر ربه ، قيل : إنه صعد أبا قُبيس من جبال مكة ، فقال : يأَيها الناس حجوا بيت ربكم ، فأَسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج ، قائلا : لبيك . والذى نراه : أن المقصود من الأَمر الكريم أن يبلغ إبراهيم – عليه السلام – أن الله تعالى قد شرع لعباده حج بيته ، وأوجبه على القادرين منهم مشاة وركبانا ، وقوله جل شأْنه (يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : جواب لأَمره – عليه السلام – بالأَذان ، ووعد منه – سبحانه – بأَن يستجيب الناس إلى ندائه وتبليغه ، فيأْتوه رجالا أى : مشاة ، جمع راجل بمعنى ماش ، وركبانا على كل بعير مهزول ، أضناه السفر ، وأتعبه بعد الشُّقة ، فلحقه الهزال أو جعله يزيد فيه (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فجٍّ عَمِيقٍ) : الجملة صفة لضامر محمولة على المعنى ، فكأَنه قال : وركبانا على ضوامر يأْتين من كل طريق بعيد ، وفى هذا إشارة إلى أن من رغب فى أداء فريضة الحج لا يقف فى طريقه ضعف الراحلة ولا بعد الشُّقة ولا زيادة المشقة ولا ضيق العيش ما دام ذلك فى دائرة احتماله ، وإنما قال يأْتوك ، وإن كانوا يأْتون الكعبة – لأَن المنادِى إبراهيم – عليه السلام – فمن أَتى الكعبة حاجا فكأَنما أَتى إبراهيم لأَنه أجاب نداءه .

ولما قال سبحانه : « وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . » الآية . عقَّبه ببيان فوائد الاستجابة . فقال تعالى :

(لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) : ليحضروا منافع لهم ؛ وفعله : شهد. كسمع .

(مِن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) :المراد من بهيمة الأنعام ؛ الإبل والبقر والغنم ؛ والبهيمة فى الأصل : كل ذات أربع قوائم ولو فى الماء ، أو كل حى لا يميز ؛ والجمع بهائم ، والأنعام مفرده نعم بالتحريك ؛ وقد تسكن عينه . (الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) البائس: من نزل به الضر وفِعْلهُ : بئس ، كعلم ، والفقير : من قَلَّ ماله ، وفِعْلهُ كتعب . (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ): ثم ليزيلوا بعد التحلل من الإحرام أوساخهم ، وفعله : تفث ، كفرح ، فهو تفِث إذا ترك الاستحمام فعلاه الوسخ .

(وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) :أى وليؤدوا ما أوجبوه على أنفسهم ، وفعله من بابى : ضرب وقعد

(بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أى القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس فى الأرض .

التفسير

٢٨ ـ (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ....) الآية :

والمعنى : أن حجاج بيت الله الحرام يأتونك يا إبراهيم من مختلف البقاع تلبية لندائك ليحضروا منافع لهم كثيرة العدد والخطر : دينية ودنيوية ، أما الدينية ففيما ينالونه

من مثوبة ومغفرة لأدائهم المناسك على وجهها المشروع ، وتعظيمهم الحرمات وتقديرها حق قدرها. وأما الدنيوية ففيما يصيبونه من ربح فى التجارة ، وبما يحصلون عليه من لحوم الهدايا وما يذبحه الحجاج جزاء مخالفتهم لما وجب عليهم من المناسك ، إلى غير ذلك من التعارف والتآلف ، وإحكام الصِّلاتِ بين الأفراد والجماعات والأُمم الإسلامية ، وحل مشكلاتهم السياسية والمالية والاجتماعية (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ) : عند الذبح والنحر للهدايا والضحايا ودماء الحج ، مثل قولهم : باسم الله والله أكبر اللهم هذا منك وإليك . وبذلك أوجب الله ذكر اسمه عند الذبح ليحل أكل المذبوح كما قال تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ »[١] . وكان الكفار يذبحون على أسماء آلهتهم. فبين جل ثناؤه أن الواجب أن يكون الذبح على اسم الله .

(فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) : هى أيام النحر ، وهى ثلاثة أيام : يوم العيد ويومان بعده . وبذلك قال جماعة من العلماء منهم الثورى ، وسعيد بن جبير ، وقيل أربعة : أيام : يوم العيد وثلاثة بعده . وبذلك قال الحسن وعطاءٌ والشافعى وقيل غير ذلك[٢] ويُنبىءُ عن أنها أيام النحر قوله تعالى : (عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : فإنه يشير إلى أن المراد بالذكر هنا : ما يقع من ذكر الله عند الذبح فى تلك الأيام ، وفى التعبير عن الذبائح بأنها من رزق الله ، إيذان بأنها من نعمه تعالى عليهم ، فلا يليق بهم أن يبخلوا بها ، فهى منه وإليه .

(فَكُلُوا مِنْهَا) : الأمر فيها لإباحة الأكل منها لصاحب الهدى والأضحية ولأهله عند قوم ، وللاستحباب والندب عند آخرين ، مواساة للفقراء ومساواة لهم ويتصدق بالأكثر وذهب أكثر العلماء إلى أنها تقسم أثلاثا فيتصدقون بالثلث ويهدى الثلث ويأكل هو وأهله الثلث ، وممن ذهب إلى أن الأكل مباح وليس مندوبا أبو حنيفة وسفيان الثورى ، فقد قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٨

(٢) انظر كتب الفقه .

وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك بناءً على أن الأكل كان منهيا عنه شرعًا لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادَّخروا ». والأمر بعد المنع يفيد الإباحة لا الندب .

(وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ) : الأمر للوجوب ـ كما نقله الألوسى عن بعض الشافعية ، أى وَأَطْعِمُوا منها البائس الذى نزل به الضر ، فأصابته الشدة ، وبدت عليه الحاجة ، وعن مجاهد وعكرمة : تفسيره بالذى يمد يده إلى الناس يَسأل ، والفقير بمعنى المحتاج صفة للبائس مؤكدة لمعناه[1] .

وتخصيص البائس الفقير بالإطعام لا ينافى جواز إطعام الغَنِىّ على سبيل الهدية كما تقدم بيانه .

٢٩ ـ (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) :

أى : ثم ليزيلوا بعد التحلل من الإحرام أوساخهم ، وذلك بالاستحمام وتقليم الأظافر ، وترجيل الشعر ، وقص الشارب ، وغير ذلك من أمور تستلزمها النظافة (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) : بتأدية ما أُمروا به من مناسك حجهم ، والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وأدَّاهُ : وفَّى نذْرَهُ .

والمعنى . وليوفوا بما ينْذرونه من أعمال البر فى حجهم ، والوفاء بالنذر واجب مطلقا ، وليس مختصا بالحج ، مادام النذر فى غير معصية ، ولكن الوفاء به فى الحج أحق وآكد .

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : هو طواف الإفاضة ، وهو الركن الأهم بعد الوقوف بعرفة . وقيل : هو طواف الوداع . ووصف البيت بالعتيق للإشارة إلى أنه قديم لكونه أول بيت وضع للناس كما قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا »[2] أو للإشارة إلى أن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبّار إلى انقضاء الزمان ، وكم من جبار سار إليه ليهدمه فقصمه الله ورده عنه مخذولا .

---

(١) وقد يستعمل البائس فيمن نزلت به نازلة . وإن لم يكن فقيرا ، وعلى هذا تكون (الفقير) صفة مقيدة الموصوف ببيان صفة الفقر فيه .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٩٦

وفى الترمذى عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :(إنما سمّى البيت بالعتيق لأنه لم يظهر عليه جبار) .

(ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(حُرُمَٰتِ اللهِ) : هى كل مالا يحل انتهاكه والتهاون فى تعظيمه .

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) : الرجس كل شىء يستقذر ويراد به الأوثان كما هنا وهى من حجر أو خشب أو غيرها . (أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ) : أى تسقط به إلى أسفل . وفعله من باب : ضرب ، يقال : هَوَى يهْوِى هَوِيًا ، وهُوِيًّا . (فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أى بعيد ، فعله . مثل بَعُد وزنًا ومعنى .

التفسير

٣٠ – (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . . .) الآية .

أى : ذلك التشريع الذى سبق بيانه يجب اتباعه والالتزام به لكل حاج ، أو امتثلوا ذلك التشريع الذى تقدم بيانه.[1]

(١) كلمة (ذلك) أو (هذا) تذكر للفصل بين كلامين ؛ أو بين جهتى كلام واحد ، وقد جرى المفسرون على أن يقدروها ضمن جملة مقيدة ترتبط بالمقام على نحو مابيناه .

(وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) : استئناف لتقرير حكم ما قبله ببيان أن الحرمات المقصودة بالتعظيم هنا هى أعمال الحج المشار إليها فى الآيات السابقة وأماكنها كعرفة والكعبة ومنى ونحوها ؛ قاله ابن زيد وغيره . وعن ابن عباس : هىجميع المناهى فى الحج ، وتعظيمها ألَّا يحوم حولها ؛ أى : لا يقربها .

وقيل : حرمات الله هى كل ما لا يحل انتهاكه ، ولا يجوز الاستهانة به ، وجميع التكاليف الشرعية تتصف بهذه الصفة فتشمل مناسك الحج وغيرها وعلى هذا يكون المراد من تعظيمها هو العلم بوجوب مراعاتها ، والعمل بمقتضى هذا العلم ، فلا خير فى علم بغير عمل بمقتضاه ، وبهذا التأويل تكون هذه الآية عامة فى الحج و غيره ،وهو الظاهر .

والمعنى الإجمالى للآية : ذلك التشريع يجب تعظيمه ، ومن يعظم تكاليف الله وشرائعه بعلمه بقداستها ، وعمله بمقتضى هذا العلم ، فهذا التعظيم خير له عند ربه ، حيث يثيبه عليه ثواباً عظيما فى أخراه ولا يحرمه من فضله فى دنياه .

(وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) :أى وأحل لكم ذبح الأنعام ، والأكل منها فى الحج وغيره ، إلا ما تلى عليكم تحريمه من قبل ، والأنعام حلال بأنواعها ، وتشمل الإبل والبقر والغنم إلا ما حرمه الله لعارض ، كالموت ، وذكر اسم الأوثان عند ذبحها ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المائدة : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . . . »[1] الآية ، وقد نزلت آية المائدة قبل آية الحج ، وإنما عبر عنها بصيغة الحاضر والمستقبل (إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) بدلا من صيغة الماضى – إلا ما تلى عليكم – للإيذان بأن تلاوة هذه الآيات تتردد على أسماعكم منذ نزولها إلى الآن وبعد الآن .

ولما حث الله على تعظيم حرماته ، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور فقال سبحانه : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) : أى فابتعدوا عن الرجس الذى هو الأوثان ، وكانت العرب تتخذها من الأحجار أو الأخشاب أو الذهب أو الفضة أو نحوها ، ويعبدونها إشراكا وكفرا ، وطلب اجتناب ذواتها للمبالغة فى البعد عنها لأنها نجس وقذر لا ينبغى القرب منه

(١) من الآية : ٣

فضلا عن عبادتها التى لا يليق وقوعها من إنسان عاقل. (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) : تعميم بعد تخصيص ؛ فإن عبادة الأوثان هى رأس الزور لما فيها من ادعائهم أنها مستحقة للعبادة .

أى : واجتنبوا فى كل ما تنطقون به قول الزور فى عبادة أو غيرها ، حيث كانوا يقولون : « هَؤُلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ »[1] والزور : هو الكذب لأن فيه انحرافا وميلا عن الحق . وقد قرن النهى عن قول الزور بالنهى عن الشرك لما له من أسوأ الأثر فى إثارة العداوات ، وغرس الأحقاد وتفتيت الجماعات بل قد يتمادى الكاذب فيكذب على ربه وخالقه فى غير استحياء ورهبة ، ومن قول الزور : الشهادة بغير الواقع ، فهى زور ينكر حقًّا ويثبت باطلا .

وفى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) .

٣١ - (حُنَفَآءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ ...) الآية .

أى : فاجتنبوا فى إسلامكم مانهيتم عنه من عبادة الأوثان ، وقول الزور فى حال كونكم مائلين عن كل دين زائغ وغير مشركين به -سبحانه- شيئاً من الأشياء ، فكل ما سواه -سبحانه- فهو مخلوق له ، فلا يصح أن يعبد معه . (وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ) جملة مبتدأة لإظهار قبح الإشراك وسوء عاقبته .

والمعنى : ومن يشرك بالله فهو بمنزلة من سقط من السماء ، وعرّض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك حيث يتمزق قطعا ، ويتناثر أشلاء (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) : وتتناول أجزاءه ، فلا تبقى له أثرا (أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أو تشبه حاله حالَ من عصفت به الريح فى مكان بعيد ، فكان فيه من الهالكين ، وفى كلا التشبيهين تيئيس للكافر من النجاة ، حيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك الذى ينزله الله به فى الآخرة ، حيث يصلى فيها « نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ١٨ .

(ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(شَعَآئِرَ) : الشعائر جمع شعيرة وهي العلامة ، والبدن من شعائر الحج أي : علاماته المميزة . (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت ذبحها أو إلى وقت إيجابها وتسميتها هَدْيًا . (ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أي مكان وجوب ذبحها أو زمانه إلى جوار البيت العتيق حيث تذبح بمنى أو بأي مكان بالحرم .

التفسير

٣٢ - (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) :

أي : الأمر الذي يجب الالتزام به ذلك المذكور من أعمال الحج في الآيات السابقة ، أو اتبعوا ذلك (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ) استئناف لتقرير ما قبله ، أي : ومن يعظم أوامره وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم .

والمقصود بشعائر الله هنا : الهدايا التي تساق إلى فقراء الحرم فإنها من معالم الحج وشعائره ، كما ينبيء عنه قوله سبحانه : « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ اللهِ » ولدلالة الآية التالية على ذلك ، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجلِّ القربات وأفضلها ، ويراعى في اختيارها أن تجمع بين السلامة من العيوب ، والسِّمن كما روى عن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) أي : فإن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب التي امتلأت بتقوى الله وخشيته . وفي تقييد التقوى بالقلوب - كما قال الآلوسي في تفسيره : إشارة إلى أن التقوى قسمان : تقوى القلوب ، والمراد بها

التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق. أمّا تقوى الأعضاء، فالمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرًا ما تخضع أعضاؤه، وقلبه لاهٍ.

٣٣ـ (لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) :

أي: لكم في الهدايا منافع دنيوية في ألبانها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، ونسلها وركوبها إلى وقت إيجابها وبعثها هَدْياً، وحينئذ ليس لكم شيء من منافعها، قاله ابن عباس. وقال عطاء: منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هديا أن تُرْكب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى وهو وقت النحر. وقال مجاهد: فإذا سُمِّيَتْ بدنةً أو هديًا ذهب ذلك كله.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هَديا إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين. (عن أنس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: اركبها. قال إنها بدنة، قال: اركبها ويحك) ويؤْخذ من ذلك: أن للمُهدين أن ينتفعوا بهداياهم ما داموا في حاجة إلى الانتفاع بها، وذلك بركوبها، وشرب لبنها ـ بعد ريِّ فصيلها ـ إلى وقت ذبحها.

(ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) :

(مَحِلُّهَا): أي وجوبها، فهي مصدر ميمي مأْخوذ من حَلَّ الدين إذا وجب أداؤُه، والمراد أن وجوب نحرها ينتهي في الحرم إلى جوار البيت العتيق، إكراما لزواره، وتعظيما لمكانه، وقد ورد في الحديث: «كل فجاج مكة منحر، وكل فجاج منى منحر» قال القفال: وهذا في الهدايا التي تبلغ منى، وأما الْهَدْيُ الْمُتَطَوعَ به إذا عطب قبل بلوغ مكة، فمنحره موضعه.

وقيل: الشعائر: المناسك كلها. وتعظيمها: إتمامها. والمعنى لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى انقضاء أيام الحج، ثم تَحلُّلُ الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أي: منتهٍ عنده بأن يطوفوا طواف الإفاضة يوم النحر.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) الأُمة : هى الجماعة على مذهب واحد . (جَعَلْنَا مَنسَكاً) المنسك : بفتح السين وكسرها . موضع الذبح أَو الذبح وإراقة الدم ، والنسيكة : الذبيحة ، وجمعها نُسُك بضمتين والفعل من باب نصر . (فَلَهُ أَسْلِمُوا) : أَى استسلِمُوا وانقادوا . (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) : وهم الذين خضعوا لله وخشعت قلوبهم ، يقال : أَخبت الرجل إخباتا فهو مخبت أَى : هو خاضع خاشع . (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) : خافت وخشيت . (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ) : هم الذين يحبسون الجزع إذا نزلت بهم نازلة ، وفعله من باب : ضرب .

التفسير

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّـــةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ . .) الآية .

أَى : ولكل أَهل دين من الأَديان السماوية السابقة ، أَو ولكل جماعة مؤْمنة ، جعلنا لهم مكانا للذبح وإراقة الدماء ، تيسيرًا لهم ، وتمكينا لمن يريد التقرب إليه تعالى بإطعام عباده فى مناسكهم ، وفسر مجاهد المنسك : بالذبح على أَنه مصدر ميمى ، يريد أَنه تعالى شرع لكل أَهل دين أَن يذبحوا تقربا إلى الله تعالى ، لا لبعضهم دون بعض ، واختاره الزمخشرى .

وقال الفراءُ : المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد فى خَيْرٍ وَبِرٍّ ، وفسره هنا : بالعيد ، وقال ابن عرفة فى قوله : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً » أى : مذهبا من طاعة الله تعالى ، يقال : نَسَك نُسْكَ قومه ، إذا سلك مذهبهم .

(لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) : أى ليذكروا اسم الله وحده دون غيره عند ذبحها تعظيماً له وشكرًا على ما أنعم عليهم من بهائم الأنعام : الإبل ، والبقر ، والغنم . وفى ذلك إشارة إلى أن القرابين لا تكون إلا منها (فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : أى : فإلهكم أيها المخاطبون إله واحد لأن شريعتكم وشرائع الأنبياء السابقين وإن تنوعت ونسخ بعضها بعضاً ، كلّها قائمة على التوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له (فَلَهُ أَسْلِمُوا) : أى فإذا كان إلهكم واحدًا منزها عن الشريك ، فاستسلموا له وانقادوا لأمره . وأخلصوا له القول والعمل ، واجعلوهما لوجهه ولا تشوبوهما بشرك (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) : أى وبشر أيها النبى أولئك المخلصين المتواضعين - بشرهم - بالجنة والثواب العظيم ، قال عمرو بن أوس : (المخبتون الذين لا يظلمون ، وَإِذَا ظُلِمُوا لَمْ يَنْتَصِرُوا) أى ، لم ينتقموا : من الانتصار بمعنى الانتقام أى : عفوا عن ظالميهم .

٣٥ - (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ . . .) الآية .

تُعَدِّد الآية أوصاف المخبتين المبشرين بالجنة فتذكر أن من أجل صفاتهم أنهم إذا ذكر الله اضطربت قلوبهم خشية منه ورهبة ، وذلك لقوة إيمانهم وعمق يقينهم .

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) : من كوارث الزمن بتحمل المتاعب وحبس الجزع بنفس راضية ، وإيمان بقضاء الله وقدره .

(وَالْمُقِيمِى الصَّلَوٰةِ) : فى أوقاتها وعلى أكمل صورها حسبما شرعها الله .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) : أى ومن بعض ما آتيناهم من طيب الرزق ينفقون فى أوجه البر والخير التى تعود على دينهم ومجتمعهم بالنفع والصلاح .

(وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾).

المفردات :

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ) : البدن جمع بَدَنة بالتحريك وأصل الجمع : (بُدُن) : بضمتين ثم خفف بتسكين وسطه وهى : الإبل وكذا البقر كما قيل : وستأتى مناقشته .

(مِن شَعَآئِرِ اللهِ) : جمع شعيرة ، أى علامة ، فالبدن من علامات دين الله فى الحج

(عَلَيْهَا صَوَافَّ) : أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعداداً لنحرها

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى سقطت على الأرض بعد ذبحها . يقال : وجب الحائط يجب وجبة إذا سقط .

(القَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : القانع الذى لايسأل الناس ويقنع بما عنده ، وفعله من باب فرح يفرح ، ومصدره القناعة ، والمعتر : هو المتعرض للسؤال ، من اعترّه إذا تعرض له ، وتفسيرهما بذلك مروى عن ابن عباس . (كَذَلِكَ سَخَّرنَاهَا لَكُمْ) : أى ذللناها ومكناكم منها .

التفسير

٣٦ ـ (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَآئِرِ اللهِ . . . .) الآية .

هذه الآية امتنان من الله جل ثناؤه على عباده حيث خلق لهم البدن ، وجعل ذبحها من أعلام الدين ومظاهره ، ويسر لهم إهداءها إلى البيت الحرام تقربا إليه سبحانه ، وهى

حين تهدى إلى بيته تكون من أفضل ما يهدى إليه . والمراد منها هنا : الإبل والبقر وَفْق ما قاله جمهور العلماء من أن البدنة تجزئ عن سبعة والبقرة تجزئ عن سبعة كما جاء فى حديث مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال : أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نشترك فى الأضاحى . البدنة عن سبعة . والبقرة عن سبعة لذلك جعلا فى الشريعة جنساً واحداً أُريد به نوعان لتساويهما فى الإجزاء عن عَدَد متَّحد فضلا عن تساويهما تقريباً فى البدانة وضخامة الجسم .

وقيل : إن البدن خاص بالإبل بدليل الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : (من راح فى الساعة الأُولى فكأَنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأَنما قرب بقرة ...) الحديث.

فتفريقه - عليه السلام - بين البدنة والبقرة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ، وإن كانت تكفى مثلها عن سبعة وأيضاً قوله تعالى « فإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك فإن الوصف خاص بالإبل أما البقر فتضجع وتذبح كالغنم ا هـ بتصرف من تفسير القرطبى .

(لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) : أى لكم فى البدن المهداة إلى الحرم نفع فى الدنيا بركوبها وشرب لبنها والانتفاع بصوفها ووبرها متى كنتم فى حاجة إلى ذلك . ولكم فيها أجر عظيم فى الآخرة لتقربكم بها إلى رضا ربكم . والجملة مستأْنفة مقررة لما قبلها .

(فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ) :أى فابدأُوا بالتسمية عند نحرها قائلين : بسم الله والله أَكبر اللهم هذا منك وإليك . وقد أخرج ذلك جماعة عن ابن عباس .

ويكون النحر لها قائمات قد صففن أَيديهن وأَرجلهن . وقرئ : صوافن . جمع صافنة أى قائمات على ثلاث وتُعْقَل إحدى يديها . وعَقْل إحدى يديها سنة . فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه رأَى رجلا قد أَناخ بدنته وهو ينحرها فقال : ابعثها قياما مقيدة ، سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى فإذا سقطت على الأَرض بعد نحرها قائمة ، وذلك كناية عن سكون حركتها وموتها ، وهذا يؤيد أن البُدْن المهداة تكون من الإبل دون البقر ، لأَنه لم تجر العادة بينهم أن تذبح البقرة قائمة. وإنما تذبح مضطجعة ، وقلَّما شوهد بينهم نحر البدنة وهى مضطجعة ، وكون البقرة تكفى

عن سبعة فى الأُضحية ، لايقتضى إطلاق اسم البدنة عليها ، ولا كفايتها عنها فى الهدى

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : الأَمر بالأَكل للإباحة مخالفة للمشركين؛ لأَنهم كانوا لا يأْكلون من هديهم ويقولون بحرمته ، والأَمر الثانى للندب ، أى :فيباح للمُهْدِى أن يأْكل من هديه ولو لم يأْكل منه جاز ، وأَوجب بعض الفقهاء أَكله منه ، ويندب له أن يُطعِم منه القانع والمعتر ،ولو صرفه جميعه لنفسه جاز ولم يضمن شيئاً ، ولكن الأَولى أن يقسم أثلاثا ثلثا لصاحبه ، وثلثا للقانع ، وثلثا للمعتر . وروى ذلك عن ابن مسعود والآية تشير إليه ، وقال بعضهم : لا تحديد فيما يؤكل أو يطعم لإطلاق الآية . وهو الظاهر .

ويراد بالقانع : من رضى بما عنده ولم يتعرض للسؤال ، وفعله قَنِعَ من باب فرِحَ يقنَع قناعة .

ويراد بالمعتر :الذى يطيف بك ويُلمّ راغبا فى عطائك ساكتا أو سائلا ، من اعترَّه إذا تعرض له للسؤال كما تقدم بيانه فى المفردات ،وتخصيص الإطعام فى الآية بالقانع والمعتر ، لاينفى جواز إطعام الموسرين قياساً على جواز أكل المُهْدِين وإن كانوا أغنياء .

وما ذكر من إباحة الأَكل ، وندب الإطعام إنما هو فى هدى التطوع أما ذبائح الكفارات فعلى صاحبها التصدق بجميعها ، فما أكله منها أو أهداه لغنى ضمنه ، وفى هذا الموضوع خلافات مذهبية فارجع إليها فى موسوعات التفسير أو كتب الفقه .

(كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ) :أى مثل هذا التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى : « صوافَّ» سخرناها لكم فلا تستعصى عليكم مع قوتها وعظم أجرامها حتى أنكم تأْخذونها وتحبسونها صواف ثم تطعنونها فى لبَّاتها ، ولولا تسخير الله لم تخضع ، ولم تكن بأْعجز من بعض الوحوش التى هى أقل منها حجما وأضعف قوة (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا آلاء الله المتتابعة عليكم ، بالتقرب إليه بما يجب عليكم من امتثال لأمره وإخلاص فى عبادته .

٣٧ - (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ . . .) الآية .

قال ابن عباس : « كان أهل الجاهلية يُضَرِّجُونَ البيت بدماء البُدْن فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية » (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا . .) : أى أنه تعالى ليس له حاجة إلى لحومها ودمائها ، حتى تضرجوا بها بيته ، ولكن يناله التقوى منكم فى كل

أعمالكم ، ومنها إطعام المساكين من لحومها ، وقد حث النبى-صلى الله عليه وسلم - على الإخلاص فى الأعمال والقربات ،كما جاء فى حديث مسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) : أى مثل هذا التسخير العجيب سخرها لكم ، وجعلها منقادة خاضعة . فلا تستعصى عليكم مع ضخامتها .

وكرر- سبحانه - الامتنان على عباده بتذليلها لهم وتمكينهم منها تذكيرا لهم بتلك النعمة العظيمة التى تفضل بها عليهم .

(لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ) : أى لتعرفوا عظمته باقتداره على مالا يقدر عليه أحد من هدايتكم إلى طريقة تسخيرها ، وإرشادكم إلى الانتفاع والتقرب بها فتفردوه بالعبادة ؛ شكرا له على هدايتكم لذلك .

وقيل : لتكبروا الله عند الذبح ،وقد أمروا بالتسمية فى قوله تعالى : « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ » وكان ابن عمر يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول : باسم الله والله أكبر وهذا من فقهه - رضى الله عنه - .

(وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) : أى وبشر - أيها النبى - المحسنين فى أعمالهم ، بالإخلاص فيها ، والقيام بها كما شرعه الله تعالى من غير مَنٍّ ولا أذى ؛ وعن ابن عباس : هم الموحدون .

* (إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(خَوَّانٍ كَفُورٍ) : الخَوَّانُ : الكثير الخيانة ، والكَفُور : الشديد الكفر .

(بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) : بسبب كونهم مظلومين . (صَوَامِعُ) : جمع صومعة ، وهى متعبَّد خاص برهبان النصارى . (وَبِيَعٌ) : جمع بِيْعَة بوزن حرفة ، وهى متعبَّد النصارى عامة .

(وَصَلَوَاتٌ) : جمع صلاة وهى كنيسة اليهود ، وأُطلق عليها صلاة لأنهم يصلون فيها ، وذلك من إطلاق اسم الحالِّ على المحل ، أو المظروف على الظرف .

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) : أى له تعالى مرجعها تدبيرًا وحُكْمًا .

التفسير

٣٨ـ (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) :

هذه من الآيات التى نزلت بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد تقدمتها آيات تتعلق بالحج

وأحكامه ومناسكه ومنافعه، وكل ذلك يؤدى بمكة وَحَرَمِهَا، وأنى للمهاجرين المضطهدين أن يصلوا إليها حاجين أو معتمرين، تلبية لنداء جَدِّهم إبراهيم الذى حكاه الله من قبل بقوله: «وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» الآيات (٣٧ - ٣٩) أنى لهم أن يحجوا ويعتمروا وقريش لهم بالمرصاد؟ تصدهم عن حماه، وتحرمهم من أداء فريضة الله، وتمنع معهم مَن انْضَمَّ إليهم وأسلم من أنصار المدينة؛ وهم بعدُ لم يؤْذن لهم بحرب ولا قتال.

فلهذا كله أنزل الله تلك الآية لبعث الأمل فى نفوس المؤمنين وطمأنة قلوبهم ببيان أنه -تعالى- ناصرهم على أعدائهم، وممكنهم من الوصول إلى بيته. تحقيقاً لقوله من قبل: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [1]».

والمعنى الإجمالى للآية: إن الله يَدْفَعُ عن الذين آمنوا به وبرسوله غائلة أعدائهم المشركين إن أرادوهم بسوء أو صدوهم عن المسجد الحرام - يدفع عنهم شرورهم دفعاً بليغاً - لأنه تعالى لا يحب كل خوان لأمانة الله، كفور بنعمة الله، وهؤلاء المشركون خانوا الله ورسوله وأولياءه، وخانوا أماناتهم، وكفروا بربهم، وعَصَوْا رسوله وكفروا به وآذوه ومن آمن معه من المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم وبالغوا فى كفرهم وخيانتهم، فلهذا استحقوا أن ينتقم الله منهم، ويدفع أذاهم عن عباده المؤمنين الذين يحبهم ويرضى عنهم.

٣٩ - (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ):

وَعَدَ الله فى الآية السابقة بالدفاع عن الْمُؤْمنين ومساندتهم تمهيداً لهذه الآية التى أذن لهم فيها بقتال المعتدين عليهم المخرجين لهم من ديارهم، وأكد فيها وعده السابق.

---

(١) سورة الحج آية: ٢٥

روى الواحدى وغيره : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب النبى -صلى الله عليه وسلم- وهم بمكة ، وكانوا يأتونه ما بين مضروب ومشجوج ، يتظلمون له . فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر فأُنْزِلت هذه الآية .

وهى أول آية أنزلت فى القتال بعد ما نُهِىَ النبى -صلى الله عليه وسلم- عنه فى نَيِّف وسبعين آية ، على ما رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس -رضى الله عنهما- .

ومن نص الآية نعلم أنه تعالى إنما أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا من المشركين ، حيث آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وذويهم وأموالهم ،فهو قتال يراد به الانتقام ممن آذوهم ، وإثبات أنهم أصبحوا قوة يحسب حسابها عندما يريدون العدوان عليهم ،وكل ذلك تقره الأعراف الدولية ، فمن لم يَتَذَأبْ أكلته الذئاب ، وتعتبر هذه الآية قاعدة عامة لمشروعية القتال الدفاعى ، وإن نزلت بسبب خاص .

ومعنى الآية : أذن الله للمؤمنين الذين يقاتلهم غيرهم ، بأن يعتدوا عليهم أو على دورهم أو وطنهم أو أموالهم أو يؤلبوا عليهم سواهم ، أذن الله لهم فى قتالهم ، بسبب ظلمهم إياهم ، وإن الله على دفع هؤلاء الظالمين عن المؤمنين ونصرهم عليهم لعظيم القدرة ، فليثقوا بوعده وليطمئنوا إلى تأييده ، وليأخذوا بالأسباب .

٤٠ - (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) :

هذا وصف مؤيد للإذن بقتال المهاجرين للمشركين حقق الله به وقوع الظلم منهم عليهم ، وأن من حقهم أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم .

وقد أُجْرِىَ هذا الوصف مجْرَى المدح لهم ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، وكأنه قيل : هم الذين أُخرجُوا من ديارهم بغير ذنب يستحقون به هذا الإخراج إلا أنهم يخالفون من أخرجوهم فى شركهم ، فيقولون : ربنا الله لا نعبد سواه ، فهل يعتبر قول الحق وعقيدة الصدق ذنبا يستحقون التهجير والإخراج من الوطن الغالى بسببه ؟ إنه لظلم مبين ، وعدوان أثيم .

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) :

فى هذا الجزء من الآية يحث الله المؤمنين على القتال لأعدائهم بعد أن أذن لهم فيه ؛ فقد بين لهم أنه تعالى أجرى العادة فى الأمم السابقة أنه لا يُدْفَع الشر إلا بمثله والبادئ أظلم ، وذلك لكى ينتظمَ أمر الناس ويسودَ الأمن بينهم ، وتقوم الشرائع وتصان المعابد .

فكأنه قيل : قد أذنَّا للمؤمنين بقتال من ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فليقاتلوهم ليدفعوا شرهم ، ويصونوا مساجدهم ، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان ، لهدِّمت معابدهم ، واسْتبيحت حرماتهم .

والصوامع : جمع صومعة . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وعُبَّادِ الصابئة . والمراد بها : هنا مُتَعَبَّدُ الرهبان . والبيعُ : جمع بِيْعَةٍ بوزن كِسْرَة . وهى مُصَلّى النصارى جميعاً ولا تختص برهبانهم كالصومعة ، والصلوات : جمع صلاة ، وهى كنيسة اليهود ، وأُطلق عليها ذلك على سبيل المجاز المرسل ، علاقته الحالِّيةُ والمحلية ، أو المظروفية والظرفية .

وقيل : صلوات : معرَّبُ « صُلُوثا » بالثاء المثلثة والقصر ، وهى كلمة عبرانية معناها : المصلَّى ، وروى عن أبى رجاء والجُحْدُرِىِّ وأبى العالية ومجاهد أنهم قرأوا بذلك .

والمساجد : جمع مسجد ، وأكثر ما يطلق على مصلى المسلمين ، ويقول ابن عطية : الأسماءُ المذكورة تشترك الأُمم فى مسمياتها إلا البيعة ، فإنها مختصة بالنصارى فى كل لغة ، ومعظم المفسرين على ما مرَّ بيانه ، من أن الصوامع للرهبان ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين ، أما قوله تعالى : « يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا » فهو فى موضع الصفة لمساجد ، وقال بعض المفسرين : إنه صفة للمواضع الأربعة المذكورة ، فإن كلا منها يُذْكَر فيه اسم الله فى عصره الذى كانت شريعته فيه قائمة لم تنسخ ، واستظهر هذا الرأى أبو حيان .

(وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

فى هذا الجزء من الآية وعد الله تعالى من يقاتل فى سبيله بالنصر والتأييد ، أما من يقاتل عدوانا وظلما فهو بمعزل عن تأييد الله ، ولئن فاز فى بعض جولاته على أهل الحق فالعاقبة للمتقين الثابتين المترابطين .

ومع أنه ـ تعالى ـ أذن فى هذه الآية للمسلمين بقتال أعدائهم دفاعا عن أنفسهم ألزمهم فى حربهم بآداب وردت فى كتاب الله وعلى لسان رسوله ، ففى كتاب الله يقول سبحانه : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوآ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وللعدوان صور ، منها : قتل من لا شأن له فى القتال ، كالنساء والصبيان والرهبان ، والشيوخ المسنين والمرضى ، فالمسلمون ممنوعون من كل ذلك ، جاء فى السنن أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مرَّ على امرأة مقتولة فى بعض مغازيه قد وقف عليها الناس ، فقال : ما كانت هذه لتقاتل » وقال لبعض أصحابـه : أدْرِكْ خالدًا فقل له : « لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً » والعسيف : الأجير ، ومن وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تقتلوا شيخًا فانيًا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة » وفى صحيح مسلم : عن بريدة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : « اغْزُوا فى سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلُوا ولا تَغْدِروا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » أما الحرب عند غيرنا فلا تعرف للرحمة سبيلا .

٤١ ـ (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) :

ما جاء فى هذه الآية إما وصف للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق وأُذن لهم فى القتال دفاعًا وردًّا للعدوان . وهو الظاهر [1] ـ وإما لصدر الأمة المحمدية الشاملة للمهاجرين والأنصار وتابعيهم كما روى عن ابن عباس ، وإما للأمـة المحمدية فى مختلف عصورها ـ كما قاله الحسن وأبو العالية ـ وعلى أى حال فالآية مرتبطة بما قبلها .

---

(١) وعلى هذا تكون الآية دليلا على صحة أمر الخلفاء الراشدين ، فالممكنون فى الأرض من المهاجرين هم الخلفاء الراشدون دون غيرهم ، ولو لم يمكن المهاجرون وكانت الخلافة فى غيرهم لزم الخلف فيما يشبه الوعد منه تعالى بأنه يمكنهم فى الأرض ، وقد وقع الشرط وهو : التمكين وثبت الجواب وهو : إقامة الصلاة وما عطف عليها ، وهذا يقتضى أحقية الخلافة فى المهاجرين .

والمعنى : ولينصرن الله من ينصره ، وهم أولئك الذين إن مكناهم فى الأرض وجعلنا لهم سلطانا عليها أقاموا الصلاة فى مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالهم لمستحقيها ، وأمروا بما عرف حسنه فى شرع الله وأعراف الناس ، ونهوا عن المنكر فى دين الله ومنهاج الحق ولله تعالى دون غيره عاقبة الأمور ومآلها ، وفقا لتدبيره وحكمته - جل وعلا - .

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) : أى أهلها وهم قوم شعيب . (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) : فأمهلتهم . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى عليهم[1] وعقابى لهم ، والاستفهام بكيف للتعجيب مما عاقبهم به الله . (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : فكثير من القرى أهلكنا أهلها ، وإيقاع الإهلاك على القرى على سبيل المجاز . (خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) : أى ساقطة على سقوفها ؛ من خوى النجم : إذا سقط ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامة بنيانها بعد ما هلكوا ، من خوَت الدار ، تَخْوى ، خَوَاءً ، إذا خلت من أهلها ، وخَوَى البطنُ من الطعام يخوى ، خَوًى ، وخَواءً . (وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ) : أى لا يُستقَى منها لهلاك أهلها .

(وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) : أى مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشِّيد ، وهو الجص .

---

(١) مأخوذ من قولهم : نكرت عليه كذا ، إذا فعلت فعلا يردعه ، فهو بمعنى : الإنكار ، كالنذير ، بمعنى : الإنذار .

التفسير

٤٢ ، ٤٣ - (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وقَوْمُ إبْرَاهِيمَ وقَوْمُ لُوطٍ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما سيقت لتسلية الرسولِ صلى الله عليه وسلم عَما يلقاه من إعراض أهل مكة وتكذيبهم إياه ، وحزنه وتألم قلبه لجفائهم وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، والتعبير عن تكذيبهم بصيغة المضارع الصالحة للحال والاستقبال حيث قيل : (وَإِن يُكَذِّبُوكَ) مع أنهم كذبوه من قبل ، للإيذان بأن تكذيبهم سيتجدد ، فَلْيَتَسلَّ عنه ولا ينزعج ، فمثل ذلك قد حدث للمرسلين قبله من أقوامهم .

والمعنى : وإن يكذبْكَ قومُك - يا محمد - فلا تحزن ،فإنك لست بأوحدى فى ذلك فقد كَذَّبت قبلهم قومُ نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط - كذبوا رسلَهم - .

وإلحاق التاء بكذَّب فى قوله : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) مع أن القوم مذكر ، لأنه اسم جمع يصح تأنيث الفعل المسند إليه وتذكيره ، أو لتأويل القوم بالأُمة أو الجماعة .

٤٤ - (وَأَصحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى ،وكذب أهل مدين رسولهم شعيبا ، وكذب فرعون وقومه موسى ، فأمهلت كل فريق من هؤلاء المكذبين لعلهم يرعَوُون ويثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذته وأهلكته بعد انتهاء مدة إملائه وإمهاله ، عقابا لهم وإنكارًا عليهم ، فكيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد حولت عمارهم خرابًا ، وأهلكتهم عن آخرهم « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا علَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِنْ كَانُوآ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (١)

٤٥ - (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَة وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) :

---

(١) سورة العنكبوت ،الآية : ٤٠

(كَأَيِّنْ) : اسم يراد به التكثير مثل (كَمْ) الخبرية و (خَاوِيَة) بمعنى : ساقطة أو خالية ، وهذه الآية مفرَّعةٌ على الآية التى قبلها مبينة لما جاء فيها من عقاب الله العنيف للمصرِّين على الكفر ، وآثاره التى ترتبت عليه .

ومعنى الآية : فكثير من القرى دمَّرناها وأهلكناها وأهلها ظالمون ، فهى بسبب ذلك ساقطة حيطانها على سقوفها ، وكم من بئر عامرة مليئة بالماء معطلة لا تجد من يستقى منها لهلاك أهلها ، وكم قصرٍ مرفوع البنيان ، أو مبنىٌّ بالشّيد ، وهو الجص ، أهلكنا أهله فخلا من ساكنيه .

وإذا كانت (خاوية) بمعنى خالية ، يكون معنى الآية : فكثير من القرى أهلكنا أهلها وهم ظالمون ، فهى خالية منهم بعد إهلاكهم مع بقاء عروشها وسلامتها ، وكم من بئر معطلة لا تجد من يستقى منها ، وقصر مشيد لا يجد من يَعْمُره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) : وكثير من القرى .

(أَمْلَيْتُ لَهَا) : أمهلت أهلها ولم أعجل عقوبتهم على كفرهم .

٤٦ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) :

حكت الآيات السابقة : أنه تعالى انتقم ممن كذب المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم فأهلكهم وخرَّب ديارهم ، وجاءت هذه الآية لحث مشركى قريش على السير فى أرض المهلكين لكى يعتبروا بما حدث لهم ، فيتوبوا من شركهم وكفرهم .

وهؤلاء لا يخلو حالهم من أن يكونوا قد مروا على القرى التى أُهْلِكَ أهلها حولهم كقرى قوم لوط وأصحاب الأَيكة ، ولكنهم لم يعتبروا بما حدث لهم ، فالآية حينئذ تَنْعَى عليهم عدمَ اتعاظهم بالمرور عليها ، وتطالبهم بالاتعاظ بها ، والهمزة على هذا للاستفهام الإنكارى المشوب بتوبيخهم على عدم اعتبارهم بما يرونه من آثار المهلكين قبلهم ، أو أن يكونوا لم يمروا بها ، فالآية تطالبهم بالمرور بها والاعتبار بما حدث لأهلها وعلى هذا فالاستفهام : إما للإنكار والتوبيخ على عدم مرورهم واعتبارهم ، أو لتقريرهم بارتكاب هذه الخطيئة ، وخلاصة معنى الآية على الوجه الأخير كما يلى :

أَقَعَدَتْ قريش فى عقر دارها وقد علموا بالقرى المهلكة حولهم ، فلم يسيروا فى الأرض متجهين نحوها ليتعرفوا ما حدث لها ولأهلها ، فتكون لهم عندما يرون آثارها - تكون لهم - قلوب يعقلون بها أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأن الرسل صادقون فيما يبلغون أممهم عن الله رب العالمين ، أو تكون لهم عندما يسمعون ممن حولها أخبارها - تكون لهم - آذان يسمعون بها ، فلا يغلقونها عند الاستماع إليها ، فإنه لا يُعْتَدُّ بعمى الأبصار ، فإن من عمى بها قد يدرك الحق بقلبه أو بسمعه ، فكأنه ليس بأعمى ، ولكن العمى فى الحقيقة هو عمى القلوب التى فى الصدور ، فإن عماها يحجب الحق عنها ، فتبقى فى ظلام الكفر وغيبوبة الضلال المبين ، فسيروا - يا أهل مكة - فى الأرض ، لتنظروا ما حدث للمكذبين قبلكم ، وأزيلوا الغشاوة عن قلوبكم وعن أسماعكم ، واعتبروا بما حدث لمن قبلكم .

وهذه الآية قررت أن القلوب التى فى الصدور مركز للتعقل والإدراك ، وأن بها يعرف الخير من الشر ، وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة من القرآن ، ففى سورة الأعراف :

قال الله عز وجل « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » – ١٧٩–
وفى سورة محمد قال تعالى « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » – ٢٤ –
إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الأمور المعروفة طبيًّا : أن الأجهزة العقلية كلها فى الدماغ ، ولا تعارض بين ذلك وبين ما جاء فى القرآن ، فإن العقول لا غذاء لها إلا من القلوب ، ولا تعمل إلا بمدد منها ؛ فإذا انقطع عنها هذا المدد شلَّتْ وفسدت ، وتعرض صاحبها للموت ، بل إن القلوب هى مصدر الحياة للأجساد ، فلا غرابة فى أن يُسْنَدَ إليها ما يسند إلى رعيتها من مختلف الأجهزة الجسمية ، ألا ترى أنهم يقولون : فتح الملك المدينة ، مع أنه لم يفتحها سوى جنوده وقواده ، وإنما صَحَّ إسنادُ الفتح إليه لأنه السبب الأول فيه ، على أن قلوبنا تحس تماما بضياء الحق فتستريح إليه وتنشرح صدورنا به ، ولا شك أن هذا الانشراح والراحة القلبية يدلان على أن فى القلوب هدى وبصيرة ، وأن الأمر ليس قاصراً على مراكز العقول فى الدماغ .

٤٧ – (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) :

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحذِّر قريشا من نزول العذاب بهم ، كما نزل بمن قبلهم ، إن استمروا على كفرهم ، فكانوا لا يحذرون ، وعمدوا إلى التحدى فطالبوه بإنزال العذاب الذى يحذرهم منه – طالبوه استهزاءً وتعجيزاً – فأنزل الله هذه الآية ينكر عليهم استعجالهم فإن الأمر ليس لهم ، والزمن الطويل عندهم قصير عند ربهم ، والآية فى ظاهرها خبر ، ولكنها تتضمن الاستفهام الإنكارى لاستعجالهم ، فكأنه قيل : ويستعجلونك – أيها الرسول – بالعذاب الذى أوعدتُهم به على لسانك . فأنكروه وكفروا به ، فكيف ينكرون مجيئه ؟ ولن يخلف الله وعده ، والأمر فى مجيئه ليس إليهم حتى يسارع به تلبية لرغبتهم ، فلا يستبطئوا نزوله ، فإن الأمر فيه لله تعالى والله لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده ، فهو قادر على الانتقام منهم فى الوقت الذى شاءه لعذابهم ، فلا يفوته ذلك وإن أجَّله وأملى لهم فيه ، ولكون المعنى على ذلك ، عقَّب الله هذه الآية بقوله : « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ » وسيأتى شرحها .

ولقد حقق الله وعيده فسلط عليهم القحط والجوع حتى أكلوا الكلاب والْعِلْهز[١] .
كما أنزل بهم فى غزوة بدر هزيمة نكراء هزت كيانهم ، فقتل فيها سبعون من صناديدهم .
وأسر سبعون ، ومن المفسرين من حمل اليوم المذكور على يوم الآخرة . والعذاب على عذابها
ولكن المقام لا يساعد على ما ذهبوا إليه ، والله الموفق .

٤٨ - (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ) :

هذه الآية الكريمة مؤكدة لما جاء فى الآية التى قبلها من أنه تعالى لا يخلف وعيده لمن أصر
على كفره ، وأنه إن أمهلهم ليتوبوا فلن يهملهم إن أصروا ، والمراد بالقرية فيها : أهلها .
ونسبة الظلم لها مع أنه لأهلها على سبيل المجاز .

والمعنى : وكثير من أهل القرى أمهلتهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى ، لعلهم
يستجيبون لرسلهم ، ويرجعون عن غيهم ، فغرهم هذا الإمهال ولم يفكروا فى عاقبته . ثم
أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال ، وإلى حكمى مرجعُهم ومصيرُهم لا إلى
غيرى ، فأفعل بهم ما يستحقونه من النكال على جرائمهم ، فلا يفوتنى من أمرهم شئ .
لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أخرج الإمام البخارى فى كتاب التفسير[٢] . بسنده عن
أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه
لم يُفْلِتْهُ ، ثم قرأ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

---

(١) بعد أن دعا الرسول عليهم بقوله : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »
والعلهز : طعام من الوبر والدم كان يؤكل فى المجاعة ، ويطلق أيضا على القراد الضخم : قاموس .

(٢) (« باب : وكذلك أخذ ربك ») والحديث أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه ، واللفظ هنا للبخارى .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر واضح ، من أَبَان بمعنى وضح واستبان ، أَو منذر مُوَضحٌ لكم ما أنذرتكم به ، من أَبان الأَمْرَ ، أى : أوضحه .

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : ورزق حسن فى الجنة لوقوعه بعد المغفرة .

(سَعَوْا فِيَ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ) : أى بذلوا جهدهم فى إبطال آياتنا محاولين تعويق المؤْمنين فى تأْييدها ، وتعجيزهم عن إبلاغها مداها ، فالمعاجزة : مسابقة فى التعجيز ، يراد بها أن يغلب أحد المتسابقين الآخر ، فيعجز عن المضى ، وكذلك فعل المشركون فخسروا السباق وهُزِمُوا .

التفسير

٤٩ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

تضمنت الآيات السابقة : أن الله تعالى طلب من أهل مكة أن يسيروا فى الأَرض حولهم ، فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم ، حيث أُهلكوا عَنْ آخرهم ، فخربت ديارهم وعطلت آبارهم ، لعلهم يعتبرون بما أصابهم ، ويرجعون عن غيهم ، ولكنهم استعجلوه بالعذاب ، فبين لهم أنه - تعالى - لن يخلف وعده إن أصروا على كفرهم ، وأنهم إن أُمهلوا ليتوبوا فلن يهملوا إن أصروا .

وجاءت هذه الآية آمرة للنبى – صلى الله عليه وسلم – أن يواصل إنذارهم ، وأن لا يبالى بتكذيبهم واستعجالهم العذاب .

ومعنى الآية : قل أيها النبى لأهل مكة : يأيها الناس ما أنا إلا منذر لكم واضح الإنذار ، فيما أخبرتكم به من أنباء الأمم التى أهلكها الله بتكذيبها رسلها ، لكى تحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فكيف تستعجلوننى بالعذاب ولن يخلف الله وعده ؟ فالأمر بيده ، إن شاء عَجَّلَ وإن شاء أَجَّلَ .

٥٠ – (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

أى : أنذر – يا محمد – هؤلاء الكفرة المستعجلين للعذاب وبالِغْ فى إنذارهم ، فالذين آمنوا بعد كفرهم ، وعملوا الصالحات بعد إيمانهم ، لهم مغفرة لما كان منهم من الكفر والمعاصى ، ولهم رزق حسن فائق فى الجنة ، فإن الإيمان يَجُبُّ ما قبله ، كما قال تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »(١) .

٥١ – (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

والذين سعوا فى آياتنا وبذلوا الجهد فى إبطالها ، فسمَّوْها تارة سحرا ، وتارة شعراً ، وتارة أخرى أساطير الأولين ، مسابقين المؤمنين ، كلٌّ يريد تعجيز الآخر ، فالمؤمنون يريدون إبطال كيد الكافرين ، والوصول بآيات الله إلى قلوب الناس أجمعين ، والمشركون يريدون تعويقهم وتعجيزهم عن تحقيق غايتهم ، فهؤلاء الساعون المعوِّقون المعاجزون هم أصحاب الجحيم ، الملازمون للنار الشديدة التأجج والإحراق « وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »(٢) .

هذا ، وبعض المفسرين حمل (الناس) فى قوله تعالى : « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » على عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، وفسر الآيات الثلاث على النحو الآتى :

قل يا أيها الناس – مؤمنكم وكافركم – إنى لكم منذر واضح الإنذار ، بأنكم ستأتيكم الساعة ثم تبعثون وتحاسبون ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دنياهم ، لهم مغفرة ورزق كريم

---

(١) سورة الأنفال ، صدر الآية : ٣٨

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

فى أُخراهم ، والذين كفروا وسعوا فى إبطال آياتنا وتعجيز دعاتنا ، أُولئك أَصحاب النار الملازمون لها .

هذه خلاصة ما قيل فى هذا المقام ، ولكن فيه خروجا عن السياق ، فى حين أَن المؤمنين لا يُنْذَرُونَ ، وإنما ينذر أَهل الكفر ـ فما قلناه أَولا هو اللائق بالسياق .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الرسول : من بعثه الله بشرع جديد أَنزله عليه ، وأَيده بمعجزة تحقق رسالته . والنبي :صاحب معجزة تؤيد نبوته ، وقد أَمره الله أَن يدعوَ الناس إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل الله عليه كتابا بشرع جديد ، فالرسول :صاحب شرع ، والنبي :حافظ شرع ـ وسيأْتى لذلك مزيد بيان .

(تَمَنَّى) : لها عدة معان ، منها : أَراد ، وقرأَ ، وكلاهما تصح إرادته هنا فى تفسير الآية كما سيأْتى بيانه .

(فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ) : يزيل من النفوس وساوسه التى يوسوس بها .

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ) : يحفظها من التأثر بوساوس الشيطان .

(فِتْنَةً) : اختباراً وامتحانا . (فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : قلق أو شكٌّ ونفاق .

(وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) المراد بهم : المشركون المجاهرون .

(لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : لفى خلاف بعيد عن الحق . (فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) : فتطمئن .

التفسير

٥٢ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُول وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

بَيَّن الله فى الآيات السابقة أن أهل مكة كذبوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنه تعالى توعدهم بأن يصيبهم من العقاب ما أصاب المكذبين للرسل قبلهم ، ودعاهم إلى أن ينظروا ما أصاب ديارهم حولهم من الخراب والدمار ، فاستعجلوا الرسول بالعذاب الموعود ، بدلا من الاتعاظ والاعتبار بهم ، فبيَّن الله أن أمر تعذيبهم بيده ، وأنه لا يخلف وعده ، وأنهم إن أُمهلوا فلن يُهْمَلوا ، فازدادوا ضراوة فى العدوان على كتاب الله ، فسعوا فى آياته معاجزين معوِّقين المؤمنين عن الوصول بها إلى قلوب الناس ، فزعموا أنها شعر وسحر وأساطير الأولين ، واشتدوا فى إيذاء النبى -صلى الله عليه وسلم- وإيذاء أصحابه تعويقا وتعجيزا لدعوة الحق ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فقد بَيَّن فيها أن كل الأنبياء والمرسلين قبله أصابهم من تعويق دعوتهم ومحاولة تعجيزهم فى رسالتهم مثل ما أصابه ، ثم انتصر حقهم على باطل خصومهم وزالت فتنة هؤلاء الشياطين الذين حاولوا إبطال دعوتهم ، وأحكم الله آياته فى نفوس أهل الحق ، فازدادوا إيمانًا فوق إيمانهم ، وإليك فيما يلى تفصيل ما أجملناه :

يقول الله تعالى فى هذه الآية : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ) وهذا النص يقتضى أن النبى غير الرسول ، وأن الله أرسلهما لهداية البشر ، وأن لكل منهما

منهاجا فى تبليغه رسالته للناس ، وأنهما بسبب ذلك يختلفان فى تعريفهما . والمشهور أن الرسول : من أوحى إليه بشرع وأنزل عليه كتاب يبلغه للناس ، والنبى : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر بتبليغ شريعة من قبله ، فالرسول صاحب شرع جديد ، والنبى حافظ لشرع قديم ، وكلاهما أيده الله بمعجزة تؤيد أنه مرسل من عند الله ، ومن العلماء من قال : إن النبى يعم الرسول صاحب الشرع الجديد ، والنبى حافظ الشرع القديم ، فكلاهما نبى ، ولذلك خوطب الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- بلفظ النبوة فى القرآن فى نحو قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » وهذا خير ما يقال فى الفرق بينهما .

وقد جاء فى الآية لفظ (التَّمنِّى) وله فى اللغة عدة معان ، منها : القراءة ، ومنها الإرادة والرغبة ، ويدل على استعمال التمنى بمعنى القراءة قول حسان فى عثمان بن عفان بعد قتله :

تَمَنَّى كتابَ الله أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنِّىَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ (١)

وكلا المعنيين تصح إرادته فى تفسير الآية الكريمة ، فإذا فسرنا التمنى بمعنى القراءة كان معنى صدر الآية كما يلى :

وما أرسلنا قبلك -يا محمد- رسولا ولا نبيًّا إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئًا من الآيات التى أمرناه بتبليغها ، ألقى الشيطان فيما يقرؤه الشُّبه والتخيلات على أوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به ، تعجيزًا لمسيرة دعوته ، وفى هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (٢) » ؛ ويقول أيضاً : «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ (٣) » ؛ وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول -صلى الله عليه وسلم- : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » - ما بالهُ يُحِلّ ما يذبحه لنفسه ، ويحرم ما يذبحه الله ؟ فقد كانوا يحلون الميتة زاعمين أنها ذبيحة الله لهم ، وحينما قرأ : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » قالوا : إن عيسى عُبِدَ من

---

(١) أى : على مهل .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١١٢

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢١

دون الله . والملائكة كذلك . وهذه مغالطة مكشوفة . فإن الآية لهم ولأصنامهم . ولذلك قال سبحانه : « وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل : « ومن تعبدون » لأن « ما » لما لا يعقل ، أما « مَنْ » فهى لمن يعقل ، وكيف يدخل عيسى فى المعبودات المعذبة وقد قال الله فيه :

« مَاالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ »[1] وحكى عنه أنه قال لقومه وهو رضيع : .

« إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ . . . »[2] .

وقال عن الملائكة : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ »[3]

فالواقع أنهم يزيفون الأباطيل ويزعمونها حججا لهم وهى أوهى من بيت العنكبوت .

وإذا فسرنا التمنى بالرغبة والإرادة ، فيكون معنى الآية ما يلى :

وما أرسلنا قبلك – يا محمد – من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى وأراد هداية قومه إلى الحق ، ألقى الشيطان فيما تمناه الشُّبَهَ فى نفوس قومه ليصدهم عن سبيله ، وقد بيَّن الله مآل سعْى الشيطان فى آيات الله بقوله : فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى : فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشُّبَه فى نفوس الناس ، بتوفيق الرسول أو النبى لرده ، أو بإنزال ما يرده ، ثم يظهر الله حكمة آياته لمن أشكل عليهم الأمر بتلبيس الشياطين ، أو يمنعها ويحميها من أباطيل الشياطين[4] ، بما ينزله من الآيات الماحقة لأباطيلهم كما جاء بقوله سبحانه :

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وختم الله الآية بقوله : (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ): أى واسع العلم ، فلا يخفى عليه ما يصدر من الشيطان وأوليائه : بليغ الحكمة فى رد شبهاتهم ونصر رسله وأنبيائه .

وخلاصة معنى الآية : أن الصراع بين الحق والباطل أمر قديم ، عرفه الأنبياء والمرسلون قبلك يا محمد ، وأن الأمر ينتهى بنصر الحق على الباطل بتدبير الله وحكمته ، فلا تجزع

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٧٥ (٢) سورة مريم : من الآيتين ٣٠ ، ٣١ (٣) سورة الأنبياء : من الآية ٢٦ ، من الآية ٢٧ (٤) ومنه قولهم : أحكم أمره ، أى : جعله مستحكما منيعا لايتطرق إليه الفساد .

يا محمد مما يأتى به شياطين قومك من السعى بالباطل فى آيات الله معاجزين بتسويل الشيطان الرجيم ، أولئك أصحاب الجحيم ، وأباطيلهم إلى زوال .

٥٣ - (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) :

هذه الآية مرتبطة بفحوى الآية التى قبلها ، وكأنه قيل : وما أرسلنا قبلك يا محمد من نبى ولا رسول إلا عاداه الشيطان وحاربه فى أمنيته ورسالته لقومه ، فجعل يلقى الشُّبَهَ فيما يقرؤه ويريده لقومه من الهدى فينسخه الله ويرده ، ليجعل الله ما يلقيه الشيطان فتنة وامتحانا للذين أظهروا الإيمان برسولهم أو نبيهم وفى قلوبهم مرض من شك ونفاق ، وللقاسية قلوبهم من الكفار المجاهرين بكفرهم ، فيَحْذَرَهُم الأنبياءُ وَيَجِدُّوا فى كفاحهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وعداءٍ للحق شديد ، فلا تجزع لما يحدث من قومك يا محمد ، فشأنهم معك كشأن سائر الأمم مع الأنبياء والمرسلين قبلك ، والعاقبة للصابرين المجاهدين .

٥٤ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

(وَلِيَعْلَمَ) معطوفة على قوله : (لِيَجْعَلَ) فى الآية السابقة ، داخلة معها فى حيز التعليل .

والمعنى : أن الشيطان كان يلقى الشُّبَهَ فيما يقرؤه الأنبياءُ والمرسلون قبلك على أممهم ، وما يريدونه من الهدى لهم ، فينسخها الله ويبطلها ، ليجعل ما يلقيه الشيطان امتحانا للمنافقين والكافرين القاسية قلوبهم ، فيظهر أمرهم لأنبيائهم فيحذروهم ويجاهدوهم ، وليعلم الذين أوتوا العلم فى كل النبوات والرسالات ، بما أوتوا من الهدى ونور القلوب ، وبما أنزله الله من رَدِّ شُبَهِ الشياطين ونسخها - أى إبطالها - فيثبتوا على إيمانهم ، ويزدادوا إيمانا فوق إيمانهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا فى كل الرسالات إلى طريق مستقيم من

النظر الصحيح الموصل إلى الحق المبين ، وكذلك أمر المؤمنين من قومك ، فلهم من هداية الله إلى صراطه المستقيم أوفر نصيب ، ومن الثبات على الحق شأن عجيب .

وفى معنى تلك الآيات يقول الله تعالى : « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ »[1] .

(قصة الغرانيق وهذه الآيات)

يذكر المفسرون أثناء تفسيرهم قوله تعالى : «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ . . . . » الآيات – يذكرون – قصة تسمى قصة الغرانيق ، وقد أتعبوا أنفسهم فى نقل رواياتها وتأويلها أو تفنيدها ، أثناء تفسيرهم تلك الآيات .

ولكنا رأينا أن نفسرها على النحو الذى مر بيانه ، بمعزل عن تلك القصة المفتراة ، مراعين فى تفسيرها نصوصها ومناسبة ماقبلها ومابعدها ، وربطها بالجو الذى سيقت فيه ، فإن القرآن مترابط المبانى ، ومتناسب المعانى ، وما أكثر الضعف فى أسباب النزول . وما أقطع الوضع فى بعضها ، ومنه قصة الغرانيق التى قيل : إنها سبب لنزول هذه الآيات .

وقد رأينا أن نذكر خلاصتها بمعزل عن تلك الآيات وشرحها ، وأن نفندها ونبين زيفها وفسادها ، وإليك البيان فيما يلى :

زعموا أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ سورة النجم بمحضر من قريش ، فلما بلغ : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : (وإنَّهُنَّ الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى) وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الجملتان موقع الرضا والاستحسان من المشركين ، وتناقلتها ألسنتهم ، وتباشروا بها وقالوا : إن محمدا راجع إلى دين قومه ، فلما وصل الرسول إلى قوله تعالى فى آخر سورة النجم : «فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا » سجد وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك ، وفشت هذه الدسيسة فى الناس حتى بلغت مهاجرى الحبشة فعادوا ، وأظهرها الشيطان ،

---

(١) صدر سورة العنكبوت .

فحزن النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك ، فأنزل الله تعالى لتسليته : «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَانَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَايُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . . » الآيات .

وُيؤَولون إلقاء الشيطان فى أمنيته ، بأنه حَاكَى صوت النبى – صلى الله عليه وسلم – ونغمته فى أثناء سكوته بين الآيات حين تلاوتها ، فدسّ جملتى الغرانيق السابقتين ، وقالوا : إن الشيطان كان يظهر للناس فى العهد النبوى فى صورة أحدهم ، وكان يكلمهم ، ومن ذلك أنه نادى بعد هزيمة المسلمين فى غزوة (أُحُد) : ألا إن محمدا قد قتل ، وقال يوم بدر : «لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ» .

ويفسر آخرون الشيطان بواحد من كفار قريش ، حَاكَى صوت النبى ، وحشدها بين قراءته كأنه يقرؤُها ، وقال غيرهم : إن الشيطان أجراها على لسان النبى – صلى الله عليه وسلم – أثناء قراءته .

وقد عجبنا كيف أتعب المفسرون أنفسهم فى نقل رواياتها المتناقضة المفتراة وأطالوا فى تأويلها أو تفنيدها ، وهى ظاهرة البطلان .

وأول مانلاحظه على فرية الغرانيق ، أنهم زعموها مدسوسة من الشيطان فى سورة النجم ، فى حين أن تسلية الرسول عما فعله الشيطان فيها جاءت فى سورة الحج ، مع أنه يفصل بينهما ثلاثون سورة ، فلو كان لها ظل من الواقع لكانت التسلية عما فعله الشيطان فى نفس السورة التى دُسَّتْ فيها أُكذوبة الغرانيق ، لافى سورة سواها تبعد عنها هذا البعد السحيق ، فى حين أن سورة النجم مكية ، وسورة الحج مدنية على ماقاله الضحاك ، فكيف يعقل أن يسكت القرآن على هذه الفرية تذيع فى مكة وتنتشر حتى تبلغ المهاجرين فى الحبشة ، فيحضروا بسببها كما زعم المفترون ، ولايَرُدُّها إلا بعد الهجرة إلى المدينة ؟ .

وقد أنكر المحققون هذه الفرية ، فقال البيهقى : هذه القصة لم تثبت من جهة النقل وقال القاضى عياض فى الشفاء : يكفيك فى تَوْهِينِ حديث الغرانيق أنه لم يُخَرِّجهُ أحد من أهل الصِّحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم ، وإنما أُولِعَ به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

وفى البحر لأبى حيان : أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : إنها من وضع الزنادقة ، وصنف فى ذلك كتابا .

أما القول بأن الشيطان أجراها على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فهو أفحش ما يقوله زنديق ، وأوهن من بيت العنكبوت ، فلا يصح أن يجبره الشيطان عليها ، لأنه ليس له سلطان على عباد الله الصالحين ، فكيف يكون له سلطان على رسوله ، ولا يصح أن يكون أجراها على لسانه سهوا وغفلة ، لأنه لا تجوز على الرسول الغفلة والسهو فى تبليغ الوحى ، ولو جاز عليه مثل ذلك لبطل الاعتماد على قوله ، وكل ذلك مستحيل عقلا ، كما أنه مستحيل شرعاً ، لقوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ولقوله : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

وبعد أن عرفت أن قصة الغرانيق مفتراة ، اخترعها الزنادقة لمحاربة الإسلام ، فعليك أن تتمسك بتفسيرنا السابق للآيات الثلاث ، والله تعالى ولى التوفيق .

(وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾)

المفـردات :

(فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ) : فى شك من القرآن ، أو من الصراط المستقيم . (بَغْتَةً) : فجأة .
(عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) : عذاب يوم لا مثيل له ، فلا راحة فيه ولا رحمة .
(مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ): المراد به : الجنة .

التفسير

٥٥ - (وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة أن أهل مكة سَعْوا فى آيات الله معاجزين . وأن الله تعالى سلّى نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، عن عدائهم للقرآن بأنه ليس أَوْحَدِيًّا فى عداء الكفار لما جاء به ، فما أرسل الله قبله رسولا ولا نبيًّا ، إلا إذا تمنى إيمان قومه ، سعى شياطينهم فى إفساد أمنيته ، بإلقاء الشُّبه فيما جاءهم به ، وأنه تعالى كان يبطل ما يلقيه أولئك الشياطين من الشبه ، بما ينزله محكما فى رد شبهاتهم ، وأن وقوف الشياطين فى سبيل الحق ابتلاء من الله لأمم الأنبياء ، فبه يظهر المنافقون وصرحاء الكافرين على حقيقتهم لأنبيائهم ورسلهم فيحذرونهم ويكافحونهم ، وبه يعرف المؤمنون المطمئنون للحق - بينت الآيات السابقة ذلك - وجاءت هذه الآية لتسجل على شياطين الكافرين من أهل مكة عنادهم فى كفرهم ، وأنهم لا يزالون فى غمرة من الشك بسبب القرآن ، لا يخرجهم منها إلا مجىءُ الساعة فجأة ، أو عذاب يوم لا مَثِيلَ له فى شدته فَيَفِيقون من شكِّهم .

والمعنى : ولا يزال شياطين قريش فى شك من القرآن أو من الرسول ، يجعلهم يقفون فى سبيله ويُحَرِّضون أتباعهم على الكفر به ، حتى تأتيهم ساعة الفناء فجأة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا يستعقب خيرا ، أو لا مثيل له فى شدته ، فهو فى ذلك يشبه المرأة العقيم التى لا تلد ولا تترك عقبا خلفها ، أو كالريح العقيم : « مَاتَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَت عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم [1] » ولا تترك خلفها زرعا ولا ضرعا .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٤٢

والمراد باليوم العقيم : يوم بدر ، فقد كان كارثة حلَّتْ بصناديد قريش وشياطينهم ، فى أَول لقاءٍ لهم مع من أَخرجوهم من ديارهم ، فقد قتل منهم سبعون ، وأُسر سبعون ، ونَاحَتْ نساءُ قريش على قتلاهم شهرا .

وفسره بعض العلماء بيوم القيامة ، حيث يُجْزَى الكافرون بما كانوا يقترفون ، وفسره آخرون بيوم موت كل واحد منهم ، ولعل أَنسب الآراء بالآية التالية هو يوم القيامة ، ففيه يتفرد الله بالملك مَظْهرا ، كما هو متفرد به حقيقة .

٥٦ - (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيم) :

الملك يوم تـأْتيهم الساعة أَو عذابها ، لله وحده بلا شريك فيه حقيقة أَو صورة ، فليس لأَحد فيه تصرف فى أَمر من الأُمور ، لاحقيقة ولامجازًا ، ولا صورة ولا واقعا ، فكل شيءٍ فيه إلى الله ، حتى الشفاعة لا تكون لأَحد : « إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً[1] » فالله تعالى هو الذى يحكم فيه بين عباده ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دنياهم ، مقرهم فى جنات النعيم .

٥٧ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

والذين كفروا فى دنياهم وكذبوا بآيات الله الكونية أَو التنزيلية ، فأُولئك لهم عذاب دائم الإِهانة والإِذلال « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ثم خص الله بعض الفريق الأَول بمزية ، وهم المجاهدون فى سبيل الله فقال :

٥٨ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

أَى : والذين هجروا أَوطانهم فى سبيل الله تعالى ، ثم قتلوا أَثناء جهادهم ، أَو ماتوا حتف أَنوفهم[2] فى هجرتهم بنحو مرض أَو سكتة قلبية ، ليرزقنهم الله الذى هجروا أَوطانهم

(١) سورة طه ، من الآية : ١٠٩

(٢) الذى مات حتف أنفه هو الذى مات بغير أن يقتل فى المعركة ، كونه على فراشه أو نحوه ، والحتف : الموت ، ويضيفه العرب للأنف إذا كان بنحو مرض ، لاعتقادهم أن روحه تخرج فى مثل هذه الحالة من أنفه ، أما الذى يموت جريحا ، فيقولون فيه : مات حتف جراحته ، لظنهم أن روحه تخرج من جراحته .

فى سبيله – ليرزقنهم – فى الجنة رزقاً فائق الحسن على مايعطيه سواهم من المؤمنين غير المهاجرين فى سبيله ، وإن الله الذى اتجهوا بهجرتهم إليه لهو خير الرازقين ، حيث يعطيهم ما يفوق الخيال ، ولا يخطرلهم على بال ، ويمنحهم بغير حساب ، فهو الذى لا تفنى خزائنه ، ولا تنضب موارد نعمه ، ولا غاية لفضله وكرمه .

وهذه الآية نزلت فى عثمان بن مظعون وأبى سلمة بن عبد الأسد ، ماتا بالمدينة مهاجِرَيْن ، ولم يُقتلا فى سبيل الله ، فقال بعض المؤمنين : من قتل فى سبيل الله أفضل ممن مات حتفِ أنفه ، فنزلت هذه الآية مسوِّية بينهما ، لأن كليهما عاهد الله على الموت فى سبيله بهجرته لنصرة دينه .

وقد استدل بالآية فُضَالَةُ بن عُبَيْد – وكان أميرًا بجزيرة رودس – استدل بها على المساواة بينهما فى الأجر ، فقد أخرج ابن أبى حاتم بسنده ، عن أبى قبيل وربيعة ابن سيف المَعَافِرِىِّ قالا : (كنا برُودَس ومعنا فضالة بن عبيدِ الأنصارى صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمر بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفًّى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالُوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا : هذا قتيل فى سبيل الله تعالى ، فقال : والله ما أبالى من أى حضرتيهما بُعِثْتُ ، اسمعوا كتاب الله «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَنًا . .» الآية ، وكان هذا القتيل قد أصيب بقذيفة منجنيق كما جاء فى رواية أخرى له .

والذى نراه أن الآية وإن سوت بينهما فى عموم الرزق الحسن والأجر الجزيل ، لكن ذلك لا يمنع من التفاضل بينهما ، ويؤيد هذا التفاضل أنه – صلى الله عليه وسلم – سئل : أى الجهاد أفضل ؟ فقال : « مَنْ أُهْرِيقَ دمه وعُقِرَ جَوَادُهُ » ومنه يعلم أن من كان من المهاجرين ولم يجاهد ، أو كان من المجاهدين ولكنه لم يكن بهذه الصفة فهو دون من اتصف بها ، والله تعالى أعلم ، ثم بيَّن الله الرزق الحسن الذى أعده لهم فقال :

٥٩ – (لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) :

أى : أنه تعالى وعد هؤلاء المهاجرين بصنفيهم وعدًا مؤكدًا لا خلف فيه ، أنه يدخلهم فى الجنة منزلا فخما ومقاماً كريما يدخلونه وهم يرضونه ويسعدون به ، حيث يجدون

فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين على أعلى مستوى ، وإن الله سبحانه لعليم بأحوال من قضى نحبه ، وسال دمه فى سبيله . ومن مات معاهدًا ربه على الاستشهاد فى نصر دينه ، ولكنه فى هجرته وجهاده مات حتف أنفه ، دون أن يحقق أمنيته فى الاستشهاد فى سبيل ربه ، وكما أنه تعالى عليم بأحوالهما ، فهو حليم بإمهال من قاتلهما حتى يأخذه أخْذَ عزيز مقتدر ، ويذيقه فى الآخرة عذاب السعير ، أو يتوب فيتوب الله عليه .

* (ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(بُغِىَ عَلَيْهِ) : اعتدى عليه .

(عَفُوٌّ) : كثير العفو والمسامحة .

(غَفُورٌ) : واسع المغفرة .

(يُولِجُ) : يدخل .

التفسير

٦٠ - (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ . . . .) الآية .

بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين أن من هاجر فى سبيل الله ثم قتل أو مات فإن الله سيحسن جزاءه بإدخاله مدخلا يرضاه فى الجنة ، وأن يرزقه فيها رزقا حسنا ، وجاءت هذه الآية لتقرير هذا الوعد ، ولإباحة رَدِّ الاعتداء على المعتدى .

والمعنى : الأمر ذلك الذى تقدم بيانه من حسن جزاء المهاجرين الذين قتلوا فى سبيل الله، أو ماتوا ، ثم استأنف الله فبين حق المسلمين فى الأخذ بثأر الذين قتلوا فى سبيل الله فقال ما معناه : ومَن انتَقَم من المعتدين عليه بمثل ما فعلوا به ، ثم بُغِى عليه بالاعتداء مرة ثانية ، لينصرنه الله على من بغى عليه .

وسبب نزول هذه الآية كما قال مقاتل : أن قوما من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر ، فأبوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ما وقع ، فأنزل الله هذه الآية .

وقد عرفنا منها أن من حق الإنسان أن يقابل المعتدى بمثل عدوانه ؛ فالدفاع عن النفس أمر مقرر فى شريعة الله تعالى ، كما أنه أمر معترف به فى جميع الشرائع الوضعية ، وسمى الدفاع عقابا على سبيل المشاكلة والمزاوجة ، مثل قوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ[1] » .

ومثل قوله تعالى : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[2] » وقد أمرنا الله تعالى أن يكون عقابنا للمعتدى مماثلا لعدوانه ، فلا يحل لأحد أن يتجاوز المماثلة فى رد العدوان ، فإذا شَتَم إنسانٌ آخر فلا يكون رد المشتوم قتل الشاتم ، فإن عاد الخصم إلى العدوان ، فبالغ فى بغيه وعدوانه فإن الله سينصر المظلوم على من بغى عليه لا محالة إذا انتقم منه لنفسه ، وعلّل الله نصرته بقوله :

(إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) : لمن أخذ بحقه ، ولم يأخذ بقوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » أى : أنه تعالى مع حبه للعفو والغفران واتصافه بهما ، ينصر المظلوم الذى ينتقم من ظالمه ، إن فعل خلاف الأولى ، وهو الانتقام بدل العفو ، لأنه أخذ بحقه وليس معتديا أولا وآخرا ، وإن كان العفو أقرب إلى التقوى .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤

قال تعالى : « وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[1] » .

ومن رحمته تعالى أنه يمهل العاصى والظالم لعله يثوب إلى رشده ويتوب إلى الله ويصلح ما أفسده فإنه سبحانه – كما وصف نفسه – كثير العفو واسع الغُفْران .

٦١ – (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) أى : ذلك النصر الذى وعده الله لمن بُغِى عليه واقع بسبب أن الله يدخل الليل فى النهار ويدخل النهار فى الليل فيزيد أحدهما بنقص الآخر ، طبقا للنظام الذى وضعه الله لدوران الأرض حول الشمس مائلة على محورها بزاوية معينة مما ينشأ عنه تعاقب الفصول ، ومع كونه سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل فهو عظيم السمع لأنه يسمع كل صوت وإن كان خفيا ، عظيم البصر لأنه يبصر كل مشهد وإن كان نائيا . فإذا وقع ظلم على واحد من عباده فإنه ينصر المظلوم ويردع الظالم ويحق الحق ويبطل الباطل و « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ[2] » .

٦٢ – (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ) أى : ذلك الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم ، ثابت لله تعالى بسبب أنه – سبحانه – هو الإله الحق الذى لاشك فيه ، وهو وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) : وأن ما يعبدون من آلهة أخرى هو الباطل لأنهم « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ولَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً[3] »

(وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ) : وأن الله سبحانه هو العلى على جميع الموجودات ، الكبير عن أن يكون له شريك أو مثيل لأنه الخالق المهيمن المدبِّر « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[4] » .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ٥

(٣) سورة الفرقان ، من الآية : ٣

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(مُخْضَرَّةً) : مكسوة بالنبات الأخضر. (لَطِيفٌ) : بر بعباده محسن إليهم رفيق بهم يشملهم برحمته وفضله. (خَبِيرٌ) : عليم مطلع على مايحتاجون إليه وما يصلحون له وما يصلح لهم. (الْغَنِيُّ) : المستغنى بقدرته عن غيره فلا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه جميع الخلائق (الْحَمِيدُ) : المستحق للحمد والثناء على فضله العظيم .

التفسير

٦٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) :

بعد أن بين الله لعباده قدرته على إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل، وأنه الحق وما يعبدون من دونه هو الباطل ، جاءت هذه الآية شاهدة على تمام قدرته تعالى وبليغ رحمته بعباده .

والمعنى : ألم تر أيها الإنسان أن الله أنزل من السحاب ماء بقدر وحساب دقيق ، أنزله فوق أديم الأرض فتتحول من أرض يابسة جرداء ، إلى أرض مكسوة بالنبات الأخضر الذى تتوقف حياتك عليه ، فبه ترزق ، وعليه يَعيش الحيوان الذى تنتفع به .

(إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) :إن الله رحيم بعباده عالم بما يحتاجون إليه وبما يقيم حياتهم ويكفل معيشتهم فى أمن وسلام .

٦٤ - (لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) :

أى : لله - سبحانه - ما فى السموات وما فى الأرض ومَنْ فيهما خلقا وملكا وتصرفا ، لايخرج شئ عن سلطانه ولايعجزه شئ من الأشياء « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً »[١] .

(وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) : وإن الله لهو المستغنى عن مخلوقاته جميعا لايحتاج إلى أحد منهم ، وهم جميعا يحتاجون إليه .

وهو وحده المستحق للحمد والثناء من خلقه ،لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم وشملهم بلطفه ورحمته .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ) : يَسَّر لكم الانتفاع بما فى الأرض من حيوان أو نبات أو معادن . (الْفُلْكَ) : السفن . (رَءُوفٌ) : مشفق .

(لَكَفُورٌ) : لجاحد للنعمة منكر لها .

التفسير

٦٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ) : من نعمه العديدة حيث يَسَّرلكم الانتفاع بما فيها من حيوان ونبات ومعادن .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٤

(وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : وسخر لكم السفن بعد أن علَّمكم كيف تصنعونها وكيف تستخدمونها فى حملكم وحمل السلع التجارية من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم ، طبقا لسننه فى الأجسام الطافية حيث أجراها بالرياح الجارية ، أو بالمحركات الدائرة التى ألهمكم صنعها .

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) : ومن رحمته سبحانه بخلقه أنه خلق الأجرام والكواكب ، ودفع كلا منها فى مداره المرسوم وربطها برباط الجاذبيَّة طبقا لسننه الكونية . .

وهذه الجاذبية من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها لتسقط عليها ولكنه -سبحانه- جعل فى مقابل الجاذبية مايسميه علماء الفلك بقوة الطرْدِ المركزية ،وهى مساوية لقوة الجاذبية ،فيقع الجرم الفلكى بين قوتين متعادلتين مما يتيح له البقاء متوازيا فى فلكه المرسوم ، ولكن حينما يأذن الله بنهاية الخلق تضعف إحدى القوتين عن نظيرتها فيصطدم بعض الكواكب ببعضها الآخر ، وذلك مايشير إليه قوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ [1] » .

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : إن الله تعالى رحيم بعباده ،مشفق عليهم ،إذ هيَّأ لهم العيش المناسب فوق سطح الأرض وتحت كواكب السماء ، وهم آمنون مطمئنون .

٦٦ - (وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) :

أى : أنه -تعالى- هو الذى وهب عباده الحياة ، وهو الذى يسلبهم إياها عند الموت ، ثم يبعثهم بعد للحساب والجزاء ، فمن حقه عليهم أن يعبدوه ولايكفروه ، ولكنهم أشركوا به وكفروه ، ولذا ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ) :أى : شديد الجحود للنعم العديدة التى يراها فى نفسه وفيما يحيط به فى البر والبحر والأرض والسماء ، إلا من عصم الله من عباده الصالحين .

---

(١) سورة الانفطار ، الآيتان : ١ ، ٢

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(مَنسَكًا) أى : شريعة .

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ) أى : فلا يخاصمُنَّك ولايجادلنك فى أمر الإسلام وتكليفهم به .

(جَادَلُوكَ) : ناقشوك وخاصموك .

التفسير

٦٧ - (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) :

لكل قوم جعلنا شريعة يلتزمون بها ويؤدونها فى الوقت الذى أراده الله لها .

وشريعة الإسلام هى شريعة هذه الأمة التى بعث بها محمد ، فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، فهى ناسخة لما قبلها فلا ينازعَنَّك أهلُ الكتاب فى شأنها ، فهم مكلفون بها .

(وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) :

وادع أهل الكتاب وغيرهم إلى عبادة ربك على الشريعة التى جئتهم بها ، فإنك من دين ربك على طريق مستقيم ، ولا عليك إن استجابوا لك أو أعرضوا عنك .

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ[1]»

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٧٢

٦٨ ـ (وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إذا بلغت رسالتك ـ أيها النبي ـ فلا يضيرنك جدال المجادلين ولا نزاع المخاصمين ، فإن جادلوك فقل لهم : الأمر بيني وبينكم مفوض إلى العليم الحكيم ؛ فإنه يعلم سركم وجهركم ، ويعرف ما تبدون وما تكتمون .

وقد توعدهم الله على جدالهم بقوله :

٦٩ ـ (اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

أي : أمركم جميعا إلى الله يقضي بينكم بحكمه وحكمته يوم يقوم الناس لرب العالمين « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1] »

وفي هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والخطاب فيها عام للمؤمنين والكافرين ، وليس محكيا بالقول كالذي قبله .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾)

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

المفردات :

(يَسِيرٌ) : سهل . (سُلْطَانًا) : دليلا له سلطان . (يَسْطُونَ) : يبطشون .

التفسير

٧٠ـ (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

أَلم تعرف أَن الله يعلم جميع مافى السموات والأَرض من أَجزائهما وما استقرَّ فيهما ، وما يُجْهَرُ فيهما أَو يُسَرُّ من القول أَو العمل؟ وماتكنه القلوب وما تضمره النفوس وكل هذا مسجل عنده فى كتاب قديم كما قال تعالى : « وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[1] .

والمراد به :علم الله-تعالى-فهو يحكم بين الناس عن علم ويقين روىٰ مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عَمْرو عن النبى -صلى الله عليه وسلم- : «إِن الله قدر مقادِير الْخلائق قَبل خَلْق السَّموَاتِ والأَرْض . . . » الحديث .

وقد دَوَّنَ سبحانه هذه الأَحداث فى اللوح المحفوظ طبقا لعلمه ، وأَنزلها بحسب بمشيئته فى الوقت الذى قدَّره سبحانه .

وإِن هذه المعرفة يسيرة على خالق الكائنات ومالكها والمدبر لها بما يملكه من قوة وسلطان وتدبير وإِحكام .

٧١ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَالَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ) :

أَى :أَن هؤُلاء المشركين يتجهون بالعباذة والتقديس إِلى غير الله الذى خلق السماء والأَرض ،وعلم كل شىءٍ فيهما ، يفعلون ذلك دون اعتماد على برهان عقلى أَو كتاب سماوى .

(١) سورة النمل ، الآية : ٧٥

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) : وما لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من معين يؤيدهم فى هذا الانحراف ويعاونهم فيما لجُّوا فيه من ضلال وكفر ، أو ينقذهم مما ينتظرهم من عقاب .

٧٢ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ) :

وإذا تلا عليهم قارئ آياتِ الله البينات الواضحات ضاقوا بها ذَرْعاً وظهر الضيق والضجر على وجوههم ؛ لأنهم بطبيعتهم المنحرفة ، وتفكيرهم السقيم ، يؤْثرون الضلال على الهدى (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) : يهمون أن يبطشوا بمن يقرأُ عليهم آيات الله البينات ضيقا به وغيظا منه .

(قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : قل لهم : أَأُعظكم وأُخبركم بما هو أسوأُ من ضيقكم بالدعوة إلى الله وتفكيركم فى البطش بالداعين إليه ، أَسوأُ من ذلكم نار جهنم التى أعدها الله وتوعد بها من انصرفوا عن الهدى إلى الضلال وعن الإيمان إلى الكفران ، وساءَ المرجع والمصير الذى اخترتموه لأنفسكم بما فطرتم عليه من جهلٍ وعناد .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(ضُرِبَ مَثَلٌ) : بُيِّنَتْ لكم حالٌ مستغربة.

(تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) : تعبدونهم غير الله :

(اجْتَمَعُوا لَهُ) : احتشدوا وتعاونوا.

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) : الطالب : الآلهة ، والمطلوب : الذباب ، وقيل العكس ، وقيل الطالب العابد والمطلوب المعبود .

التفسير

٧٣ - (يَـاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) :

يا أيها الناس إن الله -سبحانه- يبصركم بحقائق الأُمور عن طريق ضرب الأَمثلة الحسية الواقعية فَأَصْغُوا إليها واستمعوا لها .

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) : إن الذين تعبدونهم من دون الله عاجزون عن خلق الذباب ، وهو حشرة ضعيفة مهينة ، فكيف تعبدونهم دون من خلق الأَرض والسموات ومن فيهن وتكفل برزقهم وتدبير أُمورهم ؟ وهذه الآلهة المدعاة لاتستطيع خلق الذباب ولا عضوا واحدا من أَعضاء الذباب ، ولو تساندوا جميعا وتعاونوا وحشدوا كل طاقاتهم . . ووصل أَمرها من الضعف إلى ما صوره الله بقوله :

(وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ): أَى : وهذا الذباب إن يأْخذ من هذه الأَوثان شيئا من نحو الطعام الذى يوضع أَمامها قربانا لاتستطيع استرداده منه ، وقد ختم الله الآية بما يفيد سوءَ حال الأَصنام وعابديها فقال :

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ): أَى : ضعف الإله والذباب ، أَو الذباب والآلِهَة ، فكيف استساغت عقولهم أَن يعبدوا تلك الأَوثان ، ويقدسوها ، ويسندوا إليها النصر والرزق والمطر والصحة والمرض ، وهى بهذا الضعف الذى صوره الله بما يقتضى الرثاءَ لعابديها ؟ .

(مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(قَدَرُوا اللهَ) : تبينوا عظمته وقدرته وسلطانه .

(قَوِيٌّ) : قاهر لايغلب . (عَزِيزٌ) : منيع لايضام .

(يَصْطَفِي) : يختار . (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : ما يستقبلونه .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : وما يستدبرونه

التفسير

٧٤ - (مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) :

أى : ماعرفوا عظمة الله وجلاله وقدرته وسلطانه حَقَّ المعرفة ، فانصرفوا عن عبادته وتقديسه إلى عبادة الآلهة الضعيفة المهينة العاجزة .

(إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) : إن الله سبحانه قوى عظيم القوة والسلطان ، وكل ما سواه ضعيف عاجز ، والله سبحانه عزيز لا يُنال وغالب على أمره ، وسواه مهين ضعيف ذليل مغلوب .

٧٥ - (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) :

أى : أن الله سبحانه يحيط علمه بكل شئ ، فلهذا يعلم مَنْ هو أَهلٌ للرسالة من الملائكة ومن البشر ، فينزل شرائعه عن طريق الروح الأمين ، علىٰ مَنْ يختاره مِنَ البشر لتبليغ شرائعه إلى الناس . وفى ذلك يقول سبحانه : «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1]» ويقول أيضا : «وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[2]» يقال : إن الوليد بن المغيرة استكثر الرسالة على محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا[3] » فنزل قوله تعالى :

(اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) : ردًّا عليه وتحقيقا للحق (إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) : إن الله سبحانه عظيم السمع يسمع كل صوت وإن كان خفيًّا ، شامل البصر يرى كل مشهد وإن كان دقيقاً أو قَصِيًّا ؛ فهو سبحانه محيط بكل شئ علما .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢٤ (٢) سورة الدخان ، الآية : ٣٢

(٣) سورة ص ، من الآية : ٨

٧٦ ـ (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) :

أى : أنه ـ تعالى ـ يعلم ما يستقبلونه من أحداث ويعلم ما يخلفونه من آثار ، قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ونَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ [1] » .
وإليه وحده المرجع والمآب ؛ فالكل منه وإليه وجميع الكائنات مردها إلى الله ، وهو بها جميعا بصير عليم .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ۩ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(اجْتَبَاكُمْ) : اختاركم واصطفاكم .

(حَرَجٍ) : ضيق أو شدة .

(مِلَّةَ) : شريعة .

(مَوْلَاكُمْ) : ربكم ومالك أمركم ومدبر شئونكم .

(النَّصِيرُ) : المعين .

---

(١) سورة يس ، الآية : ١٢

التفسير

٧٧ـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) :

بعد أن فرغت الآيات الكريمة من مجادلة المشركين وتسفيه آرائهم ،اتجهت إلى مخاطبة المؤمنين بندائهم بما امتازوا به من تكريم ، وتنبيههم إلى أن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان ونتيجته ،وفى مقدمة الأعمال الصالحة الصلاة لأنها علامة الإيمان وعماد الدين وقد عبر عنها بالركوع والسجود لأنهما سمة الخشوع والخضوع اللذين هما قِوام الصلاة ، فالمقصود بالأمر بهما : الأمرُ بإقامة الصلاة بكل ما تشتمل عليه منهما ومن غيرهما ثم أمرهم باستكمال موجبات الإيمان فقال :

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :أى ؛ اعبدوا خالقكم ومالككم ومربيكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه والاتجاه إليه وحده بالعبادة والتقديس ، فهو الرب المنعم المتفضل ، وافعلوا ماقدرتم عليه من الخير ، لتنالوا الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

وبما أن الإسلام له أعداءٌ يتربصون به ، فلذا أمرهم الله بالجهاد فى سبيله فقال :

(وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ): والجهاد فى الإسلام؛ يشمل مقاومة أعدائه الواقفين فى سبيل نشره المعادين له ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [(١)] ».كما يشمل مقاومة نزغات النفس وشهواتها وأهوائها ، روى البيهقى والخطيب عن جابر : أنَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قفل من إحدى الغزوات فقال لأصحابه : « قَدِمتُم خير مقدم ، وقدِمْتُم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وفسر الجهاد : الأكبر بأنه مجاهدة العبد هواه ؛ وأفضل الجهاد : مقاومة الظلم ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) أخرجه ابن ماجه ، والخطيب ، وأحمد والطبرانى ، والبيهقى .

(١) سورة التحريم ، الآية : ٩

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ) : هو اصطفاكم لحمل خاتم الأديان ونشر رسالته ، فأرسل إليكم أفضل الأنبياء ، وأنزل إليكم أكرم الكتب السماوية ؛ وأتم عليكم نعمته بالتأييد والنصر .

(ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) : ولم يكلفكم مايشق عليكم ويسبب لكم الضيق والحرج : فإنه سبحانه لايكلف نفسا إلا وسعها . وهو تبارك وتعالى ييسر الأمور :

«يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [1] » .

ومن لطفه وتيسيره :أنه أباج لنا قصر الصلاة والإفطار فى السفر الطويل .وأباح لنا التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله . والقعود فى الصلاة عند تعذر القيام فيها .

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) : فالزموا الإسلام الذى هو ملة أبيكم إبراهيم؛فهو الذى بنى لكم البيت ودعاكم إلى حجه والصلاة إليه . بتكليف من الله - سبحانه وتعالى - ودعا الله أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة بقوله : «رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ ومِن ذُرِّيَّتِى [2] » .

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذا) :

هو الله -سبحانه- الذى سماكم بهذا الاسم وارتضى لكم الإسلام دينا من قديم ،وأمركم به فى هذا القرآن الكريم حيث قال فيه : «فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [3] »

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ) :

ولما كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية ، وقد أبلغه الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الله إلى أمته بما يحويه من أوامر ونواه ،وبما فيه من قصص الرسل والأنبياء السابقين فلهذا يشهد الرسول بأنه بلغ رسالة الإسلام إلى أمته ؛ويشهد المسلمون منهم على الأمم السابقة بما قصه عليهم القرآن من تبليغ رسلهم شرائع الله إلى أممهم .

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ):أى؛ وإذا كان الله تعالى منحكم هذا الشرف العظيم ، حيث جعلكم شهداء على الناس ، فتقربوا إليه - سبحانه - بأنواع الطاعات ، وأخصها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥.
(٢) سورة إبراهيم ، من الآية : ٤٠
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٣٤

(وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) :

والتجئوا إلى الله، وتحصنوا به لحمايتكم من الأعداء ومن نزغات الأهواء، فإنه ربكم وخالقكم والمدبر لأموركم، والمهيمن عليكم الحافظ لكم « وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [1] » فما أعظم وأكرم الرب المنعم المتفضل الحفيظ. وما أعظم النصير المعين الذى يحفظ من يلوذ به ومن يحتمى بحماه وينصره على مَنْ عاداه.

« فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » [2] .

تصحيح

ورد فى الصفحة (رقم ١١٥٧) من الحزب الثالث والثلاثين، ان جيش مصر هزم التتار فى معركة (مرج دابق) والصواب أنه هزمهم فى معركة (عين جالوت) فنرجو من القارىء ان يصحح نسخته، ونعتذر له عن هذا السهو وشكرا.

---

(١) سورة آل عمران، من الآية : ١٠١ (٢) سورة يوسف، من الآية : ٦٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الخامس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون مكية

وآياتها ثمانى عشرة ومائة

مقاصدها :

بدأت هذه السورة ببشارة المؤمنين بالفلاح والخلود فى الفردوس ، إذا خشعوا فى صلاتهم وحافظوا عليها ، وأعرضوا عن اللغو وأدوا الزكاة ، وحفظوا فروجهم من الفاحشة ، وراعوا الأمانة والعهد .

وعقبت هذه البشرى ببيان منشأ الإنسان ومآله ، وأنه سبحانه خلق من فوقنا سبع سموات طباقا ، وأنه لا يغفل عن خلقه طرفة عين ، ولهذا أنزل من السحاب ماء أجراه فى مجارى فوق سطح الأرض ، وأسكن بعضه فى جوفها ، ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه ، وأنه أنشأ لنا بهذا الماء الزروع والثمار لنأكل ونتعيش منها ، وخلق لنا الأنعام وجعلها عبرة لنا ، فمن بطونها نشرب اللبن ، ومن لحومها نأكل ، وبمنافعها الكثيرة ننتفع ، وعلى الإبل منها نحمل ثقال الأحمال ، كما نحمل على السفن .

وبينت قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد جاء فيها أن هذه الأمم لم تشكر نعم ربها بتوحيده وعبادته ، بل أشركت معه غيره من مخلوقاته ، فبعث إليها رسله ليهدوهم سواء السبيل ، فكذبوهم فعاقبهم الله بعذاب الاستئصال ، ونجّى منه عباده المؤمنين .

وذكرت من أنباء المهلكين : قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان ، وقوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ، وفرعون وجنوده ، كفروا بموسى وهرون فأغرقهم فى اليم .

وعقبت قصة فرعون معهما ببيان أن الله تعالى جعل ابن مريم وأمه آية ، لأنه ولد منها دون أب ، وأنه تعالى آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح ، وأنه شرع للرسل وأممهم أن يأكلوا من الطيبات ، ويتركوا ما حرمه الله عليهم ، وأن جميع الأمم أمة وديانة واحدة هى توحيد الله ، وأصول الشرائع والأحكام – وإن اختلفت فى الفروع –

وأنه يجب على الناس جميعا أن يتقوه دون سواه ، ولكن الناس تقطعوا دينهم وابتدعوا فى دين الله ما ليس منه ، وقد توعدهم الله بالعقاب على هذا التفرق فى الدين الحق .

ثم مدحت المؤمنين الذين يخشون ربهم ولا يشركون به ، ويسبقون إلى الخيرات ، وذكرت أنه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأن هؤلاء المترفين الكافرين سيؤخذون بالعذاب فيجأرون مستغيثين ولا مغيث لهم ولا ناصر ، لأن آياته تعالى كانت تتلى عليهم فكانوا يستكبرون ولا يؤمنون .

وبينت أنه لو اتبع الحق أهواء الناس لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه تعالى بعث محمدا بالقرآن إلى قريش ، ومع أنه شرف لهم أعرضوا عنه ، فى حين أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ، إن يريد إلا الإصلاح ، وبينت أنه تعالى عاقبهم عقابا غير شديد فى الدنيا على كفرهم ، ولكنهم لم يستكينوا لربهم وما يتضرعون ، وأنه إذا فتح عليهم بابا ذا عذاب شديد فسيُبلسون ويتحيرون .

وقد ذكرتهم بنعم السمع والبصر والفؤاد ، وأنهم سوف يحشرون إليه بعد الموت ، وبدلاً من الإيمان كفروا بالبعث وقالوا : « إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

ثم ذكرت أن الله أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يُجْرى معهم حوارا : لمن الأرض ومن فيها ؟ مَنْ رب السموات السبع ورب العرش العظم ؟ مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض وهو يُجِيرُ ولا يُجَار عليه ؟ وبينت أنهم سيقولون فى كل ذلك : لله ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يتعظون ، بل يُصِرُّون على الإشراك ، وذكرت أن الموت إذا جاءهم فسيندمون على تقصيرهم ، فيطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا ، وأنه لا سبيل إلى إجابة ملتمسهم ، ثم بينت أحوال الناس يوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه بالعمل الصالح فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه بسبب العمل السيء والكفر ، فهم « فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » وبينت أنهم يعترفون ويقولون :

« رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » وأنه تعالى يجيبهم بقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ . رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوآ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ » ثم خُتِمت السورة ببيان أنه تعالى لم يخلق عباده عبثا ، وأنهم سيرجعون إليه للحساب والجزاء ، وبينت أن مَن يدعو مع الله إلها آخر فحسابه عنيف عند ربه ، وأنه تعالى هو الذى يُطْلَب منه الغفران والرحمة لمن هم أهل لهما « وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) : الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، والإفلاح الدخول فى الفلاح ، كالإبشار الدخول فى البشارة . (خَاشِعُونَ) : خاضعون متذللون . (اللَّغْوِ) : ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال (وَرَاءَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك . (الْعَادُونَ) : المبالغون فى العدوان (رَاعُونَ) : حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان بتغذيته ودفع العدو عنه ، ثم استعمل فى الحفظ مطلقاً . (الْفِرْدَوْسَ) : المراد به هنا : أعلى درجات الجنان فى الآخرة .

التفسير

١ ، ٢ ـ (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) :

جاء فى خواتيم سورة الحج قبلها تكليف المؤمنين بالصلاة وعبادة ربهم لكى يفلحوا ويفوزوا بفضله ورحمته ، وذلك فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا

وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » فكان من المناسب أن تبدأ هذه السورة بما يؤكد فلاح المؤمنين المصلحين العابدين ، الخاشعين المتقين ، ولفظ (قدْ) يفيد تحقيق المتوقع وتثبيته ، وكان المؤمنون يتوقعون البشارة بفلاحهم ، لإيمانهم وتوحيد ربهم فأُخبروا بتحقق ما توقعوه وثباته ، إذا قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ، والمؤمنون فى اللغة : المصدقون مطلقًا ، وفى الشرع : المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وحدانية الله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبجزاء المحسنين والمسيئين فيه ، وأن يخلو تصديقهم هذا عن الرياء والنفاق والشك .

والخشوع فى الصلاة : سكون الجوارح والتذلل وحضور القلب ، وجمع الهمة لها والإعراض عما سواها ، وأن لا يجاوز البَصَرُ المُصَلَّى ، فلا يلتفت المصلى يَمْنَةً ولا يسرة ، ولا يعبث بلحيته ولا بثيابه ونحو ذلك .

وقال أبو الدرداء يصف الخشوع : هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

والخشوع محله القلب ، وله السلطان على الجوارح ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح لخشوعه ، قال القرطبى : كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها ، يهاب الرحمن أن يحدَّ بصرَه إلى شىء ، وأن يحدث نفسه بشىء من الدنيا ـ وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول بسنده إلى أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » كما أخرج بسنده عن أم رومان والدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (رآنى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أتميَّل فى صلاتى ، فزجرنى زجرة كدت أنصرف عن صلاتى) ثم قال : واختلف الناس فى الخشوع : أهو من فرائض الصلاة أم من فضائلها ، ورجح بعضهم الأول ، وأضيفت الصلاة إلى المصلين فى قوله تعالى : « الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » ولم تضف إلى الله الذى يصلون له ؛ لأنهم المنتفعون بثوابها ، فهى عُدَّتهم وذخيرتهم ، وأما المولى ـ سبحانه ـ فهو غنى عنهم وعن عبادتهم .

وَلْيَعْلم المؤْمن أَن العمل الصالح ثمرة الإِيمان الصادق ، فمن لا عمل له فإِيمانه واهن ضعيف بل هو ميت لا أَثر للحياة فيه ، فهو كالشجرة الجافة ، لا ورق لها ولا ثمر ، ولهذا مثل الله تعالى كلمة الإِيمان الصادق بقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(١) .

وقد جاءَ فى فضل هذه الآيات التى صدرت بها سورة (المؤمنون) وثواب من يعمل بها. جاءَ فى ذلك حديث أَخرجه الإِمام أَحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال : « كان إذا نزل على رسول الله – صلى‌الله‌عليه‌وسلم – الوحى ، يُسْمَعُ عند وجهه دوىٌّ كدوى النحل ، فمكثنا ساعة فسرِّىَ عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأَكرمنا ولا تهنا ، وأَعطنا ولا تحرمنا ، وآثِرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأَرضِنا » ثم قال : « لقد أُنْزِلَتْ علىَّ عشر آيات من أَقامهن دخل الجنة » ثم قرأَ : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى ختم العشر ، وسئلت عائشة – رضى الله عنها – : كيف كان خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟ فقرأَت : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى انتهت إلى : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ » قالت : هكذا كان خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – » أَخرجه النسائى فى تفسيره(٢) وقد وعد الله المؤمنين فى هذه الآيات بميراث الفردوس والخلود فيه إذا اتصفوا بصفات سِتٍّ (أَولاها) الخشوع فى الصلاة ، وقد سبق الحديث عنه ، وفيما يلى : الحديث عن باقى الصفات :

٣ ، ٤ – (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) :

تضمنت هاتان الآيتان صفتين أُخريين للمؤمنين المفلحين بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة ، الصفة الأُولى منهما : إعراضهم عن اللغو وبعدهم عنه ، وفسره ابن عباس بالباطل ، وقال الآلوسى : وقد يُسَمى كل كلام قبيح : لغوًا ، وعمَّم بعضهم اللغو فجعله يشمل كل مالا يعتد به من الأَقوال والأَفعال ، وشاع فى كل كلام يقوله صاحبه لا عن روية وفكر ، فهو

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٢) انظره والحديث الذى قبله فى تفسير ابن كثير لأول (المؤمنون) .

يجرى مجرى اللَّغاء ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، والصفة الثانية منهما أداؤهم الزكاة ، والمراد من الزكاة هنا : زكاة أموالهم ، ولا ينافى هذا كون السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، لأن التى فرضت بالمدينة هى ذات النُّصُب والمقادير الخاصة ، وهذه غير التى فرضها الله بمكة ، فقد كانت غير مشروطة بمقدار ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام - وهى مكية - : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[1] ومن العلماء من فسر الزكاة هنا بزكاة النفس مراعاة لمكية الآية ، كقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا » .

والمعنى : والذين هم لأجل زكاة نفوسهم يفعلون ما يفعلون من الطاعات .

٥ ، ٦ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان صفة رابعة للمؤمنين الذين يفوزون بجنة الفردوس ، وهى حفظهم لفروجهم من الزنى ، والفَرْج يشمل سوءة الرجل والمرأة ، فالمراد به عضو التناسل من كل منهما ، ولفظ (عَلَى) فى قوله : (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ) بمعنى : (مِن) كما قاله الفراء وغيره ، أى : حافظون لفروجهم إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، والأزواج جمع زوج ، وهو يطلق على كل من الرجل والمرأة المتزوجين ، فكلاهما زَاوَجَ الآخر أى ثاناه ، بأن جعله مع نفسه اثنين ، والمراد مما ملكت أيمانهم السُّرِّيات[2] وهُنَّ (الإماء) المأخوذات فى غنائم الحرب ، دون المختطفات من أهلهن ، فلا يحل بيعهن ولا شراؤهن ، ولا الاستمتاع بهن عن طريق ملك اليمين ، فهن حرائر مغتصبات فلا سبيل إلى تملكهن ، ومن اشتراهن وهو يعلم بحالهن فشراؤه غير صحيح ، والاستمتاع بهن زنى .

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا لوم ولا إثم على المؤمنين فى غشيان زوجاتهم وإمائهم ، ولا على المؤمنات فى مباشرة أزواجهن لهن ، أما عبيدهن فلا حَقَّ لهم فى الاستمتاع بهن بالإجماع[3] ، لأنه مملوك لها وليس مالكًا فهى قوَّامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمته فإنه مالك لها وقوَّام عليها .

---

(١) الآية : ١٤١

(٢) جمع سرية - بضم السين - منسوبة إلى السر بكسرها على غير قياس ، كما قالوا فى النسبة إلى الدهر دهرى ، وإلى الأرض السهلة : سهلى - بضم الأول فى كليهما - انظر المادة فى القاموس . (٣) وإن كان ظاهر الآية يخالفه.

روى معمر عن قتادة قال : تسرَّرَت امرأة غلامها[١] ، فذُكِرَ ذلك لعُمَر فسألها : ماحملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لى بملك يمينى ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر فى رَجْمِهَا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقالوا : تَأَوَّلَتْ كتاب الله على غير تأْويله فلا رجم عليها ، فقال عمر : لا جرم. والله لَا أُحِلُّكِ لحُرٌّ بعده أبدًا ، عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرتُ عمر بن عبد العزيز ، حين جاءته امرأة بغلام لها وضئ ، فقالت : إنى استسْرَرْتُه فمنعنى بنو عمى من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فانْهَ عنى بنى عمى ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم ، فقال : أما والله لولَا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يَخرج به إلى غير بلدها.[٢]

٧ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى : فمن طلب سوى الزوجات والإماء لقضاء شهوته ، فَأُولَٰئِكَ هم المجاوزون الحد فى الإثم والعدوان .

وبهذه الآية حرم إتيان الذكور والبهائم ، كما حرم نكاح المتعة ، وهو نكاح المرأة إلى أجل بمقابل ، وكان مباحًا فى الجاهلية ، فلما نزلت هذه الآية حرمته ، وهذا يقتضى أن تحريمها كان قبل الهجرة لأَنَّ السورة مكية ، لكن ورد تحريمها بعد الهجرة ثلاث مرات ، (إحداها) يوم خيبر[٣] . (وثانيتها) يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، وكان قد أحلها يومئذ ثلاثة أيام ثم حرمها[٤] . (وثالثتها) كانت فى حجة الوداع وكان التحريم فيها أبديًّا أخرجه أبو داود[٥] .

(١) أى جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى : الجماع .
(٢) انظر القرطبى فيها وفى التى قبلها ج ١٢ ص ١٠٧ طبع دار الكتب .
(٣) وقد اتفقت عليه روايتا البخارى ومسلم .
(٤) رواه الإمام مسلم .
(٥) انظره فى شرح النووى لمسلم .

ويرجع تحليلها فى بعض الغزوات ، إلى الترخيص لهم بما ألفوه قبل الإسلام فى سفرهم وحروبهم ، تأليفًا لهم وتدرجًا معهم فى التشريع ، فلما تشبعت نفوسهم بدينهم ، حرمه الله إلى الأبد .

وقد علق الإمام النووى على الحديث الأول من أحاديث المتعة عند مسلم- علّق عليه- بكلام نفيس ، ثم قال : قال القاضى[1] : واتفق العلماءُ على أن هذه المتعة كانت نكاحًا إلى أجل لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلّا الروافض ، وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول بإباحتها ، وروى عنه : أنه رجع عنه .

قال[2] : وأجمعوا على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن ، حكم ببطلانه ، سواءٌ كان قبل الدخول أو بعده إلى آخر ما قال.فارجع إن شئت إلى باب نكاح المتعة فى كتاب أحكام النكاح تعليق الإمام النووى على الإمام مسلم، وقد أسهب الآلوسى فى الكتابة على هذه الآية ، فمن شاء المزيد فليرجع إليه .

ومما ذكره فيها : أن الأئمة اختلفوا فى استمناء-الرجل بيده ، وأن جمهور الأئمة على تحريمه ، لدخوله تحت عموم قوله تعالى : « فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » وذكر أن الإمام أحمد يجيزه ، لأن المنى فضلة فى البدن فجاز إخراجها عند الحاجة ، كالفصد والحجامة . وعزز بعض العلماء رأى الجمهور بحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ناكح اليد ملعون » ، كما عززه بقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ » وهذا الاستمناءُ يقرب صاحبه من الزنى ،فلهذا يكون منهيًا عنه ومحرمًا .

٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

هذه هى الصفة الخامسة للمؤمنين الموعودين بالفوز وميراث الفردوس ،وهى رعايتهم لأماناتهم وعهدهم ،والمراد بأماناتهم : ما ائتُمِنُوا عليه من جهة الله وهى التكاليف الشرعية التى كلف الله عباده بها ، كالصلاة والصوم والزكاة وترك الخمر والميسر ، أو من جهة الناس وهى ودائعهم من الأموال والأسرار .

---

(١) يعنى القاضى عياضا .

(٢) أى : قال القاضى عياض .

والمراد بعهدهم : ما عاهدوا الله عليه بالأيمان والنذور ، وما عاهدوا الناس عليه بالعقود والوعود ، وجمعت الأمانة فى الآية دون العهد ، لكثرة الأمانات من جهة الله ومن جهة الناس ، وقد أثنى الله عليهم ، بأنهم مراعون للأمانات والعهود بأنواعها ، حافظون لها قائمون بحقوقها .

٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

هذه هى الصفة السادسة للمؤمنين المفلحين ، والمراد من الصلوات : الصلوات المفروضة ، كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن عكرمة ، والمراد من المحافظة عليها : أداؤها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ، والتعبير بقوله : (يُحَافِظُونَ) بدل (محافظون) لما فى الصلاة من التجدد والتكرار الذى توافقه صيغة الفعل المضارع .

وقد ذكرت الصلاة فى أوصاف المؤمنين مرتين ولا تكرار فيها ، فإن ذكرها أولاً للحث على الخشوع فيها لأهميته ، وذكرها أخيراً للمحافظة عليها فى جميع مطالبها . وكلاهما يدل على فضل الصلاة وعظيم منزلتها عند الله تعالى ، ولهذا فرضها الله فى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، وفرض سواها وَحْيًا على محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الأرض .

١٠ - (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) .

أى : أُولٰئِكَ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة هم الجديرون بأن يسموا وُرَّاثًا دون من عداهم ممن يرثون نفائس الأموال والحلى وغيرها من متاع الدنيا ، فإنه عرض زائل ، وما عند الله خيرٌ وَأَبْقَى ، ثم شرح ميراثهم فقال :

١١ - (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

والفردوس فى اللغة - كما قال صاحب القاموس - : هو البستان يَجْمَعُ كل مايكون فى البساتين ، وقد يؤنث .

وهو فى الآخرة أعلى درجات الجنان ، ففى الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمٰن » أخرجه البخارى ومسلم .

وعبر عن استحقاقهم الفردوس بالميراث لما روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ما منكم من أحد إلّا وله منزلان ، منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) » أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة ، وابن جرير عن أبى معاوية بإسناده إليه .

وقيل : الإرث مستعار للاستحقاق ، لأنه أقوى أسباب الملك .

المعنى الاجمالى للآيات السابقة :

١ ـ قد فاز المؤمنون بما أمّلوه فى مولاهم ، فقد قضى بنيلهم ما يطلبون ، ونجاتهم مما يرهبون ويخافون ، جزاء إيمانهم واتصافهم بالصفات الكريمة التالية :

٢ ـ الذين هم فى صلاتهم متذللون خاضعون ، جوارحهم ساكنة ، وقلوبهم حاضرة ، وعقولهم مجتمعة غير مشتتة ، يخلصون المقال ، ويعظمون المقام ، فهم ماثلون أمام مالك الملكوت ، ورب العزة والجبروت ..

٣ ـ والذين هم فى سلوكهم مع الناس ، بعيدون عن ساقط الكلام وبذله ، ورد‌ئ الفعل وعابثه ، فإذا نطقوا فبخير ، وإذا فعلوا فبرويّة وفكر .

٤ ـ والذين هم لزكاة أموالهم مؤدون ، ومن أجل طهارة نفوسهم يفعلون من الطاعات ما يفعلون .

٥ ، ٦ ـ والذين هم لسوءاتهم ومواضع العفة منهم حافظون إلّا من زوجاتهم أو جواريهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهن ، فهن حلال لهم .

٧ ـ فمن طلب غير الزوجات والسرارى لقضاء شهوته سفاحًا ، فأُولٰئِكَ هُمُ المعتدون ولحدود الله مجاوزون ، ولعقابه فى الدنيا والآخرة مستحقون .

٨ ـ والذين هم لما ائتمنوا عليه من التكاليف الشرعية وودائع الناس وأسرارهم حافظون لها ، مؤدون حقوقها ، قائمون بواجباتها .

٩ ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ، ففى أوقاتها يؤدون ، وبأركانها وشروطها يلتزمون .

١٠ ، ١١ - أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بأن يوصفوا بالوارثين ، فإنهم يرثون فى الآخرة جنة الفردوس أعلى الجنان ، ومن فوقها عرش الرحمن هم فيها خالدون ، لا يَخْرُجون ولا يُخْرَجون ، أما الوارثون فى الدنيا للأموال والنفائس ، والرباع والقصور ، فهم وما ورثوه زائلون وعنه مسئولون .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) السلالة : ما سُلَّ من الشىء واستخرج منه ، أى : مِنْ مُسْتَخْرج ومستخلص من الطين . (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً) : صيرناه نطفة ، أى : منيًّا ، وهى مأخوذة من النطف : وهو التقاطر ، وقال الراغب: النطفة : الماءُ الصافى ، ويعبر به عن ماء الرجل. ا هـ . وكان عليه أن يقول : عن ماءِ الرجل والمرأة ، لأن الجنين يتخلق من مائهما .

(مَكِينٍ) : متمكن ثابت . (عَلَقَةً) : هى ما يعلق بغيره ، وسيأتى بيان المراد منها فى الشرح . (مُضْغَةً) أى : قطعة لحم بقدر ما يمضغ .

التفسير

١٢ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة صفات السعداء التى استحقوا بها الجنة ، وجاءت هذه الآية والآيات التالية لها لبيان ما خلقوا منه هم وغيرهم ، وما ينتهون إليه ، حثًّا لهم على استدامة

ما هم فيه من الصفات الكريمة ، وتذكيراً لغيرهم بمبدئهم ومنتهاهم ، ليعملوا لآخرتهم ، ويتقوا سوء المصير .

والمراد من الإنسان فى الآية : الجنس ، فكل أفراد هذا الجنس خلقهم الله من خلاصة مستخرجة من الطين ، كما جاء فى النص الكريم ، وذلك باعتبار أصلهم الأول آدم - عليه السلام - فهم مخلوقون من الطين تبعًا لخلقه منه ، أو باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها خلاصة مستلة ومأخوذة من أغذية ناشئة ونابتة من الطين .

١٣ - (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ) :

ثم حولنا الإنسان وصيرناه نطفة ومنيًّا فى قرار مكين بعد استلاله من طين ، ولفظ (ثُمَّ) هنا إما : للترتيب فى الخلق والتراخى فى الزمن ، أو للترتيب والبعد فى المنزلة والرتبة ، فإن تحويله من خلاصة من طين ، إلى منى مشتمل على حيوانات منوية لا حصر لها فى ماء الرجل وعلى بويضة وحيدة فى ماء المرأة ، فيه انتقال من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى ومنزلة أبعد وأسمى ، وهذا المعنى هو المناسب لما ختمت به الآيات ، وهو قوله تعالى : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ومثل ذلك يقال فى الآية التالية .

والمراد من القرار المكين : الرحم ، فهو مقر متمكن فى موضعه ، وحرز حريز للنطفة وما يطرأ عليها من التطورات ، فلا يخاف عليها فيه من حركة الأم وتنقلاتها وعملها حتى تضع حملها بسلام .

١٤ - (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

تقدم الكلام مستوفى على مثل ما جاء فى هذه الآية فى صدر سورة الحج ، حيث بيَّنا هناك كيف تتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ، وأطوار تكوين الجنين فى أشهر الحمل وأوزانه ، وأن الحياة موجودة فيه منذ تكوين الخلية الأولى بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى ، وأن المقصود من نفخ الروح فيه فى نهاية طور المضغة هو إعطاء الجنين دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم تصويره المبدئى ، ولهذا لا نرى داعيًا

لإعادة الكلام هنا تفصيلًا فيها ، فمن شاء فليرجع إلى ما قلناه فى تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ . . . »[1] .

والمعنى : ثم صيرنا النطفة البيضاء خلايا عالقة بجدار الرحم أجرينا عليها التحويل من حال إلى حال فصيرناها بهذا التحويل والتصوير مضغة - أى : قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ ، فيها معالم الانسان الأولية ، فصيرنا بعض هذه المضغة عظامًا متطورة ممتدة فى ثناياها أثناء تخليقها وتصويرها ، فكسونا تلك العظام لحمًا وأحطناها به ، ليتم للجنين تلك الصورة البديعة ، ثم حولناه بعد تمام التكوين والتصوير وأنشأناه مخلوقًا آخر مباينًا لخلقه الأول ، فقد أصبح إنسانًا سويًا جميلًا وسيمًا ، بعد أن كان منيًا ثم علقة ثم مضغة .

(فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

أى : فتعالى الله أحسن الخالقين خلقًا ، وتقدس أعظم المقدرين المبدعين تقديرًا وإبداعًا حيث أنشأ هذا الجمال الإنسانى من تراب ثم من نطفة ثم من علقة فمضغة ، وعُدِل عن أسلوب التكلم فى نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا » فأسند الفعل هنا إلى لفظ الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وللإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة ، إنما هو من أحكام الألوهية وآثارها ، وللإيذان بأن حق من سمع ما فُصِّل من آثار قدرته تعالى أو تدبَّره أن يقول : « تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى .

وَالْخَلْق معناه فى اللغة : التقدير ، وهو لهذا يصح أن يطلق على غيره تعالى ، كما فى قوله سبحانه : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر من الطين تمثالًا وتصوره كهيئة الطير ، ولهذا عبر هنا بصيغة أفعل التفضيل (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

١٥ ، ١٦ - (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) :

ثم إنكم يا بنى الإنسان بعد ذلك الخلق العجيب لمنتهون إلى الموت لا محالة . ثم إنكم يوم القيامة تقومون من قبوركم وتبعثون منها إلى ساحة الحساب على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » : ومن كان مصيره إلى الحساب والجزاء ولابد ، فعليه أن يتقى سوء الحساب .

(١) سورة الحج : الآية الخامسة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَبْعَ طَرَآئِقَ) : سبع سماوات طباقًا بعضها فوق بعض ، وهى جمع طريقة ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة – انظر القرطبى . (مَآءً بِقَدَرٍ) أى : بتقدير لائق يجلب المصالح ويدفع المضار . (جنَّاتٍ) : بساتين . (تَنبُتُ بِالدُّهْنِ) : تنبت ملتبسة بالدهن ومصاحبة له فى تكوينها . (وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) : وما يصبغ به الخبز للآكلين أى : يغمس فيه .

التفسير

١٧ – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) :

بين الله فى الآيات السابقة خلق الإنسان ومصيره الذى ينتهى إليه ، وبين فى هذه الآية وما بعدها خلق ما هو بحاجة إليه فى حياته الأولى ، استكمالًا لنعمته عليه .

وفى تقديم بيان خلق الإنسان على خلق هذه الكونيات العظيمة ، إيذان بعظم خلقه مع صغر حجمه ، ففيه انطوى العالم الأكبر ، كما قال الشاعر :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِير   وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

وفى تلك الآيات دلالة على إمكان بعثهم الموعود به قبلها فى قوله سبحانه : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » فإن من قدر على خلق السماوات ، وإخراج الشجر والنبات من التراب ،

فهو على بعثهم قدير ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ »
والطرائق : جمع طريقة ، وتطلق على الطبقة فوق الأخرى ، يقال : طارقت الشىء : جعلت بعضه فوق بعض ، كما تطلق على الطريق المعروف ، وعلى الأسلوب والهيئة .

وأطلقت الطرائق على السموات السبع إما لكون بعضها فوق بعض ، أو لأنها طرق الملائكة فى هبوطهم وعروجهم ، أو لأن لكل سماء طريقة وأسلوبا فى خلقها ونظامها وهيئتها .

ومعنى الآية : ولقد أنشأنا فوقكم يا بنى الإنسان سبع سماوات طباقا ، يسلكها الملائكة فى أعمالهم التى كلفهم الله بها ، ولكل سماء هيئة ونظام يتفق مع ما خلقت لأجله ، وما كنا عن جميع مخلوقاتنا ساهين مهملين ، فكل شىء خلقناه فيها بقدر ، ودبرناه بحكمة ، وهو مشمول برعايتنا وحفظنا ، ومحوط بعلمنا « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[1] لا تحجب سماءٌ عن علمه سماءً أخرى ، ولا أرضٌ أرضًا غيرها ، ولا جبل إلا هو يعلم سهوله ووديانه وهضابه وكثبانه ، ولاريف إلا وهو يعلم نباته وأشجاره ، وإنسانه وحيوانه « وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[2] ولا بحر إلا وهو يعلم مياهه وركبانه ، وأسماكه وحيتانه ، فهو « اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ »[3] .

١٨ - (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) :
كل ما علاك يطلق عليه فى اللغة : سماءٌ ، والمراد بالسماء هنا إمَّا السحاب ، فمنه ينزل المطر ، وإما السماءُ المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر منها إنزاله بسببها ، فإن المطر أصله أبخرة صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

---

(١) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٩

(٣) سورة البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومعنى الآية : وأنزلنا من السحاب ماء بمقدار مايكفى مخلوقاتنا فى مصالحهم وحاجاتهم ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلا فلا يفى بالإنسان والحيوان والزروع والثمار ، فأسكناه فى الأرض وأقررناه فيها ، حيث أجريناه فى الأنهار ، وجعلنا الأرض تتشرب بعضه ، ليستقر فى جوفها ، ويخزن تحت طبقاتها ، لينتفع به الناس عند الحاجة إليه بحفر الآبار فيها ونبع العيون منها ، وإنا على ذهاب بالماء الذى أنزلناه لقادرون ، بأن نجعل الأرض تبتلعه فيغور فيها إلى أماكن بعيدة لا تقدرون على استنباطه منها ، كما قال سبحانه فى آخر سورة الملك : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ » .

ويصح أن يكون المعنى : وإنا على عدم انتفاعكم بالماء لقادرون ، بأن نحبس المطر عنكم أو نحول عذبه الفرات إلى ملح أجاج ، أو نجفف أنهاركم وآباركم ، ولكنا بلطفنا ورحمتنا نمدكم بالماء العذب من آن لآخر ، ونحفظه لكم لتنتفعوا به عند حاجتكم .

١٩ ـ (فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

فأوجدنا لكم بسبب هذا الماء الذى أسكناه فى الأرض ـ أوجدنا لكم ـ بساتين ذات بهجة من نخيل وأعناب ، لكم فى تلك البساتين فواكه كثيرة غير النخيل والأعناب ، تتفكهون بها وتتنعمون بحلاوتها وجمالها ولذيذ مذاقها ، ومن هذه البساتين تأكلون وتتغذون بزروعها وثمارها التى تجمع بين التفكه والتغذى .

ويصح أن يكون المراد من الأكل من تلك الجنات التعيش والارتزاق منها ، ببيع ما زاد على طعامهم وفاكهتهم ، ومنه قولهم : فلان يأكل من حرفته ، أى : يتعيش منها .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله : « لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » على النخيل والأعناب ، فثمراتها جامعة بين الفاكهة والغذاء

٢٠ ـ (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) :

الطور فى اللغة : اسم لكل جبل ، وطور سيناء : هو الجبل الذى كلم الله موسى ـ عليه السلام ـ عنده ، وهو واقع فى إقليم سيناء التابع لمصر .

وجمهور العرب والقراء على فتح السين مع مد الهمزة ، وقرىء بكسرها مع المد أيضاً ـ وهو لغة بنى كنانة ، وفيه لغات وقراءات أخرى : كَطُورِ سينين ، ونكتفى بما ذكرنا ، والمراد بالشجرة التى تنبت منه الدهن : شجرة الزيتون ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار التى تنبت هناك لما فيها من المنافع الجليلة ، ولشهرة طور سيناء بإنباتها أكثر من اشتهاره بإنبات سواها عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وتخصيصها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سواه لتعظيمها ، وقيل : لأنه هو المنشأُ الأَصلى لها بعد الطوفان ، والله أعلم بذلك القول .

والمراد من نباتها بالدهن ، نباتها ملتبسة به ، حيث خلقها الله صالحة لإخراج ثمرها مشتملا على نسبة عالية من الزيت ، والمراد من كونه صبغا للآكلين ، أنه يغمس فيه الخبز ويصبغ به عند تناوله ، كما كانوا يفعلون عندما نزل القرآن عليهم .

ومعنى الآية : وأنشأْنا لكم شجرة طيبة مما أنزلناه من السماء من ماء ، وهذه الشجرة تخرج من أرض مباركة قريبة منكم يجلب لكم ثمارها ، هى سفح طور سيناء الذى كلم الله تعالى موسى عنده ، وتلك الشجرة تنبت وفيها خاصيةُ إخراج ثمرٍ يجمع بين نعمتين : (إحداهما) نعمة الدهن ، وهو الزيت الذى تستعملونه فى سراجكم وسائر أموركم التى تحتاج إليه . (وثانيتهما) أنه أُدْمٌ تصبغون به الخبز عندما يتناوله الآكلون منكم .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامِ) : تطلق على الإبل والبقر والغنم ، أو كما قال صاحب المختار : هى المال الراعية ، وأكثر ما يطلق : على الإبل . ا هـ ، وسيأْتى فى التفسير مزيد بيان عنها .

(الْفُلْكِ) : الفلك السُّفُن ، وقد يطلق على الواحدة ، وقد يُذَكَّر حينئذ ، كما قال تعالى : « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » وقد يؤنث كما فى قوله تعالى : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » قال صاحب المختار : كأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فتذكر ، وإلى السفينة فتؤنث . ا هـ وهى تحتمل الإفراد والجمع ، ومن إطلاقها على الجمع قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »[1] . ومن إطلاقها على المفرد قوله تعالى : « فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »[2] .

التفسير

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة نعمه وآياته فى خلق الإنسان ، وإنزال الماء من السحاب ، وإنبات الحدائق والبساتين وأنواع النبات بما أنزله لهم من الماء ، وخزنه لهم منه فى جوف الأرض ، وجاءت هذه الآية لتبين آياته ونعمه فى الأنعام .

والأنعام المذكورة هنا ، إما أن يراد بها أصنافها وهى الإبل والبقر والغنم ، وإما أن يراد بها الإبل خاصة لقوله تعالى فى الآية التالية : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وإرادة العموم هنا أولى ؛ لأن العبرة والمنافع فيها ليست قاصرة على الإبل .

والمعنى : وإن لكم - أيها الناس - لعظة عظيمة فى أصناف الأنعام ، نسقيكم مما فى بطون إناثها من بين فرثٍ ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ، ولكم فيها منافع كثيرة فى أوبارها وأصوافها وأشعارها وفى عظامها حيث تطحن وتكون ضمن طعام الداجنة ، وفى غِرَائها الذى يلصق به ، ومن لحومها تأكلون ، ومنها تتعيشون وترتزقون ، حيث تتجرون فى أنواعها وأجزائها وفضلاتها ، وقد تقدم الكلام وافيًا على مثل تلك الآية فى سورة النحل[3] ، فارجع إليها إن شئت .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ٢٢

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١١٩

(٣) الآية رقم ٦٦ منها .

٢٢ - (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

الضمير فى (عَلَيْها) يرجع إلى الأنعام ، ونسبة الحمل فيها إلى جميعها - مع أن التى تحمل هى الإبل - بنسبة ما لبعضها إلى كلها مجازاً[1] وقرْن الإبل بالفلك فى الحمل عليها لأنها سفن البر كما أن الفلك سفن البحر ، وفى ذلك مافيه من المبالغة فى تحملها ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر ذو الرمة فى وصف ناقته :

* سفينة بَرٍّ تحْت خدِّى زمَامُها *

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يُرِيدُ أن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) : يريد أن يتعالى عليكم ويَفْضُلَكُمْ بادعاء الرسالة .

(بِهِ جِنَّةٌ) : به جنون ، أو جنّ يخيلون له فيقول ما يقول . (فَتَرَبَّصُوا) : فانتظروا .

التفسير

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

(١) ويصح أن يكون فى الكلام استخدام ، وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، كمايقول علماء البلاغة ، وعليه يكون الضمير عائدا إلى الأنعام بمعنى الإبل خاصة ، بعد إرادة العموم منها فيما تقدم .

شروع فى بيان ما جناه الناس على أنفسهم من ترك التبصر والاعتبار والادّكار بنِعَم الله عليهم ، أو بعقاب الله لهم على كفرهم برسله الذين يذكرونهم ويوجهونهم إلى معرفة ربهم بآياته ونعمه .

وقدم الله قصة نوح مع قومه ، لأنه الأَب الثانى للبشرية بعد آدم ، ولأنه مكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم ، فلما لم يؤمنوا قطع الله دابرهم بالطوفان ، فلهذا كانت قصته جديرة بتقديمها ، وإيرادها عقب قوله تعالى : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » للصلة القوية بين نوح والسفن فهو أول من صنعها من البشر .

والمعنى : ولقد بعثنا نوحًا رسولًا منا إلى قومه ، ومعه آيات ومعجزات تؤيد رسالته فقال مستميلًا لهم إلى الحق : يا قومى اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدًا فإنه ليس لكم إلٰه سواه ، أتشاهدون ذلك فى آياته فلا تتقون عقابه وأنتم به كافرون .

٢٤ ـ (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ) :

يطلق لفظ الملإ على السادة لأَنهم يملئون العين ، كما يطلق على الجماعة مطلقًا[1] ، والمراد هنا المعنى الأَول ، ووصْفُهم بالذين كفروا من قومه ليس لتمييزهم عن فريق آخر منهم بل لذمِّهم بالكفر مع أنهم من قومه ، إذ لم يؤمن أحد من أشرافهم ، حسبما يُفْصح عنه قولهم له : « مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » .

والمعنى : فقال سادتهم الكافرون لِعوامِّهم تنفيرًا لهم من اتباعه : ما هذا الذى يدَّعى الرسالة عن الله إلَّا بشر مماثل لكم فى البشرية والأَوصاف المختلفة ، يريد بدعواه الرسالة أَن يسودكم ويتقدم عليكم ، ولو شاءالله أَن يرسل إلينا رسولًا لأَرسله وأنزله من الملائكة ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه من عبادة إلٰه واحد ـ ما سمعنا بهذا ـ فى آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدقه .

---

(١) انظر القاموس .

وهم بهذا الذى قالوه ، يرفضون رسالة البشر ، ويرضون بربوبية الحجر ، فلا عجب أن يمضوا فى التنفير منه قائلين :

٢٥ - (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : ما نوح إلّا رجلٌ به جنون ، أو يغشاه جن يلبسون الأمر عليه ، ويخيلون له فيقول ما يقول ، فانتظروا به واصبروا لعله يفيق مما أصابه فلا يعود لما يقوله ، وهم بهذا ينقضون ما وصفوه به أولًا من أنه رجل يريد الرياسة والفضل عليهم بدعواه الرسالة فيهم ، وهذا يقتضى اعترافهم ضمنًا بأنه رجل عاقل وسياسى ماهر ، فاتّهامهم له بالجنون بعد ذلك يعتبر تخبطًا منهم فى المقال عنه ، وإيغالًا فى التنفير منه بدون وجه حق .

٢٦ - (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

قال نوح لربه بعد أن يئس من إيمانهم ، حينما أخبره بقوله : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قال نوح بعد يأسه : رب انصرنى على قومى وأهلكهم بسبب تكذيبهم لى ، انتقامًا منهم على تماديهم فى الضلال ، وإصرارهم على الكفر بعد تلك الدهور الطوال .

(فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(الْفُلْكَ) : السفينة . (بِأَعْيُنِنَا) :المراد من أعينه تعالى ؛ مزيد حفظه ورعايته فإنه منزه عن مشابهة الحوادث . (وَفَارَ التَّنُّور) : التنور الكانون يخبز فيه ، ويطلق عليه الْفُرْنُ أيضًا ، والمراد من فورانه : نبع الماء منه ، ويطلق التنور أيضًا على كل مَفْجَرِ ماء[١] .

(فَاسْلُكْ فِيهَا) : فأدخل فيها . (مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى من كل صنف فردين متزاوجين ليكونا بذلك التزاوج اثنين . (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ) : صَعِدتَ .

(مُنزَلًا مُّبَارَكًا) : مكانًا كثير الخير .

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)[٢] : وإن كنا لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم .

التفسير

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . .) الآية .

أى : أجبنا دعاء نوح على قومه ، فأوحينا إليه على لسان جبريل ، قائلين له : اصنع السفينة التى سوف نُنجِّيك مع المؤمنين بركوبها ، اصنعها تحت رعايتنا وحفظنا وإرشادنا لك بالوحى عن طريقة صنعها حتى تسلم من الخطإ ومن عدوان قومك عليك وأنت تصنعها .

(فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) :

فإذا جاء موعد أمرنا بشأنهم ، وحان وقت عقابهم على كفرهم ، بعد تمام صنع السفينة ، وفار الماء من الفرن ، أمارة لك على مجىء أمرنا وعقابنا لقومك ، فأدخل فى السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنيين ذكرًا وأنثى ، وأدخل فيها نساءك وأولادك فهم أهلك ، إلَّا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا أزلًا بإهلاكه منهم ، وهم ابنك وزوجتك الكافران ، ولا تسألنى نجاة أحد من أولئك الكافرين ، ولا تشفع فى هؤلاء الظالمين ، فإنهم مُغرقون بالطوفان جميعًا جزاء كفرهم وظلمهم .

ويصح أن يكون المراد من أهله : المؤمنون من أمته ، واستثناء من سبق عليه القول منهم يُعَبَّرُ عنه فنيًّا بالاستثناء المنقطع ، لأن من سبق عليه القول بالإهلاك ليس من المؤمنين .

---

(١) انظر المادة فى القاموس .

(٢) (إن) هنا مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام بعدها للفرق بينها وبين النافية .

والأول هو الظاهر ، وأما حمله من آمن معه فى السفينة من غير أهله فإنه وإن لم يذكر فى هذه الآية ، فقد صُرِّح به فى سورة هود فى قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ[1] » والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، فما ترك ذكره فى آية يعرف أنه مراد فيها من آية أخرى ذكر فيها .

وتأخير الأمر بحمل أهله فى السفينة عن الأمر بحمل الأزواج وإدخالهم السفينة ، لأن إدخال هذه الأزواج يحتاج إلى معاونة أهله قبل أن يصعدوا إلى السفينة ، ولأن موضوع إدخال الأهل يتصل به استثناء من استثنى منهم وغيره ، فتقديم الأمر بإدخالهم على إدخال الأزواج يخل بتجاوب النظم الكريم .

٢٨ - (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ) :

فإذا ركبت السفينة وعلوتها أنت ومن معك من المؤمنين ونجوتم بذلك من ظلم قومكم الظالمين ، ومن عقابهم بالطوفان على ظلمهم وكفرهم - إذا حدث ذلك - فقل : الحمد لله الذى نجانا بفضله من ظلم الظالمين وعاقبته .

وتوجيه الأمر إلى نوح بالحمد على النجاة من الظالمين ، دون إشراك من نجا معه من المؤمنين فى ذلك ، لأنه إمامهم ،فأمره بحمد الله أمر لهم بمثله ، ولأنه هو الذى دعا ربه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم إياه ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن معه من المؤمنين ، وأغرق مكذبيه بالطوفان ، فلهذا طلب منه ربه أن يحمده على إجابة دعائه فى قومه المكذبين ، وتكريمه والمؤمنين بالنجاة من ظلمهم .

٢٩ - (وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ) :

أى : وقل يارب أنزلنى من السفينة مكانا ومنزلًا كثيرالخيرات ولمن معى من المؤمنين بعد انتهاء الطوفان ، وخراب الدنيا ، لكى نستطيع العيش فيه نحن وذرياتنا ، وأنت يارب خير من ينزل الضيفان ، ويكرم المحتاجين واللاجئين .

---

(١) سورة هود ، الآية رقم : ٤٠

٣٠ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) :

إنَّ فى مافعله الله بنوح وقومه لعلامات واضحات على نجاة المتقين ، وسوء مصير الظالمين ، ولو بعد حين ، يهتدى بها أصحاب البصائر المستنيرة ويعتبر بها أولو العقول الوضيئة ، وإن الحال والشأن فى قصتهم ، هو أننا كنا مبتلين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شنيع .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(قَرْنًا آخَرِينَ) : أى ذوى قرن آخرين ، وهم عاد ، وقيل : هم ثمود ، والأول أصح .

(الْمَلَأُ) : الأشراف . (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) : أى نعمناهم ووسعنا عليهم .

التفسير

٣١ - (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

بعد أن حكى الله قصة قوم نوح وعاقبتهم لما كفروا بربهم وعصوا رسوله ، جاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية قصة قوم آخرين جاءوا بعدهم ، ففعلوا فعلهم ، فأهلكوا جميعًا عقابا لهم .

وهؤلاء القوم هم عاد قوم هود ، فإنهم هم الذين خلفوا قوم نوح وجاءوا بعدهم ، كما عرف من الترتيب القرآنى لقصص الأمم وأنبيائهم ، فقد جاءت قصتهم بعد قوم نوح فى سورة الأعراف وهود وغيرهما ، ولهذا قال لهم رسولهم هود : « وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » واختار هذا الرأى ابن عباس ، وإليه ذهب أكثر المفسرين .

وقيل : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة ، وهؤلاء الذين جاءوا هنا بعد نوح أهلكوا بالصيحة ، كما سيجىء بآخر قصتهم فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[١] .

وقد يكونون أمة أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمها ولا باسم رسولها .

والمعنى : ثم أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان لكفرهم – أنشأنا – قوما آخرين فى زمان غير زمانهم .

٣٢ – (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ[٢] اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

فأرسلنا فى أهل هذا القرن رسولاً من بينهم ، قائلين لهم على لسانه : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدا فى العبادة ، فإنه ليس لكم من إله سواه حتى تشركوه معه فى العبادة ، أتعبدون معه غيره ، فلا تتقون عقابه ، ولا تخشون عذابه .

٣٣ – (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا[٣] وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) :

وقال أشراف قومه الذين بالغوا فى كفرهم وتكذيبهم بلقاء الآخرة ونعَّمناهم ووسَّعنا عليهم فى الحياة الدنيا – قالوا لمن دونهم من قومهم مُنَفِّرين من اتباعه – : ما هذا الذى يدعى الرسالة فيكم إلَّا بشر مماثل لكم ، فهو يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون فليست له ميزة فيكم ، حتى يدعى أنه رسول الله إليكم ، ثم بالغوا فى التنفير من اتباعه فقالوا :

---

(١) واختار هذا الرأى أبو سليمان الدمشقى والطبرى .

(٢) (أن) هنا بمعنى أى ، لوقوعها بعد الإرسال الذى يتضمن معنى القول .

(٣) من قومه بيان للملأ ، والذين كفروا صفة للملأ ، جىء بها ذما لهم ، وتنبيها على غلوهم فى الكفر .

٣٤ـ (وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ)[١] :

ونقسم لئن أطعتم بشرًا مماثلًا لكم فى بشريتكم، واتبعتموه فيما يدعوكم إليه ، إنكم حينئذ لخاسرون باتباعه ، ثم استأنفوا مقررين ما زعموه فقالوا مستنكرين مستبعدين :

٣٥ـ (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم[٢] مُّخْرَجُونَ) :

أيعدكم هذا الذى يدعى الرسالة وهو من البشر - أيعدكم - أنكم إذا هلكتم ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم فى دنياكم .

(* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ) : هيهات اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ ، واقع موقعه ، والتكرار للتأكيد ، ولاتقع غالبًا إلّا مكررة ، وفاعلها ضمير ، أى : بَعُدَ التصديق ، أو الوقوع .

(لِمَا تُوعَدُونَ) : اللام لبيان ما استبعدوه وهو البعث الذى وعدهم به رسولهم .

(إِنْ هِيَ) : أى ما هى ، ف (إِنْ) هنا للنفى .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) : أى يموت بعضنا ، ويولد بعض آخر .

(افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) : اختلق على الله كذبًا بادعائه النبوة .

(١) جملة « إنكم إذا لخاسرون » جواب القسم ، استغنى به عن جواب الشرط ، يقول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والمتأخر هنا هو الشرط

(٢) تأكيد لأنكم الأولى لطول الفصل بينه وبين خبره ، هو قوله « مخرجون » .

التفسير

٣٦ـ (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) :

هذه الآية وما بعدها تكملة لحكاية ماتحدث به كبراء الكافرين من القوم الآخرين[1] مع عامتهم ، من إنكارهم البعث ؛ لِصدِّهم عن تصديق رسولهم فيما وعدهم به ، مستبعدين أن تكون لهم حياة بعد أن يموتوا ، وتتحلل أجسادهم ، فيصبح المتقدم منهم موتًا ترابًا اختلط بتراب الأرض ، وامتزج بثراها ، وصار جزءًا من أجزائها ، لا يتميز عنها ، ويصبح المتأخر منهم فى الموت عظامًا نَخِرَةً مجردة من اللحوم والأعصاب ؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ »[2] .

وقوله سبحانه : (لِمَا تُوعَدُونَ) بيان للمستبعد، كأنه قيل : لأى شىء هذا الاستبعاد الذى يستبعدونه ؟ فقيل : إنه لما يوعَدون من وقوع البعث .

والمقصود من الآية أن هؤلاء القوم يستبعدون البعث بعدالموت استبعادًا مؤكدًا لايترددون فيه ، ولهذا أتبعوه بما حكاه الله بقوله :

٣٧ـ (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى : لاحياة لنا إلّا حياتنا الدنيا التى نحياها ، وليس بعدها حياة أُخرى بالبعث به الموت ، كما يعدنا من يدّعى أنه رسولنا ـ فنحن فى حياتنا هذه (نَمُوتُ وَنَحْيَا) فيموت بعضنا ، ويولد بعض آخر ، وينقرض قرن فيأتى قرنٌ . . . إلى آخر الزمان ، فالحياة التى عَنَوْها بعد الموت هى حياة جيلٍ جديد بعد موت الذى قبله ، ولذا عقبوه بقولهم (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) : أى وما نحن بمبعوثين من قبورنا أحياءً بعد الموت ، فكيف نصد فى دعواه ؟ ثم أوغلوا فى تكذيبه والتشنيع عليه ، فقالوا :

٣٨ـ (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى : ماهو إلّا رجلٌ اختلق على الله كذبًا فيما جاءكم به عنه سبحانه ، من الرسالة والإ بالمعاد والبعث بعد الموت (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) : أى لا يقع قوله منا موقع القبول والتصد بما يدَّعيه ويعِدُ به

---

(١) الذين سبق بيان الخلاف فيهم .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥

(قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) : الصيحة : العقوبة الهائلة ، أو الصوت المفزع الذى أهلكهم الله به .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً) : أى هَلْكَى هامدين يشبهون غثاء السَّيْل : وهو الرميم الذى يحمله من كل يابس بَالٍ مخالطًا لزَبَدِه .

(فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكًا لهم ، وفعله : كقَرُبَ ، وَفَرِحَ .

التفسـير

٣٩ـ (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

أى : قال رسول أهل هذا القرن الآخرين ـ عند يأسه من إيمانهم بعد أن أفرغ الجهد فى تبليغهم رسالة ربه ، وسلك معهم إلى ذلك كل مسلك ، قال متضرعًا إلى الله متوجهًا إليه : يا ربى انصرنى على قومى ، فأنزل سخطك بهم ، وانتقامك منهم بسبب تكذيبهم إياى ، وإصرارهم عليه فى عتوّ وكبرياء ، فاستجاب الله دعاءه ؛ كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٤٠ ـ (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) :

أى : قال الله تعالى لرسولهم : بعد زمان قليل تالله ليصيرن نادمين حين ننزل بهم العذاب الذى يأخذهم ويستأصلهم عن آخرهم .

٤١ ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

أى : صاح بهم جبريل ـ عليه السلام ـ صيحة مقترنة بالعدل الإلٰهى ، تنفيذًا لوعده الصادق الذى وعده الله رسولهم ـ عليه السلام ـ مَطْوِيًّا فى قوله سبحانه : (لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ).

وقد عرفت مما تقدم أن أصحاب القرن الآخرين إمَّا عاد قوم هود ، فهؤلاء أُهلكوا بصيحة الريح العقيم ، وإمَّا ثمود قوم صالح فهؤلاء أُهلكوا بصيحة جبريل أو الصاعقة وإمَّا قوم آخرون لهؤلاء أُهْلِكُوا بصيحة أخرى يعلمها الله تعالى .

(فجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً) : أى هلكى هامدين لا نفع فيهم ولا غناء ، يشبهون غثاء السيل ، وهو مايحمله مما بَلِيَ واسودَّ من ورق الشجر وغيره مخالطًا زبده . (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : لفظ : (بُعْدًا) قد يراد به الدعاء ، أى : فهلاكًا لهم ، بمعنى : أَهْلِكْهم يا أَللهُ إهلاكًا ، وقد يراد به : الإخبار ، بمعنى : فبعُدوا بُعْدًا من رحمة الله القريبة من المحسنين – بعدوا بهلاكهم – من كل خير ، أو من النجاة . واللام فى قوله : (لِلظَّالِمِين) لبيان من قيل له : بُعْدًا ، والتعبير بقوله : (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بدلًا من أن يقال : فبعْدًا لهم إيذان بأن إبعادهم علّته وسببه ظلمهم لأنفسهم ؛ بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(قُرُونًا آخَرِينَ) : أى أُمَمًا خلفت الأُمم السابقة . (رُسُلَنَا تَتْرَا) : أى متواترين وترا بعد وتر ، والوتْرُ : الفرد . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : أى أخبارًا يتحدث بها الناس تلهِّيًا وتعجبًا ، وهو جمع أُحدوثة .

التفسير

٤٢ - (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) :

أى : أوجدنا بعد هلاك أمة القرن السابق أممًا وخلائق أخرى ، ويراد بها عند أكثر المفسرين : أقوام صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

٤٣ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى : ماتسبق أمة من الأمم الكافرة التى أهلكها الله - ماتسبق - الوقت المقدر لهلاكها أزلًا ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته لايسبقه ولايتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[١] . وضمير الجمع فى قوله سبحانه : (يَسْتَأْخِرُونَ) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

٤٤ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . .) الآية .

أى : ثم أرسلنا رسلنا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضًا إلى الأمم التى جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولًا منهم خاصًا بهم .

(كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ) :استئناف مبين لما قابلت به كل أمة منهم رسولها من تكذيبهم إياه حين لقائه ، مع أنه واحد منهم ، عرفوه بالصدق ، وصدقه الله بالمعجزة التى أظهرها الله على يديه .

(فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا) : أى جعلنا الأمم فى الهلاك يتبع بعضهم بعضًا ، بمباشرتهم الأسباب الداعية إليه من الكفر والتكذيب ، واقتراف المعاصى .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : بعد أن أهلكوا حيث لم يبق بعدهم إلَّا أخبار وأحاديث ، يتحدث بها الناس ، تَلَهِّيًا بها ، وتعجبًا مما نزل بهم من تدمير وإبادة ، وهذه الجملة إنما تقال فى الشر ، ولاتقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثًا ، أى : عبرة ، كما قال تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »[٢] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤

(٢) سورة سبأ ، الآية : ١٩

(فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) أى : فهلاكًا لهم لإعراضهم عن الإيمان برسلهم ، وظلمهم أنفسهم بكفرهم .

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : وبرهان واضح له سلطان على القلوب . (قَوْمًا عَالِينَ) : متجبرين متكبرين ، يقال : عَلَا ، يعلو ، عُلُوًّا : تَجَبَّر وَتَكَبَّر . (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ) : يطلق على الواحد مثل : « بَشَرًا سَوِيًّا » وعلى الجمع مثل : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » .

(لَنَا عَابِدُونَ) : منقادون خاضعون ، وكل من دان للملك فهو عند العرب عابد له أى : خاضع ذليل . (فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أى : المغرقين ، من أهلكته فهو مهلَك .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

التفسير

٤٥ ـ (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ) :

يخبر الله تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاهُ هٰرون ـ عليهما السلام ـ بآياته وهى تسع : اليد ، والعصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، نقل ذلك ابن كثير ، وقال : وهذا القول ظاهر جَلِيٌّ ، حسن قوى . ا هـ

وقيل : هى العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس[1] ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّلُ والضفادع ، والدم ، أما فلق البحر الذى عدَّه بعضهم منها ، فلا مساغ لعدِّه ؛ لأنه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وقومه ، وإنما كان بعثه بالآيات التى كذبوها ، واستكبروا عنها ، وهم لم يستطيعوا تكذيبه ؛ حيث أُهلكوا فيه .

وعن الحسن : المراد من الآيات التكاليف الدينية التى أُمروا بها ، ومن السلطان : كل معجز أتيَا به . اهـ ويمكن أن يراد بالسلطان: تسلط موسى فى المحاورة ، ووضوح الدلالة على الصانع - جل وعلا - والقوة والإقدام .

٤٦ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) :

أى : أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه لغايتين : إحداهما : دعوتهم إلى الإيمان ، والثانية : إطلاق سراح بنى إسرائيل من الأَسر ، فلم يكن إطلاقهم من الأسر هو المقصود وحده من إرسالهما بدليل ما صُرِّح به فى سورة النازعات ، فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » .

وخُصَّ الملأُ - أى الأَشراف - بالذكر ؛ لأَن إطلاق سراح بنى إسرائيل ، وكف الأَذى عنهم ، مما أُرْسِلا لأَجله ، وذلك منوط بآراءِ الأَشراف من قوم فرعون ، وبموافقتهم ، فضلا عن أنهم قدوة لغيرهم يقتدون بهم فى الامتثال والاستجابة لما دعوا إليه .

ويجوز أن يراد بالملإ : قومه جميعا ؛ فقد ورد استعماله لغة بمعنى : الجماعة مطلقا . (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أى : فتمردوا مستكبرين ، وأعرضوا عما دعوا إليه ، وكان فرعون وشيعته قوما متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم والطغيان ، والمراد : أن تلك عادتهم ، وما فُطروا عليه .

٤٧ - (فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ) .

الهمزة للإنكار ، أى : أن فرعون وقومه أنكروا على موسى وهٰرون دعوتهما إلى الإيمان لكونهما بشرين ، شأنهم فى ذلك شأن الأُمم السابقة التى أنكرت بعثة الرسل من البشر ،

(١) وهو إذهاب الشيء عن صورته ، وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة .

وقد دعاهم إلى هذا الإنكار ، قياس حال الأنبياء - عليهم السلام - على أحوالهم ، بناءً على جهلهم بتفاضل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها بحيث يكون بعضهم فى أعلى علّيّين ، وبعضهم فى أسفل سافلين ، ومن العجيب أنهم لم يرضوا بالنبوة للبشر ، وقد رضى أكثرهم بالألوهية للحجر ، فقاتلهم الله ، ما أجهلهم !

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)[1] أى : خاضعون منقادون ، يعملون فى خدمتنا ، ويطيعون أوامرنا كالعبيد ، أرادوا بذلك الحطّ من قدرهما ، والاستهانة بهما ، وقصور رتبتهما عن الأهلية للرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناءً على زعمهم الفاسد فى قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية المؤسسة على حظوظ الحياة الفانية من المال والجاه ، وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العَلِيّة ، والملكات السنية ، جبلّةً ، لا اكتسابا .

٤٨ - (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهما ، وأصروا عليه ، فأهلكهم الله بإغراقهم جميعا فى بحر القلزم (البحر الأحمر) أهلكهم جزاء تكذيبهم .

٤٩ - (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

يخبر سبحانه إخبارا مؤكدا بأنه آتى موسى - عليه السلام - التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ، وإنجاء بنى إسرائيل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ؛ لعل من أرسل إليهم من قوم فرعون وبنى إسرائيل - لعلهم - يهتدون بها إلى الحق المبين ، وخص موسى بالذكر هنا دون هرون ؛ لأن التوراة أنزلت على موسى فى الطور ، أما هرون فهو وزيره ومُعينه فى دعوته ، أو روعى الاقتصار على موسى لأنه الأصل فى الإنباء ، وذلك لا يمنع من إرادة هرون معه ، فقد ذكر فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ »[2] .

---

(١) هذه الجملة حال من فاعل نؤمن فى قولهم (أنؤمن) مؤكدة لإنكارهم الإيمان بهما .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية رقم : ٤٨

(وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(ءَايَةً) : دلالة بينة على كمال قدرته تعالى . (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : أنزلناهما إلى مكان مرتفع منبسط ، يقال : آويته إلى منزلى : أنزلته فيه ، وأويت إلى منزلى : نزلت فيه ، والربوة - بضم الراء ، والفتح - : لغة بنى تميم ، والجمع : رُبًى .

(ذَاتِ قَرَارٍ) أى : يستقر فيها المقيم . (وَمَعِينٍ) أى : ماءٍ جارٍ ظاهر للعيون ، من عَانَهُ ، إذا أدركه بعينه ، وأصله : مَعْيُون ، فدخله الإعلال ، أو من مَعَنَ الماءُ : إذا جرى . فوزنه . فَعِيلٌ .

التفسير

٥٠ - (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ . . . . .) الآية .

أى : جعلنا عيسى بن مريم وأمه دلالة قاطعة على كمال قدرتنا البالغة ؛ حيث حملت به من غير أن يمسَّها بشر .

والتعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه ابن مريم ، وعنها بأنها أمه ؛ للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية ، فإن نسبته - عليه السلام - إليها ، مع أن النسب إلى الآباء ، تؤذن بأنه لا أبَ له ، وذلك هو آية القدرة العظيمة فى إيجاد عيسى - عليه السلام - وتقديمه عليها فى الذكر ؛ لأصالته فيما ذكر من كونهما آية .

(وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : وأنزلناهما فى ربوة ، وهى المكان المرتفع المنبسط ، قيل : هى إيلياءُ من أرض بيت المقدس ، وقيل : هى الرملة من فلسطين ، وقيل : دمشق ، وقيل : مصر .

(ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) : أى يستقر المقيم فيها لطيب هوائها ، ونقاء تربتها ، وقيل : لأنها ذات زروع وثمار ، تُيسِّر الاستقرار لساكنها ، وترغبهم فيه .

ولما كان الماءُ أصل الحياة وسبيل بقائها ، شاءَ الله أن يكرمهما بالإيواءِ إلى ربوة ذات ماءٍ ظاهر جار تراه العيون وتتبينه واضحاً ، حتى يكون جامعا لفنون المنافع : من الشرب منه ، وسقْى ما يُسقى من الحيوان والنبات من غير مشقة ، مع ما فى ذلك من الاستمتاع بمنظره المونق ، والاستقرار فى الربوة التى هو فيها .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) : وهى ما لذَّ وطاب من الطعام ، وما حَلَّ منه ، يقال : طاب الشيءُ ، يَطيب طيبا وطيبة ، فهو طيِّب .

التفسير

٥١ - (يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . . .) الآية .

المراد بندائهم وخطابهم جميعا : الإعلام بأَن كل رسول نودى بذلك فى زمنه ، وَوُصِّىَ به ، ليعلم السامعون أن أمرا أُعْلِمَ به جميع الرسل ، وطُلب منهم ، وهو الأكل من الطيبات ليعلموا أن أمرا كذلك - حقيق أن يتلقوه بالقبول والامتثال .

والمراد بالطيبات ، إمَّا ما تستلذه النفس وتطيب به من مباحات المأْكل ، حسبما ينبيءُ عنه سياق النظم الكريم ، وحينئذ يكون الأَمر للإباحة ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات ، وإما أن يراد بها ما حلَّ منها ، فيكون الأَمر للوجوب .

وفى الآية إشارة إلى أن الله تعالى سوى بين النبيين وأتباعهم فى تناول الطيبات بمعنييها ، ثم عقب ذلك بقوله : (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) مبالغة فى وجوب امتثال ماأُمِرُوا به من أكل الحلال الذى دُعىَ إليه الرسل والأنبياء ، وحُذِّرُوا من تركه ، وكذلك جميع أممهم تبعا لهم .

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) : موافقا لما شرع لكم . وقيل : حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رُزقا من كل طيب ، فكأنه قيل : وآويناهما ، وقلنا لهما : هذا - أى : أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكُلَا مما رزقناكما ، واعملا صالحًا اقتداءً بالرسل ، وعلى هذا فالمراد من الجمع فى قوله : « وَاعْمَلُوا صَالِحًا » ما فوق الواحد .

(إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لا تخفى علىَّ خافية مما تعملون من الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة فأجازيكم عليه .

(وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) :الأُمة هنا هى : الدين . (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا) : أى فقطعوا أَمر دينهم بينهم قطعًا ، فاتخذوا أديانًا مختلفة ، زُبُر : جمع زبور ، مثل رُسُل : جمع رسول ، وجمع زُبْرة أيضًا - بضم فسكون - والأَول بمعنى كتاب ، من زبر بمعنى كتب ، أَما الزُّبْرة فبمعنى القطعة .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحِزْبُ : جند الرجل وأَصحابه الذين على رأْيه ، والطائفة وجماعة الناس .

(فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ) : الغمرة الانهماك فى الباطل ، والجمع : غَمَرات ، مثل : سجدة وسجَدات .

(حَتَّى حِين) : إلى الوقت المعين لعذابهم .

التفسير

٥٢ ــ (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) :

الإشارة فى قوله : (وَإِنَّ هَٰذِهِ) إلى ماتقدم فى السورة من العقائد والأحكام ، ومنها الأكل من الطيبات وعمل الصالحات ، والأمة بمعنى المِلَّة ، أى : وإن هذه العقائد وأُصول الأحكام ملتكم أيها الرسل ملة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، بتبدل الأزمنة والأعصار ، أما الفروع فإنها تختلف ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ) : بدون شريك لى فى الربوبية . (فَاتَّقُونِ) أى : فخافوا عذابى على مخالفة أمرى ، وإخلالكم بواجب طاعتى ، مع علمكم باختصاص الربوبية بى للرسل وللأُمم جميعًا . والفاءُ فى قوله تعالى : (فَاتَّقُونِ) لترتيب وجوب تقوى الله على ما قبله من الاتحاد فى الدين ، واختصاص الربوبية به تعالى ؛ فإن كِلَا الأَمرين موجب لاتقائه حتمًا .

٥٣ ــ (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

حكاية لما وقع من أُمم الرسل ، أى : أنهم قطعوا أمر دينهم فجعلوه زُبُرًا ، أى : قطعًا متعددة ، وفرقوه فرقا مختلفة ، كل جماعة تنتحل نحلة مخالفة للحق ، بعد ما أُمروا بالاجتماع والاتحاد على ملة واحدة تجمع العقائد وأُصول الأحكام .

وزُبُرًا ــ على هذا ــ جمع زُبْرة ، وهى : القطعة ، ويؤيد هذا قراءة (زُبَرًا) بفتح الباء جمع زُبْرة ، كغُرفة ، وهى القطعة ، فتلخص من هذا أن زُبْرَة تجمع على زبر بضم الباءُ وفتحها .

ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأَنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فآمنوا ببعض ما أُنزل عليهم ، وكفروا بما سواه ، اتباعا لأَهوائهم ، أَو أنهم وضعوا كتبًا وأَلفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله ــ كما قاله ابن زيد ــ وعلى هذا يكون زُبُرًا جمع زبور بمعنى كتاب .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتابًا آمن به ، وكفر بما سواه .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : والمعنى كل فريق من هؤلاء المتحزبين الذين قطعوا دينهم فرحون بما عندهم من الدين الذى اختاروه وركنوا إليه ؛ لاعتقادهم أنهم على الحق .

وبعد أن عرض القرآن الكريم على أسماع قريش أن جميع الديانات السماوية مجمعة على عقيدة واحدة هى التوحيد ، وأن الله تعالى هو رب الجميع وأن أصول الشرائع واحدة ـ بعد هذا ـ أمر سبحانه رسوله أن يتجاوز إلى أمدٍ عن غفلتهم وإهمالهم لهذه الحقائق ، فقال تعالى :

٥٤ ـ (فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

والمعنى : فاترك ـ أيها النبى ـ هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذى لا ضلال بعده ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ فقد بلَّغت الرسالة التى أُمرت بتبليغها حق الأداء « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[1] .

والفاءُ فى قوله سبحانه : (فَذَرْهُمْ) لترتيب الأمر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم من الدين الذى اختاروه ، أى : اتركهم (حَتَّى حِينٍ) وهو حين قتلهم فى يوم بدر ، على ما روى عن مقاتل ، أو حين موتهم على الكفر ، وعذابهم فى الآخرة ، فالآية وعيد بعقابهم فى الدارين ، وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإرشاد له بترك الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره ، وذلك نظير قوله تعالى : « فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »[2] .

ويجوز أن تكون بشارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما تم له من فتح مكة ، وهم فى غفلتهم عن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ١٨

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٣

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(أَيَحْسَبُونَ) : أيظنون ، وفعله من باب فرِحَ عند جميع العرب إلَّا بنِى كنانة فإنهم يكسرون عين المضارع مع الماضى أيضًا على غير قياس ، والمصدر : حِسْبَانًا ، بكسر الحاءِ .

(نُمِدُّهُمْ) : نزيدهم ونعطيهم ، وفعله : أَمَدَّ ، ويكون فى الخير غالبًا .

(بَل لَّايَشْعُرُونَ) : أى بل لايعلمون ، والفعل من بابَىْ (قَعَدَ ، وَكَرُمَ) .

التفسير

٥٥ ـ (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّال وَبَنِينَ) :

أى : أيظن هؤلاءِ العصاة المغرورون أننا إذْ تركناهم يتمتعون وينعمون بما أعطيناهم إياه ، وأمددناهم به من مال وبنين ، أيظنون أننا بهذا الإمداد :

٥٦ ـ (نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّايَشْعُرُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا أنه مسارعة لهم فى الخيرات ، ومعاجلة فى الثواب لإكرامهم وخيرهم ، وإنما هو إملاءٌ واستدراج إلى المعاصى لزيادة ذنوبهم بسبب إصرارهم عليها ، كما يقول سبحانه : « إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »(١) .

والهمزة فى (أَيَحْسَبُونَ) لإنكار ما ظنوه وحسبوه ، واستقباح له ، وقوله تعالى : (بَل لَّايَشْعُرُونَ) تجهيل لهم وتخطئة ، أى : بل هم لا يعلمون شيئًا أصلًا ، ولا فِطْنَةَ بهم حتى يتأملوا ويعرفوا أن ما حسبوه خيرًا لهم ، إنما هو شر يؤدى بهم حتمًا إلى أسوإ العواقب .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٧٨

(إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) : أَى من هيبته وحذر عقابه خائفون .

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآءَاتَوْا) : أَى يعطون ما أَعطوا من الزكاة والصدقات .

(وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) : خائفة ، وفعله من باب : (فَرِحَ) .

التفسير

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

استئناف مسوق لبيان من هم المؤمنون المسارعون فى الخيرات وما وعدوا به من جزيل الثواب ، أَتى بذلك عقب ذكر الكفار وتوعدهم بما يُقنطهم من رحمته ، ويبطل حسبانهم الكاذب ، وأَملهم الخادع ، ذكرهم سبحانه بأَخص صفاتهم وأَكملها ، فبيَّن أَنهم من أَجل خوفهم من ربهم خائفون من التقصير فيما كلفهم به ، مع صدق إِيمانهم وصالح عملهم ، كما قال الحسن البصرى : (إِن المؤمن جمع إِحسانًا وإِشفاقًا ، وإِن المنافق جمع إِساءَة وأَمنًا) .

٥٨ - (وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) :

أَى : من أَجلِّ أَوصافهم الإِيمانُ بآيات ربهم المنزلة على رسله ، فهم يؤمنون بها جميعًا ، لا يفرقون بينها ، وليسوا كأَهل الكتاب الذين تقطعوا أَمرهم بينهم ، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه ، وكذلك يؤمنون بآياته الكونية التى نصبها سبحانه للدلالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه .

٥٩ ـ (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) :

أى : لا يشركون بربهم غيره ، شركًا جليًّا ، ولا شركًا خفيًّا ، بل يعبدونه وحده موقنين بأنه لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

والتعبير بكلمة (بِرَبِّهِمْ) هنا وفيما سبق للدلالة على أن اعترافهم بربوبية الله لهم جعلهم يشفقون ويؤمنون به تعالى ، ويفردونه بالعبادة ، فلا يشركون معه أحدًا ، مع ما فيها من إشارة إلى ما لربوبيته تعالى لعباده من دخل كبير فى وجوب توحيده وعبادته .

٦٠ ـ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) :

أى : يعطون العطاء : زكاة أو صدقة ، وهم خائفون ألَّا يقبل منهم ، أو لا يقع على الوجه اللائق ، لتقصير فى الوفاء بحق الإعطاء قد يكون بدر منهم .

وقرئ بالقصر ، بمعنى أنهم يفعلون ما فعلوا من العبادات ، وقلوبهم خائفة من الله جل شأنه ألَّا تكون على وجهها الكامل لشائبة من التهاون قد يُبعدها عن أن تقبل منهم .

وروى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يشير إلى هذا المعنى ، فقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ، وابن المنذر وابن جرير وجماعة : عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَآ أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى ألَّا يَتَقَبَّل منه » .

والتعبير بالمضارع فى (يُؤْتُونَ) للدلالة على الاستمرار فى العطاء ، وبالماضى فى : (مَآآتَوْا) للدلالة على تحققه . (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أى : وجلت قلوبهم خوفًا من أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم لعدم الإحسان فيها لأنهم إلى ربهم عائدون ومبعوثون يوم القيامة ، فتنكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ينجيه يوم لا ينفع المرء إلَّا ما قدمت يداه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] .

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٦١ - (أُوْلَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة يبادرون بنيل الخيرات الدنيوية والأخروية ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما فى قوله تعالى : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ »[1]. وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

عن ابن عباس قال : (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) سبقت لهم من الله السعادة ؛ فسارعوا فى الخيرات اهـ .

وقيل : يسارعون فى الخيرات ولم يَقُلْ : يُسَارَعُ لهم فى الخيرات ، إشارة إلى أن ثقتهم بوعد الله بنيلهم الخيرات بمحاسن أعمالهم ، جعلتهم يسارعون إليها ، وإيثار كلمة (فى) فى قوله تعالى : (يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) على كلمة (إلَى) للإيذان بأنهم ملازمون لها ، متقلبون فى فنونها ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها على سبيل المسارعة .

ويجوز أن يكون المعنى : يسارعون إلى الطاعات ويبادرون إليها ، وهم لأجلها فاعلون السبق إليها ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، أو إلى الجنات ، أو أنهم يسبقون إلى أول أوقاتها طلبًا لفضل أدائها .

ويجوز أن يكون المعنى : وهم أهل للسبق إليها بما منحهم الله من التوفيق ، كقولك لمن تطلب منه حاجة لاترجى من غيره : أنت لها ، وهو من أبلغ الكلام وأدقه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٨

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) :الوسع ـ مثلثة الواو ـ : الطاقة والقدرة ، أى : لا يحمِّلها الله ما يشق عليها . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ) : المراد به صحائف أعمالهم ، أو اللوح المحفوظ .

(إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) : المترف ؛ هو الجبار الذى أطغته النعمة ، وفعله : أُتْرِفَ .

(إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) : يضجون ويرفعون أصواتهم دعاءً واستغاثة ، يقال : جَأَرَ ، يَجْأَرُ ، جَأْرا ، وجُؤارا ، أى : صاح أو تضرع .

التفسير

٦٢ ـ (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

استئناف قصد به التحريض على ما وصف به السابقون الصالحون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، بمعنى أن الله سبحانه اقتضت حكمته ألَّا يكلف نفسا من النفوس بأمر من الأُمور الشاقة التى تُعْيِيه وتُجهده ، وإنما يكون التكليف بما يتسنَّى أداؤه لكل مكلف فى سهولة ويسر وفق طاقته ، فإن لم يبلغ المكلفون بعملهم مراتب السابقين فلا حرج عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ، ويستفرغوا وسعهم . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ) : تتمة لما قبله ببيان أنهم محاسبون على كل ما يصدر منهم ثوابا أو عقابا ؛ حيث إن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة وقعت

منهم إلَّا أحصاها ، والمراد بالكتاب : صحائف أعمالهم التى ترفعها الملائكة ، ويُكَلَّفُ أصحابها بقراءتها عند الحساب والجزاء . وقيل : المراد بالكتاب صحائف يقرأونها ، فيها ما ثبت فى اللوح المحفوظ ، وهو يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا وجزاء ويبينه للناظر واضحا كما يبينه النطق به. (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : ذكرت هذه الجملة لبيان أن عدله سبحانه يكون على أتم وجه وأكمله فى الجزاء ، وذلك إثر بيان رحمته ، ولطفه فى التكليف ، وأن كتب أعمالهم تعرض عليه سبحانه وفق واقعهم .

والمعنى : أنهم يوم القيامة لا يقرأون فى كتبهم إلا ما هو صدق وعدل ، فلا زيادة فيها ولا نقصان ، ولا يُظلم منهم أحد بزيادة عقاب ، أو نقص ثواب .

٦٣ ـ (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) :

فى هذه الآية انتقال من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفار .

والمعنى : بل قلوبهم فى غفلة غامرة أعمتهم عن الذى بُيِّن فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بأعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد ، فيجزون بها ، ويعاقبون عليها ، أو أعمتهم عما عليه المؤمنون الموصوفون بما سبق من الصفات الكريمة .

وقيل : الإشارة إلى القرآن وإلى ما بُيِّن فيه مطلقا ، روى ذلك عن مجاهد .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) : أى ولهم أعمال سيئة كثيرة سوى غفلة قلوبهم عن أن عند الله كتابا ينطق بالحق .

(هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) : وعليها مقيمون ، وبها مستمسكون ، لا ينفكون عنها بغيا وطغيانا .

٦٤ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ) :

أى : لايزالون يعملون أعمالهم الفاسدة إلى حين أخذ مترفيهم بالعذاب ، فيضجون ويرفعون أصواتهم فزعين ، قال ابن عباس وغيره : كان ذلك فى يوم بدر ؛ فقد قتل منهم فى ذلك اليوم عدد كثير من صناديد قريش ورؤسائهم الذين أفاء الله عليهم بكثرة المال والبنين .

وقال الضحاك : يراد بالعذاب : الجوع الذى نزل بهم حين دعا عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والجيف، وهلكت الأموال والأولاد .

والحق أنه العذاب الأخروى ؛ إذ هو الذى يفاجئون عنده بالجؤار ، فيجابون بالرد والإقناط من النصر والنجدة ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ »[1] فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر .

وأما عذاب الجوع ، فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لكن لم يرد عليه بالإقناط ، حيث روى : « أنه — عليه الصلاة والسلام — قد دعا بكشفه ، فكشف عنهم ذلك » اهـ .

(إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) : أى يصرخون ويضجون مستغيثين بربهم من مفاجأة العذاب لهم ، وتخصيص مترفيهم بالأخذ بالعذاب مع عموم عذاب الآخرة لهم ولغيرهم ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة بحماية الأتباع والحشم لهم فى الدنيا ، لم ينفعهم يوم القيامة حيث لقوا ما لقوا من الأهوال والشدائد ، فلأن يلقاها سواهم من تابعيهم وحشمهم أحق وأولى .

٦٥ — (لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك لتبكيتهم وإقناطهم من أن يستجاب لصراخهم وضجيجهم من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله ، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار .

(إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) : تعليل للنهى عن الجؤار ببيان أنه لا ينفع ولا يفيد فلا نصر لهم ولا معونة منه تعالى تنجيهم مما حلَّ بهم من هول وعذاب . وقال الحسن لا تنصرون بقبول التوبة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٧٦

(قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) : يقال نكص على عقبه نكوصًا ، من باب (قَعَدَ) أى : رجع ، والعقِبُ : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة ، وقال ابن فارس : النكوص عن الشىء : الإعراض عنه .

(سَامِرًا) أى : سُمَّارًا ؛ لأن (سَامِرًا) اسم جمع كالحاج ، أو مصدر فيقع على القليل والكثير بلفظ واحد ، والمراد منه هنا : الجماعة من الكفار يسمرون بالليل حول الكعبة ؛ لسَبِّ النبى — صلى الله عليه وسلم — وذم القرآن ، وأصل السمر : سواد الليل ، ثم أطلق على الحديث فيه ، كما قال الراغب .

(تَهْجُرُونَ) أى : تنطقون بالهجر وهو الفحش ، أو تهذون بما لا يفيد كما يهذى المريض يقال : هجر يهجُر هَجْرًا وهُجْرًا — بفتح الهاء وضمها مع سكون الجيم — فهو هاجر.

التفسير

٦٦ — (قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) :

أى : قد كانت آيات القرآن تقرأُ عليكم فى الدنيا ، فلم تُقبلوا على سماعها للانتفاع بهداها الذى يدعوكم إلى طريق الخير والنجاة ، بل أعرضتم عما دعيتم إليه ، شأنكم شأن من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقرى ناكصًا ناحية عقبه ، والنكوص أقبح المشى ؛ لأن الناكص لا يرى ما وراءه .

٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) :

الضمير في قوله : (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) يعود على البيت الحرام الذى كانوا يسمرون حوله[1] ، أي : مستكبرين على المسلمين فى البيت الحرام ، حيث منعتموهم من أداء شعائرهم حوله ، وكنتم مع ذلك تجتمعون للسمر والتآمر ضدهم ، والطعن فى القرآن الكريم ، وذم النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أن الله جعل البيت حرمًا آمنًا لجميع خلقه ، يُذكر فيه اسمه ، ويُعظَّم كتابه ، ويُوقَّر رسوله ، ولا يؤذَى فيه المؤمنون من عباده . وقيل : الضمير عائد على (آيَاتِي) فى قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ » لأنها فى معنى كتابى الذي هو القرآن الكريم ، واستكبارهم به : تكذيبهم بآياته ، بتضمين (مُسْتَكْبِرِينَ) معنى مكذبين ، فعُدِّى تعديته .

وحاصل المعنى : أنهم كانوا يجتمعون بالليل حول البيت ، ويتحدثون فى غالب سمرهم عن القرآن بتسميته سحرًا أو شعرًا أو أساطير الأولين ، مع اتصافهم بأنهم مع هذا يهجرون ، أي : ينطقون بالفحش من كل قول ، أو يهذون بالسفه البذئ ، والجهل الممقوت فى سب القرآن أو النبي أو الحق مطلقًا .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠))

المفردات :

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أي : القرآن . (فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) أى : غير عارفين للنبي حقه بعدم تدبرهم القول الذي جاء به ، من أنكرته إنكارًا ، ضد : عرفته .

(بِهِ جِنَّةٌ) الجِنة : الجنون ، كما تطلق على الجن ، وسيأتي بيان ذلك .

(1) والباء بمعنى : (فى) .

التفسـير

٦٨ - ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ :

أى : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه معجز وأنه دليل على صدق الرسالة ، فيؤمنوا به ؟ والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : إضراب وانتقال من التوبيخ بما سبق إلى توبيخ آخر ، أى : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت أسلافهم حتى استبعدوه ، وخاضوا فيه بما خاضوا من الكفر والعناد والإمعان فى الضلال ؟ فالهمزة هنا لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع ؛ بمعنى أن مجىء الرسل بالكتب من جهته تعالى لينذروا بها الناس سنَّةٌ قديمة له سبحانه لامساغ لجحودها ، ومجىء القرآن وفق هذه السنة ، فلأى سبب ينكرونه ويتركون تدبره ؟ إنه لاسبب لذلك إلا التمادى فى الظلم والعدوان .

وقيل : المعنى : أغفلوا فلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ؟ أم جاءهم من أسباب الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين الذين خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ، فأطاعوه حق طاعته ، والهمزة على هذا للإنكار أو للتقرير تهكمًا .

٦٩ - ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ :

إضراب انتقالى لتوبيخ الكافرين من قريش بوجه آخر ، أى : بل ألم يعرفوا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - متصفًا بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، ورجاحة العقل ، وصحة النسب ، وبكل الكمالات اللائقة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟ بل لقد جاءهم من عرفوه بكل ذلك ، فقد كانت كلمتهم قبل مبعثه متفقة على تسميته بالصادق الأمين ، وغير ذلك من كرام السجايا ، ولذلك قال أبو سفيان بن حرب لملك الروم (هرقل) حين سأله وأصحابه عن صفات النبى - صلى الله عليه وسلم - صدقه وأمانته ، - قال أبو سفيان : ماجربنا عليه كذبا ، وكانوا حينئذ كفارًا لم يسلموا ، ومع هذا ما أمكنهم إلَّا الصدق ، فاعترفوا بذلك ، وقال جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته .

فإذا كان محمد كذلك فكيف ينكرون نبوته ، ويجحدون صفاته بعد أن اعترفوا بها ؟ إن ما وقع منهم كان حسدًا وبغيًا ، قال سفيان الثورى : بل قد عرفوه ولكنهم حسدوه .

٧٠ - (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

انتقال إلى توبيخ آخر ، أى : بل أيحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع الذى يعرفونه حق المعرفة ؛ حيث إنه - عليه الصلاة والسلام - أرجح الناس عقلًا ، وأضوؤهم ذهنًا ، وأصحهم رأيًا ، وأوفرهم رزانة . (بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ) : أى : بل جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - بالحق البيِّن ، وهو القرآن والتوحيد والدين القيم الذى لامحيد عنه ، فلا صحة لما يقولون .

(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) : المراد بالحق الذى كرهه أكثرهم ، إما كل حق ، ويدخل فيه دين الإسلام ، وإما دين الإسلام خاصة ؛ فقد كرهه أكثرهم حسدًا وبغيًا ، وكان فيهم من لا يكرهه ، ولكنه يتابع قومه فى الإعراض عنه والكفر به أنفةً واستكبارًا ، وحذرًا من تعيير قومه ، أو من وقوع أذى به أو نحو ذلك من عدم فطنته وقلة تفكره ، لا كراهةً للحق من حيث هو حق .

وإيثار الإظهار فى مقام الإضمار حيث لم يُقَلْ : (وأكثرهم له) لوضوح الإظهار فى ذمهم والتشنيع عليهم ، ولدفع ما قد يتوهم من عود الضمير على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخاصة .

(وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ) : المراد بالحق : الله سبحانه وتعالى ، وقد يراد به الحق المطابق للواقع ، أو النبي ، والمراد بأهوائهم : ما يهواه الناس ويشتهونه .

(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : الذكر هنا بمعنى الشرف ، أى : أتيناهم بالكتاب الذى فيه عزهم وشرفهم . (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا) : أى أجرًا عن التبليغ . (عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) : مائلون منحرفون عن طريق الجنة ، وهو الصراط المستقيم ، وفِعْله من باب (قَعَدَ) يقال : نكب عن الطريق ، نكوبًا ، ونكْبًا : إذا عدل عنه ومال إلى غيره[1] .

التفسـير

٧١ـ (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . .) الآية .

أى : ولو اتبع الحق سبحانه أهواءهم الزائفة ، فوافقها بتشريع ما يشتهون ، لكانت الطامة الكبرى ؛ حيث تفسد السموات والأرض ومن فيهن ، وتخرج عن الصلاح والانتظام بالكلية ؛ لأن رغبات الناس قاصرة ، وشهواتهم تختلف وتتضاد بما ينجم عنه أشد الفساد ، وأقوى التنابذ والخلاف ، ولكن الكون تام الصلاحية ؛ لأنه جاء وفق مراد الحق تبارك وتعالى دون شريك ؛ إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[2] .

(١) ويأتى (نكب) أيضا من باب : (فرح) فيقال : نكب ، ينكب ، نكبا .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

وخُصَّ العقلاءُ بالذكر فى قوله تعالى : (وَمَن فِيهِنَّ) لأن غيرهم تبع لهم فى الصلاح والفساد . (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : انتقال من التشنيع عليهم بما سبق إلى التشنيع عليهم لإعراضهم عما جبلت عليه النفس من الإقبال والرغبة فيما فيه خيرها ونفعها ، أى : بل أتيناهم بالقرآن الذى فيه عزهم وشرفهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] فكان يجب عليهم لهذا أن يسرعوا إليه ، ويقبلوا ما فيه أكمل قبول ، ولكنهم عكسوا الآية (فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ) أى : فَهُمْ بما فعلوا من نكوص وإعراض معرضون عما فيه شرفهم وفخرهم ، وبيان ثوابهم وعقابهم ، مسرعون إلى نقيضه مما لا يطلب منهم الإقبال عليه والاهتمام به

وفى وضع الظاهر موضع المضمر حيث لم يُقَل : (فَهُمْ عَنْهُ) إشارة إلى مزيد من التشنيع عليهم والتقبيح لهم

وقيل : المراد بذكرهم : ما تمنوه بقولهم : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »[2] والحق أنه قد جاءهم ذكر خير من ذكر الأولين ، أى : كتاب خير من كتبهم ، فأعرضوا عنه جهلا وعنادا .

٧٢ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

انتقال لتوبيخ آخر يوبخ به سبحانه الكافرين على عدم إيمانهم بما جاءهم به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجرًا ، والمعنى : بل أتسألهم يا محمد أجرًا على الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟ (فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) : الجملة تعليل لنفى السؤال الذى استفيد من الإنكار ، أى : لم تسألهم ذلك ، ولا يتأتى منك ؛ فإن ما رزقك الله إياه فى الدنيا ، وما أعده لإثابتك فى الآخرة خير من رزقهم ؛ لدوام رزق الخالق واستمرازه وعدم تحمّل المنة فى رزقهم .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره - عليه الصلاة والسلام - إيذان بأعظم التشريف وأكمل التعظيم له - صلى الله عليه وسلم - والخَرْجُ أقل من الخَرَاجِ ، فهو بمعنى :

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٤٤ (٢) سورة الصافات ، الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

العطاء القليل ، أما الخراج فهو العطاء الكثير ؛ لأن كثرة المبنى تدل على كثرة المعنى ولذا عُبِّر بالأول فى جانب الخلق ، وبالثانى فى جانب الخالق ، وقيل : إنهما سواء فى المعنى.

(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : تأكيد لخيرية عطائه ورزقه ؛ فإن من كان خير الرازقين يكون رزقه خيرًا وأوفى من رزق غيره ، بمعنى أنه لا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن يُنعم قدر إنعامه .

٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : إلى دين الإسلام الذى تشهد الفِطَرُ السَّلِيمة باستقامته وتنزهه عن أى شائبة تلحقه ، أو اعوجاج يعيب منهجه ، والصراط : الطريق ، وسمى الدين طريقا لأنه يؤدى إلى الجنة ، فهو طريق إليها .

٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

هم كفار قريش المحدث عنهم فيما سبق ، وقيل : المراد ما يعمهم ويعم غيرهم من الكفار المنكرين للبعث ، وتدخل قريش فى ذلك دخولا أوليا ، وقد وصفوا بعدم الإيمان بالآخرة ، تشنيعا عليهم بما يفعلونه من إقبال على الدنيا ، واستمساك بها زاعمين : أنه لا حياة لهم بعد هذه الحياة ، ولو كانوا يؤمنون بها لخافوا سوء المصير فيها بكفرهم بالحق الذى جاءهم على لسان رسوله .

المعنى : وإن الذين لا يُصدقون بالآخرة وأهوالها لمعرضون عن الصراط السوى ، ومنحرفون عنه ، ولو آمنوا بها لفكروا قبل أن يكفروا بما جئتهم به ، ولهداهم التفكير إلى الصراط السوى الذى يوصلهم إلى رحمة الله .

* ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

المفردات :

(مِن ضُرٍّ) : من شدة وسوء حال . (لَلَجُّوا) : لتمادوا . (فِي طُغْيَانِهِمْ) : فى إفراطهم فى الكفر بالحق . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون بين أساليب رد الحق ، وهو مضارع (عَمِه) بوزن فرح ومنع ، ومصدره : العَمَهُ والعُمُوه . (فَمَا اسْتَكَانُوا) : فما خضعوا .
(وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أن يرحمهم .
(مُبْلِسُونَ) : متحيرون يائسون من كل خير .

التفسير

٧٥ - (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

أى : ولو رحمنا أهل مكة ، وأزلنا ما لحقهم من ضر وشدة ، بسبب القحط الذى حل بهم عقابًا لهم ، لتمادوا فى الكفر بالحق يترددون بين أساليب رده ، ولم يرتدعوا عن طغيانهم بعد ما رفع الله الضر عنهم .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد دعا عليهم ، فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف - كما رواه ابن عباس ،وقد حقق الله دعاءه ، فقد بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - محمد بن مسلمة فى سَرِيَّة إلى بنى بكر بن كلاب ، فجاء بثُمامة بن أثال الحنفى إلى المدينة ، فامتنع عن الإسلام ثلاثة أيام ، ثم أسلم وخرج معتمرًا ، فلما قدم بطن مكة لبَّى ، وهو أول من دخلها ملبيًا من المسلمين ، ومن هنا قال أحد بنى حنيفة

ومنَّا الذى لَبَّى بمكة مُعْلِنًا برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا وصَبَوْتَ يا ثمامة ، قال : أسلمت واتبعت خير دين ، دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لايصل إليكم حبة من اليمامة - وكانت ريفًا لأهل مكة - حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا لمكة شيئًا حتى أضرَّ بهم الجوع ، وأكلت قريش العِلْهز[1] ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا ، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ثُمامة - رضى الله عنه - : « خَلِّ بين بنى قومى وبين مِيرَتهم » ففعل .

وفى رواية أن أبا سفيان جاءه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : ألست تزعم ... إلخ وكان هذا قبل الفتح بقليل[2] .

وقد نزلت الآية الكريمة لتبين أن كشف الضر عنهم بسعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكتابته إلى ثُمامة لن يؤثر فى قلوبهم المريضة ، بل سيظلون فى طغيانهم يترددون .

٧٦ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) :

هذه الآية تسجل على قريش عنادهم فى كفرهم ، وأن الآيات والنذر لاتنفعهم ، فإذا كانوا لم ينزعوا إلى الإيمان بامتحانهم بآية العذاب والضُّر ، فكيف يؤمنون برحمتهم وكشف الضر عنهم ؟ .

والمعنى : ولقد أخذنا قريشًا بعذاب الجوع والقحط ، فما خضعوا به إلى الحق ، ومايتذللون لربهم ويدعونه بإيمان وصدق لكى يكشف الضر عنهم ، فقلوبهم مع أوثانهم وليست مع خالقهم ، ومن كان أمرهم ذلك ، فلن يخضعوا برحمته تعالى وكشف ضره عنهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن الأمر كما قاله العليم الخبير : « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[3] .

---

(١) العلهز : طعام يؤكل فى المجاعة من الدم والوبر ، ويطلق أيضا على القراد الضخم .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥

٧٧ - (حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) :

لفظ : (حَتَّى) يدل على أن الكلام بعدها غاية لما قبلها ، والمراد بالعذاب الشديد الذى يفتح عليهم بابه : إمَّا ما يكون بفتح مكة ، وإمَّا ما يحدث يوم القيامة .

والمعنى : أنهم مستمرون فى عنادهم وكفرهم لا تفيدهم الآيات والنذر ، حتى إذا فتحنا عليهم بابًا موصلًا إلى عذاب شديد لا طاقة لهم به ، كما حدث لهم يوم فتح مكة ، أو كما سوف يحدث لهم يوم القيامة ، إذا هم فيه مُتَحيِّرون آيسون من كل خير .

أما عذابهم يوم فتح مكة ، فهو عذاب اليأس والقنوط من الانتصار على محمد والقضاء على دينه ، واستسلامهم له أذلة صاغرين ، وأما عذابهم يوم القيامة فيكون لمن مات منهم على كفره قبل الفتح ، أو كتم كفره ونافق بالإيمان بعد الفتح .

وفى المعنى الثانى يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »[1] ، ويقول : « لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »[2].

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب ، مفردها فؤاد . (ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم وبثكم فيها[3]. (تُحْشَرُونَ) : تجمعون . (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : وَلِأَمر الله وتدبيره يرجع تعاقب

---

(١) سورة الروم ، الآية : ١٢ (٢) سورة الزخرف ، الآية : ٧٥

(٣) قال صاحب القاموس : ذرأ كجعل : خلق ، وذرأ الشىء : كثره ، ومنه : الذرية -مثلثة- لنسل الثقلين .

الليل والنهار ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان أى : يتردد عليه ، أو المراد باختلافهما تفاوتهما زيادة ونقصانًا ، وظلامًا وضياءً .

التفسير

٧٨ـ (وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) :

بعد أن بين الله إصرار أهل مكة على الكفر بعد ما تعاقبت عليهم الضراءُ والسراءُ ، وأنذرهم بسوءِ العاقبة حينما يَفتح عليهم بابًا ذا عذاب شديد ـ بعد أن بين الله ذلك ـ جاءت هذه الآية وما بعدها ، لتذكرهم بآيات الله ونعمه فيهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتجنبون بالإيمان سوءَ مصيرهم .

والمعنى : والله هو الذى خلق لكم حينما أنشأكم ـ خلق لكم ـ حاسة السمع لتدركوا بها المسموعات من خير أو شر ، ضر أو نفع ، كما تدركون بها مختلف العلوم والمعارف فى أمور دنياكم وأُخراكم ، وخلق لكم الأبصار ، لتسلكوا السبل على هداها ، وتنظروا بها الصديق والعدو والحسن والقبيح ، وتدركوا آيات الجمال والكمال فى كون الله ، وتتعرفوا ما يصلح من الأرزاق وما لا يصلح ، وتميزوا بها شتى الألوان والأحجام وغير ذلك من سائر المدركات عن طريقها ، مما لا يحيط به العادّون ، ولا يستقصيه الحاسبون ، وخلق لكم العقول ، لتحكموا بها على ما يصل إليكم عن طريق الأسماع والأبصار وسائر الحواس ، وتوازنوا بها بين المدركات وتسوسوا بها نفوسكم ناحية الخير ، وتبعدوها عن موارد الهلكة ، وتبسطوا بها سلطانكم على الأرض التى جعلكم الله خلفاءَ عليها وعلى ما فيها وما فوقها : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

والله تعالى يخرج الناس من بطون أُمهاتهم بحواسهم خالية من الإدراك ، ولكنها صالحة له ، حتى إذا ما تواردت عليها المدركات انتبهت إليها وتدرجت فى النمو شيئا فشيئا حتى تصل كل نفس إلى مستواها من الإدراك الذى شاءه الله لها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[١] ، لما كان السمع يسبق الأبصار فى الإدراك ، والأفئدة تتأخر فيه عنهما ، فلذلك جاءت مرتبة هكذا فى آيات القرآن العظيم[٢] .

ولقد ختم الله الآية هنا بقوله : « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » والخطاب هنا للكافرين . والقلة إما بمعنى العدم ، أى : لا تشكرون الله أصلًا ، أو بمعناها الحقيقى ، فهم إن شكروا الله فشكرهم له قليل بالنسبة لشكرهم لآلهتهم ، فهم فى معظم أحوالهم ينسبون إليها النصر والمطر والرزق والشفاء من الأمراض ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ، والمقصود من الشكر هنا : صرف تلك الحواس لما خلقت له ، وأهم ما خلقت له : العبادة الخالصة لله ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وقيل : إن الخطاب فى الآية من أولها لآخرها موجه إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، والحكم بقلة شكرهم ، لأن الذين يشكرونه تعالى هم المؤمنون ، وهم فى الناس قليلون ، وما قلناه أولًا أظهر وأوفق بالسياق .

٧٩ ـ (وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

والله هو الذى خلقكم من نفس واحدة خلق منها زوجها ، وكثركم ونشركم فى الأرض بتناسلهما وذرياتهما لتعمروها وتكونوا فى عمارتها خلفاء عنه تعالى ، ولستم بمخلدين فيها ، بل تموتون حين تحين آجالكم ، وإليه لا إلى غيره تحشرون وتجمعون بعد أن يبعثكم أحياء من قبوركم ، ليحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٨٠ ـ (وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

والله هو الذى يهب الحياة لكل كائن حى ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، ويسلبها منه حين يميته ، وتراه فى سلطانه على خلائقه « يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ »

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٨

(٢) علق المختصون من الأطباء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على آية (النحل) فى كتاب (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم) بقولهم : أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جدا فى حياة الطفل فى الأسابيع القليلة الأولى ، وأما البصر فيبدأ فى الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الأبصار إلا بعد الشهر السادس : أما الإدراك بالفؤاد فلا يكون إلا بعد ذلك : انتهى بتصرف يسير .

وهذا شاهد على أنه تعالى كما بدأ الخلق يعيده ، مصداقًا لقوله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »[١] .

وكما أنه يختص بالإحياء والإماتة ، فإنه تعالى يرجع إليه وحده التدبير فى اختلاف الليل والنهار .

والمراد باختلافهما : أن يجىء كلاهما خلف الآخر ، أو أن يتفاوتا طولًا وقصرًا ، نورًا وظلامًا ، وفى ضوءِ النهار تتحرك الكائنات الحية إلى معايشها وأرزاقها ، وفى الظلام تسكن وتستريح من سعيها ومتاعبها : « سُنَّةَ اللهِ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » وختم الله الآية بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : أترون هذه الآيات فلا تعقلون دلالتها على الخالق سبحانه ووجوب عبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسله والاهتداء بهديه ، والعمل ليوم البعث والنشور ؟ : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ »[٢] .

(بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها للتلهى بها ، جمع : أسطورة ، كأحدوثة وأحاديث ، وأعجوبة وأعاجيب ، وقيل : جمع أسطار جمع سَطْر ، فهى جمع جمع ، واختيار الزمخشرى الأول ، لأن جمع المفرد أولى من جمع الجمع وأقيس ، ولأن وزن أفعولة يأتى لما فيه التلهى ، فيكون القرآن – فى نظرهم الفاسد – مكتوبات لا طائل تحتها ، وإلى هذا الرأى ذهب المبرد وجماعة من أهل اللغة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤ (٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣

التفسير

٨١، ٨٢ـ (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أنه تعالى هو الذى أنشأ للكافرين الحواس والأفئدة ، وهو الذى خلقهم وأنهم إليه راجعون للحساب والجزاء ، وأن الإحياء والإماتة من شأنه جل وعلا ، كما له اختلاف الليل والنهار ، وطلب إليهم عقب هذه الآيات أن يتدبروا ويتعقلوا بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وجاءت هاتان الآيتان ومابعدهما لتفيد أنهم لم يعقلوا ولم يتدبروا بل كفروا بالبعث مع وجود هذه البراهين .

والمعنى : لم يعقل هؤلاء المشركون تلك الآيات على إمكان البعث وقدرة الله عليه ، بل قالوا منكرين له مثل ما قاله الكفرة السابقون لرسلهم . قالوا : أئذا متنا وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام بالية نبعث إلى الحياة مرة أخرى ، ثم أعادوا الاستبعاد والاستنكار مرة أخرى فقالوا : أئنا لمبعوثون بعد هذا الفناء ، ثم أكدوا استبعادهم بما حكاه الله عنهم بقوله :

٨٣ـ (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

لقد وعدنا منك يا محمد بالبعث بعد الموت ، ووعد آباؤنا من رسلهم بمثله قبلك ، وما هذا البعث الموعود إلا أسطورة من أكاذيب الأولين نقلتها إلينا عنهم يا محمد ، ونحن نستبعد حصوله ونستنكره بعد أن يتحول الموتى إلى عظام نخرة ، وقد كانت عقيدتهم فى الحياة تتمثل فى قولهم : إن هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ، والواقع أنهم فى عقائدهم مضطربون ، فبينما هم يقولون ذلك يحكى الله عنهم إيمانهم بعظيم قدرة الله بقوله : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[١] . فإذا كانت عقيدتهم كذلك فى قدرة الله ، فكيف يستبعدون البعث وهو مشاهد لهم كل يوم فى إحياء النبات بعد يبسه ، وفى اليقظه بعد النوم .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦١

(قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾)

المفـردات :

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، والتذكر : الاعتبار . (مَلَكُوتُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : صيغة الملكوت للمبالغة فى الملك ، فالمراد به الملك العظيم الشامل . (وَهُوَ يُجِيرُ) : وهو يمنع ويحفظ من يشاءُ ممن يشاءُ .

(وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) : ولا يستطيع أحد أن يمنع سواه من بطش الله .

(فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) : فكيف تصرفون عن الهدى .

التفسـير

٨٤ـ (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاءِ المنكرين للبعث : من هو خالق الأرض ومالكها والمتصرف فيها وفيمن عليها ؟ إن كان لديكم شىء من العلم والعقل ، فأجيبونى عن هذا السؤال .

وأسلوب الآية ينم عن فرط الاستهانة بعقول هؤلاءِ المشركين ، حيث شكك الله فى وجودها لديهم ، بسبب أنهم لم يحسنوا استخدامها ، فجعلها فى حكم المشكوك فى وجودها بقوله « إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

٨٥ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : أنهم مع فرط جهالتهم ، وفقدان القدرة على القياس لديهم ، فإنهم سيجيبونك أيها الرسول بأن الأرض ومن فيها لله ، لأنهم لا يجحدون ذلك ، قل لهم حين يجيبونك بذلك : أتقولون هذا ، فلا تعتبرون بأن من فطرها وفطر من عليها ابتداء فهو قادر على إعادتها ثانيا ؟ فإن الإعادة أسهل من الابتداء فى قياس العقول .

٨٦ ، ٨٧ - (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هو مالك السموات السبع بجزئياتها وبمن عليها من كائنات لا يعلمها غيره ، ومن هو مالك العرش العظيم ؟ سيقولون فى إجابتهم : هى لله ، قل لهم : أتقولون ذلك فلا تتقون الله وأنتم تشركون وتنكرون البعث والنشور ، وهما أهون عليه من خلق السموات السبع وخلق العرش العظيم[1] ؟

٨٨ - (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

اليد هنا كناية عن القدرة والمعنى : قل لهم أيضا مبالغا فى التقرير والإنكار : مَن بقدرته ملك كل شىء وتدبيره ، وهو يمنع من يلوذ به ويحميه من المكاره ، ولا يستطيع أحد أن يجير ويحمى من أراده بسوء ؟ إن كنتم تعلمون الجواب عن هذا السؤال فأجيبونى ، ثم تولى الله الجواب عنهم ، لأنهم مقرون به ولا معدل لهم عنه فقال سبحانه :

٨٩ - (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) :

سيقول هؤلاء المشركون : الملك والملكوت لله ، والإجارة والحماية للمستجير لا تكون إلا لله دون سواه ، وإذا كان هذا ماسيقولونه جوابا عن سؤالك ، فكيف يُصْرفُون عن الرشد والهدى كالذين سُحِروا ففقدوا عقولهم ؟

(١) العرش فى اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون .

ويلاحظ أن السؤال الثانى : « مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ . . . » والثالث : من بيده ملكوت كل شىء جوابهما (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) بلام الجر ، وكان الظاهر أن يكون الجواب (سيقولون الله) بغير لام مراعاة للسؤال[1] . فما وجه العدول عنه ؟

والجواب : أن كلا الأمرين جائز لغة ، فلو قيل : مَنْ صاحب هذه الدار فلك أن تجيب بقولك : (خالد) مثلا ، مراعاة للفظ السؤال المجرد عن اللام ، ولك أن تقول : (لخالد) باللام مراعاة للمعنى ، ومنه قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف[2] والقُرى ورب الجياد الجُرد[3] قيل لخالد

٩٠ ـ (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

فى هذه الآية إضراب إبطالى لإنكارهم البعث والتوحيد .

والمعنى : بل جئنا قريشا بالحق فى وحدانية المعبود والبعث من القبور ، وإنهم لكاذبون فى شركهم وإنكارهم لهما « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[4]

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أى : لغلب بعضهم بعضا .

(١) فإن السؤال مجرد عن اللام فيهما حيث لم يقل فيه : لمن السموات السبع ، ولا (لمن ملكوت كل شىء) .

(٢) جمع مزلفة ، وهى القرية تكون بين البر والريف .

(٣) الجرد : جمع أجرد ، وهو الجواد الذى يسبق غيره .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) : تنزيها له تعالى عما يلحقونه به من الولد والشريك . (الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : المراد بهما : ما غاب عن خلقه وما أبصروه . (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : فتنزه عن إشراكهم .

التفسير

٩١ - (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمعنى : ما اتخذ الله لنفسه من ولد ، لتنزهه عن الاحتياج إليه ليعينه أو يرثه من بعده كما هو الشأن فى الولد ، فهو القادر الذى يقول للشيء : كن ، فيكون ، وهو الباق الذى لايفنى ولا يبيد « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[1] .

وكما أنه تعالى لم يتخذ ولدا فإنه لم يكن معه من إله حين أبدع ملكوته ، ولا يصح عقلا أن يكون له فيه شريك كما زعم الزاعمون ، فلو اشترك معه فى الخلق غيره ، لا ستقل كل إله بما خلقه ، إن فرض استقلاله بخلقه ، ولغالب بعضهم بعضا حتى يغلب قويهم ضعيفهم ويستقل بالكون وحده ، إن فرض اشتراكهم فى الكون تعاونيا ، أو كان لكل منهم ناحية خلقها ، وبما أننا نرى الكون وحدة متكاملة محكمة الصنع ، فلا بد أن يكون مبدعه إلها عظيماً واحداً فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإن التعدد فى الإله يؤدى إلى التنافس والتغالب وينتهى إلى الفساد ، كما قال سبحانه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[2] ولهذا ختم الله الآية بقوله : « سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى : تنزيها كاملا لله عما يزعمونه له من الولد والشريك .

٩٢ - (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : أنه تعالى كما تنزه عن الولد وعن الشريك فى خلق هذا الكون وتدبيره ، فهو عالم بكل ما خفى وغاب عن العيون والعقول ، وعالم بكل ما هو مشاهد ومرئى لأولى الأبصار « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ »[3] وإذا كان

(١) سورة الرحمن ، الآيتان . ٢٦ ، ٢٧ (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩

أمر الإله عظيمًا هكذا فتعالى الله وتنزه عما يشركون معه من آلهة لا حول لها ولا قوة ، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا ، ولا تعلم عن نفسها أو غيرها حاضرًا ولا غائبا .

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾)

المفـردات :

(إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ) : إن كان لابد من أن ترينى مايوعدونه من العذاب ، والأصل إن تُرينى ، فزيدت ما وأدغمت فى (إن) فصارت : إمَّا ، وأكد الفعل (تُرِيَنِّى) بنون التوكيد بعد إمَّا ، فأصبح الفعل مؤكدًا بلفظ (ما) المدغمة فى (إن) وبنون التوكيد ، وبهذا يعلم أن (ما) فى لفظ (إمَّا) ليست للنفى بل للتوكيد . (ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) أى : ادفع أثر السيئة بالخصلة التى هى أحسن ، وسيأتى شرح ذلك .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) : نحن أعلم بالذى يصفونك به ، أو بوصفهم إياك بما ليس فيك[1] . (أَعُوذُ بِكَ) : ألوذ وأعتصم بك .

(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) : جمع همزة ، والهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه المهماز فى رِجْل مَنْ يركب الدابة ، ينخسها به لتسرع ، والمراد بهمزات الشياطين وساوسهم ؛ فإنها تدفع إلى المعاصى .

---

(١) وبهذا التفسير علم أن لفظ (ما) فى قوله تعالى (بما يصفون) إما موصولة أو مصدرية .

التفسير

٩٣ ، ٩٤ - (قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

ظاهر الآيتين يدل على أن الله تعالى كان قد أخبر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بعذاب يصيب قومه إن أصروا على كفرهم ، ولم يخبره بوقت نزوله ، فلهذا طلب نجاته منه إن حصل لهم فى حياته ، وهكذا فَهِمَ الْحَسَنُ ، فقد روى أنه قال : أخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن له فى أمته نِقْمَةً ، ولم يطلعه على وقتها ، أهو فى حياته أم بعدها ، فأمره بهذا الدعاء :

والمعنى : وقل -أيها النبي- : يارب إن كان لابد أن ترينى ما أوعدت قومى به من العذاب المستأصل إن بقوا على كفرهم ، يارب فلا تجعلنى بين هؤلاء الظالمين حين ينزل بهم عقابك .

ونداءُ النبى لله بوصف الربوبية ، للإيذان بأنه تعالى هو المالك الناظر فى مصالح العباد ، الذى يُلْجَأُ إليه فى دفع الملمات ، وتكليفه - صلى الله عليه وسلم - بأن يدعو ربه بذلك ، مع أنه - صلى الله عليه وسلم - بمنجاة من مثل ذلك العذاب العظيم إن نزل ، للإيذان بفظاعة العذاب الموعود ، وكونه بحيث يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن ينزل به ، وهو متضمن تأكيد وقوع العذاب الموعود الذى أنكروه وسخروا منه واستعجلوه . وهذا الوعد مشروط ببقائهم على كفرهم .

وقيل : إنه - صلى الله عليه وسلم - أمر بذلك هضمًا لنفسه وإظهارًا لكمال العبودية ، أو لأن شؤم الكفرة قد يحيق بغيرهم ، كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً » والتعبير بقوله : « فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » بدلًا من أن يقول : فلا تجعلنى فيهم ، للإيذان بأن ظلمهم هو السبب فى وعيدهم بالعذاب ، وتكرار لفظ (رب) لمزيد الضراعة والاستنجاد بمن بيده الأمر كله .

٩٥ - (وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) :

أى : وإنا على تمكينك من رؤية عذابهم الموعود لقادرون ، كما قدرنا على مثله فيمن سبقهم من المعاندين لرسلهم .

وهذه الآية تشير إلى أن التعجيل بالعذاب ليس من الحكمة التى تقترن بها أفعال الله تعالى فلقد علم سبحانه أزلًا أن معظمهم سوف يؤمن ، فلهذا تأنى بهم ولم يتعجل بعقوبتهم .

والظاهر أن هذه الآية واللتين قبلها نزلتا قبل أن يخبر الله تعالى نبيه بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[1] .

٩٦ـ (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) :

أى : قابل السيئة التى تأتيك من قومك وامنع أثرها عن نفسك بالخصلة التى هى أحسن من مقابلة السيئة بمثلها ، والدفع بالتى هى أحسن على ثلاث درجات ، أدناها أن تصفح عن سيئته ، وفوقها أن تحسن إليه إحسانًا ما ، وأعلاها أن تجزل الإحسان إليه .

وأَمْرُ الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك توكيدٌ لما هو ملتزم به من هذا الخلق الكريم مع المؤمنين فقد كان يقابل السيئة بالحسنة ، وكان يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

والخطاب فى الآية وإن كان موجهًا إلى الرسول حسبما يؤذن به السياق ، فإن الحكم فيه يعم كل مسلم ، فينبغى أن لا يقابل السيئة بمثلها ، حتى لا يتمادى المسئ فى إساءته ، فيعظم البلاء وتحدث الفتن ، فإن معظم النار من أعظم الشرر ، وفى عموم معناها أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن أنس أنه قال : (يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لى) والدفع المذكور مطلوب ما لم يؤد إلى ثلم الدين أو خدش المروءة .

وفى ختام الآية يقول سبحانه : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى : نحن أكثر علما منك بما يصفونك به فى السر والعلانية ، من الأوصاف التى يُكَذِّبُهَا ما أنت عليه من الكمال الخلقى والصدق فى تبليغهم أحكام ربهم ، وفى هذه الجملة وعيد لهؤلاء المتقولين على الرسول بالعقوبة ، وتسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإرشاد له إلى تفويض الأمر له عز وجل ، والآية من قبيل الموادعة والمهادنة ، حتى يشتد جانب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيقاتلهم حتى يهتدوا إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٣

٩٧ ، ٩٨ ـ (وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) :

بعد أن أمر الله نبيه بدفع السيئة بالحسنة ، أمره أن يعوذ به من وساوس الشياطين ، ليكون ذلك معينًا له على دفع السيئة بالحسنة ، ونحن فى كلا الأمرين مكلفون بالعمل بما أمر الله به رسوله فيهما .

والاستعاذة بالله والاعتصام به من الشياطين أمر ينبغى الحرص عليه عند الشروع فى كل عمل صالح للفرد أو للمجتمع ، فإن الشياطين من الجن والإنس أعداءٌ للخير ، فهم لذلك يحرصون على الصد عنه بوساوسهم وإغراءاتهم المضللة للنفس البشرية ، فهم يزينون لها الباطل ، وينفرونها من الحق بأساليب مزوقة وملفقة قد تخفى على التقى الورع ، ولا عاصم من خداعهم إلّا الله رب العالمين ، فلهذا أمرنا سبحانه بالاستعاذة به من وساوسهم .

والمعنى : وقل – أيها المسلم – عند الشروع فى أمر نافع لك أو لمجتمعك : يارب أعوذ بك وأعتصم بربوبيتك من وساوس الشياطين الصارفة عن البر والخير ، وأعوذ بك وأعتصم بحمايتك من حضورهم حولى فى أى حال من أحوالى الدنيوية أو الأخروية ، لأسلم من شرورهم ومغرياتهم الكاذبة : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »(١) .

ومِنْ أجدر الأحوال بالاستعاذة بالله من الشياطين حالُ الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل ، وعند النوم ، لأنهم ينشطون فيها أكثر من سواها .

وفى الاستعاذة عند النوم : أخرج الإمام أحمد بسنده عن جَدِّ عَمْرو بن شعيب قال : « كان رسول الله – صلى الله عليه سلم – يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم – من الفزع – : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأنْ يحضرون » ورواه كذلك أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه .

وفى الأمر بالتعوذ من حضور الشياطين بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة فى التحذير من ملابستهم .

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفـردات :

(فِيمَا تَرَكْتُ) : فى دنياى التى تركتها أو فى مالى أو فى إيمانى . (كَلَّا) : كلمة تستعمل للردع والزجر . (وَمِن وَرَآئِهِمْ) أى : أمامهم ، ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ » أى : أمامهم ، وقد يستعمل بمعنى الخلف ، فهو كما قال صاحب المختار : من الأضداد ، ويبنى على الضم إذا لم تضفه ، كقولك : جئتك من وراءُ ، كقولك : من قبلُ ومن بعدُ[1] (بَرْزَخٌ) : حاجز .

التفسـير

٩٩ ، ١٠٠ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

(حَتَّى) هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما قبلها ، ولهذا يقول النحاة عنها : إنها لابتداء الغاية ، وقد مضى أن المشركين أنكروا البعث وتوحيد الله حتى قالوا فيهما : أساطير الأولين ، ثم احتج الله عليهم وذكرهم قدرته على كل شىء ، وأنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » وأمر نبيه أن يستعيذ به من عذابهم الموعود على كفرهم ، وطلب إليه أن يدفع سيئتهم بالحسنة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن من أصرّ منهم على الكفر حتى يحضره الموت ، طلب الرجوع إلى الحياة ليصلح ما أفسده .

---

(١) انظر المختار .

والمعنى : أن المشركين لا يزدادون بالوعظ والتذكير إلَّا إصرارًا على الكفر حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقن ضلاله حين يرى الملائكة تقبض روحه بعنف وشدة وأدرك حينئذ سوء عاقبته ، فيقول فيما بينه وبين الله تعالى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ثانية إلى الحياة الدنيا لكى أعمل صالحًا فى دنياى التى تركتها وليس لى فيها عمل صالح ينفعنى فى أخراى ، فيقال له : كلاَّ لا سبيل لك إلى الرجوع إليها بعد أن حانت منيتك ، ثم يقول الله مؤكدًا تمنيه الرجوع إلى الدنيا ، واستحالة رجوعه بقوله : « إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : إن قوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ » كلمة هو قائلها لا محالة حين يعاين الموت وسوء المنقلب ، لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا حيث يبقون فى قبورهم إلى يوم القيامة ، حين يبعثون منها للحساب والجزاء ، والمقصود من حضور الموت حضور أماراته ، ومنها حضور الملائكة لقبض روحه بشدة كما قال تعالى فى وصف هذه الحالة : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ »[١] . وكلامهم مع الله بصيغة الجمع فى قولهم : (رَبِّ ارْجِعُونِ) للتعظيم ، وهو أسلوب المسترحمين كما قال الشاعر :

فقلت ارحمونى يا إلٰه محمد ... فإن لم أكن أهلًا فأنت له أهل

ولفظ (لعل) يستعمل للتعليل وللرجاء ، وكلاهما تصح إرادته فى قول الكافر المحتضر (لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) أى : لكى أعمل صالحًا ، أو رجاء أن أعمل صالحًا .
والمراد من البرزخ هنا : الحاجز ، وهو إرادة الله أن لا عودة للحياة إلَّا يوم القيامة ، ثم بين الله أحوال القيامة فقال :

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٥٠

(فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : يطلق على البوق فيكون مفردًا ، ويطلق على الصُّوَر - بفتح الواو - فيكون جمعًا لصورة ، مثل بُسْر وبُسْرَة ، وسيأتى مزيد بيان لذلك فى التفسير .

(فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ) : أى فلا تنفعهم الأَنساب وهى القرابات .

(وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) : ولا يسأَل بعضهم بعضًا عن حاله .

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : أى فمن رجحت موزوناته من الأَعمال الصالحة .

(تَلْفَحُ) : تحرق . (كَالِحُونَ) : شفاهُهُم متقلصة عن أسنانهم .

التفسير

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) :

المراد من النفخ فى الصور هنا النفخة الثانية التى يبعث عندها الخلائق للحساب والجزاء ، والصور : إما البوق ، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وإما الأَجساد جمع صورة كبُسْر جمع بسرة ، والنفخ فيها كناية عن إطلاق الأَرواح لتلحق بأَجسادها ، ويؤيد المعنى الثانى قراءة ابن عباس وغيره (فِي الصُّوَر) بواو مفتوحة ، وهى بلا شك جمع صُورَة ، والتوفيق

بين القراءتين بهذا المعنى أولى من حمله على البوق ، قال الآلوسى : ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القَرْنِ الذى جاء به الخبر ودلت عليه آيات أُخَر ، وبين النفخ فى الصُّوَر جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك : اهـ

ومعنى الآية : فإذا نفخ فى صُوَر الخلائق ، بأن أُلحقت كل روح بجسدها عند قيام الساعة ، فبعث الخلائق وحشروا من قبورهم إلى ساحة القضاء الإلٰهى ، ليقضى لهم أو عليهم تبعًا لعقائدهم وأعمالهم ، فلا تنفعهم قراباتهم حينئذ كما كانت تنفعهم فى دنياهم ، ففى ذلك اليوم : « يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[1]

وحكى عن الجُبَّائى : أن المراد من الآية أنه لا يفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها فى الدنيا ، وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال[2] ، وكما أنهم لا تنفعهم أنسابهم ولا يفتخرون بها ، فكذلك هم لا يتساءلون عن أحوالهم ، فلا ترى أحدًا منهم يهتم بغيره فيسأله عن حاله ، لأن حال كل منهم واضح لغيره ، ولأن الخطب جسيم يشغل كل امرئ عن سواه ، وقد صور الله هول ذلك اليوم أوضح تصوير بقوله فى صدر سورة الحج : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » .

فإن قيل : إنه جاء فى القرآن أن الكفار يتساءلون يوم القيامة ، كما جاء عنهم فى سورة الصافات فى قوله سبحانه وتعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ »[3] والجواب : أنهم لا يتساءلون فى بعض المواطن ، ويتساءلون فى بعض آخر ولعله عند جهنم ، وقد يقال : إن المنفى هنا هو سؤال التعارف ونحوه ، مما عليه دفع مضرة أو جلب منفعة ، أما المثبت فهو تساؤلهم

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ — ٢٧

(٢) نقله الآلوسى عنه ، وأصله لابن عباس : انظر القرطبى .

(٣) الآيات : ٢٢ — ٢٧

مع خصمائهم الذين دفعوهم إلى الكفر ، وقد بينه الله تعالى بقوله : « قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . . . » الآيات[1] .

ثم بين الله دستوره فى القضاء بين عباده يوم القيامة فقال :

١٠٢ - (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[2] فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى : فمن رجحت أعماله القلبية والظاهرة ، وكان لها وزن وقدر عند الله تعالى ، بأن كانت عقيدته صالحة ، وأعماله مستقيمة ، فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

١٠٣ - (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) :

ومن لم يكن لعقائده وأعماله وزن من الكفار ، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون فى جهنم لا يبرحونها أبدًا ، وفى مثل معنى الآية يقول سبحانه : « أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا »[3] .

١٠٤ - (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) :

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن العذاب بالنار عام لأجسادهم ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها ، وأزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار .

١٠٥ - (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

يقال لهم حينما يعذبون بالنار - يقال لهم - على سبيل التوبيخ والتحسير : ألم تكن آياتى يتلوها عليكم رسولى فى دنياكم ، فكنتم بها تكذبون فور تبليغها إليكم ، من غير تدبر فى عاقبة تكذيبكم ؟.

---

(١) سورة الصافات ، الآيات من : ٢٨ - ٣٠

(٢) موازين : جمع موزون ، والمراد بها أعمال العبد .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١٠٥

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(شِقْوَتُنَا) : الشقوة والشقاوة ؛ ضد السعادة ، والمراد أسبابها من الأهواء وسوء الاختيار .

(اخْسَئُوا فِيهَا) : أى انزجروا واسكتوا عن هذا المطلب سكوت ذلة وهوان وقنوط

(سِخْرِيًّا) : السِّخْرىّ والسُّخرية ؛ الاستهزاء .

التفسير

١٠٦ - (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) :

فى الآية السابقة يوبخ الله أهل النار على تكذيبهم بآياته ، ويلومهم على تسببهم بذلك فيما هم فيه تحسيرًا لهم ، وفى هذه الآية يحكى الله جوابهم الذى سوف يجيبون به ربهم ، وعُبِّر عنه بصيغة الماضى لتحقق وقوعه .

والمعنى : قال الكفار مجيبين الله تعالى : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعاتنا وسوءُ اختيارنا ، وسوءُ الظن برسلنا فكذبنا بآياتك فى دنيانا ، فشقينا بذلك فى أُخرانا ، وكنا بما فعلناه قومًا ضالين عن سبيل السعادة التى حصل عليها المؤمنون ، ثم تمنوا العودة إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا فقالوا :

١٠٧ - (رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) :

ربنا أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى تكذيب آياتك والكفر برسلك وارتكاب المعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم .

١٠٨ - (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) :

قال الله إقناطًا لهم وإذلالًا : انزجروا فى النار مطرودين من رحمتنا طرد الكلاب ، ولا تكلمون بعد فى شأن خروجكم منها ، فأنتم فيها خالدون .

وقد جاء فى الأثر أنهم بعد أن يقول الله لهم ذلك لا ينبسون بكلمة ، وما هو إلَّا الزفير والشهيق فى نار جهنم ، ثم عقب الله زجرهم عن الكلام ببيان سببه بقوله :

١٠٩ - (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

هذه الآية مستأنفة لتعليل نهيهم عن التماسهم الرجعة إلى الدنيا .

والمعنى : اسكتوا عن دعائى ملتمسين الرجعة إلى الدنيا ، لأنه كان جماعة من عبادى المؤمنين يقولون : ربنا آمنا بما أنزلته على رسلك ، فاغفر لنا سيئاتنا ، وارحمنا بغفرانك وحسن ثوابك؛ فأنت أرحم الراحمين وخيرهم أجمعين ، فلم يرضكم ذلك منهم .

١١٠ - (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) :

أى : أنكم لم تكتفوا بكفركم ، فاتخذتم هؤلاء المؤمنين المستغفرين المسترحمين هدفًا لسخريتكم ، تشفيًا منهم واستهزاء بهم ، وواظبتم على ذلك حتى أنسوكم تذكرى والخوف من عقابى ؛ فاشتغلتم بإهانتهم عن النظر فى عاقبتها وسوء جزائها عندى ، وكنتم منهم تضحكون مبالغة فى السخرية بهم .

١١١ - (إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

فى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أجر المؤمنين الصابرين ، وانتقامهم بإيذاء الكافرين لهم .

والمعنى : إنى جزيت المؤمنين اليوم فى الآخرة ، بسبب صبرهم على إيذاء الكافرين وسخريتهم – جزيتهم – بأنهم هم الفائزون بنعيم الجنة دون المستهزئين ، الذين أذللتهم فى نار الجحيم ، ولنعم عقبى الصابرين .

وقد بين الله فى سورة المطففين ، أن المؤمنين يثأرون لأنفسهم فى الجنة ، فقال سبحانه : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] :

أى : هل جوزى الكفار على استهزائهم بالمؤمنين فى الدنيا ، بضحك المؤمنين استهزاءً بهم وهم على الأرائك فى الجنة ينظرونهم يتقلبون فى نار جهنم .

(قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(إن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) : ما لبثتم فى الأرض إلَّا زمنًا قليلًا .

(عَبَثًا) العبث : ما لا فائدة فيه أصلًا ، أو له فائدة لا يعتد بها .

التفسير

١١٢ – (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) :

هذه الآية تحكى أن الله تعالى يسأل أهل النار عما لبثوه فى الدنيا ، بعد أن طلبوا منه العودة إليها ليصلحوا ما أفسدوه ، وأنه زجرهم عن هذا الطلب ونهاهم عن الكلام فيه ، فقد فات أوان العمل وحان وقت الجزاء ، والسؤال موجه من الله إلى أهل النار ، إما مباشرة ، وإمَّا على لسان ملك كلفه الله به .

(١) الآيات : ٣٤ – ٣٦

والمقصود منه : توبيخهم على طول أملهم فى الدنيا ، واغترارهم بنعيمها وهم فيها ، مع أنها إلى زوال ، واللبث فيها قليل ، وتحسيرُهم وتنديمُهمْ على كفرهم بالآخرة ، مع أنها دار الخلود .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التى لبثتموها فى الأرض ، واغتررتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها وعدم العودة إلينا لحسابكم وجزائكم على ما كان منكم ؟ ولما كانت مواعيد الرسل لهم بالآخرة وبقائها قد تحققت لهم معاينة بعد البعث ، فقد عرفوا أن لبثهم فى الدنيا كان قليلًا بالنسبة إليه فى الآخرة ، فلهذا أجابوا ربهم قائلين :

١١٣ - (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَآدِّينَ) :

أى : لبثنا زمنًا قليلًا نتخيَّله يومًا واحدًا أو بعض يوم ، فاسأل القادرين على العدِّ من الملائكة الحاسبين لأعمال العباد وأعمارهم ، فهم أعلم منا بذلك ، وأقدر منا على الإجابة ، فلقد دهتنا الدواهى التى نراها فى الآخرة ، فأنستنا الزمن الذى مكثناه فى نعيم الدنيا ، وأصبحنا لا نراه أكثر من يوم أو بعض يوم ، بالنسبة لما نحن مقبلون عليه من خلود فى شقاء وعذاب ، ولقد صدقهم الله فيما أجابوا به عن قلة مكثهم فى الدنيا فيما حكاه بقوله :

١١٤ - (قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] :

قال الله ردًّا على أهل النار : ما لبثتم فى الدنيا ونعيمها إلَّا زمنًا قليلًا كما قلتم اليوم ، لو أنكم فى دنياكم كنتم من أهل العلم والتَّدَبُّر ، لأدركتم فيها ما أدركتموه اليوم ، من أن زمن الدنيا قصير ونهايته قريبة ، وزمن الآخرة طويل بغير نهاية ، ولعملتم بمقتضى هذا العلم ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار .

أخرج ابن أبى حاتم بسنده إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، قال : لَنِعْمَ ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ،

(١) فى مثل معنى هذه الآية فى استقلالهم لمدة لبثهم فى الدنيا ، قوله تعالى فى آخر سورة النازعات : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

رحمتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، فيقول : بئس ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ، نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين » .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(فَتَعَالَى اللهُ) : تَرَفَّع الله بذاته وتنزه . (الْمَلِكُ الْحَقُّ) : المالك الثابت الملك دون سواه . (الْعَرْشِ) العرش فى اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون ، وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته ، دون أن يكون الله فيه لاستحالة أن يكون لله مكان ، انظر تفسيرنا لقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » فى سورة الأعراف . (الْكَرِيمِ) : الشريف .

التفسير

١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية من تمام ردّ الله على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم فظننتم أنما خلقناكم عبثا دون حكمة فى خلقكم ، فلم تفكروا فى خالقكم ، ولا فى حكمة خلقكم ، ولا فيما يكون بعد موتكم ، فلهذا أشركتم بنا وكذبتم برسلنا ، واعتقدتم أنكم لاتبعثون بعد الموت لترجعوا إلى حسابنا وجزائنا ، كلا ليس الأمر كما زعمتم ، فإن خلقكم عبثا لا يليق بربوبيتنا .

١١٦ - (فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

أى : فتنزه الله بذاته عن خُلُوِّ أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة ، فهو الملك الحق الثابت له الملك عن جدارة واستحقاق ، الواحد الذى لا معبود بحق إلا هو مالك العرش العظيم فى مكانته وشرفه ، ومن كان كذلك فلا يصح عقلا أن يخلقكم عبثا ، ولا أنكم إليه لا ترجعون للحساب والجزاء كما زعمتم .

والمراد من وصف العرش بالكريم أنه عظيم الشرف ، وكل ما شرف وعظم فى بابه يوصف بالكريم ، ومنه قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »[1] وقوله : « وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا »[2]

١١٧ - (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه سبحانه هو الملك الحق دون سواه فكل الملوك عبيده المسخَّرون منه لخدمة شعوبهم ، ولا مُلْكَ لهم فى الحقيقة فيما مكَّنهم الله منه ، كما بين أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه رب العرش العظيم ، ومن هذا شأنه فلا يصح أن يعبد سواه وجاءت هذه الآية لتؤكد ما أفادته التى قبلها ضِمْنًا من فساد عبادة سواه ، ولتبين سوء عاقبة من يعبد غيره تعالى .

والمعنى : من يعبد مخلوقا من مخلوقات الله يزعمه إلَها آخر ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيته وصحة عبادته - من يعبده مع الله أو يفرده بالعبادة - فما حسابه وعقابه الشديد إلا عند الله ربه وخالقه ومالكه ، إنه لا يفوز ولا ينجو من عقابه الكافرون العابدون لسواه ، أو المشركون له مع الله .

نقل الإمام ابن كثير عن قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل : ما تعبد ؟ قال : أعبد الله وكذا وكذا - حتى عَدَّ أصناما ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٢٣

فأيهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك ، قال : اللهُ عز وجل ، قال : فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟ قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (تعلمون ولا يعلمون) قال الرجل بعد ما أسلم : (لقيت رجُلا خَصَمَنى)[1] أى : غلبنى فى الخصومة والمقصود من قوله – صلى الله عليه وسلم – (تعلمون ولا يعلمون) أن هذه المعبودات لا عقل لها ولا علم وأنتم أيها العابدون أفضل منها بالعقل والعلم ، فكيف تعبدون مَنْ دونكم .

١١٨ – (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

الأمر هنا موجه إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – وإلى أمته تبعًا له ، فهو إمامهم ، وطَلَبُ النبى – صلى الله عليه وسلم – الغفران من ربه لنفسه ، إنما هو من باب هضم النفس ، واتهامها بالتقصير فى الطاعة مع الله ، وليس المقصود أن يغفر له ذنبًا حدث منه ، فإنه – صلى الله عليه وسلم – معصوم من الذنوب .

والمعنى : وقل – أيها النبى أنت وأمتك –: يارب اغفر لنا تقصيرنا فى طاعتك ، واشملنا برحمتك الدنيوية والأخروية ، وأنت خير الراحمين ، لأن رحمتك وسعت كل شىء .

وقد علَّم النبى – صلى الله عليه وسلم – أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – أن يقول نحوه فى صلاته ، فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى بكر – رضى الله عنه – أنه قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ؟ قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

(١) انظر تفسير ابن كثير آخر سورة (المؤمنون)

سـورة النور

هذه السورة مدنية ، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، وآياتها أربع وستون ، وجاءت تالية لسورة (المؤمنون) لتشرح ما ينبغي أن يكونوا عليه من الآداب الإسلامية الفاضلة ، ولأنه لما ذكر فى سورة (المؤمنون) أن حفظ الفروج من مميزاتهم وصفاتهم الأساسية ، وأنها من أسباب فلاحهم فى الدارين ، ناسب أن تكون السورة التى تليها متضمنة أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى ، وما يتصل بذلك من أحكام القذف للأعراض البريئة ، ووجوب غضِّ البصر الذى هو داعية الزنى ، ووجوب الاستئذان صيانة لكرامة البيوت وأعراض أهلها ، والأمر بالنكاح حفظا للفروج ، والنهى عن إكراه الفتيات على الزنى ، إلى غير ذلك من الآداب ، وبما أن سورة النور تضمنتْها ، فكانت لذلك جديرة بأن تكون تالية لها .

ما جاء فى فضلها :

رُوِى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارثة بن مَضْرِب قال : (كتب إلينا عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

مقاصـدها :

تضمنت هذه السورة وجوب جلد الزانية والزانى وأن لا تأْخذنابهما رأفة ؛ حماية لأعراض المسلمين ، وأن رمى المحصنات بالزنى يقتضى الجلد ثمانين جلدة ، وأن لا تقبل لمن يرميهن شهادة أبدا وأن يظلوا متصفين بالفسق ، ما لم يأْتوا على دعواهم بأَربعة شهداء عدول على واقعة الزنى التى ادعوها ، كما تضمنت أن الذى يرمى زوجته بالزنى ، ولا يجد شهوداً أربعة ، يتخلص باللعان من حد قذفها ، فإذا لاعن عُوقبت[1] زوجتُهُ على زناها ؛ ويَدْرَأُ عنها العقاب أن تلاعن بعد لعانه .

---

(١) سيأتى الكلام على عقابها فى موضعه .

وتحدثت عن قصة الإفك التى زعمها المنافقون فى حق أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وبينت أنها بريئة مما زعمه الآفكون فى حقها ، وأنهم عند الله هم الكاذبون ، وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، وأن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، وجاء فيها : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ للطَّيِّبَاتِ) ونهت عن دخول الإنسان بيتاً غير بيته حتى يستأذن ويسلم على أهله ، فإن لم يجد فيه أحداً يستأذنه فلا يدخله ، وأن عليه أن يرجع إن لم يؤذن له بالدخول .

وأمرت المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وحثت المؤمنات على إخفاء زينتهن إلا ما ظهر منها ، وأجازت إظهارها للأزواج ولأصناف تؤمن مغبتهم كالآباء والإخوة وآباء الأزواج ، والأطفال غير المميزين ، ونهت عن ضربهن الأرض بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن كالخلخال ، وحثت على إنكاح الأيامى والصالحين من العبيد والإماء ، حماية لأخلاقهم ، وأمرت من لا يستطيع نفقات الزواج بالاستعفاف حتى يغنيه الله من فضله ، وحثت على مكاتبة الأرقاء ، ومساعدتهم بالمال ليتحرروا من الرق ، كما نهت عن إكراه الفتيات على البغاء ، وبينت أنه تعالى نور السموات والأرض ، فهو الذى خلقهما وخلق النور فيهما ، ومثلت نور آياته وبراهين هدايته فى قلوب المؤمنين بمشكاة وُضع فيها مصباح ، أى : سراج منير ، وهذا السراج فى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر ، كأنه كوكب مضئ متلألئ ، ثم قال الله سبحانه : « يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ » من عباده ، فيوفقه إلى إصابة الحق : « وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » تقريباً لأفهامهم : « وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وبينت أن لله تعالى بيوتاً ومعابد : « أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ » وأنه سيجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، وأن أعمال البر من الكفار لا تنجيهم من النار بسبب كفرهم ، فهى « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » ، « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » .

وتحدثت عن تسبيح كل من فى السموات والأرض لله ، وأنه تعالى يعلم صلاتهم وتسبيحهم ، وعن قدرته سبحانه وتعالى على أن ينشىء السحاب ويزجيه ثم يجعله ركامًا بعضه فوق بعض ، وأن المطر يخرج من خلاله ، وأن السحاب على هيئة جبال ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وأنه تعالى ينزل منه بَرَدًا – أى ثلجًا – كما يُنْزِل منه المطرَ وأن ضوء برق السحاب يكاد يخطف الأبصار بسرعته ، وأنه تعالى خلق كل دابة تدب على الأرض – خلقها – من ماءٍ خاص بتلك الدابة ، وجعل هذه الدواب أنواعًا تبعًا لاختلاف مائها وأصلها : « فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ » وأنه تعالى يخلق مايشاء وهو على كل شيءٍ قدير ، ثم ذكرت أحوال المنافقين ورياءهم ، وميلهم إلى تحكيم رؤساء اليهود فى خلافهم مع بعض اليهود ، بغير حق ليجاملوهم بالقضاء لصالحهم ضد مواطنيهم ، لتركهم تحكيم رسولهم ، وإذا كان لهم الحق جاءُوا إلى الرسول مذعنين ، فهم ليسوا طلاب حق ، بل هم ظالمون .

ووصَفتْ صورة أُخرى من ريائهم ، وهى أنهم كانوا يُقْسِمُون أن الرسول لو دعاهم إلى الجهاد معه لخرجوا ، فكذبهم الله وقال : « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » وأمرهم أن يطيعوا الله ورسوله بإخلاص حتى يهتدوا ، وبين لهم أنه ما على الرسول إلَّا البلاغ ، وقد فعل .

ثم تحدثت عن وعد كريم من الله للمؤمنين الصالحين ، وهو أنه سيستخلفهم فى الأرض ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا ، ما داموا قائمين بطاعته .

ثم ذكرت الأوقات التى يتحتم فيها الاستئذان من العبيد والإماء والمميزين الذين لم يبلغوا الحلمَ من الأحرار ، وأول هذه الأوقات : ما قبل الفجر ، وثانيها : نصف النهار حيث القيلولة والراحة بعد صلاة الظهر ، وثالثها : بعد صلاة العشاء ، أمَّا ما عداها من الأوقات فيباح لهم عدم الاستئذان فيها للحاجة إليهم فى قضاء المصالح ، وعدم وجود عورات يخشى منها فى غير هذه الأوقات .

فإذا بلغ الأطفال الأحرار الحُلم فقد أصبحوا رجالا ، فعليهم الاستئذان فى كل الأوقات كما استأذن الذين ذكروا قبلهم فىقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » .

ثم ذكرت أن القواعد من النساء المتقدمات فى السن اللاتى لا يطمعن فى نكاح ، يباح لهنَّ وضع الملابس الظاهرة كالملحفة[١] ، غير قاصدات إظهار الزينة التى تحتها ، وبينت أن الاستعفاف بعدم التخلى عن الثياب الظاهرة خير لهن ، وبينت أنه ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج فى ترك الجهاد وما يطلب من الأصحاء، كما ذكرت البيوت التى يباح الأكل فيها دون استئذان ، وهى بيوت الأقارب والأصدقاء ، وذلك بعد إلقاء السلام عليهم وتحيتهم ، فكأن السلام على هؤلاء الأحباب بمنزلة الاستئذان منهم ، ثم نَهَتْ عن ترك المسلم مجلس رسول الله المعقود لأمر جامع ، كالجهاد والتدبير للحرب والجمعة والعيدين ، إلَّا أن يستأذنوه لبعض شأنهم فيأذن لهم ، وحذَّرت المتسللين المخالفين عن أمره أن تصيبهم فتنة أوعذاب أليم ، إلى غير ذلك من المقاصد التى سنفصلها فى شرح الآيات بمشيئة الله تعالى .

---

(١) أى : ترك لبسها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(سُورَةٌ) :من معانيها فى اللغة : المنزلة الشريفة[١] .وقد أُطلقت على سور القرآن ؛ لعظيم شرفها . (فَرَضْنَاهَا) : أى أوجبنا العمل بأحكامها ، وأصل الفرض : القطع ، أى جعلناها مقطوعًا بها ، لا سبيل إلى الفكاك من الالتزام بها ، ومنه فرائض الميراث والنفقة . (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : لكى تعتبروا . (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى) : وصفان من الزنى ، وهو وطء الرجل امرأة فى فرجها من غير عقد أو ملك يجيز له وطأها . (فَاجْلِدُوا) : الجلد : إصابة الجلْد بما يؤلمه ، وسيأتى بيانه فى التفسير . (لَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) : لاتمنعكم عن إقامة حد الجلد عليهما شفقة فى شرع الله وحكمه . (طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : جماعة تحف بهم ليعتبروا ، ووصفهم بطائفة لايقصد منه أن يطوفوا ويحلقوا بالمجلود عند جلده ،

(١) وفى هذا المعنى يقول النابغة الذبيانى فى قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى : أعطاك منزلة شريفة رفيعة بين الملوك .

بل مجرد اجتماعهم حينئذ كاف ، والوصف بالطائفة لبيان الشأن فيهم .

(الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) أى : شأن الزانى أنه لا يرضى بالإثم معه إلّا خبيثة مثله من الزوانى والمشركات ، دون العفائف المحصنات ، وكذا الأمر فى الزانية لا يرضى بالإثم معها إلّا خبيث مثلها من الزناة والمشركين ، دون الأتقياء الصالحين ، وسيأتى للآية معنى آخر فى موضعها .

التفسير

١ - (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : سورة عظيمة أنزلناها إليكم أيها المسلمون ، وفرضنا ما فيها من الأحكام عليكم لتنفذوها وتعملوا بها ، وأنزلنا فيها آيات واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام والآداب ، فليس فيها مشكلات أو مشتبهات تحتاج إلى التأويل ، لعلكم تتذكرون وتتعظون بما جاء فيها من الأحكام الشرعية والأخلاق الاجتماعية ، لتكونوا جديرين بكونكم خير أمة أخرجت للناس ، وعبر بقوله : « وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » مع كونه غير محتاج إليه فى أصل المعنى لشمول إنزال السورة لكل آياتها - عبر به - لإبراز كمال العناية بشأن إنزال تلك الآيات الدالة على المُثُل العليا من الأحكام والآداب ، فلهذا تكرر لفظ (أنزلنا) .

وللإمام الرازى رأى لطيف فى حكمة هذا التكرار ، فقد قال : إن الله تعالى ذكر فى أول السورة أنواعًا من الأحكام والحدود ، وفى آخرها دلائل التوحيد ، فقوله تعالى : « وَفَرَضْنَاهَا » إشارة إلى الأحكام المبينة أولًا ، وقوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » إشارة إلى ما بين من آيات التوحيد ، ولهذا ختم الآية بقوله : « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكروها : اهـ

يقصد أن التذكر هنا بمعنى : الاعتبار بآيات التوحيد ، لا تذكُّر آيات الأحكام لأنها لم تكن معلومة حين نزول هذه الآية حتى يتذكروها .

٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) :

كان الزنى معروفًا فى الجاهلية بما عرف به فى الإسلام ، فهو فى لغة العرب وطء الرجل امرأة لا يحل له وطؤها ، والذى استحدث فى الإسلام هو بيان فحشه ، وفرض الحد على

من يمارسه من الرجال والنساء وقد ذكرت أحكامه فى سورتى النساء والنور ، وفى السُّنَّة النبوية الصحيحة ، ولشيوع الزنى فى الجاهلية فى الحرائر والإماء ، تدرج الإسلام فى عقوبة الزناة ، فبدأ بالحبس ، وَثَنَّى بالإيذاء بغير تحديد ، ثم بجلد غير المحصن مائة جلدة ، ورجم المحصن .

فأما الحبس فكان للنساء خاصة متزوجات أو أبكارًا ، وذلك بعد ثبوت الزنى عليهن بشهادة أربعة شهود ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا »[1] وكان حبس المرأة فى البيوت قبل أن تستحدث السجون ، فلما استحدثت كُنَّ يُحْبَسْنَ فيها ، روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن جبير أنه قال : (كانت المرأة أول الإسلام إذا شهد عليها أربعة من المسلمين عدول بالزنى حبست فى السجن ، فإن كان لها زوج أخذ المهر منها ، ولكن ينفق عليها من غير طلاق وليس عليها حد ولا يجامعها) : اهـ

وأما الإيذاء فكان للزناة من الرجال جميعا ، وأشار إلى محصنيهم وغير محصنيهم بالتثنية ، فيكون الإيذاء لهم دون النساء ، ويشهد لذلك قوله فى الآية : « واللذان يأتيانها منكم » أى منكم أيها الرجال وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقيل إن الإيذاء كان للزناة من الرجال والنساء محصنين أوغير محصنين ، قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعًا ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب ليصرف على أهله ولا يوجد نص يدل على أن الحكم بإيذائهما كان معاصرًا للحكم بحبس المرأة ، أو أنه تأخر عنه فكان مرحلة ثانية لعقاب الزناة ـ وهو الظاهر ـ ، ولم يُحدّد الإيذاء فى الآية ، إذ يقول سبحانه : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا » ولهذا قال بعض العلماء : إنه كان بالتوبيخ والتعيير[2] ، ومنهم مَنْ قال : هو النيل باللسان والإيذاء بنحو اليد والنعل .

والمرحلة الثالثة : هى الحد ، وهو نوعان (أحدهما) أن يجلد كل من الزانى والزانية

---

(١) ويدل على تخصيص الحبس بالنساء قوله « من نسائكم » وممن قال بتخصيصه بهن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .
(٢) فيقال لهما : فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

مائة جلدة ، وهو ما جاء فى سورة النور ، وهو خاص بمن لم يسبق له زواج منهما . (وثانيهما) أن يرجما إن سبق لهما الزواج ، ويطلق على النوع الأول من الزناة (غير محصن) وعلى الثانى (محصن) وسنبين أدلة الرجم حين الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

والجلد فى اللغة : ضرب الجِلْدِ، وفيه إشارة إلى أن من يقوم بعقاب الزانى لا يبالغ فيتجاوز الجلد إلى الإضرار باللحم ، ويقول الآلوسى ما خلاصته : إن الزانية والزانى يجلدان بسوط لا عقدة فيه ولا فرع له كما دلت عليه الأخبار ، والجلد بالسوط كان فى عهد عمر رضى الله عنه ، وبإجماع الصحابة ، وأما قبله فكان تارة باليد ، وتارة بالنعل ، وتارة بالجريدة الرطبة وتارة بالعصا . . هكذا قال الآلوسى ، وسُمِّى نحو الضرب باليد أو النعل جلدًا ، لما فيه من إصابة الجِلْد بما يؤلمه .

ومن العلماء من قال بنزع ثياب المجلود سوى إزاره ، وإليه ذهب الحنفية والمالكية ، ومنهم من قال : يبقى عليه قميص أو اثنان كالشافعى وأحمد ، ومنهم من قال : تبقى عليه ثيابه إلّا الفرو والمحشو [١] ، وعن ابن مسعود : لا يحل فى هذه الأُمّة تجريد من الثياب ولا مَدٌّ : هكذا نقل الآلوسى عن أولئك الأئمة [٢] .

ثم قال : وينبغى أن لا يكون الضرب مبرحًا ، لأن الإهلاك غير مطلوب ، ولهذا قالوا : إذا كان من وجب عليه الحد ضعيفًا فخيف عليه الهلاك يجلد جلدًا ضعيفًا يحتمله ، كما قالوا : يُفَرَّقُ الضرب على أعضاء الْمَحْدُودِ ، لأن جمعه فى عضو قد يفسده ، وربما يفضى إلى الهلاك . وينبغى أن يُتَّقى الوجه والمذاكير والرأس والبطن والصدر : انتهى ملخصًا مما نقله الآلوسى عن الأئمة .

وقد أوجب الله تعالى أن يجلد كل من الزانية والزانى مائة جلدة ، وهذا الحكم خاص بالبالغ العاقل الحر غير المُحْصَن ، وهو الذى لم يتزوج منهما ، أما العبيد والإماء البالغون الذين لم يسبق لهم زواج فحد الزانى أو الزانية منهما خمسون جلدة فقط ، لقوله تعالى فى الإماء : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » [٣] والعبيد مثلهن ، إذ لا فرق بينهم وبينهن فى الفاحشة ، فليكن العقاب لهم كذلك .

---

(١) لأن المقصود إيصال الألم إلى الجلد وإن لم يكن بطريق مباشر . (٢) ونقل القرطبى عن الجمهور وجوب أن لا يخرج الضارب يده من تحت إبطه . (٣) سورة النساء ، من الآية : ٢٥

وذكر الزانية مع الزانى ليكون أصرح فى توقيع الجلد عليها من أن يقال : (والزانى فاجلدوه) وقدمت على الزانى لأن الزنى فى النساء كان فاشيًا حين نزول الآية ، وكان لإماء العرب وبغاياهم رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك ، ولأن الزنى فى النساء أكبر مَعَرَّةً منه فى الرجال ، ولما يترتب عليه من الحمل ، ولأن الباعث غالبًا منهن ، وظاهر الآية يقتضى عموم الجلد للزناة ولو كانوا محصنين - ولكن السنة الصحيحة والإجماع خَصَّاه بغير المحصن ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والخطاب فى قوله تعالى : « فَاجْلِدُوا » موجه إلى المسلمين ، ولكن الإمام أو نائبه ينوب عنهم ، لأن اجتماعهم على إقامة الحد متعذر .

المحصن حده الرجم

المراد بالمحصن هنا : البالغ العاقل الحر الذى سبق له الوطء فى نكاح صحيح ، فإن زنى فحده الرجم حتى يموت ، وهذا الحكم أجمع عليه الصحابة وعلماء الأُمة وأئمتها ، ولم ينكره سوى الخوارج ، وهم بإنكارهم هذا يخالفون إجماع الصحابة ، وجميع علماء أئمة المسلمين ، والله تعالى يقول فى وجوب العمل بالإجماع : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا »[1] .

ويستند إجماع الصحابة والأئمة بعدهم إلى ما صح من أمره - صلى الله عليه وسلم - برجم المحصن ، فقد تضافرت الطرق على أنه - صلى الله عليه وسلم - جاءه ماعز معترفًا بزناه ، فأعرض عنه مرارًا ، ثم عَرَّض له بالرجوع عن إقراره ، فلما أصر وكان متزوجًا أمر برجمه ، أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « لمَّا أتى ماعزُ بن مالك النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : لعلك قَبَّلْت أو غمزت أو نظرْت . قال : لا - وصرح بحقيقة زناه - قال : فعند ذلك أمر برجمه ، وقد شرح البخارى قصته فى رواية له بسنده عن أبى هريرة قال : « أتى رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - رجلٌ من الناس وهو فى المسجد ، فناداه : إنى يا رسول الله زنيت - يريد نفسه -

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٥

فأعرض عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فتنحى لشِقِّ وجهه[١] الذى أعرض قِبَلَه[٢] ، فقال : يا رسول الله إنى زنيت ،فأعرض عنه ، فجاء لِشقِّ وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى أعرض عنه ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات ، دعاه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : أَبكَ جُنُونٌ ؟ قال : لا يا رسول الله ، فقال : أَحْصَنْتَ[٣] ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : « اذهبوا فارجموه . . . » الحديث ،وقد رويت قصة ماعز هذا فى جميع كتب السنة وفيها تفصيلات عديدة ، وجاء فى بعضها أنه - صلى الله عليه وسلم - قال فى شأنه : « لقدْ تابَ توْبةً لوْ قُسِّمَتْ بَيْن أُمة لوَسعَتْهُمْ » ، كما يَسْتندُ إجماع الصحابة على رجم المحصن إلى قصة الغامدية ، فقد جاء فى صحيح مسلم ، أثناء حديث طويل عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه قال : « فجاءت الغامدية[٤] فقالت : يا رسول الله ، إنى قد زنيت فطهرنى ، وإنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لمَ ترُدُّنى ؟ لعلك أن ترُدنى كما رَدَدْت ماعزًا ، فوالله إنى لحُبْلَى ، قال : « إما لا[٥] ، فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطَمْتُه وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس برجمها » وقد جاء فى الحديث أن خالد بن الوليد كان ممن رجمها وأنه سبها ، فعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقالة خالد فيها فقال : « فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحبُ مَكْس[٦] لغُفر له ، ثم أَمر بها فصُلِّى عليها وَدُفِنتْ » وقد رَوَى هذه القصة جميع كتب السنة أيضًا .

وقد حدث مثل ذلك فى امرأة من جهينة جاءت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهى حُبْلَى واعترفت بزناها ، فتركها حتى وضعت ، فأمر برجمها ثم صلى عليها ، فقال له عمر :

---

(١) أى : ذهب ماعز إلى الجهة التى اتجه الرسول اليها بعد أن أعرض عنه ليواجهه مرة أخرى باعترافه بالزنى .

(٢) أى : الذى أعرض جهته وناحيته .

(٣) أى : هل تزوجت .

(٤) نسبة إلى غامد وهى فصيلة من قبيلة الأزد ، انظره فى ج ٤ ص٢٧٧ رقم ٢١ فى أحاديث حد الزنى فى شرح مسلم للإمام النووى .

(٥) أى : إن كنت لا تريدين الرجوع عن إقرارك ، وقد صرحت بحقيقة أمرك .

(٦) المكس : ما يفرضه أعوان الظلمة على الناس فى البيع والشراء ، والحديث يدل على خطورة جريمة المكس عند الله تعالى

(تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟) فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وُجدت توبةٌ أفضل من أن جاءت بنفسها لله تعالى » : ا هـ من حديث أخرجه مسلم بسنده فى كتاب الحدود (باب حد الزنى) ج ٤ شرح النووى ص ٢٨ رقم ٢٢

كما استند الإجماع إلى ما قضى به — صلى الله عليه وسلم — فى قصة العسيف وزوجة الأعرابى ، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما قالا : إن رجلًا من الأعراب أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله أنْشدُك الله إلَّا قضيت لى بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قل » قال : إن ابنى كان عسيفًا على هذا[١] فزنى بامرأته ، وإنى أُخْبِرْتُ أن على ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة[٢] فسألت أهل العلم فأخبرونى أن ما على ابنى جَلْدُ مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجمَ ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنَمَ رَدٌّ[٣] ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغدُ يا أُنيسُ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قال : فغَدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرجمت.[٤]

والمراد من قضاء الرسول بينهما بكتاب الله أنه يقضى بينهما بحكمه تعالى المكتوب عنده على الزناة المحصنين وعلَّمه رسولَه ، وليس المراد منه القرآن .

وكما استند الإجماع إلى أفعال الرسول استند أيضًا إلى أقواله التى روتها كتب الصحاح .

---

(١) أى : أجيرا عنده .

(٢) أى : جارية .

(٣) أى : يردان عليك ويعودان إليك .

(٤) شرح النووى ج ٤ ص ٢٨١ رقم ٢٣ .

اعتراض الخوارج على عمر بن عبد العزيز فى الرجم وافحامه اياهم

كان عمر بن عبد العزيز يقول بالرجم وينفذه كسائر أمراء المؤمنين ، فعاب عليه الخوارج ذلك ، قائلين : إنه ليس فى كتاب الله ، فألزمهم بأَعْدَادِ الركعات ومقادير الزكوات ونحو ذلك مما فصلته السنة ولا يوجد فى كتاب الله ، فقالوا : ذلك من فعله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين ، فقال لهم : وهذا أيضًا كذلك .

وقد تنبأ بذلك عمر بن الخطاب ، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال عمر : (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أَحْصَنَ – أى : تزوج – إذا قامت البينة أو كان الحَمْل أو الاعتراف)[١] .

لماذا لم يذكر الرجم فى القرآن

قد يقول قائل : قد ذكر الله من أحكام الزناة الحبس والإيذاء والجلد فى القرآن ، فلماذا لم يذكر فيه الرجم ، ولعله أولى منها بالذكر لشدته ؟

فالجواب : أنه تعالى قد أنزل فى سورة النساء : « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » ولم يعين فى الآية السبيل الذى سوف يجعله لهن عوضًا عن الحبس فى البيوت ، أيكون نصًا قرآنيًا ، أم يكون حكمًا ينزل به جبريل على رسول الله ليبين به الرسول السبيل الذى ينسخ الحبس فى البيوت حتى الموت ، ثم أنزل الله السبيل الناسخ لحبس الزانية فى البيوت ، فجعله فى القرآن مائة جلدة لكل من الزانية والزانى ، وجعله فى السُّنة الرجم للمحصن مِنْ كُلٍّ منهما .

---

(١) وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال :

(خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تخدعن عنه ، فإنه حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب الله ما ليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد رجم بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا) ابن كثير . والامتحاش : الاحتراق .

وقد اعتبر بعض الفقهاء ما جاء فى السنة مخصصًا لعموم الجلد وقاصرًا له على غير المحصن ، واعتبره بعض آخر منهم عقوبة للمحصن زائدة على جلده ، فيجلد مائة ثم يرجم ، والرأى الأول أرجح ، لأن النبى لم يجمعهما على محصن فى عهده ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى أعطى نبيه حق بيان القرآن بقوله : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وهذا البيان ملزم للمسلمين أن يعملوا به لقوله تعالى : « وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا » فالنبى حين بيّن أن حكم الزانى المحصن من الإناث والذكور الرجم يكون قد بين السبيل الثانى الذى جعله الله بدلًا من حبس الزناة وإيذائهم الواردين فى سورة النساء ، تنفيذًا لوعد الله إذ يقول : « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » كما بين عمليًا أن السبيل الأول الوارد بآية الجلد خاص بمن لم يتزوج ، وكلاهما حق منحه الله لنبيه ، ومعظم ما جاء فى القرآن قواعد عامة ، فلم يتعرض القرآن لتفصيل الأحكام إلّا قليلًا ، والحكمة فى ذلك أن يتيسر حفظه ويتضح إعجازه ، ولهذا أُحيل تفصيل معظم الأحكام ولو كانت خطيرة على الرسول بوحى من الله تعالى ، كتفصيل أحكام الصلاة والزكاة ، فإنهما لم يرد عنهما فى القرآن سوى الأمر بهما دون تفصيل لأركانهما وشروطهما وأوقاتهما ، وَغَيْرُهما كثير على هذا النمط .

ولعل الحكمة فى إسناد بيان حكم الرجم إلى الرسول أن يَعْلَم المؤمنون أن السنة يجب الأخذ بها حتى فى أخطر الأحكام . والله الموفق .

الحكمة فى تشديد الحد على الزناة

قد يقول قائل : لماذا شدد الإسلام فى حد الزناة ، فجعله فى غير المحصن من الذكور والإناث إلى مائة جلدة ، وفى المحصن منهما إلى الرجم ؟

والجواب : أن العقاب ينبغى أن يكون بقدر حجم الجريمة ، ولما كان الزنى تترتب عليه آثار سيئة فى المجتمع الإسلامى ، حيث تفضح به الأعراض ، وتختلط به الأنساب ،

ويُخْتَانُ به الأزواج والأهلون المخدوعون فى شرف ذويهم ، وتقتل بعده الأجنة أو الأطفال الناجمون عنه ، تخلصًا من عارهم ، وتنتشر به الفتن والمفاسد والتحلل الخلقى ـ لَمَّا كانت تترتب عليه تلك الآثار ـ جعل الله الحد فيه شديدا دَرْءًا لمفاسده ، ووقاية للمجتمع من شروره وويلاته ، فإذا علمه من تميل نفسه الخسيسة إلى الزنى ، تجنبه خوفًا من عقوبته فى الدنيا والآخرة .

ولا شك أن تنفيذ الحد على الزناة ، بالصورة التى أرادتها الشريعة ، يحدث أثرًا طيبًا فى المجتمع الإسلامى ، حيث يكف الفجرة عن الزنى خوفًا من عقوبته ، فتسلم الأعراض وتصان الحرمات وتصحح الأنساب ، وينتهى وأد الأجنّة ، وتمتنع الفتن ، بل يتلاشى تنفيذ هذا الحد ، لعدم وقوع الزنى ، أو يندر تنفيذه لندرة وقوع الزنى أو تعذر إثباته .

شروط اقامة الحد وما ينبغى للقاضى

لايقام حد الزنى على من اقترفه ، إلَّا إذا ثبت الزنى عليه باعترافه ـ ذكرا كان أو أنثى ـ وإصراره على هذا الاعتراف ـ أو بأن يشهد عليه أربعة شهود عدول رأوا الواقعة وحكوها على طبيعتها تمامًا ، أو بحَمْلِ البِكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فأما اعتراف الزانى بزناه فإنه إذا كان قد حدث فى العصر النبوى ، طلبًا للبراءة من إثمه قبل لقاء الله تعالى . فإنه يندر حدوثه فى هذا العصر الذى كثرت فيه المآثم ، بل ربما ينعدم ، لأن الشرع لا يلزمه بالاعتراف سترًا لإثمه وفتحًا لمجال التوبة له فيما بينه وبين ربه ـ كما سنبينه .

وأما اجتماع الشهود الأربعة فى وقت واحد ، ورؤيتهم واقعة الزنى بتفاصيلها ، فما لم يكن عن طريق الصدفة ، فإنه يتعذر حصوله عن طريق الاستدعاء ، وبما أن الصدفة فى ذلك أمر بعيد الاحتمال ، وحضور الشهود بطريق الاستدعاء يتم بعد حصول الجريمة ، فلهذا يكون إثباته عن طريق شهود الرؤية أمراً متعذراً .

وأما إثباته بحمل البكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فهو نادر ، بل ربما كان بعيد الاحتمال فى عصر ابتكرت فيه وسائل منع الحمل .

وقد بلغت سماحة الإسلام فى تجنيب الزانى حد الزنى ،وتركه لربه لعله يتوب فيما بينه وبينه ، أنه ينبغى للقاضى أن لا يتعقب اعترافه ، فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فجاء رجل فقال : إنى أصبت حدا فأقمه فىّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا؟ قال : نعم ، قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك – أو قال – : حدك » .

وإذا أصر الزانى على اعترافه بأنه زنى ، رغبة فى إقامة الحد ، ينبغى للقاضى أن يصرفه عن اعترافه هذا بالتعريض له بتركه ؛ فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : (لما أتى ماعز النبى – صلى الله عليه وسلم – قال له : « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت » قال لا يا رسول الله) أى : أنه – صلى الله عليه وسلم – يريد أن يقول له : لعلك اعتبرت واحداً من هذه الثلاثة زنى ، فقلت إنك زنيت ، وليس فى مثل ذلك حد فانصرِفْ ، ولكنه أصر على أنه زنى حقيقة ، ولقد مضى أن النبى كان يعرض بوجهه عنه لِيَنْصَرِفَ ، فيعود فيواجه النبى باعترافه أربع مرات ، فأمر برجمه .

ويروى البخارى فى هذا حديثا فى صحيحه بسنده عن جابر (أن رجلا من أسلم جاء النبى – صلى الله عليه وسلم – فاعترف بالزنى فأعرض عنه النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – : «أبك جنون؟ »قال : لا ، قال : أحصنت[1] ؟ قال : نعم ، فرُجِمَ بالمصلى ...) الحديث ،فمن هذا التفصيل نعلم أن إقامة الحد على الزانى محوطة بحصانة وضمانات تجعلها شبه متعذرة لحرص الشارع على الستر على الأعراض ، وترك الباب مفتوحا للمذنب ليتوب إلى ربه فيما بينه وبينه .

لا يشترط فى الرجم أن يكون بالحجارة

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى سعيد (أن رجلا من أسلم يقال له ماعز ابن مالك أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقال : إنى أصبت فاحشة فأقمه علىَّ ، فردّه

---

(١) أى : هل تزوجت .

النبي – صلى الله عليه وسلم – مراراً ، قال: ثم سأل قومه ، فقالوا : ما نعلم به بأسا ، إلا أنه أصابه شيئاً يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد ، قال : فرجع إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فأمرنا أن نرجمه ، قال : فا نطلقنا به إلى بقيع الغَرْقَد – قال – فما أوثقناه ولا حفرنا له ، قال : فرميناه بالعظم والمدر والخزف ، قال : فاشتد واشتَدَدْنا خَلْفَه حتى أتى عُرْض الحرة فانتصب لنا ، فرميناه بجلاميد الحرة . . . » الحديث[1] .

فأنت ترى أن أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – رجموا الزانى المحصن فى عهده – صلى الله عليه وسلم – بالعظم وبالمدر ، وهو قطع الطين اليابس – كما فى القاموس ، جمع مدرة بفتحات – ورجموه بالخزف – وهو قطع الفخار المكسور – كما رموه بجلاميد الحجارة حتى مات ، فهذا يدل على أن المقصود برجمه قتله بشىء جامد يفضى إلى موته ، فهل لنا أن نرجمه فى عصرنا هذا بالرصاص ، قياسا على مافعله أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – فى عهده ، حيث لم يقتصروا فى قتلهم ماعزا على جلاميد الحجارة ، بل استعملوا العظم وسواه من كل جامد يفضى إلى القتل ، والرصاص كذلك ؟

وإذا كان الرجم بالحجارة والعظم والخزف ونحوها أمراً اقتضته الضرورة فى عهده – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يخترع الرصاص ، فهو اليوم ليس ضروريا بعد اختراعه ، وقد يسئ إلينا استعماله فى العصر الذي نعيش فيه ، حيث يحمل أعداء الاسلام على التشهير بنا بسببه ، هذه مسألة جديرة بالنظر ومحتاجة إلى رأى المجتهدين للبت فيها والله الموفق .
فإن قيل : إن الرمى بالحجارة يعطى المرجوم فرصة للهرب ، لأنه يرمى واقفا من غير توثيق كما فعل بماعز ، والهرب من الحد مرغوب فيه ، أما الرمى بالرصاص فإنه يستلزم توثيقه وربطه ليصيبه ، فالجواب أن ماعزا لم يكن بحاجة إلى توثيقه وإمساكه فهو الذى أصر على إقامة الحد عليه[2] ، على أن تركه بلا إمساك ليس بواجب ، فقد جاء فى حديث الغامدية الذى مرت روايته عن مسلم ، أن النبي لما أمر برجمها بعد فطمها صبيها ، حفروا لها حفرة إلى صدرها فرجمت ، مع أنها جاءته معترفة طالبة إقامة الحد عليها ، وأمهلها النبي حتى

---

(١) انظره فى ج ٤ شرح النووى على مسلم ص ٢٧٣ حديث رقم : ١٨ من باب حد الزنى .
(٢) بل لقد جاء عند مسلم فى إحدى رواياته ، أن ما عزا لما أقر أربع مرات حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

وضعت حملها وفطمت صبيها ، لهذا نرى أن المسألة جديرة بالنظر من رجال الفقه المعاصرين والله - تعالى - يهدى إلى سواء السبيل .

حاشية : الرقيق والأمة اللذان سبق لهما الزواج ، لا يرجمان إذا زنيا ، بل يجلد كلاهما خمسين جلدة ، لأنهما على النصف من الحُرِّ فِي الحدِّ ، والرجمُ لا يقبل التجزئة ، فعدل به إلى الجلد فيهما .

المعنى الاجمالى للآية واحكامها

أما وقد فرغنا من البحوث الهامة فى الآية ، فإلى القارىء فيما يلى معناها الإجمالى : الزانية التى وطئها باختيارها رجل لا يحل له وطؤها ولم يسبق له الزواج ، والزانى الذى وطىء امرأة باختياره يحرم عليه وطؤها ولم يسبق له الزواج ، يجلد كل منهما مائة جلدة إذا كان حرًّا بالغاً عاقلا ، أما من فيه رق فإنه يجلد خمسين جلدة ، لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » والعبيد كالإماء فى ذلك ، ولا يقام هذا الحد إلا على من ثبت زناه بإقراره ، أو بشهادة أربعة شهود عدول رأوه بأعينهم ، أو بحَمْل المرأة وهى غير متزوجة ، ولفظاعة الزنى وقبح آثاره أوجب الله أن لا تأخذنا بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشريعته ، فلا يحل جلدهما أقل مما أوجبه فيهما ، ولا ضربهما من غير إيلام ، ولا العفو عنهما بشفاعة أو رأفة وشفقة بعد ثبوت الزنى عليهما ، رَدْعًا لهما ولغيرهما ، وحماية لأعراض المسلمين وأنسابهم من مثل جرمهما .

وقد أثار الله ما فينا من إيمان بقوله : « إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلهابًا لِحَمِيَّتِنا الدينية فى تنفيذ حكمه عليهما ، أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فلا تأخذكم بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشرعه فيهما وقد أمر الله أن يحضر عذابهما حين إقامة الحد عليهما طائفة - أى جماعة - من المؤمنين ، زيادة فى التنكيل والتشهير ، وللعبرة والاتعاظ والأمر بحضورهم للندب وليس للوجوب على ما قاله الفقهاء ، والمراد بهم : جماعة يحصل بهم التشهير والزجر ، وأقلهم ثلاثة ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنى .

أما الزانى المحصن أى الذى سبق له الدخول فى نكاح صحيح فحده الرجم حتى يموت ، كما سبق بيانه فى البحوث التى سبقت هذا المعنى الإجمالى للآية ، فارجع إليها لتكون على علم بهـا .

٣ - (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة أن مرتكب جريمة الزنى إذا كان حُرًّا يجلد مائة جلدة ، سواءٌ أكان من الرجال أم من النساء ، وأنه لا يحل للمسلمين أن يتساهلوا فى تنفيذ هذا الحد رأفة بالزناة ، وأن يُشَهَّر بهم عند تنفيذه بأن يشهد إقامة الحد عليهم طائفة من المؤمنين .

وجاء بهذه الآية عقبها ، لبيان حقارة الزانى والزانية ، وأن كليهما لا يرضى بالاستجابة إلى فاحشته إلَّا مثله أوأخس منه ، والنكاح فى هذه الآية بمعنى الجماع كما صح عن ابن عباس[1] .

والمعنى على هذا : الزانى لِخِسَّتِهِ وقبحه ، لا يطأُ سفاحًا إلَّا زانية تماثله فى فحشه وخبثه ، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها ، فكلتاهما تطاوعه لفقد الوازع الدينى والخلق لديهما ، أما العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها ، لحصانتها بعفتها ودينها المتين ، والزانية لخستها وفحشها لا يطؤها سفاحًا إلَّا زانٍ يماثلها فى فحشها أو مشرك يحاكيها فى خبثها ، وحرم ذلك على المؤمنين ، لأنه لا يليق بإيمانهم التلوث بمثله ، ولو كان لدى الزناة إيمان لبعدوا عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وأجاز بعض الأئمة تفسير النكاح هنا بالتزوج ، على ما هو معروف فى نصوص القرآن الكريم ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم فى سبب نزول الآية عن مقاتل أنه قال : (لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بِجَهْدٍ إلَّا قليلًا منهم ، والمدينة غالية السعر ، شديدة الجَهْد[2] ، وفى السوق زوانٍ مُتَعَالِنَاتٌ من أهل الكتاب ، وإماءٌ لبعض الأنصار ، قد رفعت كلٌّ امرأة منهن على بابها علامةً لتُعرفَ أنها زانية ، وكنَّ مِنْ أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيرًا ، فرغب أناس من مهاجرى المسلمين فيما يكتسبن للذى فيهم من الجَهْد ، فأشار بعضهم على بعض : لو تزوجنا بعض هؤلاء الزوانى ، فنصيب من فضول ما يكتسبن ، فإذا وجدنا عنهن غِنًى تركناهن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

---

(١) أخرج أبو داود فى ناسخه ، والبيهقى فى سننه ، والضياء فى المختارة ، وجماعة من طريق ابن جبير عن ابن عباس أن النكاح هنا بمعنى الوطء

(٢) الجهد هنا : بمعنى الطاقة ، أى : أن المدينة شديدة الطاقة عليهم لغلاء أسعارها ، والجهد فيما تقدم : بمعنى الشدة ، يكنى بها عن الفقر بسبب الهجرة .

ومعنى الآية على هذا: الزانى لا يليق به أن يتزوج إلّا زانية أو مشركة لقبحه مثلهما، والزانية لا يليق أن يتزوج بها إلّا زان أو مشرك كذلك ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، فالآية تُزهِّد فى نكاح البغايا والزناة ، وليس الغرض منها إباحة زواجهن أو زواج المشركات للزناة من المؤمنين ، كما أنها تحث المؤمنين والمؤمنات على التصوّن من نكاح هذا النمط من الفساق ، وأن يكون الطيبات منهم للطيبين ، والطيبون للطيبات .

وعلى هذا التأويل يفسر قوله تعالى: « وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » بمعنى : حُرِّم نكاح البغايا والزناة على المؤمنين[1] ، لما فيه من التسبب فى سوء القالة ، والتعرض للإقدام على مثل فعلهم ، فإن مجالسة الفساق والخطائين تحمل على مثل فعلهم ؛ فكيف بمزاوجة الزوانى والزناة ، وبخاصة إذا كان بقصد التكسب بالفاحشة ، وفى الآية آراءٌ مختلفة ، وما ذكرنا أفضلُها ،ولو تزوج المؤمن بزانية فمع حرمة الزواج بها للأسباب المذكورة يصح العقد عليها فقد سُئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال : « الحرام لا يحرم الحلال » أخرجه الطبرانى وغيره عن عائشة وبه أخذ أبو بكر وابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) : يقذفون العفيفات بتهمة الزنى .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن طاعة الله .

(١) فاسم الإشارة على هذا راجع إلى نكاح البغايا ، وعلى الوجه السابق راجع إلى الزنى المعبر عنه بالنكاح . انظر ما قاله النسفى وغيره فى مرجع الإشارة .

التفسير

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

هذه الآية مبينة حكم من نسب الزنى إلى غيره ، بعد بيان حكم من فعله ، والآية كما فى صحيح البخارى نزلت فى عويمر بن أمية بعد ما قذف زوجته خولة بنت عاصم بشريك ابن سمحاء ، وقيل : نزلت بسبب قصة الإفك .

والرمى فى أصل اللغة : يستعمل فى قذف الشىء باليد ونحوها ، تقول : رمى الحجر أو السَّهم ، أى : قذفه ، ثم استعمل مجازًا فى السب والشتم ، والمراد منه هنا السب بالزنى بقرينة اشتراط شهود أربعة ، وذلك خاص بالزنى ، والمراد بالمحصنات هنا النساءُ العفيفات ، وقد قرئت بفتح الصاد وبكسرها ، فقراءة الفتح على معنى اللاتى أحصنهن أهلهن ، وقراءة الكسر على معنى اللاتى نشأْن فى حصانة وعفة ، يقال : أُحصنت المرأة أى : عفت ، وأحصنها أهلها أى : ربَّوها على العفة ، فالفعل لازم ومتعد ، واقتصار الآية على النساء العفيفات لا يمنع من إيجاب حد القذف على من يقذف الرجال الأعفاء باللواط فيما بينهم أو بالزنى وهذا أمر داخل فى الآية بالمعنى ، وحكم مجمع عليه ، فإنه لا وجه لتخصيص النساء بهذا الحكم دون الرجال ، فالإسلام حريص على كرامة الإنسان بنوعيه ، والحكمة فى التصريح بالنساء فى الآية أن رميهن بالفاحشة أكثر وأشنع[1] ، وأن النفوس تسرع إلى تصديق القذف فيهن أكثر ، فلهذا خصهن بالذكر فى الآية مبالغة فى حماية أعراضهن ، ومثل ذلك أن الله تعالى نص على حرمة لحم الخنزير ، وقد دخل فى حكمه الشحم والغضاريف ، لأنه لا وجه لتخصيص لحمه بالحرمة دون شحمه وغضاريفه .

ويقول ابن كثير : إذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء .

ويثبت الإحصان ، أى : العفة فى المقذوف ، بإقرار القاذف بها ، أو بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ويشترط فيمن قذفه لكى يقام عليه حد القذف أن يكون بالغًا عاقلًا

(١) والنصوص الواقعة .

ناطقًا غير مكره ، عالمًا بالحرمة ولو حكمًا ، بأن نشأ فى دار الإسلام ، ويشترط فى الاتهام المقذوف به ، أن يكون بوطء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى أو اللواط أو بنفى ولد عن أبيه ، فلا يكفى أن يقول للمقذوف : يا فاسق أو يا فاجر فإن فى ذلك التعزير لا الحد إذا ثبت بإقرار أو بشهادة رجلين ،ويشترط فى المقذوف : الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والعفة عن الفاحشة التى رمى بها .

قال القرطبى فى المسألة الرابعة : وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف وإن لم يكونا من معانى الإحصان ، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ ـ كذا قال .

فإذا قذف المسلم رجلًا أو امرأة من أهل الكتاب فلا حد على المسلم القاذف ولكنه يعزر ما لم تكن المقذوفة كتابية متزوجة بمسلم ، فقد قيل بجلد من يقذفها ، كما نقله القرطبى فى المسألة السادسة ، ومن رمى صبية بالزنى قبل البلوغ ، وكان يمكن وطؤها ، فإن ذلك يعتبر قذفًا يستوجب الحد عند الإمام مالك .

وقال الإمام أحمد فى الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذا الصبى إذا بلغ عشرًا ، وقال الإمام مالك : إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا يُحَدُّ عليه ، وقال أبو حنيفة والشافعى وأبو ثور : ليس بقذف يُحَدُّ عليه ، لأنها لو فعلته هى فلا يعتبر زنى فى حقها ، لأنها لم تبلغ حتى تدخل دائرة التكليف ، ولهذا لا يقام عليها الحد ، ولكن يعزر من سبها ، ويقول ابن العربى تعقيبًا على هذا الخلاف : المسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكًا راعى حماية عرض المقذوف[1] وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره ، فلزمه الحد[2] .

وقد بينت الآية أن الحد إنما يقام على القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء على واقعة الزنى ، فإن جاء بهم فلا يقام عليه حد ، ومثله ما إذا اعترف المقذوف بالزنى أو اللواط ، فإنه يسقط الحد عن القاذف ، ولا بد فى شهادتهم أن تكون رواية مفصلة لواقعة عاينوها بحقائقها ، فإن امتنع أحدهم عن الشهادة ، وشهد غيره ، جلد هؤلاء الثلاثة كما يجلد القاذف تمامًا ،

(١) وكذلك فعل الإمام أحمد .

(٢) انظر القرطبى فى المسألة الحادية عشرة .

وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب بثلاثة شهدوا بالزنى على المغيرة بن شعبة ، وتوقف الرابع عن الشهادة عليه [١] فإن تمت الشهادة ولم تثبت عدالة الشهود ، فلا حد على الشهود ولا على المشهود عند بعضهم ، وعلى الشهود الحد عند آخرين . [٢]

وحدُّ القذف كما بينته الآية ثمانون جلدة ، على نحو ما تقدم بيانه فى جلد الزانية والزانى فى كيفية الجلد ، فإن كان القاذف عبدًا والقذف للحر ، جلد العبد أربعين ، لأنه فى الحدود على النصف من الحر ، وهذا هو رأى الجمهور ، وروى ابن مسعود وعمر ابن عبد العزيز وغيرهما : أنه يجلد ثمانين جلدة ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » ولا يقتصر عقاب القاذفين على إقامة الحد عليهم ، بل ترد شهادتهم دائمًا فى أى أمر شهدوا عليه ، ويحكم بأنهم فاسقون عند الله وعند الناس ، وإنما شدد الله العقاب على القاذفين لغيرهم بالزنى ، وأوجب عليهم أن يأتوا بأربعة شهود عدول إن أرادوا الإفلات من عقابهم حماية لأعراض العباد ، وسترًا على الخطَّائين لعلهم يتوبون .

وترد شهادة القاذف عند الشافعية إذا ثبت عليه القذف ـ وإن لم يقم عليه الحد بعد . وأما عند الحنفية فلا ترد شهادته إلَّا بعد تمام جلده ، أو بعد البدء فيه ولو بسوط واحد ـ كما قال بعض آخر منهم ، أو بعد إقامة أكثره عند فريق ثالث منهم ، أمَّا قبل ذلك فتقبل شهادته .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين يقذفون النساء العفائف من المسلمات الحرائر ، ثم لم يأتوا بأربعة من الرجال العدول ، يشهدون تفصيلًا على واقعة الزنى وقد رأوها بأعينهم ، فعاقبوا هؤلاء القاذفين ثلاث عقوبات ، أولاها : أن تجلدوهم ثمانين جلدة ، وثانيتها : أن تردُّوا شهادتهم مادامو أحياء ، وثالثتها : أن تصفوهم بالفسق والخروج عن طاعة الله ؛ وذلك حماية لأعراض المسلمات والمسلمين من ألسنة الكاذبين ، وسترًا للخاطئين منهم لعلهم يتوبون ويرجعون إلى ربهم فيما بينهم وبينه ، ومثل ذلك فى العقوبة من يقذف مسلمًا حرًّا عفيفًا

---

(١) انظر المسألة التاسعة عشرة من القرطبى .

(٢) قال بنفى الحد عنهم : الحسن البصرى والشعبى وأحمد ، وقال مالك بوجوب الحد على الشهود والقاذف فى هذه الحالة . انظر المسألة الخامسة عشرة من القرطبى .

بأنه زَنَى أو فُعِلَ به اللواط ، حماية للمسلمين من سوء القالة ، وكفا لألسنة الناس عن الخوض فى الباطل .

٥ـ (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

اختلف العلماءُ فى هذا الاستثناء ، فقال بعضهم : إنه يعود إلى الجملة الأخيرة « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » دون ما قبلها ، فإذا تاب القاذف وأصلح ارتفع عنه وصف الفسق ويبقى مردود الشهادة طول حياته بعد جلده ، فردُّ الشهادة عند هؤلاء العلماء من الحد فلا يسقط بالتوبة ، وممن قال بذلك : القاضى شريح وسعيد بن جبير ومكحول وأبو حنيفة ، ومنهم من قال : يرجع إلى الجملتين الثانية والثالثة : « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وهذا يقتضى أن من تاب وأصلح تقبل شهادته ويزول فسقه ، فالحد عندهم قاصر على الجلد ، وممن قال بذلك : سعيد بن المسيب سيد التابعين ، والأئمة مالك والشافعى وأحمد وجماعة من السلف .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب إلّا أن يعترف على نفسه بأنه كان مُفْتَرِيًا ، فحينئذ تقبل شهادته[١] .

ولما بين الله حكم قذف الأجنبيات عقبه بحكم قذف الزوجات فقال سبحانه :

(١) راجع ابن كثير فى الآية .

(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) : أى يقذفون زوجاتهم بالزنى . (وَلَم يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ) : ولم يكن لهم شهود على الزنى سوى أنفسهم . (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ[1] شَهَادَاتٍ بِاللهِ) : أى فشهادة أى واحد منهم على زنى زوجته أربع شهادات بالله .

(إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : جواب القسم المفهوم من الشهادة ، فهى بمعناه كما قال الراغب .

(الْخَامِسَةُ) : أى والشهادة الخامسة للشهادات الأربع ، أى : الجاعلة لها خمسًا بانضمامها إليهن .

(أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) : اللعنة واللعن ، الطرد من الرحمة والإبعاد من الخير . (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ) : ويدفع عنها عقاب الزنى ، وسيأتى بيانه فى شرح الآيات .

(وَالْخَامِسَةَ[2] أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا) : الغضب ؛ أشد من اللعن ، ولذا خص بلعان المرأة تغليظًا عليها ، بعد أن لاعنها زوجها وشهد عليها .

---

(١) قرىء لفظ : أربع هنا بالرفع على أنها خبر لشهادة ، وقرئ بالنصب على أنه مفعول مطلق للشهادة ، وعلى هذه القراءة تكون كلمة (شهادة) خبر مبتدأ محذوف ، أى : فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات .

(٢) الخامسة هنا منصوبة عطفا على أربع الثانية .

التفسير

٦، ٧- (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

كان المسلمون قبل نزول هذه الآية وما بعدها ، يفهمون من عموم الآيات السابقة ، أن مَنْ يرمى المحصنة - أى : العفيفة - بالزنى وإن كانت زوجته ، ولم يستطع الإتيان بأربعة شهود ، يعاقب بالجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبدًا ، ويكون من الفاسقين ، لأن ظاهر أمرها على الإحصان ، أى : العفة ، فنزلت هذه الآية لتخصيص عمومها بغير الأزواج ، إذْ بينت أن للأزواج مخرجًا من الحد عند فقد الشهود الأربعة .

روى الإمام البخارى فى سبب نزول آيات اللعان بسنده عن سهل بن سعد أخى بنى ساعدة أن رجلًا من الأنصار جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : يا رسول الله أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فى شأنه ما ذكر فى القرآن من أمر المتلاعنين ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : «قد قضى الله فيك وفى امرأتك » قال : فتلاعنا فى المسجد وأنا شاهد ، فلما فرغا قال : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها[1] ، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فرغا من التلاعن ، ففارقها عندالنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ذاك تفريق بين كل متلاعنين ، قال ابن جُرَيْج : قال ابن شهاب : فكانت السُّنَّة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملًا ، وكان ابنها يُدْعى لأُمِّه ، قال : ثم جرت السنة فى ميراثها أنها ترثه ويرث منها ما فرض الله له ، قال ابن جُرَيْجٍ عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدى فى هذا الحديث : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن جاءت به أحمر قصيرًا كأنه وَحَرَة[2] فلا أراها إلَّا قد صدقت وكذب عليها ، وإن جاءت به أسود العينين ذا أَلْيَتَيْن فلا أراه إلَّا قد صدق » فجاءت به على المكروه من ذلك .

(١) يعنى أنه إن لم يطلقها يعتبره الناس كاذبا عليها ، فلهذا طلقها .

(٢) الوحرة بفتح الحاء المهملة : القصير من الإبل .

والزوج المذكور فى هذا الحديث هو عويمر العجلانى ، فنى رواية أخرى للبخارى عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدى - الذى روى الحديث السابق - أخبره أن عويمر العَجْلَانى جاء إلى عاصم بن عدى الأنصارى فقال له : يا عاصم أرأيت رجلًا وجد على امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ سَلْ لى يا عاصم عن ذلك ، فسأل عاصم رسول الله -صلى الله عليه وسلم -عن ذلك، فكره رسول الله المَسَائِلَ وعابها حتى كَبُرَ على عاصم ما سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال عاصم لعويمر : لَمْ تأْتنى بخير ، قد كره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسألة التى سأَلْتُهُ عنها ، فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك ، فاذهب فائت بها » قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر : كذبْتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتُها ، فطلَّقَها ثلاثًا قبل أن يأْمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن شهاب : فكانت سُنَّة المتلاعنين .

وقد حدثت هذه النازلة مع امرأة هلال بن أمية - روى أبو داود وغيره عن ابن عباس ما يفيد أن هلالًا قذفها ولم يكنْ له شهود على زناها . فكان ذلك سببًا فى نزول آيات اللعان ، وجمعا بين الروايات نقول : لعلهما حدثا متقاربين فنزلت الآيات بشأْنهما ، وليس مهما أن يعرف السابق منهما .

ويستوى فى حكم اللعان الزوجات المدخول بهن وغيرهن ، وكذلك المعتدات عن طلاق رجعى ، وقد عرَّفوا اللِّعان شرعًا : بأنه كلمات معلومة ، جعلت حجة للمضطر إلى قذف من لَطَّخت فراشهُ وألحقت به العار ، أو إلى نفى الولد عن نفسه ، وسُمِّى لعانًا لاشتماله على كلمة اللعن ولأن كُلاًّ من الزوجين يبعد به عن الآخر بعدًا أبديًّا فلا يتناكحان أبدًا .

وقد شرع اللعان لتخليص الزوج من حد القذف إذا قذف زوجته بالزنى ولم يجد له شهودًا أربعة عدولًا على قذفها ، وهى مصرة على تبرئة نفسها مما اتهمها به .

وطريقة التقاضى فى هذه المُلِمَّة : أن يتهم الزوج زوجته بالزنى ، فيقول له القاضى بعد أن تبرئ المرأة نفسها : البينة أو حَدٌّ فى ظهرك ، فيقول الزوج : لا بينة عندى وقد رأيتهما بعينى مثلًا ، فيدعوه القاضى إلى اللعان ، وهو كما فهم من الآية أن يقول : أشهد بالله إننى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتى فلانة من الزنى ويرفع نسبها بما يميزها إن كانت غائبة ويشير إليها إن كانت حاضرة ، وينفى الولد إن كانت حاملًا به أو ولدته فيقول : وإن هذا الحمل أو الولد من الزنى وليس منى ، ويكرر هذه الشهادة أربع مرات ، وكل ذلك بتلقين القاضى كما هو شأن اليمين[1] فى سائر الخصومات ، ثم يقول فى المرة الخامسة بعد أن يعظه القاضى ويلقنه : وعلىَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين ، وتشترط الموالاة بين الكلمات الخمس ، ويترتب على لعانه عدة أحكام :منها سقوط الحد عنه ، ووجوب الحد عليها ولو كانت ذمية تحت مسلم ، أو تحت ذمى احتكم إلينا ، وزوال الفراش ـ أى النكاح ـ إلى الأبد ، وانتفاءُ الولد إن نفاه فى لعانه ، لخبر الصحيحين أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فرق بينهما وألحق الولد بالمرأة » وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « المتلاعنان لا يجتمعان أبدًا » أخرجه الدارقطنى والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عمر ،كما يترتب عليه سقوط حد القذف بالنسبة للزانى إن سماه الزوج فى قذفه لزوجته ، وتشطير الصداق قبل الدخول كالطلاق قبله ، واستباحة نكاح أُختها وأربع سواها وإن لم تنقض عدتها ، كما فى الطلاق البائن ، وعدم نَفَقَتِها وإن كانت حاملًا بمن نفاه ـ وهذه الأَحكام منقولة عن الشافعية ومن يرى رأْيهم ، وللموضوع صور وتفصيلات ومذاهب للفقهاء، تطلب من مطولات كتب الفقه والتفسير .

وقد شرع الله للمرأة حق الدفاع عن نفسها لتَدْرأَ عنها الحد وسوءَ القالة ، فربما كان الزوج كاذبًا يبغى تشويه سمعتها لخلاف بينهما ، حيث قال سبحانه منصفًا لها :

٨ ، ٩ ـ (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

(١) فشهادات اللعان أيمان مؤكدة عند الشافعية والمالكية والحنابلة ،أما عند الحنفية فهى شهادات مؤكدة بالأيمان ؛ ولذا يشترطون فيها العدالة كسائر الشهادات .

فنى هاتين الآيتين يبين الله سبحانه ، أن للزوجة أن تدفع عن نفسها العذاب المترتب على لعان الزوج وشهاداته ضدها ، فتكذبه فيما قذفها به .

وطريقة تكذيبها إياه كما يفهم من نص هاتين الآيتين : أن تقول أربع مرات بتلقين القاضى وأمْرِه : أشهد بالله إن فلانًا لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، وتميزه بالاسم والنسب إن كان غائبًا ، وتشير إليه إن كان حاضرًا ، وتقول فى الخامسة بأمر القاضى وتلقينه : وعلىَّ غضب الله إن كان من الصادقين ، فإذا قالت ذلك فلا حَدَّ عليها ، ولكنها لا تعود إلى زوجها أبدًا كما تَبْقَى الآثار الأُخرى التى ترتبت على لعانه - كما قال الشافعية[١] .

والغضب أعظم من اللعنة ؛ لأنه يتضمنها وزيادة ، ولذلك خصت به المرأة ، لأن جريمة الزنى منها أقبح من جريمة القذف منه ، ولهذا تفاوت الحدان .

وقبل أن يلاعن الزوج يذكره القاضى بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا إذا لاعن كاذبًا فإن أصر على اتهامه وملاعنته لزوجته ، قال له القاضى قبل الخامسة : اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه هى الموجبة التى توجب عليك العذاب فإن أبى شهد الشهادة الخامسة ، وكذلك يفعل مع المرأة ، ويقرأ عليهما قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ... » الآية[٢] .

١٠ - (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) :

فى هذه الآية انتقال إلى أسلوب الخطاب للرامين والمرميات ، بعد الحديث عن أحكامهما بأُسلوب الغيبة ، وذلك منه تعالى لتوفية مقام الامتنان عليهم ، وجواب لولا مقدر ، ولم يذكر

---

(١) جاء فى القرطبى فى المسألة السادسة والعشرين فى تفسير هذه الآية : قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده - ثم قال القرطبى قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما - ثم قال : وقال الشافعى : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته - التعنت أو لم تلتعن - قال الشافعى : وأما التعان المرأة فهو لدرء الحد عنها لا غير ، وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنى ، ثم ذكر فى المسألة التاسعة والعشرين أنهما لا يتوارثان بعد تمام لعان الزوج عند الشافعية ، أما عند الحنفية ومن يرى رأيهم فيتوارثان قبل أن يفرق القاضى بينهما وإن تلاعنا .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٧

تهويلًا لأمره ، فإنه يشير إلى أن مثله تضيق العبارة عن بيانه ، فكأنه قيل : لولا تفضل الله ورحمته عليكم ، وأنه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين ، ولولا الحكمة فى أقواله وأفعاله وأحكامه ـ لولا ذلك كله ـ لكان ما يقصر عنه البيان ، ومن ذلك أنه لو لم يشرع اللعان للقاذف والمقذوف من الزوجين ، لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الافتضاح ولوجب عليها حد الزنى بلعانه لو لم يُشْرع لها اللعان كما يقوله الشافعية ومن يرى رأيهم ، فجعل لعان كل منهما سببًا لدرء العذاب عنه ـ مع الجزم بأن أحدهما كاذب ، ولأن فى قذف الزوج لزوجته الزانية وشهادته عليها فى مجتمع التقاضى شفاءٌ لما فى نفسه من جرح عميق بسبب جريمة زوجته وخيانتها ، ولأن لعان الزوجة ضده فيه ستر فى الدنيا ، ولولاه لكان لأهلها وأولادها سمعة شنيعة بين الناس ، فهو يشبه ردَّ الشرف الذى سلبه لعانه منها ، وأمر كليهما مفوض لخالقه ، فهو أعلم بالصادق والكاذب منهما ومُجَازٍ له على صدقه أو كذبه ، ولقد شرع الله ما هو أستر للزوجين وذريتهما وأهليهما ، وهو أن يطلق الزوج زوجته إذا عرف زناها ، دون أن يعلم الناس بما حصل منها ، ففى ذلك درءٌ للشناعة والفضيحة التى تحدث من تلاعنهما فى المسجد على المنبر أمام الناس ، كما يقول به الفقهاءُ ـ تغليظًا عليهما ـ والله تعالى أعلم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(جَآءُوا بِالْإِفْكِ) : الإفك أشد الكذب ، وقيل : هو البهتان لاتشعر به حتى يفجأك — وقد يستعمل فى الكذب مطلقًا . (عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) : جماعة من بينكم ، وتطلق العُصْبة لغة على الجماعة من عشرة إلى أربعين — كما قال صاحب المختار — وقد تطلق على أقل منهم .

(تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ) : أى تولى معظمه وقام به ، قرئ بكسر الكاف وضمها ، ومعناهما واحد .

(لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) : لولا مِثلُ هَلَّا للتحضيض على فعل أمر وترك ضده ، وسيأتى شرحه .

(شُهَدَآءَ) : الشهداءُ جمع شهيد ؛ أى : شاهد .

التفسير

١١ — (إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...) . الآية .

المراد بالإفك هنا : ما افتراه المنافقون على أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — وقد نزلت فى شأنه عشر آيات هذه أُولاها ، وقد برأ الله فيها عرضها وعرض أهلها ، وصان كرامة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد قام بمعظم الإفك رأس المنافقين عبدالله بن أُبى بن سلول — عليه

لعنة الله - ، فهو الذى اختلقه ونشره ، حتى دخل فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن مبرئا لها على أكمل وجه ، وروته الأحاديث الصحيحة مبرئة ساحتها ، ونشأت هذه الفرية النكراء عن أمر برىء حدث فى غزوة بنى المصطلق[١] ، فاستغله المنافقون أعداء الإسلام أسوأ استغلال .

وخلاصة القصة مستنبطة من صحاح الأحاديث أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان كلما خرج فى غزوة أقرع بين نسائه ، وحينما خرج فى غزوة بنى المصطلق سنة ستٍّ أقرع بينهن فخرج سهم عائشة - رضى الله عنها - فخرجت معه ، وكان ذلك بعد ما فُرِض الحجاب ، ولهذا كانت تُحْمَلُ فى هودج وتنزل فيه ، ولما انتهت الغزوة وعاد الرسول ، نزلوا قريباً من المدينة ، وأثناء الليل ، أمر الرسول بالرحيل فنزلت لتقضى حاجتها بعيداً عن مكان نزول الجيش ، ثم عادت إلى رَحْلِها وفوجئت بأن عقدها قد انقطع - وكان من جَزْع ظَفَار[٢] فعادت لتبحث عنه فتأخرت بعض الوقت ، وجاء الذين يحملون هودجها فرفعوه على بعيرها ظانين أنها فيه ، لأن النساء كُنَّ خفاف الجسم لقلة الغذاء فى صدر الإسلام ، كما أنها كانت حديثة السن ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، ولما عادت بعقدها وجدت الجيش قد رحل فبقيت حيث كانت تنزل ونامت ، لعلهم يتفقدونها فلا يجدونها فيرجعون إليها لترحيلها ، وكان صفوان بن المعطل السلمى وراء الجيش ، ليجمع ما نسيه المجاهدون ، فرأى سواد إنسان نائم فلما رآها عرفها لأنه كان يراها قبل الحجاب ، فاسترجع[٣] فغطت وجهها عنه ، وقالت : والله ما سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، وداس على يدى الناقة حتى رَكِبَتْهَا ، وانطلق يقود الراحلة حتى أدرك الجيش ، فكان ذلك مثاراً لإفك عنهما افتراه وتولى إذاعته عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين .

---

(١) ويقال لها أيضاً غزوة المريسيع : قاله القرطبى .

(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن قرب صنعاء ، ينسب إليه الجزع بفتح الجيم وكسرها ، وهو خرز فيه سواد وبياض تشبه به الأعين .

(٣) أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أدرك المرض السيدة عائشة ، فلزمت الفراش شهرا ، وهى لا تدرى بما يتردد بين الناس من أصداء ما افتراه عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل عن حالها سؤالا مجملا بقوله : (كيف تيكم؟) وينصرف دون أن ترى منه اللطف الذى كانت تعتاده فى مرضها ، وحين خرجت من مرضها إلى طور النقاهة منه ، عادتها أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، ثم قالت : تَعِسَ مِسْطح ، فقالت لها السيدة عائشة : بئس ما قُلتِ ، أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ قالت : أو لم تسمعى ما قال : فقالت عائشة : وما قال ؟ فأخبرتها بما أذاعه أهل الإفك عنها ، فازدادت مرضا ، فلما دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استأذنته فى أن تذهب إلى بيت أبيها - وكانت تريد أن تعرف القصة من والديها - فأذن لها الرسول ، فلما ذهبت إليه سألت أمها عما حدثتها به أم مسطح ، فقالت : يا بُنَيَّةُ هوِّنى عليك ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها ، قالت عائشة : سبحان الله ؛ أوَقَدْ تحدث الناس بهذا ، فبكت ليلتها وفارقها النوم حتى أصبحت وهى لا يَرْقأُ لها دمعٌ ، وقد استدعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن زيد وعليا - رضى الله عنهما - ليستشيرهما ، وبريرة جاريتها ليسمع شهادتها بشأنها ، وخرج من حديثهم معه بما أراح نفسه وطمأنه على أهله ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد على المنبر وقال : يا معشر المسلمين من يَعْذِرنى[1] من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فو الله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى سيد الأوس فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من الخزرج أمَرْتنا ففعلنا أمرك ، فثار نقاش بين الخزرج والأوس ، بسبب تدخل سعد بن معاذ فى أمرهم ، وحسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السيدة عائشة قد عادت إلى بيتها بأمر أبيها ، فظلت يومها هذا تبكى وكان معها أبواها ، وكانا يظنان أن البكاء سيغلق كبدها - كما روت عنهما - ثم دخل عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجلس معهم ، ولم يسبق له أن جلس عندها منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنها بشىء ، فسألها عما يذيعه المفترون عليها ، ثم أجابت

---

(١) أى : من يقوم بعذرى إذا أردت مكافأته على سوء فريته .

بعد أن بَحَثَتْ عن آية من القرآن تجيبه بها ، وكانت يومئذ لا تحفظ منه كثيراً - أجابت بقولها : والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم اضطجعت على فراشها ، وهى تعلم أنها بريئة وأن الله سيظهر براءتها ولكنها - كما قالت - ما كانت تظن أن يُنْزِل فى شأنها وحياً يتلى وأن يصل أمر تبرئتها عند الله إلى مثل ذلك ، وكل ما كانت تأمله أن يُرِىَ اللهُ رسوله فى منامه رؤيا يبرئها الله فيها ، وبينما كانوا جميعا فى مجلسهم هذا إذ أوحى الله إلى نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من الشدة عند نزول الوحى حتى كان ينزل العرق منه مثل الجُمان - أى اللؤلؤ - فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى أُنزل عليه ، فلما سرِّى عن رسول الله وهو يضحك ، قال لعائشة : أبشرى يا عائشة ، أما اللهُ فقد برأك ، فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله - عز وجل - هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل سبحانه « إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ . . . . . » عشر آيات فى براءتها .

وهذا الافتراءُ الذى حدث فى حق عائشة - رضوان الله عليها - حدث مثله للسيدة مريم ، وكان من أقرب الناس إليها وهم أهلها ، وكما برأ الله مريم على لسان عيسى ، برأ السيدة عائشة بوحى يقرؤه الناس نزل به الروح الأمين على خاتم المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

والعُصبة : الجماعة من الناس، من العشرة إلى الأربعين ، وقد تطلق على ما دون ذلك كما تقدم فى المفردات ، وقد ذكرت السيدة عائشة منهم : عبدالله بن أُبى بن سلول ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن إثاثة ، وحسان بن ثابت ، وكان عبد الله بن أُبىٍّ رأس الحية ومثير الفتنة ومخترعها - عليه لعنة الله - وقد اعتذر حسان عما نسب إليه فى شأنها بقصيدة جاء فيها :

حَصَانٌ رَزَان ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غَرْثَى من لحوم الغوافل[1]

حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبىٍّ الهدى ذى المكرمات الفواضل

عقيلةُ حىٍّ من لؤى بن غالب ... كرامِ المساعى مَجْدُهم غيرُ زائل

مهذبة قد طَيَّب الله خِيْمَها ... وطهرها من كل سوءٍ وباطل

---

(١) الحصان : العفيفة ، والرزان : الوقورة ، ومعنى ما تزن بريبة : أنها لا يصح أن تظن بها ريبة أو توصف بها ، ومعنى الشطر الثانى : أنها تصبح نحيلة الجسم من غيبة من يأكلون لحوم المحصنات الغافلات .

والمعنى الإجمالى : إن الذين اختلقوا البهتان فى حق عائشة أم المؤمنين وأذاعوه هم جماعة وشرذمة ينتسبون إليكم بأُخَوَّة الإسلام فكيف رضوا بإذاعته ؟ لا تظنوا هذا الافتراء شرًّا لكم بل هو خير عظيم لكم ، لنيلكم الثواب الجزيل بالصبر عليه ، وظهور كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربكم ، بإنزال ما فيه تعظيم شأنكم ، وتشديد الوعيد لمن تكلم بما أحْزَنكم، كما قال سبحانه :

﴿ لِكُلِّ امْرِيءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ :

أى : لكل امرىءٍ من الذين جاءُوا بالإفك جزاءَ ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه سواءٌ أكان ذلك اختلاقًا ورضًا أم تَرْديدًا وإذاعة ، والذى تحمل معظمه فقام بأكبر حظ من إعلانه ، له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة .

وكان أول من اختلقه وأذاعه عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، فكان يجمع الناس ويذكر لهم ما يذكر من الإفك ، لإمعانه فى عداوة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد كافأه الله فى الدنيا بتكذيبه وإعلان نفاقه وإقامة حد القذف عليه كما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، وأخرجه الطبرانى أيضًا عن ابن عباس ، كما أقام حد القذف على مسطح وحسان وحمنة ، أخرجه البزار وابن مردويه بسند حسن عن أبى هريرة .

ولما بلغ صفوانَ اشتراكُ حسان فى الإفك عنه وعن أم المؤمنين ، جاءَ فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال :

تَلَقَّ ذبابَ السيف عنى فإننى غلامٌ إذا هوجيت ليس بشاعر
ولكننى أحمى حماى وأتَّقى من الباهت الرأى البرىءِ الظواهر

وقد حال دون قتل صفوان لحسان ثابت بن قيس بن شماس ، فقد وثب على صفوان ومنعه من الإجهاز عليه ، وكان صفوان بن المعطل المذكور ، صاحب ناقة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة ، وروى عنه أنه قال : والله ما كشفت كَنَفَ أنثى قط ، يريد : ما كشفها بزنى ، وقُتِل شهيدًا ــ رضى الله عنه ــ فى غزوة

أرمينية سنة تسع عشرة فى زمان عمر ،وقيل : ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين فى زمان معاوية[١]

١٢ ـ (لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) :

والمعنى : هلَّا حين سمعتم أيها المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك ممن أذاعوه ، ظننتم بأهل ملتكم : عائشة وصفوان خيرًا وطهرا ، وقلتم بلا تردد : هذا افتراءٌ واضح مكشوف لا نرضاه لمن هم كأنفسنا ، ولا نوافق على نسبته إليهم ، وقلتم أيضًا فى شأن المفترين الخائضين على سبيل التوبيخ :

١٣ ـ (لَوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : هلَّا جاءَ أصحاب الإفك بأربعة شهداءَ عدول يشهدون على ما زعموه فى شأن عائشة ، فحيث لم يأتوا بالشهداء ، فهم عند الله وفى حكمه كاذبون ، فكيف تصدقونهم وهم مخالفون لشريعة الله ومنافقون .

ويجوز أن تكون الآية ابتداءَ كلام من الله تقريرًا لكون ذلك إفكًا ، وليس حكاية لما ينبغى أن يقوله السامعون .

(١) انظره فى المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تفضله بالمصابرة والعفو عن التائبين . (لَمَسَّكُمْ) : لأَصابكم . (فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ) : بسبب ما خضتم فيه . (تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) : أَى تطلبون بأَلسنتكم ممَّن يحكى هذا الإفك أَن يلقيه إليكم ويعرفكم ما قيل فيه . (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) : وتظنونه أَمرًا خفيفًا لاعقوبة عليه . (وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيم) : كبير الإثم .

(مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهٰذَا) : ما يصح وما يليق بنا ونحن مؤمنون أَن نتكلم بهذا . (سُبْحَانَكَ) : هذا تنزيه مشوب بالتعجب ، وسيأْتى بيانه . (بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) : افتراءٌ عظيم يُحيِّر سامعه . (يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) : ينصحكم لئلا ترجعوا إلى مثله مدة الحياة .

التفسير

١٤ - (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، ورحمته بكم ، لأصابكم عذاب عظيم فيما خضتم فيه من الإفك فى شأن عائشة ، أما رحمته فى الدنيا فقد تمثلت فى إمهالكم حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتوبوا إلى ربكم من ذنبكم ، وتعرفوا حرمة بيت نبيكم ، وأما رحمته فى الآخرة فبالعفو عمن تاب منكم ، وغفران ما اقترفته ألسنتهم ، وكل ذلك من فضل الله عليكم .

ولا ينال هذا الفضل والرحمة من الخائضين سوى التائبين من المؤمنين كمسطح بن إثاثة وحمنة بنت جحش ، وحسان بن ثابت ، أما من بَقِىَ مغموراً فى نفاقه كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فلا نصيب لهم منهما ، ولا قيمة لتوبتهم الظاهرية إن تابوا .

١٥ ـ (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا فضل الله ورحمته لمسكم عذاب عظيم حين تتلقون هذا الإفك من ناقليه ، بعد طلبكم بألسنتكم سماعه وتروون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وإنما جاءكم عن طريق السماع عن الآفكين ، وتحسبون ترويج الكذب على عرض ابنة الصديق وزوج الرسول أمراً خفيفاً سهل العاقبة ، والحال أنه عند الله أمر عظيم فى إثمه وسوء عاقبته ، فالقدح فى الأعراض شين عظيم ، وإثم كبير ، فكيف به فى عرض أم المؤمنين ، وزوج خاتم المرسلين .

جاء فى الصحيحين أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض » وفى رواية : « لا يُلْقِى لها بالاً » .

ويصح أن يكون المعنى : إذ يتلقاه بعضكم بألسنة بعض آخر منكم ، وتروون بأفواهكم عنهم ما ليس لكم بصحته علم ، وكلا المعنيين جيد ، وفسره مجاهد وابن جرير ـ كما نقله ابن كثير ـ بأن يرويه بعضهم عن بعض ، يقول هذا : سمعت كذا من فلان ، ويقول آخر : قال فلان كذا ، ويقول ثالث : ذكر بعضهم كذا ـ انتهى بتصرف ، والمعانى متقاربة وإن كان ما قلناه أولاً وثانياً أقرب إلى النص الكريم مما نقله ابن كثير عن ابن جبير ومجاهد .

١٦ ـ (وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن أدب الله الخائضين قبل هذه الآية بأن يظنوا خيرًا بمن تجمعهم بهم أخوة الإيمان حين يسمعون عنهم قالة السوء ، جاءت هذه الآية بلون آخر من التأديب .

والمعنى : هلَّا حين سمعتم ما لا يليق فى شأن الخِيرَة قلتم ـ مع الظن بهم خيرًا ـ : لا ينبغى لنا ولا يصح أن نتكلم بهذا عن الأطهار البررة ، بدلًا من ترديدكم له بالرواية عن مخترعيه ، هلَّا قلتم متعجبين ومستكبرين لما يقولون : « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وكذب مُحَيِّرٌ خطيرٌ لا يصح أن يقال فى عرض كرام المؤمنين .

وقد كان على هذا الخلق العالى الذى دعا إليه القرآن ـ كان عليه ـ أصحاب القلوب الصافية ، والعقول الوضيئة ، والحس المرهف ، فعن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فى أمر عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال : « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وعن سعيد بن المسيب أنه قال : كان رجلان من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سمعا شيئًا من ذلك قالا ما ذكر ، وهما أسامة بن زيد بن حارثة ، وأبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنهما ـ ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن امرأة أبى أيوب الأنصارى قالت له : يا أبا أيوب ألا تسمع ما تَحَدَّثَ به الناس ؟ فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، ومثل ذلك قال غيرهم وحق لهم أن يقولوا ذلك ، فإنه لا يجوز عقلًا أن يختار الله لرسوله امرأة فاجرة ، فإن ذلك ينفر عن اتباعه ، ويخل بحكمة البعثة ـ هكذا قال الإمام الرازى عليه رحمة الله

١٧ ـ (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

يذكركم الله ويحذركم من أن تعودوا طول حياتكم لمثل هذا الإفك فى عائشة أو سائر أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسوء عاقبته ، وعظيم عقوبته ، إن كنتم مؤمنين بالله فامتثلوا تحذيره واعملوا بنصيحته ، لتأمنوا عذابه وسوء حسابه ، ويفهم من الآية الكريمة أن مَنْ سَبَّ عائشة بعد هذا التحذير لا يكون من المؤمنين ، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك ، فقد نقل القرطبى عنه أنه يقول بكفره ووجوب قتله ، ويعلل ابن العربى ذلك بأنَّ الله برأها فكل من سبها بما بَرَّأَها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كذَّبَ اللهَ فهو كافر يُقْتَلُ لِرِدتَه ، تلك هى خلاصة ما ذكره القرطبى فى ذلك .

١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

وينزل الله لكم آياته مُبَيَّنةً واضحة الدلالة على الأحكام الشرعية ، والأخلاق الكريمة والآداب الجديرة بخير أُمة أُخرجت للناس ، والله مُحيطٌ علمه بأحوال مخلوقاته وما ينبغى لهم من شرائع ، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه ، فالتزموا ما بينه لكم من شرائعه وآدابه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(أَن تَشِيعَ[1] الْفَاحِشَةُ) : أن تنتشر المقالة المفرطة فى القبح .

(رَءُوفٌ) الرأفة : شدة الرحمة .

التفسـير

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

فى هذه الآية تأديب من الله تعالى لمن يحبون القدح فى أعراض الأعفاء من المؤمنين والمؤمنات .

ومعنى الآية : إن الذين يريدون ويختارون أن تنشر تهمة الزنى فى عرض المحصنين والمحصنات[2] من الذين آمنوا ويقومون بنشرها لهم عذاب أليم على إذاعتها فى الدنيا والآخرة ، لشدة قبح هذه الفرية فى حق من افتريت عليه ، أما عذابهم فى الدنيا فبحد القذف ، وأما عذابهم فى الآخرة فبنار جهنم - إن لم يقم الحد عليهم فى الدنيا ، أو أُقيم عليهم وكانوا

(١) يقال : شاع الشىء شيوعا وشيعا وشيوعة ، أى : ظهر وانتشر .

(٢) المراد بالإحصان هنا : العفة عن الزنى ، فقذف صاحبه هو الذى يوجب الحد سواء كان المقذوف رجلا أو امرأة ،

منافقين أو كافرين — فإن الحدود لا تكون جوابر ولا تحمى من النار إلّا عصاة المؤمنين ، قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

وهذه الآية قاعدة عامة يراد بها صيانة الأعراض عمومًا ، وإن نزلت بشأن قصة عائشة وصفوان التى افتراها رأس المنافقين ابن سلول .

وقد جاء فى حُرْمة ذلك قوله — صلى الله عليه وسلم — : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُعَيِّروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته حتى يفضحه » أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان ، وجاء فى حديث لأبى الدرداء أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « أَيُّما رجلٍ شدَّ عضد امرئ من الناس فى خصومة لا علم له بها ، فهو فى سخط الله حتى ينزع عنها ، وأَيُّما رجلٍ قال بشَفَاعَته دُونَ حَدٍّ من حدود الله أن يُقَام ، فقد عاند الله حقًّا وأقدم على سُخْطِه ، وعليه لعنة الله إلى يوم القيامة ، وأَيُّما رجلٍ أشاع على مسلم كلمة وهو منها برئ يَرَى أن يَشِينَه فى الدنيا كان حقًّا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار ، ثم تلا مصداقًا لذلك : « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا . . . » الآية وقد عرفت من تفسيرنا للآية أن المراد من حُبِّ إشاعة الفاحشة ، أن يكون هذا الحب مقرونًا بإذاعتها فعلا ، حتى يكون بذلك قاذفًا فيستوجب حد القذف الذى جعله الله عذابه فى الدنيا ، أما إن أحب إذاعتها ولم يشترك فى نشرها فلا حد عليه ، ولكن الله يعاقبه فى الدنيا بمقتضى وعيده ، كأن يصيبه بنوع من البلاء ، أو يبتليه بما تمناه لغيره — انتقامًا منه لفساد قلبه ورغبته فى الفتنة ، وكما يحرم التشنيع على المؤمنين والمؤمنات ، يحرم قذف غيرهم وإشاعة الفاحشة عنهم فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا[1] .

٢٠ — (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله ورحمته عليكم أيها الآفكون وأنه تعالى دائم الرأفة والرحمة لعباده ، لمسكم فيما أذعتموه من الإفك على زوج رسول الله المحصنة البريئة — لمسكم فى ذلك عذاب عظيم لا يقادر قدره ، ولكنه تعالى أمهلكم بموجب رأفته ورحمته ليميز الخبيث من الطيب ، ثم أنزل براءتها مما نسب إليها ، فتاب من استيقظ ضميره ، وعرف حق الله ورسوله ، فتاب الله عليه ، وأقام الحد على من ثبت عليه التشهير بذلك فَطَهر منهم من كان من المؤمنين ، وبَقِيَ فى رجسه وسوء عاقبته من كان من المنافقين .

---

(١) ولكن لا حد على قاذفه من المسلمين كما قاله الجمهور بل يعزر ، انظر تفسير الآية الرابعة من هذه السورة فى القرطبى — ص ١٧٤ — المسألة السادسة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٨٠٩٢س ١٩٨٣ - ٤٠٠٠,٥٢



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السادس والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٥

* (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢))

المفـردات :

(خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) : أى وساوسه ، وهى فى الأَصل جمع خُطْوة - بضم الخاءِ - وهى ما بين القدمين للماشى ، واستعملت هنا فى وساوس الشيطان على سبيل المجاز ، والخَطْوة - بالفتح - اسم للمرة من الخَطْو ، وجمعها خطَوات - بفتح الخاء والطاء ، تقول : خطا ، يخطو ، خَطْوة وخَطوات . (يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) : الفحشاءُ : ما أفرط قبحه كالفاحشة ، والمنكر : ما ينكره الشرع ، والشيطان يأمر بهما ، أى : يحث عليهما . (مَا زَكَا) : ما طهر . (وَلا يَأْتَلِ) : أى ولا يحلف ، من الأَلِيَّة ، وهى : اليمين ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ » : أى يحلفون . (أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) : أصحاب الزيادة فى الدين والسعة فى المال .

التفسير

٢١ - (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ . . .) :

يأيها الذين تجملوا بحلية الإيمان ، لا تسلكوا مسالك الشيطان فيما يسعى إليه من الشرّ فيما بينكم ، ولا تعملوا بوساوسه ، فإنه لا يسعى إلى خير ، ولا يوسوس إلا بفتنة ، ومن يتبع خطوات الشيطان ، فيسلك سبيله ويعمل بوسوسته ، ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بهما ، ولا يحض إلا عليهما ، ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته فى وسوسته ، فكيف اتبعتموه فى نشر الإفك ، وما هو إلا كاذب أثيم ؟

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم ، إذ أمهلكم حتى تتوبوا إلى رشدكم وتتوبوا من ذنبكم بعد ما أنزله إليكم من الآيات البينات الناطقة بطهر ابنة الصديق الكريم زَوْجِ النبى الأمين ، وأم المؤمنين - لولا هذا الفضل والرحمة - ما طهر أحد منكم أبداً من ذنب هذا الإفك المبين ، ولكن الله يزكى ويطهر من يشاء ممن حسنت توبته ، وصفت سريرته ، والله عظيم السمع لما يقال من الذنوب والتوبة منها ، محيط العلم بالمذنبين والتائبين - مخلصين أو غير مخلصين - فيجازى كلا على حسب حاله « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[1] .

وهذه الآية وإن نزلت بسبب خاص ، فهى قاعدة عامة تقتضى وجوب الابتعاد عن المنكرات ، فإنها ترضى الشيطان وتغضب الرحمن الذى يعلم السر وأخفى ، وتقتضى العقاب لمن لم يتدارك ذنبه ويستغفر ربه .

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٢٢ - (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) :

قال الألوسى فى سبب نزول الآية : صح عن عائشة وغيرها « أن أبا بكر - رضى الله عنه - حلف - لما رأى براءة ابنته - ألا ينفق على مِسْطَح شيئاً أبداً ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا ، وكان ابن خالته - وقيل : ابن أخته - فنزلت الآية .

وقال القرطبى : رُوِىَ فى الصحيح : (أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ » الآيات العشر ، قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبدًا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ » إلى قوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » فقال أبو بكر : والله إِنِّى لأُحِبُّ أن يغفر الله لى ، فأرجع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدًا) .

ويروى عن ابن عباس والضحاك : أن جماعةً من المؤمنين منهم أبو بكر - رضى الله عنه - قطعوا منافعهم عمن قال فى الإفك ، وقالوا : والله ما نَصِل مَنْ تكلم فيه ، فنزلت الآية .

ومعنى الآية : ولا يحلف أصحاب الفضل فى الدين والسعة فى المال ، كراهة أن يعطوا أصحاب القرابة والمساكينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله الذين اشتركوا فى نشر الإفك ، وليعفوا وليصفحوا عما فرط منهم ، ألا تحبون أيها الحالفون الكرام أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم[1] ؟ ، والله واسع المغفرة والرحمة ، مع كمال قدرته على المؤاخذة ، وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها .

وإذا كان سبب النزول حلف أبى بكر بالنسبة لمسطح فالجمع فى قوله : « أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ » وقوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » لقصد تعميم الحكم فى كل من يعفو عمن أساء إليه ويعطيه بعد أن حلف على حرمانه ، أما إن كان سبب النزول عاماً كما سبق عن

(١) ويصح أن يكون قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » للتمثيل وإقامة الحجة ، أى : كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم ، فكذلك اغفروا لمن دونكم : ذكره القرطبى .

ابن عباس فالجمع ظاهر ، والآية تدل على فضل الصديق سواءٌ نزلت فيه وحده أو مع غيره ، كما تدل على أن القذف وإن كان من الكبائر ، فإنه لا يحبط العمل ، لأن الله وصف مسطحا بعد أن قال فى عائشة ما قال – وصفه بأنه من المهاجرين – أى : من الذين حصلوا على شرف الهجرة وعظيم ثوابها ، إذ لا يحْبِط العملَ إلا الكفرُ ، كما قال تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »

كما يستنبط منها أن من حلف على عدم فعل شىء ، ثم رأى أن فعله أولى فليفعل الذى هو خير ، ولكن عليه أن يكفر عن يمينه ؛ لقوله تعالى فى سورة المائدة : « لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ . . » الآية (٨٩) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ) : العفيفات الغافلات عما يقال فى شأن أعراضهن زوراً ولا علم لهن به . (دِينَهُمُ الْحَقَّ) : من معانى الدين فى اللغة الجزاء : أى : جزاءهم الثابت الموافق لذنبهم . (هُوَ الْحَقُّ) : هو الثابت الذى لا يعتريه شك : (الْمُبِينُ) : البيِّن الظاهر بآياته – من أبان : بمعنى ظهر واتضح – أو المظهر للناس تمام قدرته على ثوابهم وعقابهم فى هذا اليوم ، من أبان الشىء ، أى : أظهره وأوضحه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

تضمنت هذه الآية وعيد القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات باللعن فى الدنيا والآخرة ، وبالعذاب العظيم .

واختلف فى المراد بهذا الوعيد ، فقيل : هم القاذفون لعائشة - رضى الله عنها - ، مراعاة للسياق وبهذا أخذ ابن عباس وابن جبير ، والجمع فى قوله : « الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » باعتبار أن رميها رمىٌ لسائر أمهات المؤمنين ، لاشتراكهن فى الطهر والنقاء والقرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونظيره جمع المرسلين فى قوله تعالى : « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ » . مع أنهم كذبوا هودًا وحده .

وقال المحققون : هم الذين يقذفون أمهات المؤمنين ، فلا يختص بهذا الحكم من رمى عائشة وحدها ، بل يعمه ومن رمى غيرها من زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - حفاظًا على كرامة البيت النبوى الشريف . وبهذا الرأى قال ابن عباس فى رواية أخرى ، فقد أخرج ابن جرير والطبرانى بسندهما عنه أنه قرأ سورة النور ففسرها ، فلما أتى على هذه الآية قال : هذه عائشة وأمهات المؤمنين ، وهذا هو الراجح وبه نقول : ولم يَجْعَلْ ابن عباس لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى غيرهن من المحصنات التوبة ، وقرأ « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » إلى قوله : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » الآية . والذى يظهر - والله أعلم - أن الله تعالى يقبل توبة من تاب منهم لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ولأنه قد تاب مسطح وحمنة وحسان واعتذروا وقبل الرسول اعتذارهم ولم يعاملهم معاملة المرتدين ، بل أقام عليهم حد القذف ، تطبيقاً لحكم الله فى القاذفين ، ودعا القرآن الصّديق أن يعيد النفقة لمسطح وأطلق عليه لقب المهاجر ، وهو تشريف لا يناله إلا مؤمن قبل الله توبته .

فإن قيل : إن وعيد القاذفين بأنهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يؤذن بكفر القاذفين ، فإن مثل هذا الوعيد لا يكون إلا للكافرين ، فالجواب عليه من وجوه :

(أحدها) أن هذا الوعيد محمول على من يقذفهن بعد نزول آيات البراءة لأزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه حينئذ يكون مكذباً لله ، ومن كذب الله فهو كافر ملعون وله عذاب عظيم .

(ثانيها) أنه مقصود به من ظل مستبيحا للطعن كابن أُبَيٍّ وشركائه من المنافقين الذين تظاهروا بالتوبة ، وقد روى عن ابن عباس تخصيص وعيد الآية بابن أُبى رأس النفاق ومبْتدع الإفك .

(ثالثها) أن هذا الوعيد مشروط بعدم التوبْة ، ولم يذكر هذا الشرط ، لأنه معلوم بالضرورة أن من تاب ، تاب الله عليه ، وهو الراجح لما تقدم بيانه .

وقيل : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فقد كانت المرأة المسلمة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها ، وقالوا عنها : خرجَتْ لتفجر ـ حكاه صاحب البحرعن أبى حمزة اليمانى وأيِّد بقوله تعالى : «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فإن شهادة الأعضاء تكون على الكفار لقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ . . . »[1] . الآيات الثلاثة .

وإذا كان القاذفون من المسلمين ، فالمقصود من لعنهم فى الدنيا ـ كما قال القرطبى ـ : إبعادهم وضربهم الحد ، واستيحاش المؤمنين منهم ، وهجرهم وإنزالهم عن رتبة العدالة ، والإمساك عن حسن الثناء عليهم .

وأما على قول من قال : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فالمراد من لعنهم : طردهم عن رحمة الله ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، مالم يُسْلِموا فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قال تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » .

والمعنى الإجمالى للآية على الوجه الراجح ، إن الذين يرمون بالفاحشة أزواج النبى المؤمنات العفيفات عما يفترى عليهن ، الغافلات عما ينشره الآفكون حولهن منْ قَالة السوء ، ولا علم لهن بما يفترون ـ إن هؤلاء القاذفين ـ يلعنون فى الدنيا حيث يقاطعهم المجتمع ويبعدهم عن حظيرته ، ويقيم القاضى عليهم حد القذف ، وترد شهادتهم ويوصمون بوصمة الفسق ،

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١٩ ـ ٢١

كما يطردون فى الآخرة من رحمة الله ، ولهم فيها عذاب عظيم لا يقادر قدره ، إلا من تاب وعمل صالحًا فإنه يرد إليه اعتباره فتقبل شهادته بعد إقامة الحد عليه ، ويغفر الله له عثرات لسانه ، أما على أن الآية نزلت فى مشركى مكة فمعناها واضح .

٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

المقصود من شهادة هذه الجوارح عليهم : أن الله تعالى ينْطِقُ كل جارحة بما صدر عنها ، لكبح إنكارهم وقطع أعذارهم ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى قبلها .

والمعنى : والذين يرمون المحصنات لهم عذاب عظيم ، فى يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما افترته من الأكاذيب ، ورددته من الفحش ، وتشهد عليهم أيديهم بما جنته من التشهير بالإشارات وتشهد عليهم أرجلهم بما سعت إليه من نقل المفتريات ، فينطقها الله الذى أنطق كل شىء ، وتغلق دونهم منافذ الإنكار ، ومفتريات الأعذار فى يوم تشخص فيه الأبصار :
« يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »[1] .

والآية وإن نزلت بخصوص واقعة القذف ، فالحكم فيها عام يتناول جميع مايكتسب بهذه الجوارح من المعاصى .

٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)[2] :

أى : يومئذ تشهد عليهم جوارحهم ، يوفيهم الله جزاءهم الحق المناسب لما كسبوه من السيئات ، ويعلمون مما يشاهدونه من عدالة الله وقدرته وعظمته التى تتجلى فى أحوال القيامة وأهوالها - يعلمون أن الله هو الإله الحق الذى لا ريب فيه ، الظاهر الذى لا خفاء فى ألوهيته وعدالته وقدرته ، أو المظهر لأهل الحق حقوقهم ، ولأهل الباطل أباطيلهم ، المجازى لكليهما بما كسبه فى دنياه .

---

(١) سورة غافر الآية : ٥٢

(٢) اسم فاعل من أبان ، ويكون لازما بمعنى ظهر ، ومتعديا بمعنى أظهر ، كما يتضح من تفسيرنا للآية .

(ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(الْخَبِيثَاتُ) : ضد الطيبات . (الْخَبِيثُونَ) : ضد الطيبين . والْخُبْثُ : الرداءة .
(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : وثواب سَخِيّ ، وهو الجنة . كما قاله أكثر المفسرين .

التفسير

٢٦ ــ (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف مبنى على سنة الله الجارية بين الخلق ، من أن شبيه الشىء منجذب إليه ، وفى هذا المعنى يقول القائل : إن الطيور على أشباهها تقع . . والآية مرتبطة بما قاله الآفكون فى شأن عائشة ــ رضى الله عنها ــ .

والمعنى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا لأنها طيبة فإنه أطيب من كل طيب من البشر ، فلا يليق به سوى الطيبات ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدراً ، ولا حسب سنة الله فى خلقه ، فإنه جعل الطيبات للطيبين ، والطيبين للطيبات ، والخبيثات للخبثين والخبيثين للخبيثات .

وقال ابن عباس فى تفسيرها ما معناه : الخبيثات من الأقاويل للخبيثين من الرجال ، فلا توجه إلى غيرهم ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الأقاويل ، فهم جديرون بها ، والطيبات من الأحاديث للطيبين من الرجال ؛ فهى حق لهم ، والطيبون من الرجال للطيبات

من الأحاديث فلا يعدل بها عنهم – واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين منهم ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال : « أُولَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ »[1] ولهذا ختم الله الآية بما هو نتيجة لهذه المقدمة فقال :

(أُولَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : أى أن أهل هذا البيت الكريم بعَدَاءُ عما يقوله أهل الإفك والعدوان لهم ، بسبب ما قيل فيهم من الإفك مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الهفوات أو لما يعد بالنسبة إليهم هفوات ، وإن كان بالنسبة لغيرهم مكرمات ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولهم بسبب ذلك رزق عظيم فى جنة الرحمن الرحيم .

وبعد ، فإن نزول هذه الآيات العظيمة فى تبرئة أم المؤمنين عائشة ، فيه مزيد اعتناء بشرف الرسول وكرامته على الله ، وجبر لقلب صاحبه أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وكذا قلب زوجته أم رومان ، فقد اعتراها من حديث الإفك هَمٌّ جسيم ، كما أن فيه تكريما لعائشة – رضى الله عنها – لمزيد انقطاعها إلى الله – عز وجل – ولجوئها إليه فى محنتها .

(١) انظر ابن كثير .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(تَسْتَأْنِسُوا) : تطلبوا أنس أهل البيت باستئذانكم إياهم فى دخوله ؛ حتى لا تحدث لهم وحشة ورعب بدخولكم عليهم دون استئذان .

(هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) : هو أطهر لكم – من الزكاة ، بمعنى : الطهارة – أو أنفع لدينكم ودنياكم – من الزكاة بمعنى النمو – (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) : ليس عليكم حرج .

(فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ) : أى فيها حق استمتاع بها لكم ، وسيأتى شرحه .

(مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) : ما تظهرون وما تخفون .

التفسير

٢٧ – (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

لا يزال الحديث ممتداً فى تأديب الله لعباده نحو حرماتهم ، فقد أنزل هذه الآية وما بعدها ليعلمهم أن للبيوت حرمات لا يحل انتهاكها بدخولها دون استئذان ، وسبب نزولها : ما رواه

الطبرانى وغيره عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول‌الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أفرأيت الخاناتِ والمساكنَ فى طرق الشام ليس فيها ساكن ؟ فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . . »[1] الآية .

وقال مقاتل بن حَيَّان : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حيّيت صباحا ، وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأْذِن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغير الله ذلك كله فى سَتْرٍ وعفة ، وجعله نقيا نَزِهًا من الدنس والقذر والدرن ، فأنزل الله هذه الآية[2] : اهـ .

فأنت ترى أنه تعالى نَهَى فيها عباده عن دخول بيوت غيرهم حتى يستأْنسوا ويسلموا على أهلها ، والمراد من الاستئناس هنا : الاستئذان ، وبه قرأ عبد الله بن عباس وسعيد ابن جبير ، وقد فسره به الجمهور ، وأصل الاستئناس : طلب الأُنس الذى هو ضد الوحشة ولما كان المستأْذن يريد باستئذانه أن يأْنس به أهل البيت ولا يستوحشوا منه فيأْذنوا له ، عبر عن استئذانه بالاستئناس على سبيل المجاز .

وفسره بعضهم بالاستعلام ، كما فى قوله تعالى : «فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا» أى : فإن علمتم ، والواقع أن التفسيرين متقاربان ، فإن الاستئذان مع ما فيه من طلب الإذن فيه طلب العلم بوجود أهل البيت وبرضاهم عن دخوله .

وقد تضمنت الآية أن يقرن المستأْذن السلام باستئذانه ، وظاهر النص تقديم الاستئذان على السلام ، ولكن الأولى العكس حسبما ورد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – والواو لمطلق الجمع ، فلا تقتضى الترتيب ، وصورتهما : أن يقول المستأْذن : السلام عليكم ،

---

(١) انظره فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(٢) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٤٢ ط الشعب .

أأدخل؟ فقد أخرج أبو داود عن رِبْعِىّ قال : (حدثنا رجل من بنى عامرٍ استأْذَنَ على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو فى بيت فقال : أَلِج ؟ فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لخادمه : « أخرج فعلمه الاستئذان فقل له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبى - صلى الله عليه وسلم- فدخل) .

ومن العلماء من قال بتقديم الاستئذان ، فإذا أُذن له فدخل سلم ، وهذا الرأى يوافق ظاهر الآية ويخالف ما رواه أبو داود عن النبى - صلى الله عليه وسلم- ، وقد تقدم قبل هذا ، وهو أحق بالاتباع .

ويسن الاستئذان إلى ثلاث مرات إن لم يؤذن له بعد الأُولى والثانية ، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة انصرف ، فقد جاء فى الصحيح أن أبا موسى الأَشعرى حين استأْذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : أَلم أَسمع صوت عبد الله بن قيس يستأْذن ؟ - يعنى أَبا موسى - ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رَجَعَكَ ؟ قال : إنى استأْذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : « إذا استأْذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف . . . » الحديث .

وقد كانت البيوت من غير أبواب ولم يتخذ لها الستور ، فكانت السنة أن يقف المستأْذن بجانب المدخل يمينا أو يساراً ولا يستقبله ، روى أبو داود عن عبد الله بن بِسْر قال : (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أَتى باب قوم لم يستقبلَ الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأَيمن أو الأَيسر فيقول : « السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور)[1] .

فإن قيل : ما الحكم بعد أن استحدث الناس الأَبواب ، وسكنوا فى الطوابق ، واستحدثوا أجراساً على أبوابهم ؟ فالجواب : أن الاستئذان يكون فى هذه الحالة إما بدق الباب أو بقرع الأَجراس ، فقد صح عن أَبى موسى الأَشعرى (أَن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كان فى حائط بالمدينة على قفِّ بئر ، فمد رجليه فى البئر فدق البابَ أَبو بكر ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ائذن له وبشره بالجنة ») والحائط : البستان ، وقفُّ البئر : الدكة المرتفعة التى تجعل حولها .

---

(١) القرطبى ج ١٢ ص ٢١٦ - المسألة السابعة .

وينبغى أن يكون الدق خفيفاً غير مزعج ، فقد روى أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال : (كانت أبواب النبى -صلى الله عليه وسلم- تقرع بالأظافر) رواه الخطيب فى جامعه[1] .

وكما يشرع الاستئذان للرجال يشرع للنساء ، فقد يكون أهل البيت على حال لا يحسن أن يطلع هؤلاء النساء عليها ، فالخطاب فى الآية للذكور على وجه التغليب لا التخصيص ، فإن النساء شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم كأحكام الحيض والنفاس للنساء ، ومضاعفة الميراث للرجال ، ويؤيد العموم ما أخرجه الطبرانى عن أبى أمامة - رضى الله عنه- عن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال : « من كان يشهد أنى رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم ، فإذا نظر فى قعر البيت فقد دخل »[2] أى : فإذا نظر فى داخل البيت قبل أن يؤذن له ، فكأنما دخل قبل الاستئذان ، وذلك لا يحل له ، فأنت ترى أن الحديث جاء بصيغة العموم التى تعم الرجال والنساء .

فإذا استأذنت فقيل لك : من الطارق مثلا ؟ فيكره أن تجيبه بقولك : أنا ، فقد روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال : (استأذنت على النبى -صلى الله عليه وسلم- فقال : «من هذا ؟» فقلت : أنا ، فقال : « أنا ، أنا » كأنه كره ذلك) وربما ترجع كراهة النبى لذلك ، إلى أن فى ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب ، فإن لفظ (أنا) لا تحصل به المعرفة ، وربما أوهم غرورَ المجيب بنفسه ، فكأنه يرى أنه الشخص الذى لا يجهله أحد ، فيكفى أن يقول عن نفسه : (أنا) ليعرف .

وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبى -صلى الله عليه وسلم- وهو فى مشربة له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر ؟ ، وفى صحيح مسلم ، أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : (السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم هذا الأشعرى . . .) الحديث .

وهذه الأحكام إنما هى فى بيت ليس لك ، فأما بيتك فلا تستأذن فيه على أهلك ، ولكن تسلم عليها إذا دخلت فإن كان معها أمك أو أختك فاستأذن ؛ فقد تكونان على حالة

(١) انظر المسألة التاسعة من القرطبى . (٢) الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٢ طبعة منير .

لاتحب أن تراهما فيها ، روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- : أستأذن على أمى ؟ قال : « نعم » قال : إنى أخدمها ، قال : « استأذن عليها » فعاودها ثلاثاً ، فقال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا . قال : « فاستأذن عليها » ذكره الطبرى [١] .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا ذكوراً وإناثا - لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأذنوا مَنْ له حق الإذن من أهلها فى الدخول عليهم وتسلموا عليهم تحية لهم ، ذلكم الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ، لما فيه من الاطلاع على عوْرات إخوانكم وإزعاجهم ، وخير لكم من تحية الجاهلية إذ كانوا يقولون : حييتم صباحا وحييتم مساء ، وقد أُرْشِدْتم إلى ذلك لعلكم تتذكرون وتتعظون فتعملوا بما شرع لكم .

٢٨ - ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ :

أثبتت الآية السابقة حكم البيوت المسكونة ، فنهت عن دخولها من غير إذن أهلها ، وجاءت هذه الآية لتبيِّنَ حكم دخول البيوت الخالية التى يملكها سواكم .

والمعنى : فإن لم تجدوا فى البيوت التى يملكها سواكم أحداً من أهلها فلا تدخلوها ، سواء أكان الباب مغلقاً أم مفتوحاً ، لأن الله أغلقه بالتحريم [٢] ، حتى يأتى من أهلها من له حق الإذن ، فتستأذنوه فيأذن لكم ، ولا عبرة بإذن خادم ولا صبى كما يقول به بعض الأئمة ، لأن مثلهما لا إذن له [٣] ، وإن قيل لكم من جهة أهل البيت : ارجعوا ولو بعد الإذن لكم بالدخول [٤] ، فارجعوا ولا تدخلوا ولا تلحوا سواء أكان الآمر بالرجوع يملك الإذن بالدخول أم لا [٥] ومثله فى حكم وجوب الرجوع الإمساك عن الإجابة ، أو الاعتذار بعدم

---

(١) انظره فى القرطبى - المسألة السادسة عشرة : فقد نقله عن الطبرى .

(٢) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير هذه الآية .

(٣) ذكره الآلوسى ، وذكر القرطبى أن الإذن يصح من الصغير والكبير من أهل البيت، انظره فى المسألة الثالثة من تفسير الآية السابقة ، ونحن نرجح ما نقله الآلوسى ، وبخاصة فى هذا الزمان الذى كثر فيه الفساد وسوء النية فلا يصلح للإذن فيه سوى الرجال من أهل البيت .

(٤) انظره فى ابن كثير

(٥) انظره فى الآلوسى .

وجود من يلقاه أو يجالسه من الرجال أو نحو ذلك ، والرجوع عن الدخول فى هذه الأحوال وأمثالها واجب ، سواءٌ أكان فى البيت أهله أم لا ، كما أنه أدعى إلى الطهر والنزاهة ولهذا قال سبحانه :(وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) : أى أطهر لكم لما فيه من السلامة من القيل والقال والتصرف فى ملك غيركم إن دخلتموه دون رضاه ، والدناءة والخسة إن بقيتم بالباب تَلِجُّونَ وتلحون ، وإنما يتوقف الدخول على الإذن ما لم يكن هناك داع شرعى كإزالة منكر توقفت إزالته على الدخول بغير إذن ، وإطفاء حريق فيجوز رعاية لشريعة الله[1] ، ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لِوعْدٍ من امتثل أمره ووعيد من عصاه ، أى : أنه تعالى يعلم ما تفعلون وما تتركون مما كلفكم به ، ويعلم ما انطوت عليه قلوبكم من الأغراض الشريفة أو الخسيسة حين استئذانكم ، فيحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم ونياتِكم ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر .

٢٩ ـ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

يبيح الله فى هذه الآية دخول بيوتٍ غير مسكونة بغير استئذان ، إذا كانت لها صفة العموم ، وتعتبر هذه الآية مخصصة لعموم ما قبلها .

والمراد من هذه البيوت : مالم يجعل لسكنى طائفة خاصة ، بل جعل ليتمتع بها من كان بحاجة إليه كالحانات والحمامات العامة ، ومنازل المسافرين العامة ، وحوانيت التجار ونحوها ، والمراد بالمتاع : المنفعة. فَعَنْ محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد :هى الفنادق التى فى طرق السابلة ، قال مجاهد : لا يسكنها أحد ، بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل وفيها متاع لهم ،أى : استمتاع بمنفعتها ، وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى : لأنهم جاءُوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس : هَلموا ، وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خَرِبَة يدخلها لقضاء الحاجة ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع ، واستحسنه أبو جعفر

(١) انظره فى الآلوسى فى شرحه لقوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

النحاس ، وقال : المتاع فى كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه : « فمتعوهن »[١].

ويدل على صحة هذه الآراء ما أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى : « يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا . . . » الآية .

قال أبو بكر -رضى الله عنه- يارسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فرخص سبحانه فى ذلك ، فأنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ . . . » الآية[٢] .

فالمراد بتلك البيوت غير المسكونة : مافيها انتفاع عام ، ويدخل فيها دور العلم المباحة ، أما إذا كانت لها قيود أو بأجر ، فلابد من الاستئذان عليها والتزام شروطها ، وكذلك الفنادق التى يسكنها المسافرون بأجر فلا يدخلها أحد بغير استئذان والتزام بحدودها ، ومثلها الحمامات الخاصة ونحوها .

وخلاصة معنى الآية : ليس عليكم -أيها المؤمنون- حرج ولا إثم ، فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً غير مسكونة فيها متاع - أى :منفعة - لكم بدخولكم فيها ، كالدور الموقوفة على أبناء السبيل ، ومنازل المسافرين العامة المقامة على الطريق ليستريح فيها المسافرون ، ودور العلم العامة التى لم يجعل لها شروط تمنع أحداً من حضورها ، والبيت المعد لنزول أى ضيف ، وحوانيت التجار ، والمراحيض العامة والخربات لقضاء الحاجة - ليس عليكم جناح - أن تدخلوا هذه وأمثالها دون استئذان ، لأن لكم حق التمتع - أى الانتفاع - بها ، والله يعلم ما تظهرون وما تخفون من أعمال ونيات ، فيحاسب كل من دخل هذه البيوت المأذون بدخولها بلا استئذان - يحاسبه ويجازيه - على عمله ونيته ، فإذا كان دخوله إياها لراحة نفسه أوقضاء مصلحة شرعية له أو لغيره فله ثوابه وإن كان للفساد والإفساد ، فعليه عقابه .

---

(١) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير الآية . (٢) انظر الحديث فى تفسير الآلوسى للآية .

(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) : يخفضوها كفًّا لها عن النظر إلى من يحرم النظر إليهن ، وكل شيء غضضته فقد كففته ، وفعله من باب رد يردُّ . (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) : يمنعوها عن الزنى واللواط . (أَزْكَى لَهُمْ) : أطهر لهم .

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) : ولا يظهر من الزينة إلا ما ظهر منها عادة كالخاتم ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) : الخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تلقيه المرأة على رأسها من الثياب لسترها ، وهو من الخمر ، بمعنى الستر ، والجيوب ، جمع الجيب ، وهو فتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسم ، وأصله : من الجيب أو الجوب ، بمعنى القطع ، وفى الصحاح تقول :

جبت القميص أجيبه وأجوبه إذا قوّرت جيبه ، وضربهن بالخمر على الجيوب إلقاؤهن إياها على الصدور لسترها مع الأعناق . (بُعُولَتِهِنَّ) : أزواجهن .

(أَوْ نِسَآئِهِنَّ) : أى النساء الحرائر المؤمنات المختصات بهن كصاحبة وخادمة .

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) : من الإماء دون العبيد . (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) : أى الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من فضل الطعام ، ممن ليس لهم حاجة إلى النساء من الشيوخ الطاعنين فى السن . (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) : أو الأطفال الذين لم يميزوا بين عورات النساء وغيرها ، ولا يدرون ماهى العورة ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ) : ولا يضرب المؤمنات الأرض بأرجلهن لإعلام الرجال ما يخفين من زينتهن حين يسمعون صوت الخلاخيل بسبب ضربهن الأرض .

التفسير

٣٠ - (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[١] مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

شرع الله فى الآيات السابقة وجوب الاستئذان على البيوت توفيراً لحرمات أهلها ، وستراً لعوراتهم عمن يدخلونها فجأة ، وجاء بهذه الآية والتى بعدها تتميما لما قبلها من الآداب التى تحمى الأعراض ، وتحفظ فى المؤمنين والمؤمنات مكارم الأخلاق ، فقد أمر الله فيهما بغض البصر عن المحرمات ، وعدم إبداء الزينة لغير من يحل إبداؤها له ، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام التى سنبينها .

والبصر : هو الباب الموصل إلى القلب ، وأشد الحواس تنبيها له ، وعن طريقه غالباً يكثر السقوط والانغماس فى أوحال الفتنة ، فهو بريد الزنى ورائد الفجور ، قال الشاعر :

كل الحوادث مَبدَاهَا من النظر ومعظَم النار من مستصغر الشرر
كم نظرةٍ فعلت فى قلب صاحبها فِعلَ السهام بلا قوس ولا وَتَر

(١) يغضوا : مجزوم فى جواب الأمر : وهو لفظ (قل) لتضمنه معنى الشرط ، كأنه قيل : إن تقل لهم غضوا يغضوا .

فلهذا عُنِيَ الشرع بإيجاب غض البصر وكفّه عن المحرمات ، والتحذير من الفتنة عن طريقه ، كما جاء فى هاتين الآيتين ، وكما فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بدٌّ إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غَضُّ البصر وكفُّ الأذى وردُّ السلام ،وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر » أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى ، واللفظ للبخارى [1]

والأمر فيها موجه إلى النبى -صلى الله عليه وسلم - لإيذانه بمتابعته لهم فى هذا الشأن. وهيمنته عليهم فيه حتى يكفوا عما اعتادوه فى الجاهلية من نظر الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال .

هذا ، وقد قيل : إن سبب نزول الآية : ما أخرجه ابن مردويه بسنده عن على بن أبى طالب قال : مر رجل على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ، ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدمَ حتى آتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَأُخْبِرَه أَمْرِى ، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « هذا عقوبة ذنبك » وأنزل الله تعالى : « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » انظر الآلوسى .

وغض البصر :خفضه كَفًّا له عن النظر ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) إما لا بتداء الغاية-كما قال ابن عطية - وإما أن تكون للتبعيض ، فالمراد :غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل [2] كالنظر إلى الزوجة والمحرم ، ويجب أن يتجرد نظره إلى المحرم عن الشهوة ، بل لقد كره الشعبى أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ،

---

(١) كتاب المظالم ،باب : أفنية الدور والجلوس على الصعدات .

(٢) فجعل الغض عن بعض المبصرات غضا لبعض البصر ،على سبيل الكناية، وهى كناية حسنة كما فى الكشف .

وزمانه خير من زماننا[١] ، فإذا نظر إليها بشهوة فإثمه شديد وعقابه عنيف ، نسأل الله العصمة لعباده المؤمنين .

ونقل كثير عن السلف أنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل النظر إلى الأمرد ، وشدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان .

أما نظرة الفجاءة إلى الأجنبية فلا إثم فيها ، فقد أخرج أبو داود وغيره عن بريدة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لا تُتبع النظرة النظرةَ ، فإن لك الأُولى وليست لك الآخرة » .

والمراد بحفظ الفروج أمران ، أحدهما : حمايتها من الزنى واللواط ، وثانيهما : سترها عمن لا يحل له النظر إليها من الأجانب والأقارب ، إلا فى حالات جراحتها أو علاجها أو الكشف عن مرضها ، فإنه يجوز كشفها للطبيب الأمين[٢] عند الضرورة .

أما الزوجة والأمة فلا يدخلان فى الأمر بحفظ فرج الرجل عنهما ، روى بَهْز بن حكيم ابن معاوية القشيرى عن أبيه عن جده قال : (قلت يا رسول الله : عوراتنا ؟ ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك » ثم سأله عن الرجل يكون خالياً ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : «الله أحق أن يستحيا منه من الناس ») نقله القرطبى ثم قال فى المسألة الخامسة ما خلاصته :أن العلماء حرموا دخول الحمام على الرجال بغير مئزر ، أَخْذًا من نص الآية ، فإن دخلوها بمئزر جاز ، وقد دخل ابن عباس الحمام بإزاره وهو مُحْرِمٌ بالجحفة ، أما دخول النساء فأجازه بعض العلماء لضرورة العلاج ونحوه ، مع الاستتار بنحو مئزر ، أما لغير ذلك فلا ، فقد أخرج ابن منيع بسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : (لقينى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد خرجت من الحمام ، فقال : « من أين يا أم الدرداء ؟ » فقالت : من الحمام ، فقال : « والذى نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمهاتها ، إلا وهى هاتكة كل

---

(١) انظر القرطبى .

(٢) ويشترط حضور من يمنع حضوره الخلوة إذا كان المريض امرأة ، كالزوج والأب

ستر بينها وبين الرحمن عز وجل » وأخرج البزار عن طاووس عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- : « احذروا بيتاً يقال له الحمام » قالوا يارسول الله يَنْفِى الوسخَ ، قال : « فاستتروا » وهذا أصح حديث فى الباب ، فإن دخله مستترا فعليه أن يحقق عشرة شروط ، منها : أن يكون بنية التداوى أو النظافة ، وأن يستتر بإزار صَفِيق ، وأن يغير ما يراه من منكر برفق - إلى آخر ماذكره القرطبى فارجع إليه إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : قل -أيها الرسول- للمؤمنين : يخفضوا من أبصارهم كفا لها عن رؤية ما لا تحل رؤيته من النساء والرجال ، ويحفظوا فروجهم بمنعها عن الزنى ، وسترها عن غير زوجاتهم وإمائهم ، ذلك الغض للبصر وحفظ الفرج أطهر لهم فى الدين ، وأبعد عن دنس الإثم ، إن الله عليم بما يصنعون من امتثال أمره أو عصيانه ، فيجازى كلا على ما كسب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٣١ - (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . . . . .) الآية .

أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- فى هذه الآية أن يبلغ النساءَ المؤمنات ، أنهن مكلفات بغَضِّ أبصارهن وحفظ فروجهن ، مع أنهن داخلات فى حكم الآية السابقة للتأكيد ، فإن قوله : « قل لِّلْمُؤْمِنِينَ » يعم حكمه الذكور والإناث حسب كل خطاب فى القرآن ، فإن النساءَ شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم بدليل أو قرينة .

وقد فهم من الآيتين أنه كما يحرم نظر الرجال إلى النساءِ غير المحارم ، يحرم نظرهن إليهم كذلك ، أخرج أبو داود والترمذى بسندهما عن أم سلمة (أنها كانت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وميمونة ؛ قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أَوَ عمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[1] . ومنه عرف

(١) انظره فى ابن كثير .

أن نظر المرأة ولو لرجل أعمى حرام ، وكما يحرم على الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها[١] ، يحرم على المرأة أن ترى منه سوى وجهه وكفيه ، وكما يجب على الولى منع الفتى المراهق من نظر المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها ، يجب على ولى الفتاة المراهقة أن يمنعها من نظر ما عداهما من الرجل الأجنبي ولو مراهقاً[٢]

وفهم من الآية أيضاً أنه يجب على المرأة حفظ فرجها من الزنى والسحاق ، وستره عن غير زوجها وسيدها إن كانت أمة ، ما لم تكن محرمة عليه لنحو زواج ، فلا يحل لها أن تبديه لسيدها ، وكما يحرم عليها إظهاره للعين مباشرة يحرم إظهاره بالثوب الشفاف أو الضيق ، أو بالحديث عنه ، فكل ذلك حرام ، لما يترتب عليه من إثارة الشهوة والفتنة .

وفهم من الآية أيضاً أنه يحرم على المرأة أن تبدى من زينتها إلا ماظهر منها[٣] ، والمراد منه : الوجه والكفان ، ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود عن عائشة -رضى الله عنها- (أن أسماء بنت أبى بكر -رضى الله عنهما- دخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال لها : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه) وبهذا النص أخذ محققو الشافعية[٤] قال القرطبي : وهذا أقوى فى جانب الاحتياط ، ولمراعاة فساد الناس ، فلاتبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، ونقل عن ابن خويْزِ مَنْدَاد من علماء المالكية : أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من رؤية وجهها وكفيها الفتنة ، فعليها سترهما ، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها

وقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب ، وقال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب[٥]

---

(١) وهو رأى المحققين من الشافعية ، وسيأتى تفصيل آراء المذاهب فيما يحل إظهاره من المرأة ، والله الموفق

(٢) المراهق : من قارب بلوغ الحلم من الذكور والإناث

(٣) وذلك على الأجانب كما سيأتى بيانه .

(٤) وهو الذى نقل فى الروضة عن الأكثرين ، وصوبه فى المهمات ، ومن الشافعية من قال : يحرم النظر إلى الوجه والكفين أيضا ، ذكره صاحب المنهاج ، ولكن الرأى الأول أحق وأيسر كما أنه متفق مع ما جاء فى حديث عائشة المذكور

(٥) فالزينة قسمان : خلقية ومكتسبة ، فالوجه والكفان ما ظهر من زينتها الخلقية ، والثياب ما ظهر من زينتها المكتسبة .

وروى عن ابن عباس وقتادة والمِسْور بن مخرمة : ظاهر الزينة : هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرَطَة والفَتَخ[١] فمباح أن تبديه المرأة على الناس . هكذا نقل القرطبي عنهم ، ولكنه على هذا التفصيل - لوصح - يوقع فى الفتنة . ولهذا فنحن نرجح الرأى القائل بقصره على الوجه والكفين ، لحديث عائشة السابق[٢] . مضموما إليهما ما ظهر من الثياب على أن يكون فضفاضا غير شفاف ، فإنه لابد من رؤيته عند إظهار الوجه والكفين بحكم الضرورة .

وقال ابن عطية : ويظهر بحكم ألفاظ الآية ، أن المرأة مأمورة أن لا تبدى ، وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناءُ لما يظهر بحكم الضرورة فى إصلاح شأن ونحوه فمعفو عنه[٣]

واعلم أن ماظهر من الزينة على ماسبق بيانه مباح إظهاره للأجانب والمحارم . وأن مابطن منها لا يحل إبداؤه إلا لمن ذكرهم الله فى هذه الآية ، على ماسيأتى بيانه . واعلم أن السوار من الزينة الباطنة - كما قال مجاهد ، لأنها فى الذراع لافى الكفين . وهو بذلك يخالف مانقل سابقا عن ابن عباس من كونها من ظاهر الزينة ، ومن الزينة الباطنة : الخلخال والدملج والقلادة والقرْط[٤]

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) :

الخمر : جمع الخمار ، وهو ماتغطى به المرأة رأسها ، والجيوب :جمع الجيب ، وهو كما قال الآلوسى : فتح فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد[٥]

والمراد من الآية -كما روى عن أبى حاتم عن ابن جبير- : أمرهن بستر نحورهن وصدورهن بخمرهن ، لئلا يرى منها شيء

---

(١) القرطة - بوزن عنبة - جمع :قرط ؛ وهو حلية الأذن ؛ والفتحة بالسكون وبفتحتين :الخاتم ؛ وجمعها : فتخ بفتحتين

(٢) ولظهورهما فى الصلاة والحج .

(٣) انظر المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى للآية .

(٤) انظر الآلوسى .

(٥) وفى الصحاح : تقول : جبت القميص أجوبه وأجيبه إذا قورت جيبه .

وكان النساء يغطين رءوسهن بالخمر ، ويسدلنها[1] كعادة الجاهلية من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن .

وصح أنه لما نزلت هذه الآية ، سارع نساء المهاجرين إلى امتثال مافيها ، فشققن مروطهن[2] فاختمرن بها تصديقا وإيمانا بما أنزل الله - تعالى - من كتابه .

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) :

بعد أن أجاز الله للمرأة فى صدر الآية أن تبدى للأجانب من زينتها مايظهر منها عادة ، عقبه بإجازة أكثر منه لأنواع عينها فيها

وأول هذه الأنواع : (البعولة) جمع بعل ، ويطلق على الزوج ، وكذا على السيد ، كما قاله ابن العربى ، ومنه ماجاء فى حديث جبريل عن أشراط الساعة فى إحدى الروايات : «إذا ولدت الأمة بعلها » يعنى سيدها ؛ لأنها إذا استولدها سيدها ، فولدها يكون سببا فى عتقها بعد موت أبيه ، فكأنه سيدها الذى من عليها بالعتق[3] ، فكل من الزوج والسيد يرى زينة المرأة كلها ، وله الحق فى أكثر من رؤية زينتها وهو تمام الاستمتاع بها نظرا أو فراشا فى مكان الحل منها ، قال تعالى : «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ »[4] .

أما النظر إلى الفرج فقد أجازه قوم بالقياس الأولوى على الجماع ، فللرجل أن ينظر إلى فرج زوجته وأمته ، ولهما أن ينظرا إلى فرجه ، ومنعه بعضهم لحديث عائشة : «مارأيت منه ولا رأى منى » وحمله أصحاب القول الأول على الأدب لا على التحريم ، ومن الفقهاء من أجازه مع الكراهة ، وبه قال أكثر الشافعية[5] ، ومن الفقهاء من قال إنه خلاف الأولى ، وهو مذهب الحنفية كما حكاه الخفاجى .

---

(١) أى يرخين شعورهن ، وفعله : سدل ، من بابى : ضرب ونصر .

(٢) جمع : مرط ، وهو كساء من صوف أو حرير كان يؤتزر به .

(٣) والحديث يشير إلى كثرة السرارى بكثرة الفتوحات ، فيأتى الأولاد من الإماء ، فتعتق كل أم بولدها - انظر القرطبى .

(٤) سورة المؤمنون ؛ الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٥) وقليل منهم يقول بالتحريم

ولما بدأ الله بذكر البعولة؛ثنى بذوى المحارم ، وهم آباءُ المرأة وإن علوا وآباءُ الأزواج كذلك ، وأبناءُ المرأة وإن سفلوا ، وأبناءُ الزوج كذلك ، وإخوان المرأة وبنو إخوانها ، وبنو أخواتها والمراد بإخوانها :إخوتها الذكور أشقاء أو لأب أو لأُم ،ومثل ذلك بنو إخوانها وبنو أَخَوَاتها وإن سفلوا ، فهؤلاءِ جميعا يجوز للمرأة أن تبدى من زينتها لهم أكثر مما تبديه للأجانب لكثرة المخالطة الضرورية ، وقلة توقع الفتنة ، فلهم أن ينظروا من المرأة مايظهر منها عند المهنة - أى الخدمة - كما ذكره الآلوسى .

وقال القرطبى فى المسألة الحادية عشرة : سوى الله بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر ، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها ، وتختلف مراتب مايبدى لهم ، فيُبْدى للأب مالا يجوز إبداؤه لِوَلَدِ الزوج .

ونحن نرى ؛أن الاحتياط والتصون فى هذا الزمان أمر ضرورى ، لفساد المعايير والأخلاق ، فلا تبدى المرأة من جسدها لغير زوجها وسيدها إلا مايظهر عند خدمتها منزلها فى ثياب مرسلة ، وحشمة واتزان ، وبخاصة مع أبناءِ زوجها ، فينبغى أن يكون تحفظها معهم أكثر[1] .

ولم يرد فى الآية العم ،ولا الخال - مع أنهما من المحارم - والجمهور على أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر إلى مايبدو من المرأة عند المهنة على نحو ماقلناه ، ولم يُذْكَرَا فى الآية اكتفاءً بذكر الآباءِ ، فإنهما عند الناس بمنزلتهم ، ولا سيما الأعمام ، وقيل :لم يذكرا لأن الأحوط أن تستتر المرأة عنهما ، حذرا من أن يصفاها لأولادهم ، فيبعثهم ذلك على رؤيتها والاختلاط بها ، وليس فى الآية ذكر الرضاع؛ وهو مثل النسب فيما تقدم[2] .

أما قوله تعالى : « أَوْ نِسَآئِهِنَّ » فالمراد منه :المسلمات المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائرهن ، أما الكوافر فلا يظهرن لهن إلا ما يظهرنه للرجال الأجانب ، وقال عبادة

---

(١) وعند الشافعية كما ذكره ولى الدين البصير فى كتابه (النهاية) الذى شرح به متن أبى شجاع : أن لهم أن يروا ماعدا ما بين السرة والركبة قياسا على ما يراه السيد من أمته المزوجة ، فقد روى أبو داود وغيره : (أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « إذا زوج أحدكم عبده جاريته ، أو أجيره فلا ينظر إلى ما بين السرة والركبة ») ونحن لا نوافقهم على هذا القياس غير المتكافىء ، فإن الأمة لا تماثل الحرة ، وغير السيد لا يماثل السيد ، فالحق والأحوط ما قلناه وهو نظر ما يبدو عند المهنة - أى :الخدمة - دون سواه .

(٢) انظر القرطبى والآلوسى .

ابن نُسَيٍّ : كتب عمر -رضي الله عنه- إلى أبي عبيدة بن الجراح : أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المؤمنين ، فامنع من ذلك وحُلْ دونه فإنه لايحل أن ترى الذمية عِرْيَةَ[1] المسلمة ، فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أَيُّمَا امرأة تدخل الحمام من غير عذر ، لاتريد إلا أن تبيض وجهها ، فَسَودَ الله وجهها يوم تبيض الوجوه .

ونقل الآلوسى عن ابن حجر الشافعي :أن الأصح تحريم نظر الذمية إلى غير مايبدو من المسلمة فى المهنة - أى . الخدمة - غير سيدتها ومحرمها ، ودخول الذميات على أُمهات المؤمنين الوارد فى الأحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها مايبدو عند المهنة .

وأما قوله سبحانه : «أَوْمَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » فالمراد منه : الإماءُ ولوكافرات ،وأما العبيد فهم كالأجانب لايرون من زينة سيدتهن إلا ماظهر منها ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وأحد قولين فى مذهب الشافعي ، قال ابن عباس : لابأْس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وقال سعيد ابن المسيب : لا تَغُرنكُمْ هذه الآية : «أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » إنما عنى بها الإماءُ ولم يعن بها العبيد ، وعلل ذلك بأنهم فحول ليسوا أزواجا ولا محارم ، والشهوة متحققة فيهم - انظر الآلوسى .

وأما قوله تعالى : «أَوِالتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ[2] مِنَ الرِّجَالِ » فالمراد بهم :الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من طعام أهلها ، وليست لهم حاجة إلى النساء ، لكونهم شيوخا طاعنين فى السن ، وقد فنيت شهواتهم ، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم ، فهؤلاء ينظرون من المرأة ما يبدو منها عند المهنة ، أما المجبوب :وهو من قطع ذكره ، والخصى وهو من قطعت خصيتاه ، ففيهما خلاف ، فبعضهم أباح له أن ينظر من المرأة مايبدو عند المهنة كابن الزوج ومن فى حكمه ، ومنهم من جعله فى حكم الأجانب ، فلا يرى منها غير الوجه والكفين ، وظاهر الثياب - وهذا هو الراجح - انظر الآلوسى .

---

(١) أى : ما يتعرى منها وينكشف .

(٢) الإربة ، والإرب ، والمأربة ، والأرب : الحاجة .

وفسره بعضهم : بالأَبْلَه ، وفسره آخرون : بالصبى الذى لم يدرك ، قال القرطبى : وهذا الاختلاف كله متقارب ، ويجتمع فيمن لا فهم له ، ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء .

وأما قوله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ[1] الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ » فالمراد به : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى عورات النساء ، وما شأنها بالنسبة إلى الرجال ، وفسره الآلوسى بقوله : أى : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها .

وهذا القول قريب مما قلناه ، وعلى هذا وذاك يكون قوله : « لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ » مأخوذا من الظهور ، بمعنى الاطلاع ، وقد جعل كناية عما ذكر .

وفسره ابن كثير بأنهم لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن ، من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لايفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكّن من الدخول ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : (« إياكم والدخول على النساء » قالوا : يارسول الله أفرأيت الحَمو[2] ؟ قال : « الحَمو : الموت ») .

ومنهم من فسر (الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) بالذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع ، وإن كان قادرا على التمييز بين العورات ، من قولهم : ظهر على فلان إذا قوى عليه ، ومنه قوله تعالى : « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » فيشمل الطفل المذكور على هذا الرأى المراهقَ ؛ الذى لم يظهر منه تشوق للنساء ، والأصح عند بعض الشافعية : أنه يلزم الاحتجاب منه كالمراهق الذى ظهر منه ذلك ، وذكروا فى الطفل غير المراهق أنه إن كان قادرا على حكاية العورات وتمييزها فله حكم المحرَم فى النظر ، وإلا فهو كالعدم ، فيباح فى حضوره مايباح فى الخلوة[3]

(١) الطفل : اسم مقترن بأل الجنسية ، وقد يراد به الجمع كما هنا ، فهو بمعنى الأطفال ، ولهذا وصف بالجمع .

(٢) الحمو ، والحم : أقارب الزوج ، وإذا كان رأى النبى – صلى الله عليه وسلم – ما ذكر فى أبى الزوج وهو من المحارم فكيف يسمح بدخول غيره البيت ورؤيته نساءه ؟ .

(٣) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الجزئية من الآية

وأما قوله تعالى : «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ » فمعناه أنه لايحل للنساء أن يضربن الأرض بأرجلهن لتُسمع غيرها صوت خلخالها وتعلمه ماتخفيه من زينتها ، فإسماع صوت الزينة كإبدائها فى الحرمة بل أشد ، لأنه يغرى الرجال بهن ،لما فيه من إيهام أن لهن ميلا إليهم ، واستدعاء لهم ، أخرج ابن جرير الطبرى بسنده عن حضرمىٍّ (أن امرأة اتخذت خَلخَالا من فضة ، واتخذت جَزْعًا فى ساقها ، فمرت بقوم فضربت برجلها ، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت ، فأنزل الله «وَلَا يَضْرِبْنَ ...» الآية ، والجزع : خرز فيه بياض وسواد تُشَبَّه به العيون ، ويفهم من سبب النزول أن الجزع كان منظوما فى خيط حول الساق ، وأن الخلخال كان فى أعلاه فلما ضربت الأرض برجلها وقع الخلخال عليه فصوَّت .

قال الآلوسى فى تعليقه على هذا الأثر : والنساءُ اليوم على جَعْل الجزع ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا صوَّت ... الخ .

وكان النساءُ فى عصرنا هذا يتخذْن خلاخيل من ذهب أو فضة لها جلاجل مرتبطة بها ، تجلجلْ وتصوت عند مشيهن ، ثم تلاشت هذه الحلية أو كادت .

وكما يحرم على المرأة تنبيه الرجال إليها بضرب الأرض برجلها ، يحرم عليها تنبيههم بنحو التطيب عند خروجها ، قال – صلى الله عليه وسلم – : «كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية[1] » والحديث حسن صحيح .

(وَتُوبُوٓا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى وقل أيها النبى للمؤمنين فى ضمن ماكلفوا به فى هذه الآية – قل لهم – : توبوا إلى الله تعالى مما عسى أن تكونوا قد ارتكبتموه مما نهيتم عنه فيها ، ولا تتخلوا عن المتاب من آن لآخر ، فإنكم لاتخلون من التقصير فى حقوق الله – تعالى – لعلكم بالتوبة تفلحون ، وتفوزون بما تأملونه من السعادة فى الدارين .

---

(١) انظر ابن كثير ، والحديث فى تحفة الأحوذى – أبواب الاستئذان – باب : ما جاء فى خروج المرأة متعطرة .

والمعنى الإجمالى للآية : وقل أيها الرسول للمؤمنات : اخفضن أبصاركن وامنعنها من النظر إلى الرجال إلا مايبدو منهم عادة ، من غير إمعان ولا اشتهاء ، وقل لهن أيضا : يحفظن فروجهن بمنعها عن الزنى ، وسترها عن العيون بثياب لا تحكيها ، ولا يظهرن زينتهن للرجال الأجانب إلا ماظهر منها ، وهو الوجه والكفان والثياب الخارجية الفضفاضة ، وعليهن أن يسترن أعناقهن وما تظهره فتحات صدورهن من أجسادهن ، بسترها بخُمُرِهِنَّ أى : بأغطية رءوسهن ، ولا يظهرن زينتهن الداخلية إلا لأزواجهن أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوتهن ، أو أبناء إخوتهن ، أو أبناء أخواتهن ، وهؤلاء غير متساوين فى النظر ، فالأزواج ينظرون ماشاءوا من أجسادهن وما عليها ، أما غيرهم ؛ فلا ينظرون منهن إلا مايبدو عند المهنة .

ويباح لهن إبداءُ مثل ذلك للنساء المؤمنات ، أما الكوافر فهن مثل الرجال الأجانب فى نظر الوجه والكفين وظاهر الثياب دون سواها ، وقيل : مثل المحارم فى نظر مايبدو عند المهنة ، كما يباح للنساء المؤمنات إبداءُ مايظهر عند المهنة للرجال الذين يتبعون البيوت ، ليصيبوا من طعام أهلها وبرهم ، ولا يشتهون النساء ، كالرجال الواغلين فى الشيخوخة ، الذين فقدوا الحاجة إلى فراش النساء ، وكالممسوح والأبله ، أما التابعون من ذوى الإربة والحاجة إلى النساء ، فلا ينظرون من المرأة أكثر من وجهها وكفيها ، وظاهر ثيابها الفضفاض كسائر الأجانب .

ويباح للنساء المؤمنات أيضا إبداءُ زينتهن للأطفال الذين لايفهمون عورات النساء ووظيفتها ولا يدركون الفوارق بين العورات ، ولا يفهمون الغرض مما تبديه المرأة من مظاهر أنوثتها .

ويحرم عليهن أن يضربن الأرض بأرجلهن ، ليسمع الناس جلجلة خلاخيلهن ، ويعرفوا ماتخفينه من زينتهن فإن ذلك يوهم رغبة المرأة فى الصلة بهم ، ويطمعهم فى غشيان بيتها .

وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون جميعا ؛ من مختلف الذنوب والمعاصى ، لعلكم بالتوبة تظفرون برضوان رب العالمين .

(وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ) : الأيامى جمع أَيِّم ، وهو من لا زوج له ذكرا كان أو أنثى ، سبق له الزواج أو لم يسبق ، وإنكاحهم تزويجهم .

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ) : المراد بهم من يصلحون للقيام بحقوق النكاح من عبيدكم وجواريكم .

(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : كثير الرزق والإنعام .

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا) : وَليجتهد فى العفة من لايجدون أسباب النكاح.

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ) : وَالمماليك الذين يريدون مكاتبتكم على العتق فى مقابل عوض يؤدونه لكم ، فكاتبوهم وتعاقدوا معهم .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ) : ولا تكرهوا إماءكم على الزنى .
(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) : أى إن أردن تعففا .
(فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإن الله من بعد إكراهكم لهن غفور لهن رحيم بهن ، حيث يعفو عنهن لأنهن مكرهات على البغاء .

التفسير

٣٢ـ (وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

لما نهى الله عما يفضى إلى السفاح المخل بالنسب ، عقبه بالحث على النكاح منعا من الانحراف إلى الإثم ، وحفظا لطهارة النسب ، والخطاب فى الآية موجه إلى الأولياء والسادة ، فالأولياء مطالبون بتزويج الحرائر والأحرار بعد استئذانهم أو التماسهم ، ولابد فى إذن الثيب الحرة أن يكون صريحا ، أما البكر فيكفى صمتها مع الرضا ، ويباشر الحر البالغ عقده بنفسه ، ويباشر الولى العقد عن موليته عند الأكثرين ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لانكاح إلا بولى» .

والسادة مكلفون بتزويج عبيدهم وإمائهم الصالحين إن طلبوا ذلك ووجد السادة فيهم خيرا ، وأمر السادة بإنكاح أرقائهم الصالحين على التجويز والإباحة عند الأكثرين كما ذكره القرطبى فى المسألة الرابعة .

والنكاح مباح عند الشافعية ، فإنه قضاء لذة كالأكل والشرب ، مالم توجبه الضرورة كخوف العنت ، أى : الزنى ، ومستحب عند الحنفية والمالكية ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : «فمن رغب عن سنتى فليس منى» مالم توجبه الضرورة كما تقدم ، وفى المسألة تفصيلات مفيدة عند الفقهاء فليرجع إليها من شاء .

والمراد من صلاح العبيد والإماء معناه اللغوى ، وهو : صلاحهم للقيام بحقوق النكاح ، وقيل : المراد صلاحهم الدينى ، ليكونوا جديرين بعناية مواليهم وإشفاقهم عليهم .

ثم بين سبحانه أن الفقر فى الخاطب أو المخطوبة لا يمنع من المناكحة ، فإن المال غاد ورائح ، ولا حرج على فضل الله فى أن يغنى الفقير ، ولهذا زوج النبى -صلى الله عليه وسلم- امرأة برجل فقير لايملك ولا خاتما من حديد ، على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن .

وجنح بعض المفسرين إلى أن الآية وعد من الله بالإغناء ، لكن ذلك مشروط بمشيئة الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى : «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[1] .

ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : للإيذان بأنه لاينبغى عدم اليأس من فضل الله فإنه سبحانه ذو سعة فى الغنى والقدرة فلا حرج على فضل الله - عليم بأحوال عباده ، يمنحهم من رِفْدِهِ ماعلمَ أنه يصلح من أمرهم .

والمعنى الإجمالى للآية : وزوِّجُو أيها الأولياءُ من تتولون أمرهم من الحرائر والأحرار غير المتزوجين إن طلبوا ذلك ، ولا تمنعوهم حقهم فى سنة الله وفى إعفافهم ، وزوجوا الصالحين للنكاح من عبيدكم وإمائكم ، والفقر ليس بمانع من زواج الأحرار ، إن يكونوا فقراء فالله قادر على أن يغنيهم من فضله إن شاء ، والله واسع الغنى والقدرة ، عليم بأحوال عباده فلا يخفى عليه محتاج ، ولا تضيق موارد رزقه على الفقراء ، فهو كافل الأرزاق لجميع مخلوقاته .

٣٣- (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . .) الآية .

تتضمن هذه الآية ثلاثة آداب للمؤمنين ، أولها : فيمن لايجد أهبة النكاح ، وثانيها فى حث السادة على مكاتبة أرقائهم ومساعدتهم إن علموا فيهم خيرا ، وثالثها فى منعهم من إكراه إمائهم على البغاء ، وفيما يلى الكلام على الجزء الأول من الآية .

المراد من كونهم لايجدون نكاحا : أنهم لايجدون أسبابه من مهر ونفقة[2] ، وقد

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

(٢) وهو إما من إطلاق النكاح على ما تنكح به المرأة من مهر ونفقة، كإطلاق اللباس على ما يلبس ، واللحاف على ما يلتحف به ، أو بتقدير مضاف .

طلبت الآية ممن لايجدون أسباب النكاح مع توقانهم إليه ، أن يجتهدوا فى العفة والبعد عن الزنى ، وذلك بالاستعانة بالصيام كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاءٌ »[١]

أو بالاستعانة بالصبر حتى يغنيهم الله من فضله فيتزوجوا ، وذلك خير لهم من الإقدام على الزواج مع الفقر ، انتظارا لفضل الله حسب وعد الله فى الآية السابقة ، فإنه وعد مشروط بمشيئة الله تعالى ، فإن شاء حققه وإن لم يشأْ لم يحققه ، حسبما تقتضيه حكمته تعالى ، وقد أمر الله بالسعى فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[٢]

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِىَ آتَاكُمْ) :

هذا هو الجزءُ الثانى من الآية ، وهو تأْديب وإرشاد منه تعالى للسادة فى حق أرقائهم أَن يكاتبوهم ذكورا كانوا أَو إناثا على العتق فى مقابل جُعْل يؤُدونه لسادتهم مُنَجَّماً ، أَو مرة واحدة فى آخر مدة الكتابة أَو نحو ذلك .

وصورةَ المكاتبة أَن يقول السيد لمملوكه : كاتبتك على أَن تؤَدى مائة دينار مثلا ، فإذا أَديتها عتقت ، فيقبل العبد ، وهذا القول يسمى مكاتبة وإن لم يكتب فى سجل لأَنها بمعنى المعاقدة والعهد ، كما فى قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أَى : عقد على نفسه عهدا بذلك ، وقيل : سمى بذلك لأَنه مما يكتب .

والمكاتبة إسلامية الأصل ، فلم تكن فى الجاهلية كما نقله الخفاجى عن الدميرى وكذا قال ابن حجر ، وأول من كاتبه المسلمون؛ عَبْدٌ لعُمر يسمى أَبا أُمية[٣] ، وقيل: نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صبَيح ، طلب من مولاه أَن يكاتبه فأَبى،

---

(١) من حديث أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) سورة الملك من الآية : ١٥

(٣) انظر الآلوسى .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فكاتبه حويطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها ، وقتل بحنين فى الحرب ، ذكره القشيرى ، وقال مكى : هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بلتعة(١)

وسواءٌ أكان للآية سبب نزول أم لم يكن ، فإن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يكاتبوا أرقاءهم إن طلبوا منهم ذلك ، وعلم سيد كل عبد منه خيرا ، فإن طلبها الرقيق وأباها سيده ، فله ذلك؛ لأن إجابته ليست بواجبة بل مَنْدوبة عند أكثر العلماء - كما حكاه البيضاوى- وعَلله؛ بأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها من المعاوضات إلا عن تراض(٢) ، وقال جماعة : بوجوبها عملا بظاهر النص ، ومنهم عكرمة وعطاء وعمرو بن دينار ، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، واختاره الطبرى ، واحتج داود أيضا بأن سيرين والد محمد بن سيرين ، سأل أنس بن مالك المكاتبة وهو مولاه فأبى أنس ، فرفع عمر عليه الدِّرة فكاتبه أنس ، قال داود : وما كان عمر ليرفع عليه الدرة فيما لايباح له أن يفعله .

والمراد بعلم السادة الخير فى أرقائهم : أن يعرفوا فيهم الدين والقدرة على الاكتساب والوفاء بما تعاقدوا عليه مع سادتهم ، وكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس - يعنى صدقاتهم - وبعث عمر بن الخطاب إلى عامله عُمَيْر بن سعد أن ينهى المسلمين أن يكاتبوا أرقاءهم على مسألة الناس ، وكرهه الأوزاعى ، وأحمد ، وإسحاق ، ورخص فيه مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعلىٌّ -رضى الله عنه- وفى رواية أخرى عن مالك : أنه كره مكاتبة الأمة التى لاحرفة لها لما تؤدى إليه من فسادها .

وقد رد من قال بجواز مكاتبة من لاحرفة له على المانعين بحديث روته الصحاح عن عائشة -رضى الله عنها- قالت : (دخلَتْ علىَّ بريرة فقالت : إن أهلى كاتبونى على تسع أَوَاقٍ فى

---

(١) انظر القرطبى .

(٢) وقال القرطبى : إن تعليق الأمر بالكتابة على شرط أن يعلم السيد أنَّ فى العبد خيرا يصرفه عن الإيجاب لأن الخير أمر باطنى لا سبيل إلى علمه يقينا فللسيد أن يقول : لم أعلم فيك خيرا فيرجع إلى قوله . انظر المسألة الثالثة فى القرطبى .

تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعينيني...) الحديث ، ففيه دليل على مكاتبة الأمة وهي لا حرفة لها ، ولم يسأل النبي – صلى الله عليه وسلم – هل لها حرفة أم لا ؟ ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ، لأنه بعث مبينا معلما[١] .

وظاهر الآية صحة المكاتبة على تنجيم المال – أي : تقسيطه – وعلى دفعه كله حالاً أو مؤجلا ، وبهذا أخذ الحنفية ، أما الشافعية فقد أوجبوا تنجيمه بنجمين فأكثر ، فلا تجوز عندهم بدون أجل ، أما الكتابة على مال حال فلا تجوز عندهم ، لأن الرقيق لا مال له ، فكيف يكاتب على ما يتعذر عليه دفعه ، فيكون ذلك سببا لعودته إلى الرق .

وقد طلب الله إلى الموالى أن يبذلوا لأرقائهم الذين كاتبوهم شيئا من أموالهم ، وفى معناه حَطُّ شيء من مال الكتابة ، وهو للوجوب عند الأكثرين ، ويكفى فيه أقل متمول ، وعن على – رضى الله عنه – : يحطِ الربع ، وقيل : يحط الثلث ، وقيل : هذا أمر لكافة المسلمين بإعانة المكاتبين ، وإعطائهم سهمهم من الزكاة ، ويَحلُّ للمولى وإن كان غنيا ، لأنه لا يأخذه صدقة – كالدائن والمشترى[٢] .

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

المراد من الفتيات هنا : الإماء ، وسبب نزول هذا النهى ؛ ما أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر – رضى الله عنه – أن جارية لعبد الله بن أُبى بن سلول يقال لها : مُسَيْكَة ، وأُخرى يقال لها : أُمَيْمَة كان يكرههما على الزنى ، فشكتا ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : كان لعبد الله بن أُبَىٍّ جاريةٌ تدعى مُعَاذة ، فكان إذا نزل ضيف أرسلها له ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له ، فأقبلت الجارية إلى أبى بكر – رضى الله عنه – فشكت ذلك إليه ، فذكره أبو بكر للنبى – صلى الله عليه وسلم – فأمره بقبضها ، فصاح عبد الله بن أُبَىٍّ من يعذرنى من محمد يغلبنا على مماليكنا ؟ فنزلت ،

---

(١) انظر المسألة الخامسة فى القرطبى .
(٢) انظر البيضاوى .

وروى : كانت له ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأُميمة ، وعَمْرَة ، وأَرْوَى ، وقُتَيْلَة ، يكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، وروى عن على وابن عباس أَنهم كانوا فى الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنى ، ويأْخذون أُجورهن فنهوا عن ذلك فى الإِسلام ، إلى غير ذلك من الروايات والآية عامة الحكم وإن نزلت بسبب خاص .

وليس قوله تعالى : « إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » شرطا لتحريم الإِكراه فى الحقيقة ، فإِن الإِكراه على الزنى حرام فى كل حال ، بل المراد منه تهويل جريمة سادتهن ، حيث أَكرهوهن على الزنى مع رغبتهن فى العفة ــ كما جاء فى سبب النزول[1] .

والمعنى الإِجمالى للآية : وليجتهد فى العفة وكبح النفس عن شهواتها ، من لا يجدون أَسباب النكاح من صداق أَو نفقة أَو زوجة مناسبة لحالهم ، أَو مسكن يؤويهم وذلك بالاشتغال بتقوى الله ، وليصبروا حتى يغنيهم الله من فضله ، وعليهم أَن يأْخذوا فى أَسباب الغنى ليغنِيَهم الله تعالى فيتزوجوا عن غنى ، والأَرقاءُ الذين يرغبون فى أَن يكاتبهم سادتهم على العتق فى مقابل جُعْلٍ يبذلونه لسادتهم ، فعلى هؤلاءِ السادة أَن يكاتبوهم إن عرفوا فيهم خيرا فى الدين وقدرة على السداد ، ووفاءً بالعقد ، وأَن يعطوهم من مال الله الذى آتاهم ، ولو بالنزول عن بعض العوض الذى كاتبوهم عليه ، وليساعدهم المؤمنون ببعض زكاة أَموالهم أَو بالتصدق عليهم .

ولا تكرهوا ــ أَيها المسلمون ــ جواريكم على الزنى إن أَردن تعففاً ــ كما فعله بعضكم ــ يبتغون بذلك متاعا فاسداً من متاع الحياة الدنيا ، ومن يكرههن على الزنى ، فإِن الله من بعد إِكراههن غفور لهن رحيم بهن ، لأَنهن مُكْرَهَاتٌ عليه ، أَو غفور رحيم للتائبين من السادة الذين أَكرهوهن .

٣٤ ــ (وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) :

هذا كلام مستأْنف جيءَ به لبيان وضوح الآيات السابقة وجلالة قدرها ، وصدر بلام القسم وقد ، لإِبراز كمال العناية بشأْنه ، أَى : وبالله لقد أَنزلنا إليكم فى هذه السورة

(١) ومما قيل فى الجواب عن قوله تعالى : « إن أردن تحصنا » : أنه شرط لا مفهوم له ؛ حيث أبطله الإجماع على تحريم الإكراه على البغاء مطلقا

الكريمة آيات موضحات لما تحتاجون إلى إيضاحه من الحدود وسائر الأحكام والآداب ، وأنزلنا إليكم مثلا من قبيل أمثال الذين مضوا قبلكم ، كقصة عائشة التي تماثل قصة مريم ، وقصة يوسف – عليهما السلام – حيث أسند إليهما ما أُسند إلى عائشة – رضي الله عنها – ، وأنزلنا إليكم فيها ما يتعظ به المتقون ، ويبتعدون عن المحرمات والمكروهات ، فهم المنتفعون بأنوارها وعظاتها .

وقيل : المراد بالآيات المبينات ، والمثل ، والموعظة : جميع ما في القرآن منها ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

* ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفـردات :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : الله هادى أهل السموات والأرض ، وللكلام بقية فى الشرح . ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : المشكاة : موضع الفتيلة من القنديل ، وهذا هو المعنى المشهور ، ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ : وهو الفتيلة التى تضىء ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان . ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ : كوكب مضىء متلألئ كالزُّهَرة[1] فى صفائه ولمعانه . . .

---

(١) الزهرة – بضم الزاى المشددة وفتح الهاء – : نجم قوى النور عظيم التألق واللمعان .

(مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) : من شجرة كثيرة الخير . (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) : أى أنها مكشوفة للشمس شرقاً وغرباً ، فليست شرقية فحسْبُ ، ولا غربية كذلك فتحرم من ضوء الشمس فى أيهما – وسيأتى بسط الحديث فيها .

(وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : ويبين الله الأشباه والنظائر لهم .

التفسير

٣٥ – (اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . . .) الآية .

منذ بدأت هذه السورة ؛ ونحن نرى فيها نور الهدى والرشاد ، فقد رأينا فيها آيات بينات تحمى الأعراض ، وتصون الأنساب ، وتزجر المعتدين عليها بما فرضته من عقوبات ، كما رأينا آيات كريمة تحث على صيانة الألسنة عن قالة السوء فى المؤمنين والمؤمنات ، وعقوبة القاذفين لهم ، وقرأنا فيها آيات الاستئذان على البيوت ، وتحريم دخولها دون استئذان ، ووجوب غض الأبصار عما يحرم النظر إليه من النساء والرجال ، إلى غير ذلك من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق .

وقد جاءت هذه الآية لتقرر أن هذه الأحكام وأمثالها : هى من نور الله وهدايته لعباده المؤمنين ، فإنها كمشكاة فيها مصباح عظيم الضياء ، فهى تضىءُ قلوب المتقين ، وتكشف الظلام عنها ، كما يكشف الكوكب الدرى الظلام بنوره .

كما جاءت لتبين أنه – تعالى – يهدى لنوره من يشاءُ ، ويضرب الله الأمثال للناس تقريرا لأحكامه وتنويرًا لهم ، لعلهم يتذكرون .

والنور فى الأصل : كيفية يدركها البصر ، ويدرك بسببها الْمبْصَرَاتِ ، مثل الكيفية التى تنبعث من الشمس والقمر على الأجرام الكثيفة المقابلة لهما ، أو من المصباح على ماحوله ، والنور بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ؛ لأن النور مدرك بالأبصار ، والله تعالى يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ » وبالجملة فالله تعالى منزه عن الجسمية والكيفية ولوازمهما ، ولعدم صحة إطلاق النور بمعناه اللغوى المذكور على الله تعالى ، اختلف العلماءُ

فى تفسيره فى الآية ، فمنهم من فسره بالهداية ، مراعاة لسياق الآية مع ما قبلها ، وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس - رضى الله عنهما - فقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات : عن ابن عباس أنه قال : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : هادى أهلهما . قال الآلوسى : وهذا وجه حسن : انتهى . ونرى أن هذا الرأى مناسب لما سبق وما لحق من الآيات ، ويكون إطلاق النور على الله - تعالى - فى هذا الرأى على سبيل المجاز .

وقال آخرون : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » معناه : مَنَوِّرهُمَا ، فإطلاق النور على الله تعالى بهذا المعنى على سبيل التجوز أيضاً ، كما تقول : زيد عَدْلٌ ، بمعنى : عادل ، على سبيل المجاز ، ويرشح هذا المعنى أنه قرأ بعض القراء : (اللَّهُ مُنَوِّر السمَآءِ وَالأَرْضِ) .

وقد نورهما الله - تعالى - بالكواكب والنجوم ، حيث جعلها تلقى أشعتها على الأجرام المقابلة لها ، كما نوّر الأرض بالمصابيح التى هدى عباده إلى اختراعها على اختلافها قوة وضعفاً ، وكِبَرا وصِغَرا ، وطولا وقِصَرا .

ويتناول النور على الوجه الأول وحيه - تعالى - إلى ملائكته وأنبيائه ، وهداية كل شئ لما خلق له ، كما قال - تعالى - حكاية لما قاله موسى لفرعون : « رَبُّنَا الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »[1] وفى هذا الجزء من الآية آراءٌ أُخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) : المقصود من النور هنا : الهدى القلبى الناشئُ عن النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وعن التأثر بمواعظ القرآن العظيم ، وسنة النبى الكريم ، فإن الهدى الناجم عن ذلك يذهب بظلمات الحيرة والشك والوسوسة التى تغشى القلوب ، ويحِلُّ محلها الإيمان الذى لا تهزه العواصف ، ولا تقصفه الرياح القواصف ، ومَثَله فى ذلك مثل النور الحقيقى الذى تنجاب

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠

به الظلمات ، وتَبينُ به المرئيات على حقائقها ، والضمير فى « نُورِهِ » عائد إلى الله ـ تعالى ـ [1] فإن الهدى هداه « وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » .

والنور بهذا المعنى هو المشبه بالمشكاة ، وهو الذى جنح إليه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ؛ فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس أنه قال : « مثل نوره : مَثَل هداه فى قلب المؤمن » وبه قال أنس ، أخرج ابن جرير عنه أنه قال : (إلهى يقول : نُورى هُدَاى) ونقل الآلوسى أن تفسيره بالهدى هو اختيار الأكثرين ، والمشكاة : هى موضع الفتيلة من القنديل ، وقد نقله ابن كثير عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وغيرهما ، وقال : إنه هو المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو الذُّبَالَةُ [2] التى تضىءُ ، وقيل : هى الكُوة فى الحائط غير نافذة ، وعزاه القرطبى إلى الجمهور ، وقال : إنها بهذا المعنى أجمع للضوء ، ونقل القرطبى عن مجاهد أنها هى القنديل ، وقد اشتهرت بهذا المعنى فى عصرنا ، وتفسير المتقدمين للمصباح بالزبالة ، أى : فتيلة القنديل ، ملاحظ فيه أن المصابيح فى هذا الزمان كانت كذلك ، ولهذا جاء فى النص الكريم أن هذا المصباح « يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ » .

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن هذا المصباح فى زجاجة ، وهى القنديل ، وقد وصف الله زجاج القنديل بالصفاء والزُّهْرَة الفائقة ، حيث قال : « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ » ومن هذا القنديل الشفاف ينفذ ضوءُ المصباح إلى ما حوله .

والمراد بالكوكب الدرى : أحد الكواكب التى يطلق عليها العرب الدرارىّ ، مثل : المشترى ، والزهرة ، وهى منسوبة إلى الدُّرّة ، لبياضها وزُهْرَتِها وحسنها .

وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى يحتمل معنيين : أحدهما : أنها بما فيها من المصباح تشبهه ، وثانيهما : أنها لصفائها وجودة جوهرها تشبهه ، قال القرطبى : وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور .

---

(١) أجاز بعض العلماء رجوع الضمير إلى المؤمن ، وروى ذلك عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه كما روى عن أبى بن كعب ، وكان يقرأ : (مثل نور المؤمن) وهناك أقوال أخرى فى مرجع الضمير ، فقيل : هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل : هو القرآن ، وما ذكرناه من رجوعه إلى الله هو الموافق لظاهر النص القرآنى .

(٢) أى : الفتيلة .

وقد بين الله أن هذا المصباح (يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) : أى يوقد من زيتها ، والمقصود بها : الجنس من شجرة الزيتون ، وبركتها إما كثرة منافعها ، وإما لأنها تنبت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين ، وعلى أى حال فهى كثيرة المنافع ، روى عن ابن عباس أنه قال : فى الزيتونة منافع : يسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ووقود ـ يوقد بحطبه وتُفْلِه ـ وليس فيه شئ إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد يُغْسَل به الإبريسم . . . إلخ . والإبريسم : الحرير .

وقد جاء فى زيتها حديث أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وابن ماجه ، عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قال : « ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

وقد وصف الله تعالى الزيتونة بقوله : (لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) :فأما كونها غير شرقية وغيرغربية ،فالمقصود : أنها مكشوفة للشمس ، لايحجبها عنها جبل ولا شجر ، من حين تطلع حتى تغرب ، وذلك أحسن لزيتها ، فهى ليست خالصة للشرق حتى يقال فيها : شرقية ، ولا خالصة للغرب حتى يقال فيها : غربية ، بل هى شرقية غربية .

وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن شجر الشام لاشرق ولا غربى ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهو الأرض المباركة . وهذا رأى حسن .

وقد وصف الله زيتها بقوله : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » تأكيدا لصفائه وجودة النور المنبعث عنه ، وبهذا الوصف اكتملت الأنوار للمشكاة ، فكانأمرها كما قال تعالى : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) : فقد اجتمع فيها ضوءُ المصباح إلى ضوءِ الزجاجة إلى ضوءِ الزيت ، فكانت كأنْوَر ما يكون ، فكذلك براهين الله ـ تعالى ـ واضحة تستضئ بها القلوب وتهتدى ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، والوعظ المتكرر ، وآيات الله فى الأنفس والآفاق .

ولما كان الناس مختلفين فى معرفة الهدى والرشاد ، متباينين فى إدراك الحق والضلال ، عقب ذلك بقوله : (يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ) : أى يوفق الله لإصابة الحق ومعرفته والاستجابة إليه - يوفق - من يشاءُ من عباده ، ممن حسنت نيته ، وطابت طويته ، وذلك بإلهامه الاقتناع به ، وشرح صدره إليه ، بعد أن وفقه إلى حسن النظر فى آياته التى نور الله بها السموات والأرض ، وفيما أنزل على رسوله من نور القرآن كما قال - تعالى - : «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » حتى اطمأن بها فؤاده ، واهتدى إلى الحق والرشاد . وفى ربط الهداية بمشيئة الله - تعالى - إيذان بأن مناطها هو مشيئته ، وليست الأسباب وحدها ، فهو أعلم بمن يستحقها ، قال الشاعر :

إذا لم يَكُ التوفيق عونا لطالب طريقَ الهدى أعيت عليه مطالبه

أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصابه يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله - عز وجل - » .

وقد ختم الله الآية بما يدل على أن إطلاق لفظ ؛ (النور) على الآيات والبراهين من قبيل ضرب الأمثال ، فقال - سبحانه - : (وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) : أى يبين الله الأشباه والنظائر من الحسيات ، تمثيلا للمعانى عند إرادته - تعالى - هداية الناس وإرشادهم إلى الحق - كالذى جاء فى الآية من تشبيه ما تحدثه الآيات من نور الهدى فى القلوب ، بنور المشكاة ؛ لما لها من الأثر العظيم فى إرشاد الخلق إلى الحق .

وختم الآية بقوله - سبحانه - : (وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) أى : أنه - تعالى - يعلم الأشياء جميعها حقائقها ومَجازاتها ، وما ينبغى التعبير عنه بأُسلوب المجاز ، وما ينبغى التعبير عنه بأُسلوب الحقيقة ، كما يعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

أخرج الإمام أحمد بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « القلوب أربعة : قلب أجْرَد ، فيه مثل السراج يزْهر ، وقلب أغْلَف ، مربوط على

غلافه ، وقلب مَنْكوس ، وقلب مصْفَح ، فأَما القلب الأَجرد[١] ، فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ، وأَما القلب الأَغلف ، فقلب الكافر ، وأَما القلب المنكوس ، فقلب المنافق — عرف ثم أَنكر — وأَما القلب الْمصْفَح[٢] ، فقلب فيه إِيمان ونفاق ، ومَثَل الإِيمان فيه كمثل البَقْلة يمدها الماءُ الطيب ، ومَثَل النفاق فيه كمثل القَرْحَةَ يمدها القيح والدم ، فأَى الْمَدَّتَيْنِ غلبت على الأُخرى غلبت عليه » قال ابن كثير : إِسناده جيد .

المعنى الاجمالى للآية :

الله هادى أَهل السموات إِلى معرفته ومعرفة ماتستقيم به مصالحهم ، وما يحققون به ماوُكل إِليهم ، مَثَل هدايته خلقه إِلى ذلك ، كمثل نور مشكاة فيها مصباح مضىءٌ . وهذا المصباح داخلَ زجاجة تشبه فى صفائها وقوة شعاعها الكوكب الدرى ، وهو يوقد من زيت شجرة مباركة كثيرة المنافع ، هى شجرة الزيتون ، تلك الزيتونة تتمتع بضوء الشمس وحرارتها فى مشرقها ومغربها فيجود بذلك زيتها ، وقد بلغ من شدة صفاء هذا الزيت أَنه يكاد يضىءُ ولو لم تمسسه نار وقد أَصبح نور المشكاة بذلك مضاعفاً ؛ فهو نور فوق نور ، يهدى الله للانتفاع بهداه من يشاءُ ممن رق حِسُّه ، وحسن استعداده ، وطابت سريرته ، دون من عداه ممن لم يكترث بهداه ، ويضرب الله الأَمثال الحِسِّية للناس حين يهديهم إِلى الحق والخير ، لعلهم يهتدون إِلى ما أَرشدهم إِليه مما ينفعهم فى أُخراهم ودنياهم ، فتستنير قلوبهم وتصفو أَرواحهم

(١) المراد من كونه أجرد : أنه على أصل الفطرة ، فنور الإيمان يزهر فيه .

(٢) المصفح : الذى له وجهان ، يلقى أهل الإيمان بوجه ، وأهل الكفر بوجه ، وصفح كل شىء : وجهه وناحيته .

(فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ) : المراد بها المساجد ، والإذن برفعها : الأمر برفع شأنها وتعظيمها . (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : الغُدوَةُ أول النهار ، والغُدُوُّ : الإقبال فى الغُدْوة ، والآصال : جمع الأصيل ، وهو آخر النهار . (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) : تضطرب فيه من شدة الهول . (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) : أحسن جزاء ما عملوه .

التفسير

٣٦ - (فِي بُيُوتٍ[1] أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أن هدايته لعباده إلى معرفته تشبه مصباحا فى زجاجة جاء بهذه الآية ليبين أثر هدايته لهم ، وهو تسبيحهم إياه فى بيوت أذن برفعها ، ونقاء سيرتهم وسريرتهم ؛ فهى استئناف مبين لأثر الهداية فيهم .

---

(١) (فى بيوت) متعلق بـ (يسبح) ولفظ : (فيها) تكرير لقوله : (فى بيوت) جيء به للتأكيد والتذكير بما تقدمها ، والإيذان بأن التقديم للاهتمام لا للحصر .

والمراد بالبيوت : المساجد مطلقاً ، وقيل : هى المساجد الأربعة التى لم يَبْنِها إلا نبى[1] ، وهى : الكعبة ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء ، وبيت أريحا[2] ، حكاه القرطبى فى آخر المسألة الأولى عن ابن بريدة ، وعقبه بقوله : الأظهر الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من أحب الله – عز وجل – فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ، ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ؛ فإنها أَفْنِيَةُ الله ، أبنيته أذن الله فى رفعها ، وبارك الله فيها ، ميمونةٌ ميمونٌ أهلها ، محفوظة محفوظ أهلها ، هم فى صلاتهم ، والله – عز وجل – فى حوائجهم ، هم فى مساجدهم ، والله من ورائهم » .

والمراد من إذن الله برفعها : أمره بتعظيمها ، وذلك بتطهيرها من الأقذار والنجاسات ، ومنع الجنب والحائض والنفساء من دخولها ، ومنع البيع والشراء ورفع الصوت فيها ، والامتناع عن أكل ذى ريح كريه قبيل دخولها ، وفى المسألة كلام طويل يطلب من الموسوعات من كتب الفقه والتفسير .

وحمل بعض المفسرين رفعها على رفع بنيانها ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » وبه قال مجاهد وعكرمة ، وفى بناء المسجد يقول النبى – صلى الله عليه وسلم – : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن عثمان بن عفان .

وهل يجوز تَزيين المساجد ونقشها ؟ قال القرطبى فى المسألة الثالثة : اختلف فى ذلك ، فكرهه قوم ، وأباحه آخرون ، واستند من كرهه إلى قوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا تقوم الساعة حتى تتباهى الناس فى المساجد » أخرجه أبوداود بسنده عن أنس . وفى البخارى : وقال أنس : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا » .

واستند من قال بإباحتها إلى أن فيها تعظيم المساجد ، والله أمر بتعظيمها بقوله : « فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ » وروى عن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – (أنه بنى مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالساج وحسنه) .

---

(١) وهذا هو رأى ابن زيد ، أخرجه ابن أبى حاتم عنه – انظره فى الآلوسى ولعله تصحيف لابن بريدة لينفق مع ما ذكره القرطبى عنه كما سيجىء .

(٢) المراد به : بيت المقدس ، بناه داود وسليمان – عليهما السلام –

والساج : شجر ينبت ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد تبليه الأرض .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب ، وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبى - صلى الله عليه وسلم - وبالغ فى عمارته وتزيينه ، وذلك فى زمن ولايته المدينة قبل الخلافة ، ولم ينكر عليه أحد .

ومن تعظيم المساجد : الدعاء عند الدخول والخروج ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى أسيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ومن تعظيمها : صلاة ركعتين لله تعالى قبل الجلوس ، روى مسلم عن أبى قتادة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » .

والمراد بالتسبيح فيها بالغدوّ والآصال : الصلوات فيها بالغُدوَات ، أى : أوائل النهار ، وبالعشيّات : أواخره ، وقيل : المراد به : تنزيه الله ومراقبته والاشتغال بطاعته .

والغدوُّ فى الأصل : مصدر ، أُطلق مجازا على وقته ، ولذا حسن اقترانه بالآصال ، جمع : الأصيل ، وهو : العشىُّ ، وسيأتى المعنى الإجمالى لهذه الآية مع الآيتين بعدها ، لشدة اتصالها بهما .

٣٧ - (رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ . . .) الآية .

رجالٌ : فاعل لقوله : (يُسَبِّحُ) فى الآية السابقة ، وخص الرجال بالذكر ؛ لأن النساء لا حَظَّ لهن فى المساجد ؛ إذْ لا جمعة عليهن ولا جماعة ، وصلاتهن فى بيوتهن أفضل ، أخرج الإمام أحمد ، والبيهقى : عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « خير مساجد النساء قَعْر بيوتهن » فإن صلين فى المساجد ابتعدن عن أسباب الفتنة ، فقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله - صلى الله

عليه وسلم ــ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمَسّ طيباً » وفى الصحيحين عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : « كانت نساءُ المؤمنين يشهدْن الفجر مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن » وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : « لو أدرك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما أحدث النساءُ لَمَنَعَهُن المساجدَ ، كما منعت نساء بنى إسرائيل » انظر ابن كثير .

وذِكْر البيع بعد التجارة مع شمولها له ؛ لأنه أقوى نوعيها فى الإلهاء عن الصلاة لحرص التاجر عليه طلباً لربح عاجل ، أو دفعاً لخسارة منتظرة ، أو سداداً لدين ، أو جلْبا لرزق ناجز ، بخلاف الشراء فإن الأَناة فيه أكثر ؛ إذ الربح فيه متوقع وليس بناجز ، وقيل : المراد بالتجارة : الشراءُ ، فإنه أصلها ومبدؤها ، وقيل : الجلب سفرا ، ومنه يقال : تَجَر فى كذا ، إذا جلبه ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال فى هؤلاء الموصوفين بما ذكر : «هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

والمقصود من أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : أنهم يُلَبُّون نداءَ الصلاة جماعة ويتركون البيع والشراء ، روى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودى بالصلاة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه : « رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ » رواه ابن جرير الطبرى .

وروى عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أنه كان فى السوق فأُقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : « رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ » رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقد جاءَ فى مثل ذلك أخبار كثيرة[1] .

---

(١) انظر ابن كثير وغيره .

والمراد من تقلب القلوب والأبصار فى يوم القيامة : اضطرابها من الهول ، أو تقلب أحوالها فتفقه ما لم تكن تفقه ، فتؤمن بعد الكفر حيث لا ينفعها الإيمان ، وفى هذا المعنى يقول المولى سبحانه : « فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

٣٨ - (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

« لِيَجْزِيَهُمْ » : متعلق بفعل يتضمن طاعاتهم السابقة ، أى : يفعلون كل ما تقدم من تسبيحهم لله فى المساجد ، وصلاتهم فيها كلما سمعوا النداء إليها ، وإيتائهم الزكاة لمستحقيها ، وبخوفهم من يوم الحساب ، يفعلون كل ذلك ليجزيهم الله أحسن ما عملوا . . . . إلخ .

المعنى الإجمالى للآيات الثلاث : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ما يلى :

يسبح لله تعالى فى مساجد أمر الله أن تعظم بالصيانة والنظافة ، ويذكر فيها اسمه - يسبح له فيها - رجال استنارت قلوبهم بمشكاة الهدى ، فأصبحوا لاتلهيهم ولا تشغلهم دنياهم عن ذكر الله ، وإقام الصلاة فى أوقاتها جماعة كلما سمعوا النداء إليها ، كما لا تشغلهم عن إعطاء الزكاة لمستحقيها فى مواقيتها ، يخشون يوماً رهيباً تضطرب فيه القلوب والأبصار كما قال الله تعالى : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » وذلك من هول ما رأوا من الشدائد والتغيرات الكونية حيث « تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

يسبح لله هؤلاء الرجال فى المساجد خائفين من يوم الوعيد ؛ لكى يجزيهم الله فى الجنة أحسن جزاء لما عملوه فى دنياهم ، حسبما وعدهم الله تعالى على لسان رسوله ، ويزيدهم من الثواب فوق ما وعدهم مما لم يخطر لهم ببال ، والله يثيب من يشاء من عباده المتقين رزقاً واسعاً ، دون أن يحاسبه أحد على ما أعطى ؛ فهو الرزاق ذو القوة المتين .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) : السراب - كما عرّفه المتقدمون -: ما يُرى فى الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيُظَنُّ أنه ماءٌ يسرب ، أى : يجرى . والقيعة : هى القاع وهو الأرض المستوية الخالية من النبات[1] ، وسيأْتى لذلك مزيد بيان .

(وَجَدَ اللهَ عِندَهُ) : وجد الظمآن قضاء الله عند السراب .

(فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ) : أى عميق ، كثير الماء ، منسوب إلى اللُّجِّ واللُّجةِ ، وكلاهما معناه : الماءُ الكثير البعيد القاع . (يَغْشَاهُ مَوْجٌ) : يغطى البحر موج ، مأْخوذ من الغشاء ، وهو الغطاء .

التفسير

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . . .) الآية .

---

(١) انظر تفسير البيضاوى .

لما ضرب الله مثل المؤمنين فيما تقدم ، عقبه بضرب مثل الكافرين هنا وفى الآية التالية وهذه الآية معطوفة على ماقبلها ، من عطف المَثل على المَثَل ، والقصة على القصة ، كأنه قيل : مثل المؤمنين فى حالهم ومآلهم كما وُصِفَ ، ومثل الذين كفروا أعمالهم كسراب . . . إلخ .

ويقول مقاتل : إن هذه الآية نزلت فى شيبة بن ربيعة ، كان يترهب متلمسا الدين فلما خرج - صلى الله عليه وسلم - كفر شيبة ، ذكره القرطبي ، وسواءٌ أكان هذا هو السبب أم غيره ، فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والسراب - كما عرفه المتقدمون - : بخار رقيق يرتفع من قاع القيعان تحت تأثير الشمس ، فإذا اتصل به ضوءُها أشبَهَ عند من يراه من بعيد الماءَ السارِبَ ، أى : الجارى ، وقيل : هو ما ترقرق من الهواء فى الهجير بِفَيَافى الأرض المنبسطة ، ويشبه فى لمعانه الماء ، وليس بماءٍ .

وفى خداع السراب يقول الشاعر فى تشبيه العهود الخادعة :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كَلَمْعِ سراب فى الفَلاَ متألِّقِ

ويفسره العلماءُ المعاصرون : بأنه ظاهرة ضوئية ، سببها انعكاس الشعاع المنبعث من الأجسام المضيئة ، وارتداده من سطح أرض فسيحة جرداء ، عندما ترتفع درجة حرارتها إثناء النهار ، فيتجه الشعاع المنعكس على التدريج بحذاءِ سطح الأرض ، متباعدا عنها قليلا قليلا ، حتى يصل إلى عين الراصد ، وعندها تُرَى صور الأجسام المضيئة مقلوبةً ، كما لو كانت مرآة كبيرة ممتدة[1] .

والقيعة : هى الأرض المستوية المنبسطة ، وهى مفرد ، كالقاع ، وقيل : هى جمع قاع ، كجِيرَة : جمع جار .

---

(١) انظر تعليق الخبراء على كلمة : (سراب) بالتفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين كفروا أعمالهم التى يحسبونها صالحة مرضية لله تعالى كصلة الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت الحرام ، وقِرَى الأضياف ، وغير ذلك من المبَرات – أعمالهم هذه – شبيهة فى ضياعها فى الآخرة بسراب لامع تحت ضوء الشمس فى أرض فسيحة جرداء ، يحسبه الظمآن حين يراه من بعيد يترقرق ويلمع – يحسبه – ماء يروى ظمأه ، ويطفئ لهيب عطشه ، حتى إذا جاءه حيث كان يبدو له ، لم يجده شيئاً مطلقاً ؛ لزوال الصورة التى خدعه بها السراب ، فكذلك جنس الكافر ، يحسب أنه قد عمل فى دنياه عملا نافعًا ، واعتقد اعتقادًا سديدًا ، فإذا بعث يوم القيامة ، ورأى أهوال القيامة ، اشتدت حاجته إلى عمله لينفعه وينجيه ، فلم يجد له أثرا ، وخاب ظنه فيه ، بل وجد حساب الله وافياً فى مواجهته ، ونقاشه إياه مستوعباً لعقائده الزائفة ، وأعماله الفاسدة ، وأنه تعالى لم يتقبل منه ماقدمه من أعمال البر ؛ لأنها قامت على أساس الكفر ، إلى جانب ما داخلها من الرياء والفخر والعُجْب ، فكان أمر الله معه فى تلك المبَرات كما قال – سبحانه – : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله : « وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » : للإيذان بأنه لايشغله حساب عن حساب ، فلهذا كان سريع الحساب لجميع عباده .

ويلاحظ أن تشبيه عمل الكافر بالسراب انتهى عند قوله تعالى : « لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أما قوله تعالى : « وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » فهو لبيان بقية أحواله بطريق التكملة ، حتى لايتصور أن نهاية أمره هو الخيبة والقنوط فقط – كما هو شأن الظمآن بعد أن عرف حال السراب – بل يعتريهم من سوء الحال والمآل ، مايفوق خيبة الظمآن حين يئس من الماء[2] .

ومن المفسرين من جعل هذا السراب فى الآخرة ، قال جار الله الزمخشرى : شبه الله سبحانه مايعمله غير المؤمن بسراب سوف يراه بالساهرة – يوم القيامة – وقد غلبه العطش ، فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجده ، ويجد زبانية الله عنده ، يأخذونه فيسقونه الحميم

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

(٢) انظر كتاب (إرشاد العقل السليم) .

والغسّاق . قال الآلوسى – تعليقاً على هذا الرأى – : وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، من طريق السدى فى غرائبه عن الصحابة ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وِرْداً[1] عطاشا ، فيقولون : أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم ، والله سريع الحساب » واستحسن ذلك الطيبى . . . إلى آخر ما كتبه الآلوسى فى هذا المقام .

وقد نقل ابن كثير فى هذا المعنى عن الصحيحين : « أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعملون فى الدنيا ؟ فيقولون : كنا نعبد عزيرا ابن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا ، فيقال : أَلَا تَرَوْنَ ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها »[2]

٤٠ – (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) :

(كَظُلُمَاتٍ) معطوفة بأو على (كَسَرَابٍ) وحرف (أَوْ) هنا : إما للتخيير ، فإن أعمالهم لكونها لاغية لا ثواب عليها ، تشبه السراب ، ولكونها خالية عن نور الحق ، وضوء الإيمان ، تشبه الظلمات المتراكمة من عمق البحر ، والأمواج المتتابعة فوقه ، وظلمة السحاب فأنت مخير فى تشبيهها بأيهما ، قال الزجاج : إن شئت مَثِّلْ بالسراب ، وإن شئت مَثِّلْ بالظلمات[3] .

ويصح أن تكون (أو) للتنويع ، فإن أعمالهم إن كانت حسنة فهى كالسراب فى عدم جدواها ، وإن كانت قبيحة فهى كالظلمات ، وفيها غير ما ذكرنا من الوجوه[4] ، وحسْب القارىء ما تقدم .

---

(١) الورد – بكسر الواو وسكون الراء – : القوم الذين يردون الماء كالواردة ، ومنه : المورِدة ، وهى : مأتاة الماء : (قاموس) .

(٢) البخارى : تفسير سورة النساء ، ومسلم : كتاب الإيمان .

(٣) انظر القرطبى . (٤) انظر البيضاوى .

ومعنى الآية موصولة بما قبلها ما يلى :

والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، أو كظلمات فى بحر عميق بعيد القاع ، يغطى هذا البحر موجٌ من فوقه موجٌ ، وهكذا تتتابع أمواجه ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، من فوق هذا الموج المتتابع سحاب كثيف يحجب أضواء النجوم ، فهى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، إذا أخرج من ابتلى بهذه الظلمات يده ، وجعلها قريبة من عينيه لينظر إليها ، لم يقرب من رؤيتها ، فضلا عن أن يراها ، مع أنها أقرب شىء إليه .

وكذلك كل كافر يعيش فى أعماق ظلمات كثيفة داكنة من عقيدته ، وسيئات أعماله ، لا يرى فى أثنائها بصيصا[١] من نور الهدى ، يهديه إلى سواء السبيل ، بسبب تقليده ، وخضوعه لسيطرة أئمة الكفر ، وجنوحه عمن يدعوه إلى الهدى ، قائلا له : إئتنا لتستنير بنورنا .

ويختم الله الآية بقوله : (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) : أى ومن لم يُقَدِّر الله له نورا قلبياً يهديه إلى الحق بسبب إعراضه عنه ، فليس له نور من سواه ، فيبقى فى ظلام دامس من الضلال ، كما قال تعالى : « مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ » .

أما من يقبل الهدى فإن الله تعالى يهديه بنور على نور ، حتى يثبت الحق فى بصيرته ، ويستعصى على من يضله ، كما قال تعالى : « وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » نسأل الله الرءوف الرحيم أن يملأ قلوبنا نورا ، ويجعل النور عن أيماننا وشمائلنا ، وأن يعظم لنا النور بفضله ورحمته .

(١) البصيص : البريق .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ) : الطير جمع طائر ، كصَحْب : جمع صاحب ، وجمع الجمع : طيور وأطيار ، كفرخ وفروخ وأفراخ ، وقد يقع لفظ الطير على الواحد ، كقوله تعالى : « فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ » . ومعنى : (صَآفَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) : أى كل من فى السموات والأرض والطير قد علم دعاءه وتنزيهه لله تعالى . (الْمَصِيرُ) : المرجع .

التفسير

٤١ ــ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . .) الآية .

بيّن الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى الآيات السابقة أنه هدى عباده ومخلوقاته بنور هداه إلى ما خلقوا لأجله ، وأن من لم يجعل الله له نورا يهتدى به فما له من نور .

وجاء بهذه الآية عقبها ليبين أن آثار هداه فى السموات والأرض والطير واضحة لمن يراها ويتأملها .

والهمزة فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » للتقرير بالرؤية ، والمراد بالرؤية هنا : العلم والمعرفة ، والخطاب إما أن يكون للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإما أن يكون لكل عاقل ، فإن كان للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهو يشير إلى أنه تعالى قد أفاض عليه من مراتب النور أعلاها وأجلاها ، حتى عرف من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها .

وإن كان لكل عاقل : فهو يشير إلى وضوح هدى الله فى السموات والأرض ومن فيهن لكل من يتأمل فيها ، فلولا هداه وقوانينه الكونية الدقيقة فى كل ذرة من هذا الكون لاختل نظامه ، فهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولولا إبداعه المحكم لهذا الكون ، وما أودعه فيه من أسباب الهدى إلى ما خلق لأجله ، لما رأينا هذا الكمال الناطق بنزاهته تعالى عن الشريك والنظير ، وسوء التدبير « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » .

فالمراد من التسبيح فى الآية : التنزيه عن كل ما لا يليق بالله تعالى من نقص أو خلل تنزيها معنوياً تفهمه العقول السليمة ، فإن كل موجود فى السموات والأرض ، من أجزائهما وما استقر فيهما ، أو كان سابحا وطائرا بينهما ، يدل على صانع مبدع واجب الوجود ، متصف بكل صفات الكمال ، منزه عن كل ما لا يليق بشأنه وعظمته ، وإطلاق لفظ : (مَنْ) على العقلاء وغيرهم ، على سبيل التغليب ، كما هو معهود فى عرف اللغة .

وقد نبه الله ــ سبحانه ــ على قوة الدلالة وغاية وضوحها بالتعبير عنها بالتسبيح الذى يختص به العقلاء ، وهو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها ، تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال .

وتخصيص التسبيح ــ أى : التنزيه ــ بالذكر مع دلالة ما فى السموات والأرض على اتصافه ــ تعالى ــ بنعوت الكمال كلها ، لأن هذه الآية مسوقة لتقبيح حال الكفرة . فى إخلالهم بالتنزيه ، بجعلهم الجمادات شريكة له ــ تعالى ــ فى الألوهية ، ونسبتهم الولد إليه ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ــ ولهذا جعل الله أعمالهم « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أو « كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » .

وإنما ذُكِر لفظ : (الطير) مع أنه مندرج فى جملة من فى السموات والأرض ؛ لعدم استقرار الطير فوق الأرض ، ولاستقلالها بآية واضحة على تنزيه الله – تعالى – عن الشريك وكل صفات النقص ، وعلى كمال قدرته ولطف تدبيره ، حيث أعطاها أجنحة وذيولا تصفُّها وتطير بها ، وحماها بذلك من وقوعها على الأرض استجابة لجاذبيتها ، ومكنها بذلك من الحركة فى الجو والرحلة كما تشاء .

وأما قوله – تعالى – : « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » فهو جملة مستأنفة ، اشتملت على صورة بلاغية رفيعة ؛ فقد شُبِّه فيها حال كل من فى السمٰوات والأرض والطير فى أداء وظائفها التى خلقت لها ، استجابة لتسخير الله – تعالى – شُبِّهت حالها بحال إنسان عرف خالقه وكيفية عبادته وتسبيحه ، فصلى له وسبحه .

وعلى هذا الوجه فالضمير فى (عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) راجع إلى كل واحد مما ذكر ، وإليه ذهب الزجاج .

وأجاز بعضهم أن يكون ضمير (عَلِمَ) راجعاً إلى الله – تعالى – وضميرا (صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) عائديْن إلى كل واحد مما فى السمٰوات والأرض والطير ، والمعنى على هذا : كل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه لربه ، والأول أولى ؛ لما فى الثانى من تشتيت الضمائر .

وقال غير واحد : يجوز ألا يكون فى الكلام استعارة ، والعلم على حقيقته ، ويراد به : مطلق الإدراك ، والمراد من قوله : (كُلٌّ) جميع أنواع الطير وأفرادها ، ويراد بالصلاة والتسبيح : ما ألهمه الله إياه من الدعاء والتسبيح المخصوصين به ، قال الآلوسى : ولا بُعْدَ فى هذا الإلهام ؛ فقد ألهم الله كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة ، لا يكاد يهتدى إليها جهابذة العقلاء[1] . . . . إلى آخر ما قال.

---

(١) فهذه مملكة النحل تدير أمورها أنى بحكمة عجيبة ، وقد ألهمها الله – تعالى – بناء بيوت هندسية من الشمع متساوية الأضلاع ، كما ألهمها تغذية الملكات المقبلة بغذاء خاص يختلف عن غذاء الذكور والخناثى ، وهذه الكلاب تنبح قبل حدوث الزلازل منذرة بها ، والقنفذ يحس بريحى الشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل ، وهذا وأمثاله يدل على أن لها إدراكا عاليا تدير به شئونها ، فلا يبعد أن يكون لها تسبيح وصلاة . والله أعلم .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) لتقرير ما تقدم فى الآية .

والمعنى الإجمالى للآية : ألم تعلم -أيها العاقل- علماً يشبه الرؤية فى اليقين ، أن الله تعالى ينزهه عن الشريك والنظير ، وعن كل ما لا يليق بجنابه فى ذاته وصفاته وأفعاله - ينزهه - كل شىء فى السموات والأرض ، وبخاصة الطير وهى باسطة أجنحتها وأذيالها فى السماء ؛ لتستطيع أن تتجه بها إلى المشارق والمغارب ، وهى محلقة فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله تعالى فإنها جميعاً بما أنشئت وأبدعت عليه من دقة الصنع ، وأدائها لوظائفها التى خلقت لها ، فى نظام رتيب بلا فتور ولا قصور ، تنطق بلسان الحال ، أن من أبدعها منزه عن الشريك والنظير ، وعن كل نقص فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكل منها فى مجموعه وفى أجزائه قد استجاب لتسخير الله إياه استجابة تشبه استجابة العقلاء لما كلفهم الله به من الصلاة والتسبيح ، والله عليم بأدائها لوظائفها وفق تدبيره الحكيم لها ، لا يغفل عنها طرفة عين ، فهى لذلك لا يعتريها نقص ولا اختلال ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

وأجاز بعض المفسرين حمل التسبيح والصلاة على حقيقته ، كما تقدم بيانه ، قال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود ، وعمم بعضهم التسبيح بمعناه الحقيقى فى جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، أخذا من ظاهر قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[1] وليس هذا ببعيد على بديع السموات والأرض ، ولقد سجل بعض علماء الغرب بآلة شديدة الحساسية - سجل - أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها ، وهذا يدل على أن فى الكون أسرارا عجيبة لم يصل العقل البشرى إلى كشفها بعد .

٤٢ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) :

أى ولله ملك السموات والأرض خلقاً وملكا وتصرفاً ، فلا يصح أن يعبد سواه ، وإليه وحده المرجع يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، ولا معقب لحكمه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[2]

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٤٤ (٢) سورة النجم ، الآية : ٣١

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(يُزْجِى سَحَابًا) : يسوقه ويدفعه ، يقال : زَجَاه ، وزَجَّاه ، وأَزْجَاه ، أى : دفعه وساقه .

(رُكَامًا) : الركام ؛ السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ، ويطلق أيضاً فى غير هذه الآية على كل ما جمع بعضه فوق بعض ، كركام الرمل ، مأْخوذ من : رَكَمَ الأَشياءَ ، أى : جمع بعضها فوق بعض . (الْوَدْقَ) : يطلق على المطر وعلى البرق ، وسيأْتى شرح ذلك .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا) : المراد من السماء هنا : السحاب أو الجوّ أو الفضاء ، والجبال فى السماء : هى السحب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة الجبال (مِن بَرَدٍ) : البَرَد ؛ حب ينزل من السحب ، فيه بياض كبياض الثلج ، وبرودة كبرودته.

(سَنَا بَرْقِهِ) : السَّنا ؛ الضوءُ أما السَّناءُ - بالمد - فهو بمعنى العلوّ والرفعة . والبرق : التلأْلؤ واللمعان ، يقال : برق السيف وغيره ، أى : لمع . (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى ؛ يصرفهما . وسيأْتى بيانه فى التفسير .

التفسير

٤٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ . . .) الآية .

بيّن الله فى الآية السابقة أنه تعالى له ملك السموات والأرض ، وعقبها بهذه الآية ليبين نوعاً من سلطانه وملكه وتصرفه فيهما ، تأكيدا لملكه لهما .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) التنبيه إلى آيات الله التالية للاستفهام المذكور ، والحث على رؤيتها ، أو التقرير بها .

والخطاب فيه : إما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخطابه خطاب لأمته ؛ لأنه إمامها ، وإما لكل مَنْ هو أهل للخطاب من المكلفين ، والرؤية هنا إما بصرية ؛ لأن تحريك السحب وما يتلوه من آثار أمْرٌ مرئىٌّ لكل ذى عينين ، وإما علمية لذوى البصيرة والتأمل ولو على سبيل الإجمال .

والسحاب : واحده سحابة ، ويتكون من بخار الماء الصاعد إلى طبقات الجو العليا ، وينشأ هذا البخار من تسلط حرارة الشمس على المياه فى نواحى الأرض المختلفة ، فإن بقى هذا البخار بيننا ولم يرتفع إلى الطبقات العليا ، فهو الضباب ، فكلاهما ناشئ من بخار الماء[1]

والله - تعالى - يزجى السحاب المتفرق ، أى : يسوقه من مواطنه المختلفة شيئاً فشيئاً ، ثم يؤلف بين جزئياته ويضمها ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض .

ولِلْوَدْقِ فى اللغة معنيان : أحدهما المطر ، وبه قال الجمهور فى تفسيرهم إياه فى الآية ، وشاهِدُه قول الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إبقالَهَا

وقال امرؤ القيس : فَدَمْعُهُمَا وَدْقٌ وَسَحٌّ ودِيمَةٌ[2] .

(١) ومن ثم قال العلماء : الضباب : سحاب أنت فيه ، والسحاب : ضباب لست فيه .

(٢) السح : السائل . والديمة : الدائم .

والمعنى الثانى : أنه البرق ، حكى القرطبى عن أبى الأشهب قوله فى هذا المعنى :

أثَرْنَ عَجَاجَةً وخرجْن منهـــــا خروج الوَدْقِ من خَلَلِ السحاب

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[١] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ) :

السماءُ فى اللغة : ما عَلَا وارتفع ، ومنه يقال للسحاب : سماءٌ ، وللفضاءِ والسقف : سماء ، وللرفعة المعنوية : سماء ، ومنه قول الشاعر فى الفخر :

إذا بلغ السماءَ لنا وليـــدٌ تَخِرُّ له أعادينا ســـــجودا

ولفظ السماءِ يُذَكّر ويؤنث ، والمراد به فى الآية : إما السحاب ؛ وإمّا الفضاءُ فكلاهما يشتمل على جبال الركام التى ينزل منها البَرَد ، كما هو صريح النص الشريف .

وإطلاق لفظ الجبال على الركام من باب التشبيه البليغ ؛ فإن السحب الركامية تشبه الجبال فى ضخامتها وارتفاعها .

قال الإمام الرازى فى تفسير الآية : أراد بقوله : (مِن جِبَالٍ) السحاب العظام ؛ لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من مال . انتهى كلام الفخر الرازى .

ويقول علماءُ الطبيعة الجوية فى عصرنا : إن السحبَ الركامية ترتفع أميالا على شكل هرمى ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وهم بذلك يؤكدون ما نقلناه عن الإمام الرازى .

وفى الآية إعجاز علمى فوق إعجازها البلاغى ؛ فقد تحدثت عن تكاثف السحب ، ووصولها فى هذا التكاثف إلى درجة عالية تشبه فى ضخامتها وشكلها الجبال ، كما تحدثت عن إنزال البَرَد من تلك السحب الركامية المعبَّر عنها بالجبال ، وعن البروق الخاطفة المتلألئة

(١) لفظ (من) فى قوله : (من السماء) ابتدائية ، وقوله : (من جبال) بدل اشتمال من قوله : (من السماء) فإن السماء هنا بمعنى السحاب أو الجو ، وكلاهما يشتمل على ركام السحب الشبيهة بالجبال ، ولفظ : (من) فى قوله : (من برد) للتبعيض أو البيان ، فى موضع المفعول به لقوله : (ينزل)

القوية الضوء إلى درجة تكاد تخطف الأبصار ، وكل ذلك وغيره تنبئ عنه هذه الآية العظيمة ، ويجرى على لسان أمىّ لا علم له ولا لغيره من أهل الأرض جميعاً فى زمنه بمثل تلك العلوم الكونية ، حيث كانت الجهالة والبدائية تنتشر بين الناس فى المشارق والمغارب ، الوثنيين منهم وأهل الكتاب ، ولا شك أن هذا لا يمكن أن ينطق به إلا رسول آتاه الله العلم بوحى أيده به ، وآذن بصدقه فى نبوته ورسالته ، فتبارك الله رب العالمين (١)

والبَرَدُ الذى ينزل من تلك السحب الركامية : حبات فى بياض الثلج وبرودته ، ويقول الله فى شأن هذا البَرَد : « فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ » : أى فيصيب الله بهذا البَرَد من يشاءُ من عباده فيتضرر به فى نفسه ، أو ماله ، أو زراعته ، أو ماشيته ، ويصرفه ويمنعه عمن يشاءُ ، فيسلم من غائلته ، حسبما جرت به حكمة الله وقدره .

ويعقب الله ذلك بقوله : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) : أى يقرب ضوءُ برق السحاب المتراكم المعبَّر عنه بالسماء ، ثم بالجبال ، يقرب ضوءُه أن يخطف الأبصار ، من فرط الإضاءة والسرعة ، وفى ذلك دليل عظيم على قدرة الله تعالى ، حيث ولد النور من الظلمة الركامية ، وخلق الشىءُ من ضده ، بالإضافة إلى ما تضمنته الآية من عجائب إبداعه وقدرته ، ويعقِّب الله ذلك بقوله :

---

(١) وقد علق الخبراء على هذه الآية فى التفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقالوا مايلى : تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم ؛ فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها وما عرف عنها فى العهد الأخير ، من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات ، يتألف عدد منها فى مجموعات هى السحب الركامية ، أى : السحب التى تنمو فى الاتجاه الرأسى ، وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة .

والمعروف علميا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بمراحل ثلاث ، هى :

١ — مرحلة الالتحام والنمو .

٢ — ثم مرحلة الهطول .

٣ — وأخيرا مرحلة الانتهاء .

كما أن هذه السحب هى وحدها التى تجود بالبرد ، وتشحن بالكهرباء ، وقد يتلاحق حدوث البرق فى سلسلة تكاد تكون متصلة (أربعين تفريغا فى الدقيقة الواحدة) فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء ، وهذا هو عين ما يحدث للملاحين والطيارين الذين يخترقون عواصف الرعد — فى المناطق الحارة — وينجم عن فقد البصر هذا أضرار بالغة تشكل خطرا حقيقيا على أعمال الطيران وسط العواصف الرعدية . وتعليقا علىّ هذا نقول : إن ذهاب البصر فى هذه الحالة وقتى ، ولهذا قال — سبحانه — : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

٤٤ ـ (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى يُصَرِّفهما بالمعاقبة بينهما ، أو بنقص أحدهما ، وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد ، والظلمة والنور ، أو بما يعم ذلك كله .

ويختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) : والمراد بالأبصار هنا : البصائر والعقول ، فهى التى تعتبر وتتعظ ، أى إن فيما تقدم من إزجاء السحاب ، وإنزال الوَدْقِ والبَرَدِ ، وتقليب الليل والنهار ، لَعِظَةً بليغة لذوى العقول المستنيرة ، وذكرى لمن كان له قلب منيب ، وإدراك وضاء ، حيث يدرك من هذا الإبداع فى الخلق ، والإحكام فى التدبير ، أن ذلك كله من صنع إله قدير ، حكيم خبير .

المعنى الاجمالى للآية :

ألم تشاهد ـ أيها الإنسان ـ من دلائل الألوهية والربوبية ، أن الله تعالى يكوِّن سحابا فى الجو ويسوقه من جهات مختلفة ، ثم يؤلف بين وحداته فيضم بعضها إلى بعض ، ثم يجعله متراكما طبقة فوق أخرى ، فترى المطر أو البرق يخرج من بين هذا السحاب المتألف المتراكم ، وينزل من السماء من سحابها المتراكم الشبيه بالجبال فى عظمتها وارتفاعها ـ ينزل منها حبا يشبه الثلج فى بَرْده ولونه ، يسمى : البَرَد ؛ فيصيب به من يشاء من عباده من ضرر فى نفسه ، أو ما شيته ، أو زراعته ، أو ماله ، ويصرفه عمن يشاء فينجو من أضراره ، ويخرج منها برقاً مضيئاً سريع التتابع ، يقرب هذا الضوء من أن يخطف أبصار الناظرين إليه من فرط إضاءته وسرعته .

يُصَرِّف الله الليل والنهار بأن يجعلهما يتعاقبان ، أو يزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، أو يغير أحوالهما برودة وحرارة ، أو يجمع ذلك كله ، إن فيما تقدم من عظائم القدرة ، ودقة التدبير وإحكامه لعظةً لأصحاب البصائر النيرة ؛ لِدِلالَتِهِ على وجود صانع حكيم قدير عليم ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معارض له فى حكمه .

(وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كُلَّ دَآبَّةٍ) : الدابة اسم لكل ما يدب ويتحرك من الحيوان ، من : دَبَّ ، يَدِبُّ دبًّا ودبيباً – أى تحرك – ، فهو دابٌّ ، والتاء للمبالغة ؛ ويقال : أكذب من دب ودرج ، أى : أكْذَب الأحياء والأموات ، قاله صاحب المختار .

(آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ) : آيات موضحات للحقائق .

(إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق لا اعوجاج فيه .

التفسير

٤٥ – (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ . . . . .) الآية .

بيّن الله – تعالى – فيما تقدم أنه – سبحانه – نور السموات والأرض ، فلا تخفى ربوبيته على من له عينان ، وأن السموات والأرض والطير تسبح بحمده ، وتشهد بتنزيهه عن جميع النقائص ، وباستحقاقه جميع الكمالات ، وأن السماء والمطر والبَرَد ، والبرق الخاطف وضياءه الباهر من إبداعه ، وتحت إرادته وحكمه ، وأنه يقلب الليل والنهار بحكمة وتدبير رتيب ، وجاء بهذه الآية ليشير بها إلى برهان من براهين ربوبيته ، وهو خلقه كل دابة من ماء .

والمراد بالدابة هنا : مايدب ويتحرك بنفسه على الأرض ، أو فى جوفها ، أو فى مائها من الحيوانات والحشرات والأسماك ، والله تعالى يقول : إنه خلقها كلها من ماء ، والمراد منه : النطفة ، فالله – تعالى – جعل لكل ذكر من الحيوانات والحشرات والأسماك نطفة تشتمل على خصائص نوعه ، يودعها أحشاء أنثاه فتحمل ثم تضع ذريتها لا ستبقاء نوعها ، ولا نعلم شيئاً من الكائنات الحية يخالف هذه القاعدة سوى آدم وعيسى ، فآدم خلق من تراب ، وعيسى خلق بالنفخ ، ولا يمنع هذا عموم خلق الكل من الماء ، فالنادر لا حكم له ، فإن وجدت كائنات حية خلقت بغير النطفة سواهما ، فالتعبير حينئذ بلفظ : (كل) مراعاة للغالب.[1]

وقد يراد من الماء : ما دخل فى تكوين كل دابة من الماء ، وخصّه بالذكر دون سائر عناصر تكوينها لأهميته العظمى فى بناء أجسامها ، ويفصل الله – تعالى – أنواع الدواب المخلوقة من الماء فيقول :

(فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ) :

أى : فمن الدواب التى خلقت من ماء من يمشى على بطنه كثعابين البرِّ وزواحفه المختلفة ، وثعابين الماء وسائر أسماكه ، وسميت حركة هذه وتلك مَشْيًا مع أن الأُولى زَحْفٌ ، والثانية سباحة ، للمبالغة فى إظهار قدرتها على الحركة كالدواب التى تمشى ، ويزيدها حسناً ما فيها من المشاكلة لِمَشْيِ ما بعدها ، والمشاكلة نوع من أنواع البلاغة .

ومن هذه الدواب من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنها من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض حيوانات البحر .

---

(١) يقول الخبراء – تعليقا على هذه الآية – فى منتخب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : الماء فى الآية هو ماء التناسل ، أى : المشتمل على الحيوانات المنوية ، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم فى بيان نشوء الإنسان من نطفة ؟ كما جاء فى قوله – تعالى – : « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » لم تسبقه فيها فحسب ، بل سبقته كذلك فى بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريقة التناسل من الحيوانات المنوية ، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها فى كل نوع من أنواع هذه الدواب .

ومما تحتمله الآية من معان علمية : أن الماء قوام تكوين كل كائن حى ، فمثلا يحتوى جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ (سبعين فى المائة) من وزنه ماء ، أى أن الشخص الذى يزن ٧٠ كيلو جراما فجسمه يحوى ٥٠ كجم ماء ، ولم يكن تكوين الجسم واحتواؤه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن . . . . إلخ ما ذكره الخبراء .

وترتيب الأَصناف حسبما جاءَ فى الآية ، على سبيل التدرج ، ولأَن قدرة الزواحف على الحركة مع فقدانها الأَرجل أَدَلُّ على قدرة الله ، وتمكينه إياها من الحركة بغير الأَسباب المعهودة فى سعى الحيوان على رزقه ، ولم يذكر من يمشى على أكثر من أَربع - كالعناكب ونحوها - إما لأَن المراد بكل دابة : ما تقع عليه العين غالباً ، أَو أَن ما ذكر من باب التمثيل و أَنه أُشير إلى ما يمشى على أكثر من أَربع بقوله تعالى : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ) أى : مما ذكر وما لم يذكر .

والتعبير بضمير العقلاءِ فى قوله : (وَمِنْهُمْ) مع أَن من يمشى على بطنه وعلى أَربع ليس منهم ، لتغليب جانب العقلاءِ ، وهم من يمشون على رجلين كالإنسان ، و استعمال : (مَنْ) فى غير العقلاءِ للمشاكلة ، أَو لأَنها تستعمل فى غير العقلاءِ بِقِلَّةٍ[1]

ويختم الله الآية بقوله : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) : أى يخلق الله مايريد خلقه مما ذكر وما لم يذكر ، بسيطا كان أَو مُرَكَّبًا ، على ما يشاءُ من الصُّوَر والحركات والطبائع والقُوَى ، إن الله على كل شىءٍ أَراد خلقه عظيم القدرة ، إذ يقول للشىءِ : كن ، فيكون .

المعنى الاجمالى للآية :

والله خلق كل حيوان يدب ويسعى فوق سطح الأَرض أَو فى جوفها أَو فى مائها - خلقه - من ماءٍ ، هو سائل النطفة الذى هو أَصل الكائنات الحية المتوالدة ، أَو هو الماءُ الذى خلق منه معظم جسمه ، فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه ، كالزواحف والأَسماك ، ومنهم من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشى على أَربع : كالأَنعام والوحوش وبعض الحيوانات البحرية ، يخلق الله ما يشاءُ خَلْقَه من هذه الدواب وغيرها ، على ما يشاءُ من صورها وحركاتها وقواها ومنافعها وأَضرارها ، والله على كل شىءٍ أَراد خلقه قدير ؛ إذ يقول له : كن ، فيكون .

---

(١) الحق أن استعمال : (من) فى العقلاء أغلبى ، وأن استعمال : (ما) فى غير العقلاء كذلك ، وقد يتقارضان ، فتستعمل كلتاهما فى غالب ما تستعمل فيه الأخرى - كما هنا فى (من) وكما فى قوله تعالى : (والسماء وما بناها) بالنسبة لما ، فإنها هنا مراد منها المولى - سبحانه وتعالى - أى : ومن بناها .

٤٦ - (لَقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : هذه الآية جاءت مقدمة لما بعدها ، ولهذا لم تُعطف على ما قبلها كما عطفت مثيلتها السابقة : « وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ . . . » الآية .

والمعنى : لقد أنزلنا آيات قرآنية موضحات لكل عاقل ما ينبغى توضيحه من الأحكام الدينية ، والأسرار التكوينية ، والله يهدى من يشاء هدايته إلى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والفوز فى دار الثواب ، وذلك بتوفيق من وعاها بسمعه وقلبه إلى التدبر فى معانيها ، والنظر الصحيح فيما ترشده إليه من دلائل الحق .

(وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ) : يعرض جماعة منهم عن طاعة الله ورسوله .

(مُعْرِضُونَ) : منصرفون . (مُذْعِنِينَ) : منقادين .

(أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : المراد بالمرض هنا : النفاق . (أَن يَحِيفَ) : أن يجور ويظلم .

التفسير

٤٧ - (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) :

بيّن الله - سبحانه - فى الآية السابقة أنه تعالى يهدى إلى آياته البينات من يشاء ، وهم أولو البصائر النيرة ، فيهتدون بهديه إلى الصراط المستقيم ، وبين فى هذه الآية وما بعدها من لم يشأ الله هدايتهم من ذوى البصائر المظلمة ، والأفكار الضالة من المنافقين .

ويقول الطبرى وغيره فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها : إن رجلا من المنافقين اسمه : (بشر) كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض ، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان اليهودى محقًّا والمنافق مبطلا ، فأبى المنافق وقال : إن محمدا يحيف علينا ، فلنُحَكِّمْ (كعب بن الأشرف) فنزلت فيه[1] .

وقال الضحاك : نزلت فى (المغيرة بن وائل) كان بينه وبين على - كرم الله وجهه - خصومة فى أرض ، فدعاه علىٌّ أن يتحاكما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال . أما محمد فلست آتيه ؛ فإنه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على ، فنزلت[2] .

وهذه الآية وإن نزلت فى قصة واحد من المنافقين[3] ، لكنهم لما كانوا جميعاً على مذهب واحد من النفاق ، حيث كانوا يظهرون الإيمان والطاعة ، ويبطنون الكفر والمخالفة - لما كانوا جميعاً كذلك - حكى الله نفاقهم بصيغة الجمع بقوله : « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا » وختم الآية بقوله : « وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » .

والمعنى الإجمالى للآية ، ويقول المنافقون بألسنتهم : صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا ، مظهرين بذلك ولاءهم لله ولرسوله ، ثم ينصرف فريق منهم من بعد قولهم هذا معرضين عما يقتضيه الإيمان من الالتزام بشريعة الله والتخلق بأخلاق المؤمنين ، وما هؤلاء المنافقون بالمصدقين المخلصين ، فقلوبهم مخالفة لألسنتهم ، وما قالوه كان رياءً ونفاقاً لجرِّ المنافع ودفع المضار .

---

(١) نقله القرطبى من الطبرى . (٢) مختصر من الآلوسى . (٣) على اختلاف الروايتين .

٤٨ - (وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ) :

وإذا دعا المنافقين خصومُهم إلى شرع الله ورسوله ، ليحكم به الرسول بينهم ، فاجأ بعضهم بالإعراض عن التحاكم إلى رسول الله إذا كان الباطل فى جانبهم والحق فى جانب غيرهم ، خشية أن يحكم عليهم بشريعة الله التى تنصف المظلوم ولو كان من الكافرين ، وتدين الظالم ولو لبس ثياب المؤمنين .

٤٩ - (وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) :

وإن يكن للمنافقين الحق جهة خصومُهم يأتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منقادين له ، مسرعين إليه ؛ لعلمهم بأنه سيحكم لهم ؛ لأنه يحكم بالحق حيثما كان .

ثم بين الله ما يدور عليه إعراض المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله وهم مبطلون ، فقال - سبحانه - :

٥٠ - (أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

تفيد هذه الآية أن امتناع المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما يكون الحق ضدهم ، لا يخرج عن أن يكون ناشئاً عن مرض فى قلوبهم ، يميل بهم إلى الظلم وكراهة الحق ، أو ناشئاً - فى زعمهم - عن وجود ما يريبهم ويشككهم فى نبوته - صلى الله عليه وسلم - أو عن خوف من أن يجور الله عليهم ورسوله .

وبما أنه لا سبيل إلى الريب فى نبوته ؛ لأنه النبى الحق المؤيد من عند الله بالآيات البينات ، ولا مجال للخوف من جوره فى الحكم ؛ لأنه عرف بالعدل التام بين الناس جميعاً فلا يبقى إلا السبب الأول ، وهو مرض قلوبهم الشامل لكفرهم ونفاقهم ، فهو الذى صرفهم عن التحاكم إليه - صلى الله عليه وسلم - ولهذا ختمت الآية بالحكم بظلمهم لنفوسهم وذلك بنفاقهم الذى أصبح مرضاً فى قلوبهم .

وقد اتبعت الآية معهم أسلوب المحاورة لكشف حالهم ، والاستفهام فيه للتوبيخ والذم وتشديد النكير عليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أفى قلوب هؤلاء المنافقين مرض منعهم من التحاكم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أم ارتابوا فى نبوته لوجود ما يريبهم فيها ، أم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله إن تحاكموا إليه ؟ والحق أنه لا يوجد سبب من جهته – صلى الله عليه وسلم – يمنعهم من التحاكم إليه ؛ فهو النبي العادل دون ريب ، بل السبب هو ظلمهم لأنفسهم بمرض قلوبهم ونفاقهم ، وظلمهم لخصومهم بمحاولة الاستيلاء على حقوقهم .

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(ٱلْمُفْلِحُونَ) : الفائزون . (وَيَتَّقْهِ) : قرأها حفص بإسكان القاف وكسر الهاء غير مشْبَعَةٍ ، حكى ابن الأنبارى أنها لغة لبعض العرب ، إذ يُسكِّنون ما قبل الحرف المعتل بعد حذفهم المعتل للجازم ، ومنه قول الشاعر :

ومن يتَّقْ فإن الله معـــه ورزق الله مؤْتَابٌ وغـــادى

وقرأها الباقون بكسر القاف ، اكتفاء بحذف حرف العلة للجازم ، وخفَّفَ كسرة الهاء بعضهم ، وأشبعها بعض آخر ، وهذا عند القراءة ، أما عند الوقف فقد أجمع القراء على تسكين الهاء .

التفسير

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

تحكى هذه الآية الكريمة حال المؤمنين الصادقين إذا دعوا إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر حكاية حال المنافقين ؛ ليتبين الفرق بين الخبيث والطيب .

ومعنى الآية : ما كان قول المؤمنين الصادقين إذا دعاهم أحد إلى شرع الله ورسوله ليحكم به الرسول بينهم - ما كان قولهم حينئذ - إلا أن يقولوا لداعيهم : سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك بالنزول على حكم الله ورسوله ، وأولئك المؤمنون الصادقون هم الفائزون برضوان الله وجزيل ثوابه ، دون من عداهم من المنافقين الذين يتحاكمون إلى غيره ؛ فرارا من عدل الله ورسوله .

قال قتادة - تعليقاً على هذه الآية - : ذُكِرَ لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عَقَبِيًّا[١] ، بَدْرِيًّا[٢] ، أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذالك ؟ قال : بلى ، قال : فإن عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ، ومَنْشطِك ومَكْرَهِك[٣] ، وأَثَرَة عليك[٤] ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحًا[٥] ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة أيضاً ، وذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

---

(١) أى : كان ممن بايع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى العقبة بمنى ، وقد شهد العقبتين - الأولى والثانية - .

(٢) أى : كان من المقاتلين فى غزوة بدر .

(٣) المنشط : ما تنشط إليه نفسك وتشرئب لعمله ، والمكره : ضده .

(٤) الأثرة : حبك الشىء لنفسك ، والإيثار : ضده ، والمراد من السمع والطاعة فى الأثرة عليه ألا يمانع فى تفضيل غيره عليه .

(٥) ظاهرا مكشوفا .

وقال أيضاً : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم ، انظر ابن كثير .

٥٢ ـ (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

هذه الآية مستأنفة لتقرير ما قبلها من حسن حال المؤمنين ، وترغيب سواهم فى أن يكونوا منهم .

والمعنى ، ومن يطع الله فيما فرضه على عباده ، ويطع رسوله فيما بينه من الفرائض والسنن ، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل من عمره ، فأُولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم فى جنة الرحمن الرحيم ، دون من عداهم من المنافقين والكافرين .

* (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى طاقة أيمانهم[1] ، والمراد : أنهم بلغوا أقصى المراتب فى الإقسام بالله ، و (جَهْدَ) مصدر فى موضع الحال بتأويله بجاهدين (طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ) أى : طاعتكم طاعة معروفة باللسان ، فلا تقسموا ، فالجملة علة للنهى عن القسم الكاذب

(١) وفى إضافة الجهد للإيمان مجاز بالاستعارة ، لأن الجهد للحالف ، وليس لليمين .

(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ) : أى ما على الرسول سوى تبليغ ماحمله الله من الرسالة وقد فعل .
(وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) : من الطاعة القلبية والظاهرية .

التفسير

٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ . . .) الآية .

بَيَّن الله فى الآيات السابقة أن المنافقين « يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم » عن قبول التحاكم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووصفهم بقوله : « وَمَآ أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِين » إلى آخر ما جاء فيهم من ذم أحوالهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أنهم لما علموا بنزول هذه الآيات فيهم جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليبرئوا أنفسهم من النفاق والكذب فى أيمانهم ويعلنوا طاعتهم ، وأقسموا على أنه - صلى الله عليه وسلم - لو أمرهم أن يخرجوا من أموالهم وديارهم لفعلوا .[1]

والمعنى : وأقسم المنافقون مبالغين فى إقسامهم جهد طاقتهم ، ليبرئوا أنفسهم من النفاق وعدم الطاعة والانقياد لحكم الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، قائلين : والله لئن أمرتنا يارسول الله بالخروج من ديارنا وأموالنا لنفذنا أمرك ، وخرجنا منها طاعة لأمرك ، فرد الله عليهم قائلا لرسوله :

(قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : قل لهم أيها الرسول : لا تقسموا على طاعة الله ورسوله ، فطاعتكم طاعة معروفة للناس ، فهى طاعة باللسان ، وليست نابعة من قلوبكم ، إن الله خبير بما يصدر عنكم من أعمال النفاق الضارة بالإسلام وبالمسلمين ، فمجازيكم عليها أشد الجزاء .

٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : أطيعوا الله ورسوله مخلصين غير منافقين ، فإن تتولوا وتعرضوا عما كلفتم به من الطاعة فما على الرسول سوى تبليغ الرسالة التى حمله الله تعالى أمر تبليغها ،

---

(١) وفسر بعضهم الخروج فى الآية بالخروج للجهاد ، ولكنه غير مناسب لسياق الآيات قبلها .

وما عليكم إلا الطاعة الخالصة من النفاق ، فهى التكليف الذى حملكم الله إياه لتنفذوه ، وختم الله الآية بنصيحتهم بقوله :

(وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) : أى وإن تطيعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يأمركم به وينهاكم عنه ويحكم به تهتدوا إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته تبليغا مبيناً للحق والباطل وقد فعل ، وليس عليه أن يقهركم على الطاعة ، فهى مسئولة منكم وتكليف واجب عليكم .

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ج يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ج وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ج وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ج وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ) : ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ) : أى وليجعلنه مكينا ثابتاً .

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) : ومآلهم ومسكنهم جهنم .

التفسير

٥٥ ـ (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . . .) الآية .

قال أبو العالية فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : مكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة عشر سنين[1] بعد ما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سرًّا وجهرا ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح ، فقال رجل : يارسول الله أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملإ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة » ونزلت الآية ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . ا هـ

وقال الضحاك ماخلاصته : أن هذه الآية تتضمن صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقد استخلفهم الله على الأرض التى ولَّاهم الله عليها ، وإلى هذا الرأى ذهب ابن العربى ، وحكى فى أحكامه أن علماء المالكية يرون أن هذه الآية دليل على صحة خلافتهم ، فهم الذين استخلفهم الله ورضى أمانتهم ، ولم يتقدمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبُّوا عن حوزة الدين فنفذ الوعد فيهم .

وحكى القشيرى هذا القول عن ابن عباس ، واحتجوا بما رواه سَفينة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

---

(١) التقييد بعشر سنين راجع إلى مدة إيذائهم للنبى وأصحابه بعد الجهر بالدعوة ، أما مدة الدعوة إلى الإسلام بمكة فقد كانت ثلاث عشرة سنة ، وكانت الدعوة فى السنوات الثلاث الأولى فى طى الخفاء ، فلما جهر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاب آلهتهم التى عبدها آباؤهم ، أخذتهم حمية الجاهلية ، فآذوه وأصحابه عشر سنين تباعا ، وحملوهم على الهجرة :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » .

وقالت طائفة من العلماء : هذا وعد لجميع المسلمين بأن تكون الأرض كلها تحت لواء الإسلام ، وهم مستخلفون عليها ، كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » من حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس .

واختار ابن عطية هذا القول ، وقال : الصحيح فى الآية أنها فى استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كالذى جرى فى الشام والعراق وخراسان والمغرب(١) .

ونحن نقول : سواءٌ أكان المراد من الآية الخلفاء الأربعة ، أو جماعة الأمة الإسلامية فقد حقق الله وعده هذا وذاك ، وقد ارتفع لواء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ؛ ولا توجد اليوم أمة فى الأرض إلا والإسلام إما غالب فيها ، أو له كيان بين أرجائها ، أو مكان ممتاز بين أديانها ، بفضل سلامة مبادئه ، ووضوح آياته ، وجهاد قادته وثقافة دعاته . وما زلنا ننتظر المزيد من فضل الله رب العالمين .

وكما حقق الله بذلك وعده ، حقق به وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، وكلاهما من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم - لأنه إخبار عما سيكون فكان ، مع أنه فوق مستوى الظنون ، ودون تحقيقه ما هو إلى المستحيل أقرب ، ولكن الله على كل شىء قدير .

وقد وعدهم الله أن يستخلفهم (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : .

والمراد من الذين قبلهم : بنو إسرائيل ، فقد استخلفهم على أرض الجبارين فى بلاد الشام ، وهى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى - عليه السلام - إلى دخولها بقوله لهم :

---

(١) ارجع إلى القرطبى .

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ »(١) فأجابوه بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله : « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا » .

ولما نصحهم بعض المخلصين منهم بالهجوم عليهم متوكلين على الله فإنهم سيغلبونهم « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »(٢) فشكاهم إلى الله تعالى فحرمها عليهم « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الأَرْضِ »(٣)

ولما فَنِىَ هذا الجيل الفاسد ، وانتهت عقوبة الحرمان ، فتحها بذرياتهم نبى الله يوشعُ – عليه السلام – فهذه هى الأرض التى استخلفهم الله عليها بعد أن ظلوا عبيدا للمصريين بعد يوسف – عليه السلام – حتى أنقذهم الله تعالى من العبودية على يد موسى وهرون – عليهما السلام – .

وقد أشار الله تعالى إلى ماضيهم المستضعف وإلى الأرض التى استخلفوا عليها بقوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »(٤) .

فالأرض التى أورثوا مشارقها ومغاربها ، هى الأرض المباركة وهى أرض فلسطين لقوله تعالى : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ »(٥) .

وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ »(٦) .

ولما أفسد بنو إسرائيل فيها عدة مرات أخرجوا منها ، وحرموا ميراثها ، ثم اغتصبوها عدواناً من المسلمين الذين خلصوا أهلها من ظلمهم ، وكانوا أحق بها منهم ، والعاقبة للمؤمنين الصابرين .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢١
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٤
(٣) سورة المائدة ، من الآية : ٢٦
(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ١٣٧
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١
(٦) أول سورة الإسراء .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أى : أنه تعالى كما وعد المؤمنين الصالحين باستخلافهم فى الأرض وعدهم أيضاً بأن يمكن ويثبت لهم دينهم الإسلام الذى ارتضاه لهم ، وأن يمنحهم الأمن والطمأنينة ، بدلا من الخوف الذى كان يقض مضاجعهم من أعدائهم [1] .

وعقب الله هذا الوعد ببيان مقتضيه فقال : (يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا) : أى أنه تعالى إنما يستخلفهم ويمكن لهم دينهم ، لأنهم يعبدونه وحده لا يشركون به فى العبادة سواه ، وأتبع هذا بتحذيرهم من الكفر فقال سبحانه :

(وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

والمراد من الكفر هنا إما الردة ، وإما كفران نعمة الاستخلاف والتمكين ، فإن أريد منه الردة فالمراد بالفسق بلوغ الغاية فيه ، حيث ارتدوا بعد إيمان ، وإن أريد منه كفران نعمة ، فالمراد منه مطلق الخروج عن الطاعة مع بقاء الإيمان .

والمعنى الإجمالى للآية : وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله ، وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – مع قلتهم وكثرة أعدائهم –وعدهم–، أن يجعلهم خلفاء على أرضه فى مشارقها ومغاربها ، يلون أمرها وتدين لطاعتهم ، وينشرون فى أرجائها دينه ، ويبينون للناس آياته وبراهينه .

وهذا الاستخلاف لهم قد سبقه مثله لبنى إسرائيل قبلهم فى أرض فلسطين ، بعد أن استقامت أمورهم ، وعادوا إلى ربهم ، وقبل أن يفسدوا فى الأرض .

كما وعدهم أن يثبت لهم دينهم الإسلام بين سائر الملل والنحل فيحميه من أهلها ، وأن يعوضهم بدلا من الخوف الذى يعيشون فيه أمنًا من الأعداء ، بما يمنحهم من القوة

(١) وفى هذا يقول –صلى الله عليه وسلم– لعدى بن حاتم حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة » ؟ قال : لم أعرفها ولكن قد سمعت بها ، قال : « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز .. » من حديث أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب علامات النبوة فى الإسلام .

والكثرة والفتوحات ، لأنهم يعبدونه تعالى لا يشركون به سواه ، ومن ارتد بعد هذا الوعد أو تحقيقه أو كفر بنعمته التى أنعم بها عليه فأولئك هم الخارجون عن الإيمان ، أو عن فضيلة الشكران[1] .

٥٦ ـ (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) : وأدوا الصلاة بأركانها وشروطها فى مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالكم وأبدانكم إلى من يستحقها ، وأطيعوا الرسول فى كل ما أمركم به أَوْ نهاكم عنه ، لعلكم ترحمون فى الدنيا بتحقيق مواعيد الله لكم ، وتحقيق آمالكم ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ، والثواب الجزيل فى جنات النعيم .

٥٧ ـ (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : فى هذه الآية تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعد له بالنصر ، أى : لاتظن يا محمد أن هؤلاء الذين كذبوك وكفروا بما جئتهم به من الله ـ لا تظنهم ـ معجزين الله فى الأرض عن الانتقام منهم ونصرك عليهم ؛ فإن الله قادر على ذلك ، وسوف يعذبهم على كفرهم ، ومآلهم النار يأوون إليها خالدين ولبئس مصير الظالمين .

---

(١) أطال ابن كثير فى التعليق على هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ما كتبه فيها إن شئت ، فإنه كلام نفيس ، تناول فيه التطورات التى مرت بالدولة الإسلامية نحو خلافتها فى الأرض تحقيقا لوعد الله الكريم ، وحسب القارىء ما كتبناه ، ففيه الكفاية والله تعالى هو الموفق .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾)

المفـردات :

(لِيَسْتَأْذِنكُم) : ليطلب الإذن منكم . (الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) : عبيدُكم وإماؤُكم ، والتعبير عنهم بما ملكت الأَيمان لأَنهم يؤسرون فى الحرب بالأَيمان لا بالشمائل غالباً فنسب الملك إليها لذلك .

(الْحُلُمَ) بضم اللام : أَوان البلوغ . (تَضَعُونَ ثِيَابَكُم) : تخلعونها .

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) : العورة : الخلل ، يقال : أعورُ المكانِ ، أى : مختلّه[١] ، ورجل أعور أى : مختل العين ، أى : هى ثلاث أوقات يختل فيها تستركم . (جُنَاحٌ) أى : حرج (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) : أى : هم يطوفون عليكم فى غير هذه الأوقات لقضاء مصالحكم ، فلاداعى لاستئذانهم منكم .

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ) : العجائز اللَّاتى قعدن عن الحيض والحمل أو عن التصرف لكبر السن ، ومفرده : قاعد ، بدون هاء ، ليدل حذفها على أنه قعود الكبر وهو من الصفات الخاصة بالنساء كالطالق والحائض . (أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) : أى : يتخلين عن الثياب الظاهرة .

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) : أى : غير مظهرات زينتهن (وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ) : يطلبن العفة بالستر (خَيْرٌ لَّهُنَّ) : من التجرد من الثياب الخارجية الظاهرة لأنه أبعد عن التهمة .

التفسير

٥٨ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ) :

هذه الآية وما بعدها اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وماتقدم فى أول السورة كان بياناً لاستئذان الأجانب بعضهم على بعض ، وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات[٢] فى هذه الآية ، أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم من العبيد والإماء وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم . وكانوا مميزين فى ثلاثة أحوال :

الأولى : من قبل صلاة الصبح ، لأن الناس حينئذ إما نيام فى فرشهم ، وإما قيام من مضاجعهم ليطرحوا ثياب النوم ويلبسوا ثياب اليقظة .

والحالة الثانية : حين يخلعون ثيابهم وقت الظهيرة للنوم .

والحالة الثالثة : بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم ، والتساهل فى كشف بعض أجزاء الجسد ، وقد يكون الرجل مع أهله

---

(١) انظر البيضاوى .

(٢) فالخطاب فى الآية وإن كان للرجال ، إلا أن الحكم فيها عام لهم وللنساء ، لأنهن شقائق الرجال فى الأحكام ، إلا ماعلم خصوصه بأحدهما .

فى أية حالة من هذه الحالات ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فيها ، بل يستأذنوا تأدباً وتصوناً ، وحفاظاً على عورات الناس أن تكشف ، ولقد أطلق الله على هذه الأوقات عورات لذلك روى ابن أبي حاتم بسنده(عن ابن عباس –رضى الله عنهما– أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس :

إن الله ستِّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال[1] فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره أى فى كفالته وهو على أهله ، فأمرهم أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال . فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وحكى المهدوى عن ابن عباس أن الاستئذان كان واجباً إذ كانوا لا غَلَقَ لهم ولا أبواب . ولو عاد الحال لعاد الوجوب – ذكره القرطبى فى المسألة الثانية وعقبه برأى آخر يفيد أن الآية محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء ، وذكر أنه قول أكثر أهل العلم . ا هـ .

وبه نقول ، فإن الآية الكريمة أطلقت الأمر بالاستئذان ، سواء وجدت الأبواب والستور أو لم توجد ، فلا يحل اقتحام الأبواب والستور دون استئذان فى تلك الأوقات ، لوجود مقتضى المنع وهو احتمال انكشاف العورات فيها ، روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلِج إلى عمر بن الخطاب ظهيرةً ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب ، فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شئ ، فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجدًا شكرًا لله .

فأنت ترى أن الغلام دق الباب ونادى عمر ودخل قبل أن يستيقظ عمر ويأذن له ، فانكشف منه للغلام ما لا يحب أن ينكشف لأحد ، فلهذا نرى أن الحكم ثابت مع وجود

---

(١) الحجال : جمع حجلة ، وهى بيت كالقبة يستر بالثياب وله أزرار كبار .

الأبواب والستور ، كما أطلقته الآية الكريمة ، ويشير إلى ذلك ختم الآية بقوله سبحانه : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وقال السدى فى سبب نزول الآية : كان أناس من الصحابة – رضى الله عنهم – يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا – والله أعلم – أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مَرْثَد ، صنعا للنبى – صلى الله عليه وسلم – طعاماً ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ، إنه ليَدْخُل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأنزل فى ذلك : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ . . . » الآية .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) : أى ليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات حرج فى أن يدخل عليكم عبيدكم وإماؤكم وأطفالكم الذين لم يبلغوا الحلم فى غير هذه الأوقات ؛ لأنكم تكونون حينئذ متسترين محتاطين ، مستعدين لدخولهم عليكم ، لكى يقضوا حاجاتكم ، ولذا علل نفى الجناح بقوله :

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) : أى : هم طوافون عليكم بحوائج البيت ، بعضكم طائف على بعض .

ولا يخفى ما فى هذا التعبير القرآنى الجليل من جبر خواطر المماليك ، بجعلهم بعضاً من سادتهم المخاطبين ، وبذلك يقوى أمر العِلِّية ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آيات الأحكام ، والله عليم بمصالح عباده ، حكيم فى تشريعه .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها المؤمنون والمؤمنات يجب عليكم أن تأمروا عبيدكم وإماءكم وأولادكم المميزين الذين لم يصلوا إلى سِنِّ البلوغ بالاحتلام ، أن يستأذنوا فى الدخول

ثلاث مرات[1] : (إحداها) من قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من النوم ، والاستعداد للصلاة بالطهر من الجنابة ، أو خلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة .

(وثانيها) حين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة ، وتلبسون ثياب نومكم للقيلولة .

(وثالثها) من بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، ولبس ثياب النوم ، فهذه ثلاثة أوقات يختلُّ فيها تستركم ، وتبدو بعض عوراتكم ، وقد يكون فيها الرجل مع أهله ، فعلِّموا عبيدكم وإماءكم ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم أدب الاستئذان فيها صيانة لعوراتكم ، وتأديباً لأتباعكم وأطفالكم ، ليس عليكم ولا عليهم حرج بعد هذه الأوقات فى ترك الاستئذان ، فهم طوافون عليكم لقضاء مصالحكم ، وهم بعض منكم طائف على بعض ، فكُلْفَةُ استئذانهم عليكم مرفوعة حينئذ ، لأنكم فى غير خلوة ، ومحتاطون بالتستر فى غير هذه الأوقات ، ومستعدون للقائهم لقضاء حاجاتكم ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته التشريعية ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٥٩ - (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

لما بين الله فى الآية السابقة حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم : وهو أنهم لا يُلزمون بالاستئذان إلا فى الأوقات الثلاثة المبينة فيها ، عقبها الله بهذه الآية لبيان حكم الأطفال الذين بلغوا ، سواءٌ أكانوا أقارب أم أجانب - كما قاله أبو حيان فى البحر[2] وقد بين الله - تعالى - فى الآية أنهم يستأذنون كما استأذن الذين من قبلهم فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا . . . » الآية ، وذلك بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات قبل الدخول ، ويرجعوا إن قيل لهم : ارجعوا .

---

(١) يرى الجمهور أن قوله تعالى : « ثلاث مرات » بمعنى ثلاثة أوقات ، وإطلاق اسم المرات على تلك الأوقات لمرور المستأذنين فيها ، وعلى هذا يكون لفظ : (ثلاث) منصوبا على الظرفية مجازا ، واختار أبو حيان فى (البحر) أن المعنى : ثلاث استئذانات ، كما هو الظاهر ، فإنك إذا قلت : ضربت ثلاث مرات ، لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات ، ويؤيده قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الاستئذان ثلاث » وعليه يكون لفظ (ثلاث) مفعولا مطلقا للاستئذان مبينا لعدده . انتهى بتصرف يسير نقلا عن الآلوسى .

(٢) وأخرج ابن أبى حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه قال : يستأذن الرجل على أمه ، وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن أبي حاتم وغيرهما عن عطاء أنه سأل ابن عباس -رضى الله عنهما- أأستأذن على أختى؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى - أى : فى كفالتى - وأنا أنفق عليها ، وإنها معى فى البيت ، أأستأذن عليها ؟ قال : نعم - ثم قال : فالإذن واجب على خلق الله أجمعين[١] .

وروى عنه أنه قال : إنى لآمر جارتى - يعنى زوجته - أن تستأذن علىَّ ، وحمل بعضهم الآية على أطفال المؤمنين الأجانب إذا بلغوا ، وقال بعض الأجلَّة : المراد بهم : ما يعم البالغين من الأحرار والمماليك ، فهؤلاء وأولئك هم الذين يستأذنون فى جميع الأحوال[٢] .

والمعنى الإجمالى للآية : وإذا بلغ الأطفال الحلم منكم أيها المؤمنون فليستأذنوا فى جميع الأحوال كما استأذن الذين ذكروا من قبلهم فى قوله - تعالى - : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » وعليكم أن ترجعوا إذا قيل لكم : ارجعوا ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم آيات أحكامه ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّلاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن فليس عليهن حرج فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لا يفضى خلْعها إلى كشف العورة ، كالرداء والقناع الذى يكون فوق الخمار[٣] ، وعليهن ألا يظهرن زينة أمر الله بإخفائها فى قوله - تعالى - : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » وأن يستعففن بالستر أفضل لهن ؛ لأنه أبعد عن التهمة ، وأدعى إلى الخير ، والله سميع لمقالتهن للرجال ، عليم بمقاصدهن فيحاسبهن عليها .

---

(١) ولعل استئذان المحارم البالغين إنما يطلب فى غير الأوقات ، التى وردت فى الآية التى قبلها إذا كان الباب مغلقا ، فإن كان مفتوحا فإنه لا حاجة لاستئذانهم على محارمهم ، لأن فتح الباب فيه إذن ضمنى .

(٢) انظر الآلوسى . (٣) الخمار - بكسر الخاء - : غطاء الرأس ، ويقال له : النصيف .

(لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١))

المفـردات :

(حَرَجٌ) : ضيق ومؤاخذة . (إِخْوَانِكُمْ) : أى إخوتكم الذكور .

(مَامَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ) : أى المكان الذى بأَيديكم مفاتحه أمانة لإخوانكم ، والمفاتح : جمع مِفتح ، وهو المفتاح . (أَشْتَاتًا) : متفرقين ، جمع شَتٌّ ، أى متفرق .

(مُبَارَكَةً) : مرجوة الخير والثواب . (طَيِّبَةً) : تطيب بها نفس من يستمع إليها .

التفسير

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ . . . .) الآية .

تحدثت الآيات الثلاث السابقة عن أدب الاستئذان من المماليك وصغار الأطفال والبالغين على ذويهم ، وجواز ترك العجائز لبس الثياب الخارجية كالأَردية ، مع ستر

ما يجب ستره من المرأة وعدم التزين ، وأن لبس الثياب الخارجية خير لهن وأبعد عن التهمة من خَلْعِها .

وجاءت هذه الآية الكريمة لتحدثنا عن أنواع أخرى من الآداب الإسلامية الرفيعة ، فقد اشتملت على ثلاثة منها (أولها) يرتبط بأصحاب العاهات (وثانيها) يرتبط بالأصحاء (وثالثها) تحية الإسلام عند الدخول ، فأما ما يرتبط بأصحاب العاهات ففى قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) .

وفى هذا الجزء من الآية نقل الآلوسى من كتاب (الزهراوين) عن ابن عباس أن هؤلاء الطوائف كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء ، حذرا من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم ، فنزلت .

ونقل القرطبى عن ابن العربى أنه قال : المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به المشى ، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك ، ثم قال بعد ذلك مبيناً : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم ، فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيِّنٌ مفيد يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل . اهـ .

قال القرطبى — تعقيباً على كلام ابن العربى — : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأمْرُ الشريعة يدل على أن الحرج مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتُهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . اهـ .

ونرى أن كلام ابن عطية شامل لما قاله ابن العربى ، ولما روى عن ابن عباس ، وهو خير ما يقال فى تفسير هذا الجزء من الآية ، وبه نقول .

(والنوع الثانى من الأدب) يشتمل عليه قوله — سبحانه — :

(وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) :

وقد بيّن الله – سبحانه – فى هذا الجزء من الآية أنه لا حرج على المؤمنين جميعاً ، ومنهم أصحاب العاهات المذكورة ، أن يأكلوا من بيوتهم ، والمقصود منها : البيوت التى فيها أولادهم وزوجاتهم فهى كبيوتهم ، فلا حرج عليهم فى أن يأكلوا من طعام مملوك لهم ؛ لأن ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه ، ولذا لم يذكر الله تعالى الأولاد فى الآية ، قال – صلى الله عليه وسلم – : « أنت ومالك لأبيك » ولأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، فصار بيت المرأة كبيت الزوج ، فكأنه تعالى يقول : ولا على أنفسكم حرج فى أن تأكلوا من مساكنكم التى فيها أهلوكم وأولادكم .

كما بيّن – سبحانه – أنه لاحرج على المؤمنين فى أن يأكلوا من بيوت آبائهم أو بيوت أمهاتهم ، أو بيوت إخوتهم الذكور ، أو بيوت أخواتهم الإناث ، أو أعمامهم أو عماتهم أو أخوالهم أو خالاتهم ، سواء أذنوا لهم فى الأكل أو لم يأذنوا ؛ لأن فى القرابة التى بينهم إذنا عرفيا لهم بالأكل ، ويقول ابن العربى : أباح الله الأكل من جهة النسب من غير استئذان ، إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان الطعام مُحْرَزًا لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز إلا بإذن .

وقال بعض العلماء : لايباح الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب إلا بإذن منهم ؛ لأنه لا يعلم رضاهم إلا به ، أما القرابة فليست من أسباب الرضا دائما ، فمن الأقارب من لديه سماحة ، ومنهم أشحة ، ولا يعلم ما فى القلوب إلا الله ، فلا يحل الأكل من بيوتهم بغير إذنهم ومعرفة رضاهم ، وهذا الكلام قريب مما قاله ابن العربى ؛ فإن الطعام إذا كان مبذولا لآكليه ، فتلك أمارة على رضا أصحابه .

والمقصود الأول من الآية : هو غرس غريزة الكرم والبر بالأقارب فى نفوس المؤمنين ، ماداموا قادرين على ذلك ، وإعداد النفوس المسلمة إلى هذا اللون من التعاون والتقارب والأخوة فى الإسلام ، عملا بقوله – تعالى – : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » ، وبقوله

- صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فإن شحت نفوسهم عن الخير مع قدرتهم عليه ، فهذا مخالف للخلق الذى اختاره الله لعباده المؤمنين .

ولقد تأدب المؤمنون بهذا الأدب العالى فى عهده - صلى الله عليه وسلم - ولم يقصروه على الأقارب ، فقد كانوا يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة واحتياج .

ثم قال الله - سبحانه - : « أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ » يعنى أنه يباح لمن كانت لديه مفاتيح مكان مستأمن عليه أن يأكل منه ، والمقصود من ملكه لمفاتيحه أن يكون أمانة تحت يده ، قال ابن عباس - رضى الله عنه - : هو وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وما شيته . وروى عن عكرمة أنه قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَطْعَمَ الشىء اليسير[1] .

وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غازياً ، وخلف مالك بن زيد على أهله[2] ، فلما رجع وجده مجهودا ، فسأله عن حاله ، فقال : تَحرجْت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ، وقد أباح الله للصديق أن يأكل من صديقه بقوله : « أَوْ صَدِيقِكُمْ »[3] والصديق : من يصدق فى مودتك ، وتصدق فى مودته .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يدخل بستان أبى طلحة المسمى (بَيْرَحَاء) ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، والماءُ مُتَمَلَّك لأهله .

وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه ، إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة ، مادام محافظا على المحارم ، أما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن .

ويقول الله - تعالى - : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) : وهذه الجملة مستأنفة لبيان حكم جديد : هو إباحة الاجتماع على الطعام المشترك ، وأن يتفرقوا إن لم

---

(١) أى : يأكل الشىء القليل . (٢) أى : وكيلا له فى قضاء مصالح أهله .

(٣) لفظ الصديق والعدو يطلق على الواحد والجمع .

يرغبوا فى الاجتماع عليه ، واختلف فيمن نزلت ، فقيل : نزلت فى بنى ليث بن عمرو ، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل - ضرورة - وحده ، ونَفْىُ الجناح عن أكلهم دون ضيف لبيان أن لا إثم فيه ، ولا يُذَمُّ صاحبه شرعا ، كما ذمّت به الجاهلية ؛ فإنهم غير مقصرين إذا لم يحضر الضيف .

وقيل : نزلت فى قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف فِي الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فأُذن لهم فيما تحرجوا منه .

(والأدب الثالث فى الآية) تضمنه قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) أى : فإذا دخلتم بيوتاً من هذه البيوت التى أذن لكم فى الأكل منها ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم قرابة ودينا ، تحية من عند الله تعالى ، ثابتة بأمره ، مشروعة من عنده ، مباركة طيبة ؛ لأن السلام دعوة مؤمن لمؤمن ، يرجى بها من الله السلامة وزيادة الخير وطيب الرزق ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته لكى تتعقلوها وتفهموها ، وتحرصوا على العمل بها .

المعنى الإجمالى للآية : ليس على الأعمى إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه البصير ، ولا على الأعرج إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الماشى ، ولا على المريض إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الصحيح ، فلا يكلف أصحاب هذه الأعذار بما يكلف به سواهم ممن لا عذر لهم ، فهؤلاء جميعاً لا يكلفون بالجهاد بالسيف ونحوه ، والمرضى منهم لا يكلفون بالصيام ونحوه مما ليس فى وسعهم ، حتى يزول عذرهم ، قال - تعالى - : «لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[1] » كما أنه ليس على هؤلاء ضيق فى أن يأكلوا مع الأصحاء ، وأن يأكل الأصحاء معهم ، حذرا من استقذارهم إياهم ، وتأذيهم بوجودهم أو بتصرفهم أثناء تناول

(١) سورة البقرة ، من آخر آية فيها .

الطعام بسبب أعذارهم[1] ، ما لم يكن بالمرضى أمراض معدية ، فعليهم أن يتركوا مخالطة الأصحاء فى الطعام ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا يوردَنَّ مُمْرِض على مُصِحٍّ » .

وينبغى لمن يؤاكلهم أن ييسر لهم تناول الطعام دون حرج ولا مشقة ولا شح ، وينبغى لهم أن يلتزموا الحكمة فى تناولهم الطعام مع سواهم .

وليس عليكم – أيها المؤمنون – ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من المساكن التى فيها أولادكم وأهلوكم ؛ فأولادكم منكم ، ونساؤكم سكن لكم ، ومودة ورحمة بينكم ، فلا عليكم أن تأكلوا من طعام مملوك لهؤلاء وأولئكم .

وليس عليكم ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوتكم ، أو أخواتكم ، أو أعمامكم ، أو عماتكم ، أو أخوالكم ، أو خالاتكم – ولو بدون إذن – إن كان الطعام مبذولا ، فإن كان داخل حرز ، فلا يحل لكم الأكل منه إلا بإذن منهم ، أو قيام أمارة على رضاهم .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا مما وليتم مفاتحه ورعايته وكنتم وكلاء فيه ، كالضياع ومرابض الماشية ، فلكم أن تأكلوا من ثمر الضياع ، وتشربوا من لبن الماشية على ألا تتوسعوا فى ذلك ، وليس لكم حق الادخار منه .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا فى بيت صديقكم من طعامه المبذول ، أو المحرز ولو بغير إذن ، إذا علمتم أن نفسه تطيب به لتفاهته ويسر مؤنته ، ما دمتم محافظين على المحارم ، والآن وقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل من بيوتهم بغير إذن منهم .

وقد أباح الله لكم الاجتماع على الأكل فى سفر أو حضر ، فليس عليكم إثم فى أن تجتمعوا على طعام اشتركتم فى ثمنه ، ولكم ألا تشتركوا وتأكلوا أشتاتاً متفرقين .

وإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت التى أبيح لكم الأكل منها ، فاستأذنوا على من فيها ، وسلموا عليهم ؛ فهم كأنفسكم لقرابتهم ، ولأخوتهم لكم فى الدين ، وقد شرع الله هذا

(١) روى أن العرب وأهل المدينة كانوا قبل البعث يتجنبون الأكل معهم ، لأن الأعمى تجول يده فى الصحفة ، ولسوء جلسة الأعرج ، وعدم خلو المريض من رائحة تؤذى .

السلام تحية من عنده ، ثابتة بأمره ، مباركة طيبة ؛ لأنها دعوة طيبة من المؤمن لأخيه المؤمن ، مباركة كثيرة الخير ، لما فيها من المودة والألفة وربط القلوب بعضها ببعض .

(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ) : على أمر من شأنه أن يجتمع له المسلمون ، كالإعداد للحرب ونحوه ، ووصف الأمر بأنه جامع على سبيل المجاز .

التفسير

٦٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ . . . .) الآية .

هذه الآية مستأنفة لبيان نوع من أرقى أنواع الأدب فى الإسلام ، وهو ألا ينصرف المؤمن من مجلس الرسول المعقود لأمر جامع ، إلا باستئذانه - صلى الله عليه وسلم - إذا كانت لديه حاجة ملحة إلى الانصراف من هذا الأمر الجامع .

وقد نزلت الآية فى شوال سنة خمس من الهجرة ، حين كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه يحفرون خندقاً حول المدينة لوقايتها من هجوم قريش ، وقائدها أبو سفيان

وغطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، و بنى مرة ، وقائدهم الحارث بن عوف المُرِّى ، وبنى أشجع وبنى سليم ، وبنى أسد ، وعدد هؤلاء جميعاً عشرة آلاف مقاتل ، وكان سلمان الفارسى هو الذى أشار على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بحفره ، ولم تكن العرب تعرفه من قبل .

وقد حفر فى شمال المدينة ؛ لأن هذه الجهة كانت مظنة هجوم الأعداء ، أما باقى الجهات فمشغولة بالبيوت والنخيل فلا يتمكن العدو من الحركة فيها .

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفره ؛ لأنهم كانوا فى غير سعة من العيش وقد عمل معهم النبى — صلى الله عليه وسلم — فكان يحمل التراب معهم ، وكان المنافقون يتسللون لواذا[1] من العمل ، أو يعتذرون بأعذار كاذبة ، فنزلت هذه الآية تنعى عليهم تسللهم ، وتشير إلى أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ، لتسللهم عن الجماعة دون استئذان من الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وهذا الحكم ثابت لحكام المسلمين فى الأمور الجماعية الخطيرة ، فإذا كان إمام المسلمين معهم أو مع أهل شوراه أو مع غيرهم لأمر يهم المسلمين ، فلا يحل لأحد أن يتسلل من الاجتماع دون إذن منه .

والمعنى الإجمالى للآية : إنما المؤمنون الصادقون هم الذين اجتمع فيهم أمران ، أحدهما : أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وثانيهما : أنهم إذا كانوا معه على أمر يقتضى اجتماعهم ، لم يذهبوا من مكان الاجتماع حتى يطلبوا الإذن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بذهابهم ، فمن خرج دون إذن منه ، فهو ناقص الإيمان ، إنَّ الذين يستأذنونك لبعض شأنهم صادقين ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا ، دون المنافقين المتسللين دون استئذان ، أو المستأذنين منهم بعذر كاذب ، كقولهم : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا[2] » فإذا استأذنك المؤمنون الذين تعلم صدقهم فى إيمانهم — إذا استأذنوك — لبعض شأنهم فائذن لمن شئت الإذن له منهم ، فإنك أعلم بمن تكون المصلحة فى بقائه معك منهم ، ومن لا ضرر فى التيسير له بالذهاب ، واستغفر لهم الله فى استئذانهم ، فإنه وإن كان لمصلحة ، لا يخلو

(١) أى : يلوذ بعضهم ببعض ويلجأ إليه فى التسلل .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ١٣

عن شائبة تقديم أمر الدنيا على الآخرة ، إن الله عظيم الغفران لفرطات عباده ، واسع الرحمة فى قبول أعذارهم .

(لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ) : أى لاتجعلوا نداءه . (يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) التسلل : الخروج على سبيل التدرج والاستخفاء ، واللواذ : التبعية واللجوء ، وقد يطلق على الفرار ، ومنه قول حسان بن ثابت :

وقريش تجول منا لواذا   لم تحافظ وخفَّ منها الحلوم

(يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) : أى يعرضون عن أمره . (فِتْنَةٌ) : محنة فى الدنيا .

التفسير

٦٣ ـ (لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . . .) الآية .

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان عظيم شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكريم قدره ، مقررة لما قبلها من وجوب استئذانه قبل الانصراف من مكان الاجتماع : أى لا تجعلوا نداءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنداء بعضكم بعضاً باسمه ، ورفع الصوت به ، وندائه من

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام - كما هنا - وهو مع الماضى يفيد التحقيق دائماً .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم - أيها المنافقون - من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه - صلى الله عليه وسلم - يخرجون - متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذَنُ له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب فى خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين الخروج من مجلسه - فليحذروا أن تصيبهم محنة فى الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام فى الآخرة .

٦٤ - (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجىء بعدها ، والمعنى : ألا إن لله وحده جميع ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، خلقاً وملكا وتدبيرا وعلما ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا فى إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه - أيها المكلفون جميعاً - من الأحوال التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه - سبحانه - للحساب والجزاء فى دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

« ســورة الفرقان »

مكية وآياتها سبع وسبعون

مقاصد السـورة :

بدأت هذه السورة بتنزيه الله الذى أنزل القرآن على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - وخَلَق السموات والأرض وكل شيء فيهما ، ثم نَعتْ على المشركين أنهم أشركوا به من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا ، كما نعت عليهم وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين ، مع أن الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض هو الذى أنزله ، كما نعَتْ عليهم إنكارهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وليس معه ملك يشاركه الإنذار ، ولأنه فقير وليس له جنة يأكل منها ، مع أن ذلك ليس قادحاً فى نبوته .

كما نعت عليهم تكذيبهم بالساعة ، وحكت أهوال النار التى سوف يصلونها ، وقارنت بينها وبين الجنة التى وعد بها المتقون ، ثم بينت أن المرسلين قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، فلا وجه لاعتراضهم على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأكله الطعام ومشيه فى الأسواق .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وأن الحكم يومئذ لله وحده ، وأن الظالم حينئذ يعض على يديه لعدم اتباعه الرسول ، وإيثاره أهل الضلال عليه .

ثم ذكرت أن المشركين قالوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، وأجابت بأنه أنزل على فترات لكى يثبته الله فى فؤاده - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولايكتب .

ثم تحدثت عن إرسال موسى وهرون إلى فرعون وقومه ، فلما كذبوهما دمرهم الله تدميرًا ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم لأنبيائهم ، وأن الله أهلكهم بسبب تماديهم فى تكذيب رسلهم .

ونعت على قريش أنهم أتوا على قرية قوم لوط ، وعلموا بإهلاكهم ، لتكذيبهم رسولهم ورفضهم نصائحه ، حيث أهلكهم الله بحجارة من سجيل أنزلها عليهم من السماء ، وذكرت أن قريشاً استمروا فى تكذيبهم واستهزائهم برسولهم قائلين : « أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً » وبينت أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، لأنهم لم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم .

وتحدثت عن الآيات الكونية الدالة على قدرة الله واستحقاقه العبادة وحده ، فذكرت أن ظل الأجسام فى النهار لا يبقى على حالة واحدة ، فإنه تعالى يمده ثم يقبضه شيئاً فشيئاً ، بإحلال ضوء الشمس محله ، ولو شاء الله لجعله ساكنا لا ينقبض ، بجعل الشمس ثابتة على وضع مائل دائماً ، وأنه جعل الليل كاللباس فى ستره الأجسام وجعل النوم راحة للأبدان تشبه الموت ، وجعل النهار نشاطاً لها يشبه البعث والنشور بعد الموت ، وأرسل الرياح ناشرات للسحاب بين يدى رحمته سبحانه ، حيث جعلها مبشرات بالمطر الذى هو من آثار رحمة الله ، إذ به يحيا الإنسان والنبات و الحيوان ، وبينت السورة أن الله صرف الحديث عن آياته فى كتبه السماوية « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا » .

ثم بينت أنه تعالى أرسل البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما حاجزا ، بحيث يؤدى كلاهما وظيفته فى مصالح الإنسان والحيوان و النبات .

وذكرت أنه تعالى خلق من ماء الزوجين بشرًا ، فجعل هذا البشر إما نسيباً وقريباً ، وإما صهرًا ، وكل ذلك دليل على قدرة الله ووحدانيته ، ومع هذه الآيات يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرًا .

ثم بينت أنه تعالى ما أرسل محمدًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا مبشرًا ونذيرًا ، وليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يسألهم على التبليغ من أجر إلا أن يسلكوا سبيل العبادة لله وحده ، وذلك شاهد على صدقه ونزاهته فى دعوته .

وحثت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أن يتوكل على الحى الذى لا يموت ، ويترك حساب الناس لربهم ، فإنه خبير بذنوبهم ، وأنه لا يضيق صدره بكفرهم وعنادهم :

وبينت أن قريشاً تنكر وصف الله بالرحمن « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا » .

ثم بينت أن عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض متواضعين ، وأنهم يسالمون من يجهل عليهم ويشاركونه ولا يجارونه فى سفهه ، ووصفتهم بأنهم يتعوذون بالله من جهنم ، وأنهم فى إنفاقهم يتوسطون بين التبذير والتقتير وأنهم لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون نفساً بغير حق ولا يزنون ،وأن من تاب منهم من ذنبه توبة نصوحاً فإن الله تعالى يقبل توبته وأنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم تأثروا بها ولم يخروا عليها صمًّا وعميانا ، وأنهم يطلبون من الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، ويجعلهم للمتقين إماما ، وأنهم يجزون الغرف العالية فى الجنة بصبرهم على طاعة الله ، ويُحَيَّوْن فيها بالسلام والأمان « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » وأنه تعالى لا يعبأ بعباده لولا عبادتهم ودعاؤهم إياه فإن كذبوا رسله فسوف يكون عذابه ملازما لهم . وسيأتى بيان ما أجملناه فى تفسير آياتها تباعا ، والله تعالى هو الموفق .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(تَبَارَكَ) : أى تعالى وتعاظم . ولا يستعمل من غير الله تعالى غالباً ولا يُتَصَرَّف فيه

(الْفُرْقَانَ) : المراد به القرآن ، وهو فى الأصل مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما ، سمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . (نَذِيرًا) : أى منذرا أو إنذارا كالنكير بمعنى الإنكار .

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) : أى فهيأه لما أراده له من الخصائص والأفعال تهيئة دقيقة . (نُشُورًا) : بعثا .

التفسير

١ ـ (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) :

افتتح الله هذه السورة بكلمة (تَبَارَكَ) وهى مأخوذة فى الأصل من البركة بمعنى كثرة الخير ، وقد فسرها الحسن وغيره بقوله : تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر ، وفسرها آخرون بقولهم : تزايد وتعالى شأنه على كل شىء فى ذاته وصفاته وأفعاله . فإن البركة تستلزم الزيادة والعلو . وفسرها الخليل بمعنى تمجد ، وهو قريب من سابقه .

وترتيب وصفه تعالى بقوله (تبارك) على إنزاله القرآن ، لما فيه من الخير الكثير لعباده فى الدنيا والآخرة ، ولأنه ناطق بعلو شأنه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وتسمية القرآن بالفرقان ، لأنه فرق بين الحق الذى جاء به نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وبين ما عليه الناس قبله من العقائد الزائفة ، والشرائع الفاسدة ، وشرع لهم من الأحكام ما يناسب مصلحة البشر فى دنياهم وأخراهم ، وقد جاء فى وصف عظمة القرآن قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن هذا القرآن مَأْدَبَةُ الله[1] ، فتعلموا من مَأْدَبَته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يَعْوَجُّ فيُقَوَّم ولا يَزيغ فيُسْتَعْتَب[2] ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد[3] ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أَمَا إنى لا أقول : (ألم) حرف ، ولكن ألف ولام وميم ، ولا أُلْفِيَنَّ أحدَكم واضعاً إحدى رجليه يَدَعُ أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفِرُّ من البيت الذى تُقْرَأُ فيه سورة البقرة ، وإن أَصْفَرَ البيوت[4] لَجَوْفٌ صَفِر[5] من كتاب الله » أخرجه الحاكم وصححه بسنده عن ابن مسعود ، وكذا محمد بن نصر وابن الأنبارى والطبرانى وغيرهم .

والمراد بعبده : نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن رسالته إلى الناس كافة لا تخرجه عن العبودية لله الذى أرسله ، وأن من يَدعى الولدية لله فى رسول أرسله الله إليه ، فهو كافر ، فإنه سبحانه «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .
والمراد بالعالمين : الإنس والجن ، منذ عصره -صلى الله عليه وسلم- إلى أن تقوم الساعة ، ومن أنكر إرساله -صلى الله عليه وسلم- إلى الجن فقد كفر ، فإنه معلوم من الدين بالضرورة ، لشمول العالمين لهم ، ولما تدل عليه سورة الجن من أنه تعالى أرسله إلى الجن ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون ، قال تعالى حكاية عن الجن الذين استمعوه : «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

(١) أى : مصدر لأدبه تعالى لعباده .
(٢) أى : ولا يميل عن الحق فيلام على ميله .
(٣) أى : لا يبلى على ترداد قراءته .
(٤) أى : أشدها خلوا من الخير .
(٥) أى : خلا .

أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[1] إلى غير ذلك مما جاء في سورة الجن وفي السنة الصحيحة .

والمعنى الإجمالي للآية : تعالى الله الذى أنزل على عبده ورسوله محمد القرآن ، فارقاً بين الحق والباطل ، ليكون به منذرا للعالمين من الإنس والجن ، ومخوفا لهم من العقاب إن كفروا بآياته ، وعبدوا غيره .

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) :

المراد بخلقه كل شيء إيجاده ، وبتقديره تهيئته لما خلق له من الخصائص .

ومعنى الآية : هو الله الذى له السلطان القاهر ، والاستيلاء التام على السموات والأرض وما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً ، إيجادًا وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيًا ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وليس لغيره فى ذلك شريك أو معين ، وأوجد كل شيء فيهما إما من العدم أو من مواد لا ثقة بخلقه ، فقدره وهيأه وهداه لما أراده منه من الخصائص والأعمال ، كتهيئته الإنسان وهدايته للإدراك والفهم والتدبير ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، واختراع الفنون العجيبة ، ومزاولة الأعمال المختلفة ، وتسخير الحيوانات واستزراع المزروعات ، والانتفاع بالجمادات وغير ذلك من عجائب الله فى تقدير الإنسان .

وكتهيئته النحل لاتخاذ مأوى لها فى الجبال والشجر والعرائش ، والتعرف بحواس داخلية على أماكن الزهور والثمار ، فتطير إليها ، وتمتص رحيقها وتأكل من ثمراتها فيتحول غذاؤها إلى عسل شهى مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، فتلقيه فى بيوت هندسية مسدسة الأضلاع ، صنعتها من شمع تفرزه لبنائها « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

٣ ـ (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) :

تحكى هذه الآية أباطيل المشركين فى عقائدهم وتبين وجه بطلانها ، بعد بيان عقيدة أهل الحق فيما قبلها .

---

(١) سورة الجن ، الآيات : من ١٣ — ١٥

ومعنى الآية : واتخذ المشركون آلهة غير الله تعالى ، عبدوهم وهم لا يستحقون العبادة ، فهم لا يخلقون شيئاً صغيرا كان أو كبيراً ، ولكنهم مخلوقون لله رب العالمين ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ، والذى يضرهم وينفعهم هو الله القدير العليم ، ولا يملكون لأحد موتاً حتى يميتوه ، ولا حياة فى الدنيا حتى يحيوه ، ولا يملكون له نشوراً وبعثاً فى الآخرة حتى يبعثوه وينشروه ، وإنما الذى يملك ذلك كله هو الله تعالى ، فكيف استساغوا عبادتها؛ وهى مجردة من صفات الألوهية واستحقاق الربوبية .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾)

المفـردات :

(إِفْكٌ افْتَرَاهُ) : كذب اخترعه . (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) : أَباطيلهم التى سطروها ، وهى جمع أُسطورة ـ كأَحاديث جمع ، أُحدوثة أَو جمع أَسطار ، كأَقاويل جمع أَقوال .

(اكْتَتَبَهَا) : طلب كتابتها . (فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ) : تلقى إليه ممن كتبها ليحفظها .

(بُكْرَةً) أى : أَول النهار قبل انتشار الناس . (وَأَصِيلاً) : آخر النهار بعد أن يأْووا إلى مساكنهم ، والبكرة : أَول النهار ، والأَصيل : ضدها ، يعنون أَنها تملى عليه خفية ، وقد كذبوا فى ذلك كله ـ قاتلهم الله ـ . (السِّرَّ) : الأَمر الخفى المكتوم عن الناس .

التفسير

٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) :

بين الله فى الآية السابقة سوء رأى المشركين باتخاذهم آلهة لاتضر ولا تنفع ، وجاءت هذه الآية لتبين سوء مقالهم فيما جاءهم به نبيهم من الهدى .

والقائلون هم مشركو العرب ، كما أخرجه جماعة عن قتادة ، وقد سمى منهم - فى بعض الروايات - النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، وإسناد القول إلى جميع المشركين ، لرضاهم بما قاله هؤلاء الغلاة المفترون .

وقد ضموا إلى هذه الفرية فرية أخرى ، إذ قالوا إن محمدا قد أعانه على ما جاء به من القصص القرآنى قوم آخرون ، يعنون بهم اليهود ، حيث زعموا أنهم أخبروه بهذا القصص ، فعبر عنه بعبارة من عنده ، ومنهم من زعم أن الذين أعانوه هم : عداس ، وعائش مولى حُوَيْطِب بن عبد العزى ، ويسار : مولى العلاء بن الحضرمى ، وجبر مولى عامر ، وكانوا كتابيين يقرءون التوراة ، أسلموا وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يتعهدهم بالبر والنصح والهدى ، فافترت قريش هذه الفرية النكراء ، وقد كذبهم الله فيما زعموا .

ومعنى الآية : وقال المشركون الكافرون بالهدى : ما هذا القرآن الذى يدعونا محمد إلى الإيمان به ؛ إلا كذب اختلقه محمد من عند نفسه ولم يأته من عند ربه ، وأعانه على افترائه على الله قوم آخرون يعرفون قصص الأنبياء مع أممهم ، حيث سردوا عليه تلك القصص ، فصاغها بعبارة من عنده ، وأسند الإعلام بها إلى ربه ، وقد جاء هؤلاء الكافرون بما قالوه ظلماً للحق وكذباً شنيعاً على محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن هذا القرآن لا يستطيع أن يأتى بمثله الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولا يقدر على الإتيان بمثله سوى من أنزله على رسوله ، بما اشتمل عليه من الإعجاز البيانى ، والأحكام التشريعية ، والأخلاق السنية ، والحكم الربانية ، والأخبار الغيبية ، والآيات الكونية ، وامتلاكه نواصى القلوب بأسلوبه ، فأنى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- أن يأتى بمثله ، وهو أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ،

وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وعدم اشتغاله بالأدب المنثور ، والشعر الموزون ، ولم يعرفوا عنه حب الرياسة والجاه ، ولا عن أهل الكتاب أنهم يعينون غيرهم على هدم دينهم ، ولا عن أولئك العبيد والموالى أنهم يحسنون فهم الكتب السماوية أونقل ما فيها إن صح أنهم يحفظونها «لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ » وقد لبث الرسول فيهم عمرا طويلاً من قبله يعمل بالتجارة ، دون أن يتجه إلى تلك الدعوة التى فوجئ بتكليفه بها ، وهو لا يسألهم عليها أجرا ، ولا يطلب بها جاهاً ، ولا ثراءً فما بالهم لا يعقلون .

٥ ـ (وَقَالُوٓا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

بعد ما جعلوا القرآن الحق إفكا من محمد بإعانة البشر له ، بينوا كيفية الإعانة التى زعموها ؛ أى وقال الكافرون : هذا القرآن أباطيل الأولين طلب محمد كتابتها من أهل الكتاب ، فكتبوها له ، فهى بعد تحريرها تملى عليه بكرة أول النهار ، وأصيلاً آخر النهار ، حتى لايراه أحد وهى تملى عليه حيث يكون الناس فى بيوتهم ، لكى يحفظها ممن يمليها عليه .

وقيل : المراد من قولهم : « بُكْرَةً وَأَصِيلاً » : أى دائماً ، وقد كذبوا فى كل ذلك ، ولهذا رد الله عليهم بقوله :

٦ ـ (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

أى قل لهم أيها النبى ردا عليهم : أنزل هذا القرآن اللهُ الذى يعلم الخفى من الأمور فى السموات والأرض مثلما يعلم الظاهر منها ، وقد أودعه من فنون الأسرار والمصالح الخفية مالا علم لأحد به ، فى أسلوب بديع ونظم فريد أعجزكم وأعجز جميع الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثله ، وأخبركم بمغيبات مستقبلة مكنونة ، لا سبيل لأحد أن يعلمها إلا بوحى من ربه ، إن الله الذى أنزل هذا القرآن ، كان ولا يزال موصوفاً بعظيم الغفران والرحمة ، ولهذا أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على هذه الفرية النكراء ، لعلكم تتوبون فيغفر لكم ويرحمكم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »

(وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾)

المفردات :

(جَنَّةٌ) : أى بستان . (رَجُلاً مَّسْحُورًا) : أى رجلا سُحِر فغلب السحر على عقله .
(ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) : ذكروا فى حقك تلك الأقاويل الغريبة ؛ التى لا تمت إلى الحق بصلة
(فَضَلُّوا) : فبعدوا عن طريق الحق .

التفسير

٧ ـ (وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ . . . .) الآية .

أخرج ابن إسْحٰق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحرث ، وأبا البحترى والأسود ابن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنَى الحجاج ؛ اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلموه وخاصموه[1] حتى تعذروا منه ،

(١) أى : جادلوه .

فبعثوا إليه ؛ أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نُسوِّدُك ، وإن كنت تريد الملك ملكناك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مابى مما تقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله عز وجل بينى وبينكم ، قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك فَسَلْ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك « وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ . . . . » الآيات[1] .

والمعنى : أنهم بعد ما افتروا على القرآن ما افتروه قالوا : أى سبب لهذا الذى يزعم أنه رسول جعله يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعياً على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولاً من عند ربه لخالفنا فى أسلوب معاشنا ، فَهَلاَّ مَيزه الله علينا فأَنْزَلَ معه ملكاً يكون معه نذيرا لنا ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ ـ (أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

أى : فإن لم ينزل الله عليه ملكاً يظاهره فى الرسالة ، فهلا يلقى إليه ربه من السماء مالاً يكتنزه ، ليستظهر به ويرتفع احتياجه إلى اكتساب قوته من السعى فى الأسواق مثلنا ، فإن لم يوجد هذا ولا ذاك فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بريعه كمياسير الناس ،

(١) نقله الآلوسى .

ويمتاز به على عامَّتهم وقال هؤلاء الظالمون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلاً مسحورا مغلوباً على عقله وليس بنبى ، فرد الله عليهم مستعظما لإفكهم ، داعياً للتعجب منه بقوله :

٩ ـ (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) :

أى : انظر أيها الرسول كيف قالوا فى حقك هذا الكلام المخالف للواقع ، المنافى للصدق ، حيث ضربوا لك الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات ، فضلوا بها عن الحق والهدى ، متحيرين فيما يصفونك به ، فلا يستقرون فى القدح فى نبوتك على حال ، ولا يستطيعون أن يجدوا طريقا للنيل منها بحال ، فإن الحق يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ ويعلو ولا يُعلى .

١٠ ـ (تَبَارَكَ الَّذِىٓ إن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل[1] لَّكَ قُصُورًا) :

أى : تعالى الله الذى إن شاء التوسعة عليك فى الدنيا ، جعل لك خيرا من ذلك الذى اقترحوه بساتين تجرى من تحتها الأنهار لا بستانا واحدا ، ويجعل لك قصورا عديدة تتمتع بها ، ولكنه ادخر لك الخير كله بجميع صوره فى الآخرة بعد قيام الساعة التى كذبوا بها

وقد حكى الله تكذيبهم وتوعدهم عليه فى الآيات التالية :

---

(١) « يجعل » يجعل : مضارع مجزوم معطوف بالواو على محل « جعل » فإنه فى محل جزم جواب الشرط وإن كان مبنيا على الفتح لكونه فعلا ماضياً ، وقرىء بالرفع ، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى جوابه الجزم والرفع ، كقول الشاعر : وإن أتاه خليل يوم مسغبة . . يقول لا غائب مالى ولا حرم — ويجوز أن يكون استئنافاً .

(بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(السَّاعَةِ) : المراد بها زمن قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية ؛ أنه تعالى يفجأُ بها الناس فى ساعة لا يعلمها إلا هو . (سَعِيرًا) : نارا شديدة الاستعار : أى الاتقاد .

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) :أى سمعوا لغليانها صوتاً يشبه صوت المتغيظ والزافر.والتغيظ: هو إظهار الغيظ.والغيظُ : أشد الغضب ، والزفير : إخراج النَّفَس ، وضده : الشهيق ، واستعمال الزفير فى صوت النار مجاز . (أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا) : أى ألقوا من النار فى مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) : أى نادوا فى ذلك المكان هلاكاً لينقذهم من عذابه .

(لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) : لاتنادوا فى هذا اليوم هلاكاًواحدا ليخلصكم مماأنتم فيه .

(وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) : أى ونادوا هلاكاً كثيرا ، ليخلصكم كل منها من نوع من أنواع العذاب ، فإن أنواعه كثيرة ، وسيأْتى بسط الكلام فى معنى الآية عند تفسيرها .

التفسـير

١١ ــ (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) :

فى هذه الآية انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم يتعلق بأمر المعاد ، بعد حكاية إشراكهم وطعنهم فى النبوة .

والمعنى : ليس أمر قريش قاصرا على شركهم؛ وتكذيبك يامحمد فيما دعوتهم إليه من التوحيد وسائر أنواع الهدى، بل كذبوا بالساعة وهى : الموعد الذى ضربه الله لبعث الخلائق وحسابها . وقالوا (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[1] فاهتموا بدنياهم وأعرضوا عن أخراهم، فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق وقد أعددنا لكل من كذب بالساعة والحساب والجزاء فيها - أعددنا لهم - نارا شديدة الاتقاد ، عظيمة الإحراق « لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ » . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »[2] .

١٢ - (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) :

تحكى هذه الآية وصف السعير الذى توعدهم الله به فى الآية السابقة ، والتأنيث فى « رأتهم » لمراعاة المراد من السعير وهو النار ، وقيل: لأنه علم لها . وإسناد الرؤية والتغيظ والزفير إليها على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، كما يؤذن به ظاهر اللفظ ، لأن الله قادر على أن يجعل لها بصرا وإدراكاً ، بحيث ترى وتتغيظ وتزفر ، على نحو ماقالوه فى نحو قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ومعنى الآية : إذا كان الكافرون بمكان بعيد مكشوف أمام النار ، سمعوا لاتقادها صوتاً مزعجاً كالذى يحدث من المغتاظ ، وسمعوا لها صوتاً يشبه الزفير الذى يحدث من الموتور الذى يتنفس الصُّعَدَاءَ[3] حين يظفر بخصمه .

١٣ - (وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) :

أى : وإذا أُلقى الكفار بالساعة فى مكان ضيق من النار وهم مقرنون ، بأن جمعت أيديهم إلى أعناقهم بما يجمعها - إذا أُلقوا فيها كذلك - دعوا فى هذا المحبس النارىّ هلاكاً يخلصهم من عذاب النار المحيطة بهم ، كأن يقولوا : يا ثبوراه - على معنى . هلم إلينا لتنقذنا مما نحن فيه ، وجعل بعض الأجلة دعاء الثبور ونداءه ، كناية عن تمنيهم الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه - كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية : ٣٧ (٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨ (٣) يرزن البرحاء : تنفس طويل .

١٤ - (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) :

ما جاء فى هذه الآية إما مقول لهم بلسان الملائكة ، وإما مقول بلسان الحال .

والمعنى : يقال لهم : لا تنادوا الثبور اليوم نداء واحدا ، لكى ينقذكم من عذابكم ولكن ادعوه ونادوه نداء كثيرا ، فإن ما أنتم فيه لغاية شدته واستمراره ؛ يستوجب منكم تكرار الدعاء فى كل آن ، وعلى هذا الرأى يكون الثبور ، : أى الهلاك المطلوب واحدا ولكن الدعاء به كثير .

وقيل معناه : وادعوا هلاكا كثيرا ، لا هلاكاً واحدا ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ، فهم بحاجة فى كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه ، وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون فى النار أبدا ، فالمقصود من الآية : إقناطهم من النجاة ، وأن دعاءهم برفع العذاب لا ينتهى .

(قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(الْخُلْدِ) : المكث الطويل .

(مَصِيرًا) : مُنتَهى ومآلا .

(وَعْدًا مَّسْئُولاً) : أى موعودا يسأل الناس ربهم أن يتفضل بإنجازه - وللكلام بقية فى تفسير الآية .

التفسير

١٥ - (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا) :

قل أيها الرسول لمن كذبوك فى رسالتك ، وكفروا بالساعة التى يبعث فيها الناس لرب العالمين - قل لهم - : أذلك الذى تقدم من السعير وأهوالها وخلود الكافرين فيها ، وتمنيهم الهلاك والموت ليستريحوا منها - أذلك خير - أم جنة النعيم الخالد التى وعدها الله المتقين الذين صانوا أنفسهم وجعلوها فى وقاية من عذابها الأليم الدائم ، بإيمانهم وصلاحهم ، كانت لهم هذه الجنة فى علم الله تعالى وفى وعده على ألسنة رسله - كانت لهم - جزاء على إيمانهم ، ومنتهى يصيرون إليه بصلاحهم .

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً) :

هذه الآية مستأنفة لبيان منهج انتفاع المتقين بنعيم الجنة ، وكأنها جواب سائل يقول : ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوها ؟

والمعنى : لهؤلاء المتقين فى هذه الجنة التى يصيرون إليها ، ما يشاءون من ألوان النعيم المناسبة لهم ، على قدر أعمالهم ودرجتها ، حتى لا يتساوى المقصرون بالكاملين ، فكل طبقة تقتصر مشيئتها على ما هو حق لها بمقتضى وعد الله الكريم ، فلا تمتد رغباتهم إلى ما هو حق لغيرهم ، يظلون فى جنتهم خالدين لا يَخْرُجون منها ولا يُخْرَجُون ، كان ذلك النعيم المقيم موعودا حقيقًا أن يُسْأل ويطلب ، لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ويجوز أن يكون الموعود مسئولاً حقيقة على معنى أن الناس يسألونه فى دعائهم بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَاوَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقال سعيد بن هلال : سمعت أبا حازم -رضى الله عنه- يقول : إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون : عملنا لك بما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله تعالى : « وَعْدًا مَّسْئُولاً » وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق أبي سعيد هذا ، عن محمد بن كعب القرظى أنه قال فى الآية : إن الملائكة لتسأل ذلك فى قولهم : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم . . . » .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره -صلى الله عليه وسلم- ، لتشريفه والإشارة إلى أنه هو الفائز بهذا الوعد لأمته ، والآية تدل على وجوب تحقق وعده الكريم بمقتضى

وعده ، لقوله سبحانه : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً » ووعد الله لا يتخلف ، وليس لأحد عنده تعالى حق ذاتي على عمله ، فالله تعالى هو الذى خلقه وأقدره على العمل ، وإنما ذلك بمحض فضل الله ووعده الكريم .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(ضَلُّوا السَّبِيلَ) : بعدوا عن الطريق الموصل إلى الله تعالى .

(مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا) : ما كان يصح لنا . (أَوْلِيَآءَ) : آلهة يلون أمرنا .

(نَسُوا الذِّكْرَ) : غفلوا عن ذكرك لغفلتهم عن آياتك .

(قَوْماً بُورًا) : قوماً هالكين ، وبورا مصدر وصف به القوم ، ويستوى فيه الواحد والجمع ، وقيل : هو جمع بائر ، كعائذ وعوذ ، والعائذ : الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل .

(صَرْفاً) : دفعاً للعذاب ، أو : حيلة من قولهم : إنه ليتصرف أى : يحتال .

التفسير

١٧ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) :

هذه الآية وما بعدها مسوقة لتذكير المشركين بمسئوليتهم يوم القيامة عن ضلالهم دون من عبدوهم ، وأن معبوداتهم تتبرأ من شركهم ، والمراد مما يعبدون من دون الله :جميع معبوداتهم من الأصنام ، والكواكب ، والملائكة ، وعزير ، والمسيح ، وغيرهم .

واستعمال لفظ (ما) فى العقلاء تغليباً لجانب غيرهم لأنهم أكثر معبوداتهم ، أو لأنها قد تستعمل مع أهل العلم، كقوله تعالى : « وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا » أى : ومن بناها وهو الله تعالى ، وسؤاله تعالى للمعبودات ليس على حقيقته ، فإنه أعلم بما كان منهم ، بل لتوبيخ عابديهم وإفحامهم .

والمعنى : واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يجمعهم الله ومن أشركوهم فى العبادة مع الله ، فيقول سبحانه للمعبودين إفحاماً لعابديهم ، وإلزاماً لهم بمسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم : أأنتم أيها المعبودون أضللتم عبادى هؤلاء عن الحق بدعوتهم إلى عبادتكم معى ؟ أم هم انحرفوا عن السبيل إلى مرضاتى بمحض إرادتهم ؟ حيث كذبوا رسلى ، وأهملوا النظر فى آياتى .

وتوجيه السؤال إلى الجمادات لا مانع منه عقلاً ولا شرعاً ، فالله قادر على أن يخلق فيها إدراكاً تعرف به السؤال ، ويجعل لها صوتاً تجيب به على هذا السؤال ، قال تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أى : رجِّعى التسبيح مع داود والطير ، وقال : « حَتَّىٰٓ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ » .

١٨ - (قَالُوا[١] سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ)[٢] :

---

(١) عبر بقالوا مع أنهم سيقولون ذلك يوم القيامة ، للإيذان بتحقيق جوابهم هذا يوم الدين ، فكأنه وقع فعلا فعبر عنه بصيغة الماضى .

(٢) لفظ (من) فى قوله (من أولياء) صلة لتأكيد النفى ، وكثيراً ما يؤتى بها بعد النفى لتأكيده ، وأولياء مفعول نتخذ .

أى : يقول هؤلاء المعبودون يوم يحشرهم وعابديهم جواباً لسؤال المولى لهم : «أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » يقولون : متعجبين مستنكرين : تنزيها لك يا ألله عن الشريك والنظير ؛ ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتخذ أولياء نعبدهم متجاوزين إياك . فكيف يصح منا أن نحمل غيرنا على أن يَتخذ ولياً غيرك ، فضلاً عن أن يتخذنا له أولياء .

ويصح أن يكون المعنى : ما كان يصح لنا أن نتخذ من دونك أتباعاً ، فإن الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ، ومنه أولياء الشيطان ، أى : أتباعه .

وبعد أن برأوا أنفسهم من تبعة إضلال عابديهم عن الهدى ، استدركوا مبينين . مسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم قائلين :

(وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً) :

أى : ما أضللناهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها ، فاستغرقوا فى الشهوات وانغمسوا فيها ، حتى غفلوا عن ذكرك ، وشكرك ، والإيمان بتفردك بالربوبية ، وعبدوا غيرك ، وكانوا فى علم الله قوماً هالكين ، بسبب سوء اختيارهم ، وانشغالهم عن الحق بالباطل .

١٩ - (فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) :

فى هذه الآية صرف الله الخطاب عن المعبودات ، ووجهه للعابدين : فالآية حكاية لاحتجاج الله عليهم يوم القيامة ، مبالغة فى تقريعهم وتوبيخهم .

أى : فقال الله تعالى للعابدين : قد كذبكم المعبودون فيما تقولونه من زعمكم ألوهيتهم ، وأنهم حملوكم على عبادتهم ، فما تملكون صرفاً للعذاب عن أنفسكم ، ولا عوناً يخلصكم منه إذا نزل بكم ، ومن يظلم نفسه منكم أيها المكلفون بعبادة غير الله ، أو بأى لون من ألوان الكفر ، نذقه فى الآخرة بالنار والزمهرير عذاباً كبيراً لا يقادر قدره .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

(فِتْنَةً) : امتحانا وابتلاء . (أَتَصْبِرُونَ) : علة لجعلنا – أى : جعلنا بعضكم فتنة لبعض لنعلم أيكم يصبر ، ونظيره ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، ويجوز أن يكون حثًّا على الصبر على الفتن .

التفسير

٢٠ – (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ)[1] :

هذا جواب آخر عن قولهم « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » وقد سبق الجواب عنه بقوله سبحانه : « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً » وبقوله : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » .

ومن فوائد هذا الجواب تسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – روى عن ابن عباس أنه قال : لما عير المشركون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالفاقة وقالوا : « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ . . . » الآية ، حزن النبى – صلى الله عليه وسلم – لذلك ، فنزلت هذه الآية تسلية له .

والمعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدا من المرسلين ، إلا وحالهم أنهم مثلك يأكلون الطعام ليغذوا به أجسامهم ، ويمشون فى الأسواق للتجارة وكسب الرزق ، وليس ذلك منافياً

(١) جملة « إنهم ليأكلون الطعام » وماعطف عليها فى محل النصب على الحال ، وهى مستثناة من أعم الأحوال ، أى : وما أرسلنا قبلك رسلا من المرسلين فى حال من الأحوال ، إلا وإنهم ليأكلون .. إلخ : نقله الآلوسى عن ابن الأنبارى ، واستحسنه أبو حيان ، وتقدير الواو قيل لأن الفصيح عدم الاكتفاء بالضمير ، ومنهم من قال إن ما فى الآية هو الفصيح بعد إلا فيكتفى بالضمير بدون الواو ، وفى إعرابها كلام كثير وما قلناه أفضله .

لرسالتهم ، بل هو من الصفات الفاضلة ، والأخلاق العالية ، والآيات الواضحة على أنهم صادقون فى رسالتهم عن الله ، لا يبغون بها جاهاً ، ولا يطلبون عليها أجرا ، ولا يكونون بها عالة على أتباعهم .

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى »[1] وقوله سبحانه : « وَمَاجَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ »[2] .

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) :

الخطاب هنا لجميع الخلائق وفيهم الأنبياء ، والمعنى : وجعلنا بعضكم لبعض فتنة وابتلاء أيها الناس فابتلينا الفقراء بالأغنياء لننظر أيصبرون أم يضجرون والأغنياء بالفقراء لنرى أيحسنون أم يبخلون؟ وابتلينا الأنبياء بأممهم ليصبروا على مشاق تبليغهم ومعاداة المصرين على كفرهم ، وهكذا جميع الطوائف المتقابلة ، نبتلى بعضهم ببعض؛ لننظر ماذا يعملون ؟ فنجزيهم على عَمَلهم لا على عِلْمنا بهم ، ولو شئنا أن نجعل الناس أمة واحدة لفعلنا ، ولكن الحكمة جرت فى ابتلائهم بتخالفهم وتنوعهم .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « يقول الله : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك »[3] وفى مسند أحمد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب و الفضة » وفى الصحيح أنه -صلى الله عليه وسلم- خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبدا رسولاً ، فاختار أن يكون عبدا رسولا[4] .

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) : أى عالما بالصواب فيما يبتلى به عباده ، فلا تضيقنّ بما يقولون ، ولا يستخفنك ، ما يفعلون ، وسوف يجازيهم بما يظهرون وما يضمرون .

هذه الآية أصل فى تناول الأسباب ، وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك من الأسباب ، وكان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتجرون ويحترفون ، والإسلام لا يقر الناس على البطالة واعتماد بعضهم على بعض فى العطاء .

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٩ (٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٨

(٣) مسلم : كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار . (٤) انظر ابن كثير .

وأما أصحاب الصُّفَّة الذين كانوا يقيمون فى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يسعون فى الأرض مسترزقين ، فقد كانوا ضيفاً على الإسلام عند ضيق الحال ، فكان - صلى الله عليه وسلم - ، إذا أتته صدقة خصهم بها ، وإذا أتته هدية أكلها معهم ، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما وصفهم البخارى وغيره - ثم لما افتتح الله على المسلمين البلاد ، أخذوا بالأسباب . فأصبحوا أمراء ، وهناك ناس يميلون إلى البطالة وترك الأسباب ، استنادا إلى قوله تعالى : « وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » وهذا من سوء التأويل احتجاجاً لبطالتهم ، فالمراد بالرزق هنا المطر[1] وقد تفضل الله سبحانه بضمانه للناس ، لأنهم لا قدرة لهم عليه ، وقد أجمع أهل التأويل على أن المراد منه ماذكر بدليل قوله تعالى : « وَمَا يُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً » ، ولم يشاهد أحد أن الله تعالى ينزل على الناس من السماء أطباق الخبز ، ولا جفان اللحم ، بل الأسباب أصل فى كل ذلك ، وقد أمر الله بالأخذ بها فى قوله جل وعلا : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » أى : بالحرث والحفر والغرس ، وقال أيضاً : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه » .

أما حديث « لو أنكم كنتم تَوَكَّلون على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » فلا يصح الاستدلال به على البطالة مع التوكل على الله ، فإن غدوها ورواحها سبب لحصولها على رزقها ، فالتوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا » ولم ينقل عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضوان الله عليهم - أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد وكانوا المتوكلين على الله حقاً ، والتوكل : اعتماد القلب على الرب مع الأخذ بالأسباب فى تحصيل الأرزاق ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وفى ختام الحديث عن هذه الآية نقول : سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل ، فقال : إنى أريد أن أحج على قدم التوكل ، فقال : اخرج وحدك ، فقال : لا ، إلا مع الناس ، فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم ، و الله تعالى أعلم .

---

(١) ويقول بعض العلماء إن تسميته رزقاً على سبيل المجاز لأنه سببه أو يؤول إليه ، فالمطر سبب للرزق من النبات والثمار واللحوم ، أو يؤول إليها .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٤١٢٠ س ١٩٨٢ - ٤٠٠٢٥

